في الوطن العربي

المملكة - مصر - السودان - الشام - العراق
اليمن - الإمارات - عمان - قطر - البحرين - الكويت

(٢) من رحلات

حمد الجاسر

منشورات مجلة «العرب» هاتف ولاقط ٤٦٢١٢٢٣ ص ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١
المملكة العربية السعودية

في الوطن العربي

المملكة - مصر - السودان - الشام - العراق
اليمن - الإمارات - عمان - قطر - البحرين - الكويت
من رحلات

(٢) من رحلات
حمد الجاسر

منشورات مجلة «العرب» هاتف ولاقط ٤٦٢١٢٢٣ ص ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١
المملكة العربية السعودية

ⓒ دار اليمامة للبحث والنشر ، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجاسر، حمد
إطلالة على العالم الفسيح - ج٢ - الرياض.
٤١٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك ٢ -٢-٩١٩٧-٩٩٦٠
١- أدب الرحلات · أ - العنوان
ديوي ٩١٠،٤١ ١٩/٠٨٥٨

رقم الإيداع : ١٩/٠٨٥٨
ردمك : ٢-٢-٩١٩٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

وماذا سأعرضه في هذه الأوراق؟!

حديث المرء عن نفسه – وإن لم يكن مستساغًا ولا حسنًا، ولا سيما إذا كان فيما يبرزها – طبيعةٌ بشريةٌ، قَلَّ من يتحلَّى بالتَّخَلِّي عنها، وكثير من البشر من يهوى التطلع لمعرفة ما يجهل من أحوال الآخرين، بل تبلغ به الرغبة للتعمق في ذلك بمحاولة الكشف عما يحاولون إخفاءه من أمورهم، وخصائص طباعهم، أيًّا كانت بمختلف الوسائل، بل قد يبلغ به الأمر إلى حدّ التزيد في إظهارها على ما عرف منها.

وبرغبة من بعض الإخوة، بصرف النظر عن بواعثها، إلا أنني قبلتها بل استحسنتها، لما عرفت عنه[1]، وبإلحاح منه، وكان مشرفًا على توجيه جهة تعني بالأدب وبشؤون المعرفة بصفة عامة، قدمت له طائفة مما سبق أن نشرته في مجلة «العرب» عن بعض رحلاتي إلى تركيا ومصر وغيرهما من البلاد، في فترات متباعدة من الزمن، بوصف ما اطلعت عليه من المخطوطات العربية، دون تنسيق أو ترتيب أو محاولة استقصاء لمواضع قد يوجد فيها بعض تلك المخطوطات، فتولت نشر ذلك (جمعية الثقافة والفنون)[2] بعد إقرار المشرفين على إدارتها استحسانه، ولعله وجد إقبالاً من قرائه، حيث رغبت الحصول بعد فترة وجيزة على نسخ منه من تلك الجمعية. فقيل لي إنه نفد، ففكرت في إعادة طبعه.

ولعل ذلك مما حفزني لجمع ما تيسر لي جمعه مما يتعلق ببعض أسفاري لمختلف البلاد، بعد تقدم العمر، وضعف العزم، وفتور الهمة، بل العجز عما هو بحاجة إليه من مراجعة، وإعادة نظر، وحسن اختيار وترتيب، إلا أنني –تخفيفًا على القارئ– رأيت تجزئته، بإفراد ما يتعلق بالبلاد العربية عما له صلة بالبلاد الغربية –ومنها البلاد الأمريكية– وغيرها.

كانت الحوافز للأسفار إلى تلك البلاد تختلف، فبينما هي في الأسفار إلى أوربة

---

(١) هو الأستاذ أبو عبدالرحمن محمد بن عمر بن عقيل الظاهري.

(٢) باسم «للبحث عن التراث» من رحلات حمد الجاسر سنة ١٤٠٠ (١٩٨٠م) في صفحة ٤٠٩.

وامريكة، والشرق الأقصى في أغلبها - لبواعث مادية، كالعلاج والسياحة وإشباع نهمة التطلع، إذ هي في هذا القسم الذي بين يدي القارئ لا تقف عند حد الصلات القوية، بل لها من الارتباط الروحي أقوى أثر، وأعظم باعث للسفر إليها لمعرفة أحوالها، وتقوية أواصر الأخوة بأهلها، ولاستزادة المعرفة بالاتصال بعلمائها ومثقفيها، وزيارة محافل العلم فيها، وكذا في القسم المرتبط به بالاسم والموضوع عن بقية الجزء الحبيب من الوطن العربي، المتعلق بزيارة ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وما أتمكن من السفر إليه من بقية البلاد، إن نسأ الله الأجل، وقوي العزم، فالأمل طويل عريض، والعمل والعمر ضعيف وقصير!

سوف لا يجد القارئ فيما بين يديه سوى لمحات موجزة، قاصرة عما ينبغي إيضاحه عن تلك البلاد مما يتطلع إليه، وما اعتاد الاستفادة منه في كتب الرحلات، بل قد يستغرب نشره، وله الحق في كل ذلك. فلقد زرت بلاداً حبيبة إلى النفس، لما تتصف به، وبمن يحلها من إخوة أحبة، يتحلون بخير ما يتحلى به الإنسان من صفات المروءة والنبل والكرم، غمرني من فضلهم، وحسن استقبالهم ما أعجز عن مقابلة قليله بما أقدر عليه من اعتراف وتقدير، ووجدت ممن اجتمعت به من علمائهم وباحثيهم وأدبائهم وما أبقى في نفسي أبلغ الأثر، وأجمل الذكرى، فلم أجد إزاء كل ذلك إلا تسجيل أطراف من بعض ما قوبلت به، وشاهدته أثناء زيارتي تلك البلاد الكريمة، من قبيل الذكرى، وهي ما سيبقى في هذه الحياة بالنسبة لي، وهي غاية ما أقابل به فضل أولئك الإخوة!

أما من أراد معرفة جميع أحوالها، فإن لكل قطر من أقطارها، ولكل مدينة من مدنها، ولكل ناحية من نواحيها ما عني علماؤها بتدوين ما يتعلق به من مختلف جوانب الحياة، مما يتطلع إليه كل باحث ومستفيد.

وفي الحديث عن الرحلات داخل المملكة، اكتفيت بذكر بعض ما قمت به

لزيارة بعض المواضع التي يتكرر ذكرها في المؤلفات القديمة من كتب التاريخ والأدب ومعجمات الأمكنة، لمحاولة تحديدها بمشاهدتها، وتطبيق بعض النصوص القديمة على ما اتضح من وضعها، مما فصلته عنها وعن غيرها، فيما كتبته عن شرق المملكة وغربها من أقسام «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»[1] وبسطت القول في مؤلفين آخرين من رحلاتي[2]، إذ لهذه الموضوعات هواتها من القراء والباحثين.

ذلك ما قدمته لراغب الاطلاع على ما تحويه هذه الأوراق، بغية بعض رضاه، وهو غاية جهدي، وما أراني ملوماً بعد هذا.

في جمادى الأولى ١٤١٩هـ

حمد الجاسر

---

(١) وهو (قسم المنطقة الشرقية) المعروفة قديماً باسم (البحرين) في أربعة أجزاء (وقسم شمال المملكة) في ثلاثة.

(٢) هما «في شمال غرب المملكة» صدر عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) في ٦٧٥ من الصفحات، و«في سراة غامد وزهران» صدر عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) وصفحاته ٥٩٥.

أول رحلة(*)

التغيير في جميع الأشياء من نواميس هذه الحياة، وكما قيل : لا يصلح النفس إلا التَّنَقُّل من حال إلى حال، فالقارئ - أي قارئ كان - يسأم ويدركه الملل إذا سار في قراءته على نمط واحد، وأخذ نفسه بقراءة موضوعات معينة، والكتابة الجادّة تملّها النّفوس، والترويح عن النفس يكسبها ارتياحًا ويجدد نشاطها.

وإذن فلنأخذ القارئ هذه المرة بهذا المنهج، ولنستوح من الذاكرة بعض ما اختزنته مما قد يحس به القارئ شيئًا من التغيير، وإن لم يجد فيه ما يتوقع من إمتاع وفائدة.

لقد قمت برحلات كثيرة داخل بلادنا وخارجها، وتحدثت عن بعض تلك الرحلات المتعلقة بالبلاد الخارجية في صحيفة "اليمامة" عندما كنت أصدرها جريدة، أما الرحلات في داخل البلاد فلا أذكر أنني سجلت شيئًا منها. وإن كان كثير منها جديراً أن أُسَجِّلَ بعض ما شاهدته.

لعل أول رحلة قمت بها من البلدة التي ولدت ونشأت وعشت فيها كانت إلى مدينة الرياض، وكانت عام ١٣٤١ وكان الدافع إليها أمرًا غريبًا في حدّ ذاته، لا بالنسبة إليَّ بل بالنسبة إلى أبي الذي أخذني معه في هذه الرحلة بدون أن يكون لي أيّ رأي حيالها، ولم يكن يومًا من الأيام - فيما أعتقد - يفكِّر فيها.

كان أبي - رحمه الله - فلاحًا، والفلاحة في ذلك العهد من أشق وسائل المعيشة وأنكدها، وخاصة في الإقليم الذي كنا نعيش فيه، وهو إقليم (السّرّ) فقد كانت المياه فيه ضعيفة، وكان فلاحوه ضعفاء لا تجد من بينهم من كان يستطيع أن يُهيِّئَ جميع وسائل الفلاحة بدون أن يستدين، ولهذا كان جلّ فلاّحي قريتنا بل كلهم مَدِيْنِيْنَ، قد أثقل الدين كواهلهم بعد آبائهم وأجدادهم، وكان الواحد منهم إذا حان وقت الزراعة يأتي إلى أحد تجار إقليم (الوشم) فيطلب منه مبلغًا من النقود، يكفي لشراء ما يلزم

(*) مجلة «العرب» س١٣ - ص٣٢١ -.

للفلاحة، مع ما يحتاج إليه من نفقة أثناء الفصل الزراعي، وطريقة الاستدانة تدعى عندهم (الكَتْب) بالكاف المفتوحة والمثناة الفوقية الساكنة والباء الموحدة، وهو ما يعرف عند الفقهاء باسم (السَّلَم) يأخذ النقود وفي بعض الأحيان يأخذ عنها عرضاً يبيعه بنقود، ويعوّض التاجر عن تلك النقود غالبًا بأكثر من غلة زراعته في ذلك الفصل، والتاجر يدرك أنّ هذا الفلاح لا مناص له من الاستدانة منه، فقد رهن عقاره إذا كان له عقار منذ زمن، وقد يكون من عهد أبيه، وهو يعرف أن الحاجة تضطره إلى الاستدانة، فهو يريد إبقاءه دائمًا تحت قبضته، فيدفع مثلاً مئة ريال على أساس أن يستعيض عنها عند حلول الثمرة خمس مئة صاع، أي خمسة آصع عن الريال، بينما هو لا يبلغ ثلاثة، وهو يدرك أن غلّته في الغالب لن تبلغ هذا القدر، ولكنه رابح في جميع الحالات، والفلاّح يدرك هذا، ولكنه مضطر لكي يعيش ويُعيش أسرته.

لا أطيل، فلقد كان أبي ممن أثقل كاهله الدّين، وكذا أبوه قبله، وكثيراً ما ينتاب الفلاحة من الآفات ما يقضي عليها كالجراد أو الدّبا أو البرد - بفتح الراء - فتتراكم الديون، وتشتد الحاجة، ولا رحمة لدى التاجر الذي قد يقوم ببيع جميع ما يملك الفلاح من عقار وغيره، فيما لو أصيب زرعه بجائحة، أو أحسّ منه رغبة في التعامل مع غيره.

انتابت أبي نوبة من تلك النوبات التي فقد فيها كل ما يملك من وسائل الفلاحة، وفقد ثقة التاجر الذي هو محتاج إلى الاستدانة منه، فذهب أكبر إخوتي ويدعى جاسراً إلى جهات الأحساء للعمل في البحر طلبًا للمعيشة، وعمل البحر إذ ذاك هو (الغوص) وكان أخي في ذهابه مراغمًا لأبي الذي كان متشبثًا بمهنة الفلاحة، وكان أخي هو الساعد القويّ لأبي ويعاونه أخي الأصغر في أعمال الفلاحة.

أما أنا فقد عشت في أول حياتي عليلاً، فلم أحسن المشي إلا في السنة الرابعة من عمري وقد أخبرتني أختي[1] -رحمها الله- بأنه حفر لي أربعة قبور، أي إن اليأس من حياتي اعترى أهلي أربع مرات بحيث كانوا يحفرون القبر لي، ولكن يدفن فيه غيري.

---

(١) توفيت يوم ١٥ شعبان سنة ١٤١٠هـ.

ولما رأى أبي عدم جدواي في المشاركة في أعماله أرسلني للتعلم في (كتّاب) في قرية تدعى (حزميّة) عند قريبة لي متزوجة في تلك القرية، أبي خالها. وكنّا ندعو (الكتاب) مدرسة، والمدّرس مطوّعًا، وهو رجل فاضل، من أهل قرية (العيون)، يدعى عبدالله بن إبراهيم، وقد حفظت عليه القرآن نظراً – بعد بي الكلام عن الموضوع.

كانت القرية التي تقع فيها المدرسة، ليست بعيدة عن هجرة (ساجر) وسكان هذه الهجرة في ذلك العهد من أشد الإخوان تمسكًا بأمور الدين، وحرصًا على التقيد بجميع ما يتلقونه من العلماء من أوامره، وكان ذلك في أول ابتداء اشتداد حركة الإخوان، وكان من بين تلاميذ المدرسة رجل من أهل تلك الهجرة، يدعى مشعان بن قشعان، وأخوه من مشاهير الإخوان المعروفين، وكنت أذكر أن مشعان هذا وكان لم يتجاوز بعد حفظ حروف الهجاء، فكان يردد كلمات : (أنصاب، إي خفاض، أُرفاع، أْجزم) أي ألف فوقها فتحة منصوبة، وألف تحتها كسرة إلى آخره. وكان يكررها بنغمة رافعًا صوته، وكذا كان معلمونا في ذلك الوقت يعلموننا، وفي أثناء ذلك دخل مع باب القرية – وكان مقابلاً لباب المدرسة – رجل جمّال، يسير خلف جمله، وكان يدعى عبدالعزيز القويز، يتجول بين القرى، ليبيع فيها ما يحضره من إحدى المدن القريبة، مما يحتاجه أهل القرى، من طعام وغيره، فلما حاذى باب المدرسة أومأ بيده، مشيراً بالسلام، فرد عليه من رآه، ومن بينهم مشعان، ثم تجاوز المدرسة إلى سوق القرية غير بعيد، ولكن مشعان نهض بسرعة ولحق بالرجل، وأتى به حتى أوقفه عند باب المدرسة، وقال له – وقد لفت نظر التلاميذ بفعله – : (وَانْ أنْتَ جايّ منه[١] ؟ فقال : من الدّوادمي، فقال مشعان : (نعيذ بالله منك أنت سفري، ردّ علينا سلامنا[٢]) فقال : كيف أرده؟ قال : قل سلامكم مردود عليكم، فلما قالها تركه يمضي، وكان من آثار حركة الإخوان في ذلك الوقت أنّ كبار الطلاب قد لبسوا فوق

(١) أي : (من أين أنت آت).

(٢) أي نعوذ بالله منك فانت ممن يسافر إلى بلاد الكفار، ومن كان بهذه الصفة يجب هجره وعدم السلام عليه.

رؤوسهم عمائم بيضاء، وكانت عمامتي إذ ذاك ستة أذرع، ولكننا ما كنا نلبسها في الغالب إلا عند الذهاب إلى هجرة ساجر لصلاة الجمعة، ولك أن تتخيل صورة طفل قصير، قد أدار فوق رأسه قطعة طويلة من القماش.

كان عندما ينتاب المرء أحد الأمراض التي لا يكون لجسمه فيها أثر بارز، فأول ما يتبادر إلى أذهان أهله اعتقادهم أنه (منضول) والنضل عندهم الإصابة بالعين، وفاعله (نضول).

وكنت أعيش في تلك القرية[1] بعيداً عن أهلي، وكان الغذاء الذي أتناوله ليس جيداً، وكذا الأغذية في جميع القرى في تلك الأزمان، وما كانت بنية جسمي على درجة محمودة من النشاط والصحة، ولهذا كنت أعيش بين التلاميذ خاملاً منفرداً، لا أشاركهم في لهوهم وأوقات لعبهم، ولكنني عرفت من بينهم صبيًّا كان يشابهني في الضعف والخمول، يدعى إبراهيم، ووالده عبدالرحمن بن فليّح، وأمه بدوية تدعى (شريّدة) فحصل بيني وبين هذا الصبي ألفة متلازمة.

وفي مساء يوم من الأيام، ذهبت معه إلى بيته مع إخوانه، وكانوا كثيرين، ولكنهم ليسوا أشقاء، وكنّا حديثي عهد بعيد الأضحى، والناس في هذا العيد تكثر عندهم لحوم الأضاحي، فما زاد عن أكلهم قددوه، أي جعلوه شرائح دقيقة، ووضعوا فوقه الملح، ونشروه فوق الحبال حتى يجف، وهم يسمونه (القُفْر) والشريحة قُفْرة، فلما دخلنا البيت رأينا (القفر) في أحد حجره، فسارعنا للأكل منه مما علّق على الحبال، ولكن إبراهيم وجد قطعة ساقطة على الأرض فأكلها، وسرعان ما ذرعه القيْءُ واستمرّ به بحيث انطرح على الأرض، فأحاط به أهله حتى صار يقيء دماً، وكان الوقت قبل الغروب، وبعد صلاة العشاء صُلِّيَ عليه ميتاً، فأصبت بتأثر شديد، بحيث أنني في صبيحة اليوم الثاني لم أستطع أن أقرأ درسي، فأتى إليّ أبي لما علم بما أصابني من

---

(١) قرية حزمية، وقد درست الآن، وكانت إحدى قرى ثلاث، شمالية تدعى قرية (سناد) والوسطى حزمية والجنوبية (سهلة)، ويطلق عليهن كلهن اسم (سنادات) في ا لشمال الشرقي من قرية البرود.

التأثر، وهو لا يعرف سببه، ولكن أحدهم قال له : إن ابنك (منضول) وأن (عَدَيَّة) وهو رجل معروف - قد نضله، فقد رآه قبل أيام يقرأ فقال : (كأنه ديك يلقط حبًّا).

عاد بي أبي إلى القرية، وتركت المدرسة بعد ذلك.

إلى مدينة الرياض :

في صبيحة يوم من أيام الشتاء أتى إلى أبي قبل طلوع الشمس رجل همس في أذنه بكلام لا أدري ما هو، وكل ما أذكر أن أبي أرسل إلى الناقة التي هي كل ما أبقى له دين الفلاحة مما يملك، وكانت في المرعى، فأحضرت، وكنت في ذلك اليوم عند أهلي في قريتنا (شرقة) فقال لي أبي : سأذهب بك إلى الرياض لتطلب العلم. ولم أرتح للخبر لأنني لا أزال أحسّ بالألفة القوية التي تربطني بالقرية التي عشت فيها.

وكانت الرحلة في اليوم الثاني في صباحه، وفي المساء كان الوصول إلى بلدة شقراء، واستضافة رجل طيب الذكرى، يدعى عبدالعزيز بن يوسف بن عمار، كان تاجراً وكان ذا صلة بجدّي لأمي علي بن عبدالله بن سالم إمام قرية البرود.

وفي الصباح كان السفر من بلدة شقراء، ثم المرور بقرية (غِسْلة) إحدى قريتي (القراين) مع قصر المسافة بين هذه القرية وبين بلدة شقراء، وهنا تتضح غرابة بواعث الرحلة بالنسبة لي.

كان الرجل الذي همس في أذنه قد قال له : إن ابنك جاسراً مريض في مدينة الرياض، وإن سبب مرضه إصابته بالعين، أما عين من تلك التي أصابته فهنا تبدو الغرابة؟.. إنه خاله شقيق أمه، الذي كان يعمل معه حينما كانا يعملان في إحدى قرى الساحل الشرقي بعد فشلهما في العمل في (الغوص) ومن هنا كان التعريج على هذه القرية، والنزول في ضيافة خالي جزءاً من الوقت، تمكن أبي في خلاله من أخذ شيء ذي صلة بالعائن على ما زعموا لكي يداوي به من أصابته العين[1]. هذا هو سبب هذه الرحلة بالنسبة لأبي، وكما قيل : (ربّ ضارّة نافعة) فقد كانت بالنسبة لي رحلة نافعة.

---

(١) وذلك مما يلامس جلده، وقد يكون من أوساخه، ويشترط أن لا يعرف العائن بما أخذ منه.

لم تختزن الذاكرة من ذكريات هذه الرحلة سوى الوصول إلى بلدة ثرمداء بين العشائين والنزول عند باب بيت أميرها، عبدالرحمن بن ناصر العنقري، فكان من أثر استقباله بوجهه الطلق البشوش ما جعلني أتذكر حين أذكره قول الشاعر :

بشاشة وجه المرء خير من القرى

وقول آخر :

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنّما وجه الكريم خصيب

لا أزال أذكر كلمة أبي : (ياالأمير من إكرام الضيف إكرام راحلته) فنادى بأعلى صوته : (ياناصر ياناصر : حطوا لناقة ضيفنا علف وكثروا).

لقد كان كريمًا طلق المحيا بشوشًا.

ثم كان الوصول إلى مدينة الرياض، وعودة أبي مع أخي منها وبقائي فيها.

أما مرض أخي فقد كان من أثر الحمّى (الملاريا) التي كثيراً ما تصيب أهل تلك السواحل، ولهذا لم يُجْدِ في علاجه ما أخذه أبي معه.

أبقاني أبي عند قريب له في الرياض من الطلبة، كفيف البصر يدعى عبدالعزيز بن فايز، من آل فايز أهل (الفرعة) وهم أخوال أبي، وكان لمن يفد إلى الرياض لطلب العلم إعانة تقارب الكفاية من تمر وأرز، وقد يساعد بكسوة في بعض المناسبات.

كانت هذه الرحلة من بواعث الرحلة التي سأذكرها فيما بعد، فقد نلت طرفًا من المعرفة، فقرأت المختصرات المؤلفة في الدين (وغيّبت) قدراً كبيراً من القرآن الكريم، ثم توفي الرجل الذي أقمت عنده، فعدت إلى أبي وكان طريح المرض، مرضه الذي مات منه عند أختي في بلدة (الفرعة) ولكن لم أقم في هذه البلدة فقد رأى أبي أن أذهب إلى جدي لأمي في قرية (البرود) ليتولّى إعالتي.

إلى بلدة بُرَيْدة :

ولكن سرعان ما أتي أخي الكبير وكان (يحترف) في بريدة، وأخذني معه في رحلة إلى تلك البلدة.

أدخلني أخي في مدرسة لمعلم يدعى (الصَّقْعَبي) يعلم القراءة في الصباح، وبعد العصر يعلم الكتابة، ومدرسته في الصباح ليست واسعة، ولكن طلابه قليلون، وكلهم ممن أجاد مبادئ القراءة والكتابة، وأتى ليستزيد من حفظ القرآن، وإجادة الخط.

كان له دكانان واسعان اتخذهما مدرسة في المساء - من صلاة العصر حتى أذان المغرب، يقعان على الجانب الشمالي من السوق العامّ، على مقربة من (الجردة) وكان الطلاب الذين يقوم بتعليمهم في هذين الدكانين من كبار السن، وكانت طريقته أن يكتب للطالب سطراً أو سطوراً قليلة، في أعلى الورقة، ويطلب منه محاكاة ما كتب حتى يملأ الورقة، وقد يعطيه ورقة تحوي قطعة من الشعر في الحكم أو في الوعظ، وقد يكلف بعض المتقدمين في الكتابة بتوجيه من دونهم فيها بالكتابة، فكنت أذكر من بين هؤلاء طالبًا ذا خط حسن يدعى (العظامي) وكنت أذكر مما كان يكلف الطلاب بكتابته هذه الجمل[1] : (قدوة الأماجد، وعمدة الأعيان، ذوو العز والقدر والشأن، أعنى بذلك فلان ابن فلان).

وقصيدة ليمني يدعى (الوعيظي) منها :

وللبنين حقوقًا (؟) لا تضيّعها — خال كريم، واسم غير منكتم ؟

وخصّهم بأديب عاقل فهم — فأفضل العلم علم اللوح والقلم

من لم يخطّ ولم يقرأ رسالته — قدم له بقرا يرعاها أو غنم (؟)

ومنها :

ليت العجائز في حبل معلقة — نحو الثّريا وذاك الحبل ينصرم (؟)[1]

ومن ذلك قصيدة لا تقل عن الأولى ركاكة وضعفا أولها :

ليس الغريب غريب الشام واليمن — إن الغريب غريب اللحد والكفن

---

(١) نعتذر للقارئ الكريم في إيراد هذه النماذج من النظم الساقط المعنى والمبنى، إذ المقصود إيضاح مستوى التفكير في ذلك العهد، في محيط مدرسي الكتاتيب.

لا تنهـرن غـريبـا طال غـربتـه   والدهـر ينهـره بـالـذل والمِحَنِ

سـفـري بعـيـد وزادي لا يبلغني   وقـسـمـتي لـم تزل والموت يطلبني

إلى أمثال هذه المقطوعات الركيكة، ولكنها مع ذلك لم تكن تخلو من فائدة، وكان هذا المدرس يكلف المتقدمين من الطلاب بكتابة "دعاء ختم القرآن الكريم" لابن تيمية، أو دعاء الوتر، ويقدم ما كتبوا لبعض أئمة المساجد، ويأمر الكاتب بأن يذكر اسمه في آخر ما كتب ويضع التاريخ.

ومما لاحظت على هذا المدرس تأنّقه في حسن مظهره، بحيث أنني لم أره يومًا إلا ولباسه نظيف، وكله أبيض، العباءة والثوب وغيرهما، وحذاءه نظيف، ويحمل دائمًا معه عصا دقيقة طويلة من الشوحط (مِسْيَر) وكان يعامل طلبته أحسن معاملة بحيث أنني لا أذكر أنه أهان طالبًا أو رفع صوته عليه.

وكنت أصلي الفجر مع أخي في الجامع ونبقى بالقرب من حلقة الشيخ عبدالله بن سليم، وكان طلابه قليلين، يقاربون العشرة، ومما لاحظت سقوط الكلفة بينهم وبينه بخلاف ما شاهدته في مدينة الرياض، ومن أغرب ما لفت نظري من ذلك أن الشيخ بعد انتهاء الدرس يمد رجليه بين الطلبة، وقد لا يستنكف بعضهم من (تكبيسهما).

وكنت أذكر قارئًا كفيف البصر، يجلس للطلبة فوق سطح المسجد الجامع، فيقرأون عليه القرآن غيبًا، وكنت إذ ذاك قد حفظت سورًا كثيرة، فأردت أن أقرأ على ذلك الرجل ويدعى (العِبَادي) ولكنني عندما بدأت في القراءة تلعثمت فقال لي: (كفاية، كفاية) فخجلت وانصرفت.

عدت إلى قرية (البرود) مع أخي، وبقيت فيها أعلم صبيانها، وما كنت على درجة من المعرفة تؤهلني لذلك، وكنت أساعد جدّي لأمي، فأقرأ عليه خطبة الجمعة، وبعض ما يحتاج إلى حفظه ليعظ به الجماعة، وأقرأ بعد صلاة العصر في أحد كتب الوعظ في المسجد، ولم تطل بي الإقامة حتى أخذني أخي إلى مدينة الرياض، وهي الرحلة الثانية، وكان ذلك في سنة

١٣٤٥هـ، وقد توسط بأحد الطلبة من إخواننا الصنعانيين، ويدعى محمد جابر حتى تهيأ لي سكن في (بيت الإخوان) وكان يقع بقرب سور البلدة، بمقربة من دخنة، وهو مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فشرعت في طلب العلم، وصرت أتردد على حلق المشايخ، الشيخ محمد، والشيخ سعد بن عتيق، وكان يؤم الناس في المسجد الجامع، ويجلس للطلبة فيه، وكان قاضي الرياض للبادية، والشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وكان يجلس للطلبة أيضًا في المسجد الذي عرف به، وكان قاضي الرياض للحاضرة، وكان من المشايخ الذين كنت أقرأ عليهم، وقد كنت دؤوبًا في عملي، حريصًا على المطالعة، وممن كنت أتلقّى عليه العلم شيخ جليل هو الشيخ محمد بن عيّاف، وكان كفيف البصر، يؤم المصلين في مسجد خالد، ويجلس فيه للتعليم، وكان على درجة كبيرة من التواضع واللطف مع طلابه. وفي زمن غير طويل أصبحت أعدّ من بين الطلبة المعروفين.

مع البادية ... !

في سنة ١٣٤٦هـ كانت حركة (الإخوان) في عنفوان قوتها، فطلبوا من الإمام عبدالعزيز أن يبعث إلى البادية مرشدين يعلمونهم أمور دينهم، فكان أن بعثت إلى فريق من أبناء البادية يدعون (الحوامى)، واحدهم حويماني، من النّفعة من برقا من عتيبة، وأميرهم يدعى نافل بن بادي الحويماني. كان هؤلاء بدواً متنقلين في البلاد التي تصلح لأنعامهم، وكانوا أصحاب إبل، وكانوا حينما وصلت إليهم يحلّون غرب (صفراء السرّ) ولكنهم ما لبثوا متنقلين في جهات السرّ وما حوله، في النّفود، ثم في المَرُّوْت، ثم في نفودي الملحاء، والبتراء، ثم في المستوي، ومكثت معهم بضعة شهور، وكانوا يكرمونني، ويُعنون بي خيرعناية، ويفضلونني في مأكلهم ومشربهم، وكان الفصل ربيعًا، والأرض مخصبة، والطعام يكاد يكون مقصوراً على اللبن والتمر، وقد يوجد اللحم إذا حلّ ضيف على أحدهم، فيشترك القوم في الطعام.

ومن طريف ما جرى في هذه الرحلة أن من هؤلاء القوم شابا يدعى (مصلح بن خلف) كان مصاباً بمرض يعتقد أنه من مسّ الجنّ، فلما وصلت إليهم طلبوا مني أن أقرأ

على هذا المريض، لكي أخرج الجنية التي لاطفته، والملاطَفُ هو من أصابه الجن، وكان الشاب في عنفوان قوته، ونشاطه، ولكنه كان مكبّلاً بالحديد في يديه ورجليه، وعند القراءة يمسكه أحد الرجال، وكان قلبي يرجف وأنا أردّد بعض الآيات القرآنية، وأنفث عليه، وكان يحاول أن يقرّب فمه مني ليعضّ أنفي عندما انحني للنفث على وجهه، ويخاطبني بكلمات الوعيد والتهديد، غير أن قراءتي لم تجد معه شيئًا، فذهب به أهله إلى (مطوّع) ذكر لهم في إحدى قرى سدير يدعى (ابن زكري) وفي هذه الأثناء وكان الحَيُّ حالاً في نفود الملحاء، ومن عادتي أن أنام في (ربعة البيت) وهي قسم منه مخصص للضيف، وكانت العادة أن البنادق تعلق في (واسط البيت) - وهو العمود الأوسط منه، وفي إحدى الليالي تأخر الورّاد الذين ذهبوا لإحضار ماء الشرب، حتى مضى هزيع من الليل، وكنت خارج البيت، فتمددت فوق الرمل، غير بعيد عن البيوت، وطاب لي النوم فنمت، فلم أشعر إلا بلدغة شديدة في شحمة أذني اليمنى، أيقظتني من النوم، فنظرت حولي فإذا عقرب سوداء قد لسعتني، أبصرتها تدخل في جوف شجرة من الأرطى، فلم أقدر على قتلها، فبقيت سهران، وكان الليل مقمراً، فما شعرت وأنا على تلك الحالة إلا برجل يقبل على البيوت غير بعيد مني، وهو عريان، فذهب ودخل في البيت الذي كنت أنزل فيه، وأخذ إحدى البنادق المعلقة في (الواسط) وصار ينادي اسم صاحبة البيت: (يا أم غازي، يا أم غازي، وَانَ الحضرى اللي عندكم)[1]؟ فما كدت أسمع هذا حتى أسرعت إلى بيت المؤذن وكان قريبًا مني ويدعى (بجادا) فصرخت به فاستيقظ مذعوراً فأخبرته بأن (مصلحا) يبحث عني ليقتلني، فقام وأقام من حوله، واحتالوا حتى أمسكوا الرجل وكتبت لي النجاة من القتل بسبب لسعة عقرب.

العودة إلى الرياض مرة ثانية :

وقد رجعت من البدو، بعد بضعة شهور إلى الرياض، فواصلت القراءة على مشايخي، فأسند إليَّ الشيخ محمد بن إبراهيم أنا وطالب علم من أهل بلدة

---

(١) وان : بلهجة البادية : وين - بلهجة الحضر، أي (أين الحضري ؟).

(مراة) يدعى عبدالرحمن بن دعيج، القيام بتعليم أمور الدين في مسجد القصر - قصر الحكم في ذلك العهد - وقد هيّأ لي هذا العمل معرفة بعض سيدات من كنا نعلمهم من صغار الموالي (ويسمونهم العبيد) فكنت أنال تقديراً وإكراماً في المأكل والملبس، وكنت أقوم في بعض الأحيان بكتابة رسائل تلك السيدة، فأنا لا أزال صغير السن، ولا حرج من دخولي على النساء.

وأذكر أنني في تلك الأيام قلت قصيدة أهنّئ الإمام عبدالعزيز بوقعة (السّبلة) التي حدثت في ٢٠ شوال سنة ١٣٤٨هـ، وقد كوفئت على تلك القصيدة التي أخجل عندما يخطر ببالي مطلعها، ومع ذلك فقد نالت استحساناً، بحيث أن زملائي من الطلاب صاروا يتناسخونها ويثنون عليها، بل نقل إليّ أن أحد مشايخي أثنى عليها بعد أن قرئت عليه.

وفي صبيحة يوم من الأيام، جاءني رسول من الشيخ محمد، وكان هذا بعد وقعة السبلة بزمن قصير، فقال : يسلم عليك الشيخ ويقول لك : تهيّأ للسفر مع الأمير إبراهيم بن عرفج، الذي سيذهب رئيساً لسرية إلى إحدى الجهات.

كنت مرتاحاً في عملي، لا أريد له بديلاً، فساءني هذا الأمر، فأسرعت إلى السيدة التي كنت أتولى تعليم بعض مواليها، وذلك بعد انتهاء وقت الدراسة في الصباح، فلما أخبرتها، أرسلت إلى مؤذن مسجد القصر، وكان رجلاً فاضلاً، قصير البنية، جهوري الصوت، يدعى (مشعان) فلما حضر، قالت له ما معناه : إذهب إلى الإمام، وستجده في البيت الفلاني، وأخبره أن الشيخ محمداً يريد أن يرسل (المطوّع) الذي عندنا في القصر، ونحن نريده أن يبقى عندنا، فقال : سيأتي الإمام للصلاة، فأخبره. فقالت : لا إذهب الآن، وأخبرني بالجواب. فذهب ولم يغب طويلاً، وعاد ليقول : إن الإمام أمره بأن يذهب إلى الشيخ محمد ليبعث (مطوّعاً) آخر، فكان ذلك وكان المبعوث يدعى سعيداً القحطاني.

سارت السرية بقيادة إبراهيم بن عرفج، فهاجمها الدويش الابن، فوق منهل

(القاعية) فكانت وقعة القاعية المعروفة المشؤومة، وكان الشريدة ابن عرفج وقليلاً ممن معه. وكان ممن استشهد صاحبنا القحطاني - رحمه الله -.

إلى هجرة (عَرْوَا):

وفي شهر صفر سنة ١٣٤٨هـ، دعاني الشيخ محمد - رحمه الله - وقال لي: إنّ عمّي الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف سيذهب إلى (عَرْوَا) قاضيًا، وهو بحاجة إلى طالب علم يقرأ عليه، ويكتب له، وقد اخترتك، وهذا العمل أحسن لك مما أنت فيه، وفهمت من كلامه أنه حريص على ذهابي مع عَمِّه الشيخ عبدالرحمن، فوافقت، وذهبت مع أحد أبنائه إلى بيت الشيخ عبدالرحمن، وهو غير بعيد عن بيت الشيخ محمد، وبعد أن سلمت عليه، أخبره رفيقي بي فأظهر الاستبشار، ووعد خيراً، وحدد لي وقت السفر، وأنه سيكون بعد صلاة العشاء من الليلة المقبلة، وأن عليّ أن أحضر في ذلك الوقت.

وجدت عند حضوري في الوقت المحدد الشيخ قد تهيأ للرحيل، وأمام المنزل راحلتان، إحداهما امتطاها الشيخ، والثانية ناقة ملحاء، عرفت أنها صعبة لم تذلل من الخطام الموضوع في رأسها، فركبتها وأخذت بخطامها، وبعد أن قامت من مبركها ناولني أحد أبناء الشيخ عدداً من (الزنابيل) قائلاً: ستمرون بالنخل في الباطن، فاتركوا هذه الزنابيل فيه، سرنا وقد أمسكت باليمنى الزمام، وباليسرى الزنابيل (المخارف) فلما نزلنا بطن الوادي، قريباً من النخل إذا بالناقة تجفل، ثم تقفز من صوت غريب سمعته، وإذا بي طريح الأرض؛ ولكني لم أصب بأذى، فقد أنيخت لي الناقة فركبتها.

لا أذكر من تلك الرحلة إلاّ أننا مررنا بمنهل دلقان، ثم بقرية القويعيّة ثم بلغنا هجرة عروا، وللشيخ فيها بيت نزلناه، ولكن بقينا ضيوفًا لدى الأمير جهجاه بن بجاد بن حميد، وكانت زوجته سيدة فاضلة هي شيخة بنت محمد بن هندي بن حميد، وكان جهجاه - وإن كان بدويَّ الطبيعة - إلا أنه كان رجلاً سمحًا رضيًّا، طيب القلب فكه المحضر.

ولم يعكر ارتياحنا واستقرارنا في هجرة عروا سوى أمرين، أحدهما أن الشيخ عندما تقدم للصلاة بالجماعة صلاة المغرب في يوم الوصول، انخزل أكثرهم إلى مؤخرة

المسجد، وقدموا واحداً منهم إماماً، فصلوا وحدهم، وكان هؤلاء من أهل هجرة (الغطغط) التي هدمت في ذلك الوقت بعد وقعة السبلة.

وكان الشيخ - رحمه الله - يحب هدوء الأمور، ولهذا لم يتأثر مما رآى، وتكلم مع الأمير جهجاه بكلام مطمئن، وقال: لعل الله يهديهم.

الأمر الثاني: لم نشعر بعد أيام، بعد أن خرجنا من صلاة المغرب إلا برجل واقف عند باب المسجد يصيح بأعلى صوته: (أبشروا ياالأخوان أن الله يبا[1] يعز دينه، ويعلي كلمته، ويخلص لكم أميركم) إلى آخر كلامه، وكان هذا نذيراً بحركة تمرُّد معروفة، ندع الكلام عنها لوقت آخر. وكانت حركة الدّهينة وأنا في هجرة عروا في عام ١٣٤٨[*].

والدُّهينة هو مقعد من النّفعة، وكان من كبار الإخوان أهل الغطغط، وقد اجتمعت به حينما كنت (مطوّعا) عند الحوامى لأنه كان قد خطب ابنة نجر بن حجنة، أحد كبار النفعة، وعقد عليها، وكانت صغيرة، وكان الإخوان قد غزوا نحو الشمال، بدون إذن من الإمام عبدالعزيز، فأخذوا أموال تجّار من أهل القصيم، فأرسل الإمام عبدالعزيز في أثرهم الأمير سعود بن عبدالعزيز الكبير، ليدعوهم إلى الرجوع، فأنكفوا، فمرّ الدّهينة بعد هذه الغزوة بفريق النفعة ليدخل بزوجته، وكان أبوها نجر قد توفّي، ويتولى القيام على أبنائه الصغار مولى له (عبد) وكان يرعى إبلهم.

وأذكر أن مقعداً مر بأولئك الفريق نهاراً، وبقي إلى مابعد غروب الشمس وحينما كان القوم مجتمعين للعشاء في المأدبة التي أقاموها لمقعد تلك الليلة، إذا بالمولى يقول: (يامقعد وين السّوق: الزّولية والقعود العَفَر، والدراهم؟!، أنت تحسب بنت عمي نعجة. تبا تقودها بأذنها[2]) فقال مقعد: (أبوك اسكت، ويش يدخلك في هذه الأمور).

---

(١) يَبَا: بلهجة البدو هي يَبي بلهجة الحضر (أي يبغي).

(*) مجلة "العرب" - س ١٣ - ص ٤٨١ -.

(٢) وين السوق: أين الجهاز. العفر: الأعفر. تبا: تبغي.

فقال: (اسمع هذِي أمّ خمس بيدي، والله مايمكن تقرب بنت عمي حتى تحضر جهازها)!! فكان أن ارتحل مقعد الدهينة بعد العشاء وحده.

وكان الأمير فيصل النائب العام للملك في الحجاز قد بعث عليّ بن صويلح بن سرحان، والد الأستاذ حسين - ومعه أناس لجباية الزكاة من قبيلة عتيبة في ذلك العام، بعد وقعة (السّبلة) بشهور، فأرسل ابن سرحان إلى الأمير جهجاه بن حميد يطلب منه بعث رجل من آل حميد ليكون مُرَافقا للذين يجبون الزكاة، لأن البادية إذ ذاك لايزالون في حالة من الفوضى والارتباك، وفي تلك الأيام خرجت قافلة من السيارات تحمل أطعمة من مكة، متجهة إلى الرياض، فلما كانت في وادي (الثُّعْل) على مقربة من منهل (سجا)، عدا عليها أناس من البدو، فأخذوا مافيها وأحرقوها، فصار الوادي من ذلك الوقت يعرف باسم (شعيب اللنسيات) واللنسيات يقصد بها نوع من السيارات الكبيرة، التي أحرقت في ذلك الوادي.

أرسل جهجاه إلى ابن سرحان حشر بن مقعد بن حميد ليكون مرافقا له، وفي هذه الأثناء جاء الخبر بوصول الدهينة إلى عالية نجد، حيث كان ابنْ سرحان يقوم بجمع الزكاة، فاستدعى الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف قاضي عروا، رجلاً من الدّغالبة، يقيم في هذه البلدة، دعاه ليلاً، وأعطاه مبلغًا من المال، وكتب معه كتابًا إلى علي بن سرحان، يحذره من الدّهينة، ويظهر أن الدْغيلبيّ لم يغادر عروا، فبعد أيام قليلة، وكنا مجتمعين في ساحة دار الشيخ بعد صلاة العشاء على العادة، وكان من بين الحضور الأمير جهجاه، فما شعرنا إلا برجل يدخل علينا، وعليه قميص قد قطعت أكمامه، وقد لف رأسه بخرقة صغيرة، ففزع الحاضرون من منظره، وإذا هو حشر بن مقعد، فقال له جهجاه: عسى ماشر؟ فقال بلى شرّ وعيش مرّ، أغار علينا الدهينة وحنّا على (البويضاء) فأخذنا وقتل رجلاً منا، ولكنني استطعت أن أنقذ ابن سرحان، (واخوياه[٢]) بوجهي، وأن أرحلهم إلى (هجرة مُصِدَّة).

---

(١) توفي الأستاذ حسين -رحمه الله- سنة ١٤١٣هـ (١٩٩٣م).

(٢) أخوياه: رفاقه. واحدهم خوي - بفتح الخاء المعجمة وكسر الواو بعدها مثناة تحتية.

لم يشكّ أحد من الحاضرين في صدق الخبر، ولكن بعد نحو أسبوع وصل كتاب من علي بن سرحان إلى جهجاه، يقول فيه: (أما حشر فاللّه لايبيّض وجهه، بغيناه يفتكنّا[1] من القوم، فكان عونًا لهم علينا، أخذ منا مزودة فيها ثلاثين ألف ريال، وأخذ مبلغًا من الجنيهات).

استدعى جهجاه حشرا فقال له: (ويش أخبارك ياولد مقعد)؟! قال: أخبرتك بها، فقال له: (يارجَّال جانا من هو أبخص منك، جانا كتاب من علي بن سرحان!). فبهت الرجل وقال: صحيح شاركنا القوم في حلالنا، وافتكينا بعضه.

كتب جهجاه إلى الملك عبدالعزيز بخبره بما فعل حشر، ويعتذر إليه، فكان الجواب: الدراهم فرقوها على براوي[2] الإخوان، والزايد على المحتاجين منهم، وحشر ماضر إلا نفسه.

وفي هذه الأثناء وكان الدّهينة يقوم بحركته، عمد جهجاه إلى عدد من كبار نساء آل حميد، منهن شيخة بنت محمد بن هندي، ووضحاء بنت سلطان بن بجاد ومعهن بعض الأطفال، وبعثهن إلى الرياض، وأرسل معهن هدايا من الخيل، وكتب كتابًا للملك يقول فيه مامعناه: إن هؤلاء النسوة قد أقلقن راحتنا بكثرة بكائهن على سلطان، وقد طلبن منا السماح لهن بمقابلتكم.وأنتم لهن والد كريم، ويقصد بسلطان (سلطان بن بجاد) الذي كان محبوسًا هو والدويش ومن معه.

أما النسوة فبقين في الرياض مدة حتى انتهت حركة الدّهينة وكان في جواب الملك عبدالعزيز على كتاب جهجاه: (أما إرسالك حريم آل حميد فما له معنى، ولكن ياجهجاه الظاهر أنك تظن أنني مثل البقرة، إذا جرّت بأذنها بركت، أنا طبعي طبع

---

(١) يفتكنا: ينقذنا ويخلصنا، مزودة: وعاء من الصوف المنسوج يجعل فيها المسافر زاده.

(٢) البراوي: جمع بروة، ويقصد بها ورقة بمبلغ من النقود مقرر من الملك يدفع من جابي الزكاة أو مأمور بيت المال، وكان من عادة الملك ان يكتب لأحد الأمراء أو الوجهاء لديه كتابًا إلى جابي الزكاة أو إلى مأمور بيت المال بأن يدفع المكتوب له مبلغًا من النقود، ويسمى ذلك الكتاب (بروة) بفتح ا لباء الموحدة واسكان الراء وفتح الواو بعدها هاء.

المؤمن، في الشدة قاسي، وفي الرخاء لين، وليس طبعي طبع المنافق، في الشدة لين، وفي الرخاء قاسي، والحريم عندنا معززات مكرمات).

خاف الشيخ عبدالرحمن - رحمه اللّه - فاستأجر في إحدى الليالي من جمّال يدعى ابن جبرين من أهل رويضة العرض راحلته، وسار إلى الدوادمي، وكان الأمير خالد بن محمد بن عبدالرحمن، ومعه الغزاة الذين جاؤوا لإخماد الحركة مخيمًا على الدوادمي، فسار إليه الشيخ، وقال لي: إن أرادوا منك أن تصلي بهم فافعل، وابق في البيت حتى أرجع.

وبعد زمن يسير، قدم الملك عبدالعزيز إلى بلدة الشعراء، فنزلها، وانتهت حركة الدّهينة، وجاء شويش أحد رجال الملك عبدالعزيز، فتولى خفر عتيبة، وأخذ خيار إبلهم، ورجع الشّذّاذ الذين كانوا مع الدهينة، وكان من بينهم ماجد بن خثيلة، وكان ساكنًا في عروا، فأتى إليّ وطلب مني أن أكتب له كتابًا إلى الملك عبدالعزيز، وكان إذ ذاك في الشعراء، يطلب فيه الأمان، فكتبت الكتاب حسب ماأملاه، وكتبت كتابًا آخر للملك، أوضحت فيه شيئًا من أمر ابن خثيلة، وفي اليوم الثالث جاء رسول من الملك عبدالعزيز يحمل جواب ابن خثيلة بالأمان له وجوابا لكتابي لكي أحضر إلى الشعراء.

سافرت مع الرسول، وفي مساء اليوم الثاني، قدمت بلدة الشّعراء، فعلمت بأنني سأبعث كاتبًا مع الشيخ عبداللّه بن حسن بن ابراهيم، الذي عيّن تلك الأيام قاضيًا في بلدة الطائف، ولكنني كنت مرتاحًا من بقائي في عروا، ففضلت الرجوع إليها، بدون أن أعتذر، وبقيت فيها.

غزوة (الدّبْدبة) :

كانت غزوة (الدّبدبة) حين قام الملك عبدالعزيز بالمسير إلى شرقي الجزيرة، ومعه غزاة أهل نجد، لتأديب بعض البوادي، وذلك في منتصف سنة ١٣٤٨. وكان من الغزو أهل عروا، وغيرهم من أهل الهجر، ولعل هذه آخر غزوة حدثت في بلادنا، وقد سار الغزاة بقيادة الملك عبدالعزيز بعد أن اجتمعوا في وادي (الشوكي) وكانوا على الإبل، سوى الملك وحاشيته فهم على السيارات، وكنت مع أهل عروا، والواقع أن أبناء البادية

ليسوا - كما يتصورهم المرء - جفاة، غلاظ الطباع، بل كانوا على درجة من الرقة واللطف، وسماحة الخلق، وإكرام من يعيش بينهم، وما كنت إذ ذاك أتولى أيّ عمل سوى الكتابة لجهجاه، وهو رجل هادئ الطبع، فكه، رزين في أموره، وكثيراً ماكان يفاكهني في أحاديثه، ويقول لي: إن شاعر الحضر يقول:

ياحبّني للعصيد والميرق الحار　　　والبدو تبغي المضير[١] يابدو الأشرار

وكان إذا رآني خارجًا من الخيمة ليلاً يرفع صوته مغنّيا:

ياهيـــه يااللّي في الشـــعــيب　　　عــانوا حــمــد وسط الزّهاب[٢]

وإذا مــشي مــشــيــه دبيب　　　يـذلّ مــن ردّ الـركــــاب

انتهت تلك الغزوة بما هو معروف، فقد أحضرت الحكومة البريطانية الدويش ومن معه، فسلموا في (خباري وضحا) في الدّبدبة، وأخذت أموال فرقان من قبيلة مطير، وحدث بين قبيلتي برقاء والروقة مشادّة حول قسمة نصيبهما من الغنائم، بحيث ثار الرمي بالرصاص بين الفريقين بعد نزاع طويل، سببه الخلاف حول الغنيمة، إذ كل واحد من الفريقين يدعي بأن قومه بلغوا عدداً كثيراً، لايقنع به الفريق الآخر.

ومما أذكر قبل ذلك أن شيوخ برقاء كانوا مجتمعين في خيمة جهجاه، وكنت أتولى كتابة أسماء أتباع كل شيخ منهم، تهيئة لتقسيم الغنيمة، وكان من بين أولئك المشايخ سلطان أبا العلاء شيخ العصمة، وسجدي الهيظل شيخ الدّعاجين، وابن جامع شيخ الرّوسان، وابن فهيد شيخ الشّيابين، والمهري شيخ الدّغالبة، وكانوا يخوضون في أمر الروقة، وأنهم ليسوا حسب مايذكرون في العدد، وهو ألف ومئتا رجل، بينما البرقاويون يدعون أنهم ثمان مئة رجل، والواقع أنهم أقل من هذا العدد، وأذكر من أحاديث ذلك الاجتماع أن سلطان أبا العلاء، وكان أبرز المتحدثين يقول مامعناه:

---

(١) ياحبني : ما أحبني. الميرق : المرق. المضير : الأقط.

(٢) أي ياهؤلاء الأعداء الذين في الوادي. عانوا : عاينوا: انظروا. الزهاب : المتاع مختفيًا وسطه من الخوف.

لايمكن أن نقبل قولهم، ولابد من أن يُعَدُّوا عَداًّ، واحدا بعد واحد، وحينئذ سينكشف خبيء أمرهم، وكان يكرر كلمة: (سلمت يمين السّوس، يوم اظهر المدسوس) ثم يشرح هذا قائلاً: سوف أكون أنا سوسهم الذي يكشف أمرهم، كان تاجر إحدى القرى يخزن الحبّ وقت الرخص، مترقبا الغلاء، وفي إحدى السنين اشتدت الحاجة بأهل القرية، فطلبوا منه أن يبيعهم مما عنده من الطعام، فأنكر أن يكون عنده شيء منه، ولكن اللّه سلطّ عليه السوس الذي أصاب الحبّ، مما اضطره إلى أن يستعين بأهل القرية ليساعدوه على إخراج الطعام من مخزنه لنشره في الشمس، فكانوا يقولون: (سلمت يمين السوس، يوم اظهر المدسوس). وفي هذه الأثناء تبادل سَرَعَانُ الفريقين إطلاق الرصاص، فبلغ الخبر الملك عبدالعزيز، فأرسل كوكبة من الخيل، يقودها أخوه الأمير محمد - رحمهما اللّه - فأتى حتى وقف أمام خيمة جهجاه، وشيوخ برقاء فيها، فذهلوا ولم يقم منهم أحد لاستقباله سوى جهجاه، فقال الأمير محمد بانفعال: ياأبا العلاء قومك العصمة يثارون بالسبلة؟! قالها بانفعال وتوعد، فما كان من (أبا العلاء) إلا أن أجابه قائلاً: (عندك إيّاهم، عندك إياهم)!! كررها، وكانت آخر كلام نطق به، ثم مَالَ على ظهره ميلته الأخيرة، وكان ذلك وقت الضّحاء قرب الزوال، ولم يقبر إلا بعد صلاة المغرب، توقّعا أن تكون حالته غشية لاموتا.

ومما أثر في نفسي في هذه الرحلة، ماشاهدته من القسوة في معاملة بعض أبناء البادية، الذين أقبلوا منكفين من نواحي العراق، والكويت، من قبيلة مطير، فقابلوا الجيوش فنهبت أموالهم، وقتل رجالهم، ويمكن أن تعزى هذه القسوة إلى أن النفوس لاتزال متأثرة بالحوادث الأخيرة التي وقعت في البلاد كوقعة السبلة، وماحدث بعدها.

رجعت مع الإخوان إلى هجرة عروا، وبقيت ما يقرب من شهر، وكان أخي الكبير جاسر قد عاد من مكة، التي أمضى فيها نحو سنة، يعمل جنديًا في (الهجانة) فأتى إليّ في عروا، ونصحني بعدم البقاء، فعدت معه إلى قرية البرود، غير أنني لم أمكث سوى شهر واحد، سافرت بعده للحج، مع ستة من أهل القرية على رواحل، وكان ذلك آخر عام ١٣٤٨.

في ضواحي مدينة الرياض(*) :

الجو معتدل فلا قر ولا حر، والأرض ريانة بالمطر، والراحلة مهيأة، والبتات محمول فوقها، والسأم من طول الثواء في المدينة كل أيام الشتاء، قد بلغ أشده، وإذن فلنتوكل على الله ولنقل مع القائل: وسافر ففي الأسفار خمس فوائد، وسنحظى بواحدة منها إن فاتتنا الأربع، كان ذلك في يوم الاثنين عاشر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ (وهو التاسع والعشرون من برج الحوت ويوافقه اليوم التاسع عشر من أذار سنة ١٩٥١م) وقد سرنا على بركة الله، أو سارت بنا سيارة كبيرة، تستطيع حمل ما تنوء به العصبة من السيارات الأخرى بحمله، وقد أخذنا طريق الحجاز من الرياض، فسرنا فيه، ولما قطعنا منه ما يقرب ٤٥ كيلاً (على وزن ميل تعريب لكلمة كيلو متر) لما قطعنا هذه المسافة وصلنا إلى قرية (الجبيلة) بصيغة التصغير - وهي قرية قليلة السكان، تقع على الضفة الشرقية الشمالية من وادي حنيفة، وكانت في القديم محلة من محلات بلدة (عقرباء) التي حصلت فيها الوقعة العظيمة بين جيوش المسلمين في عهد الصديق، بقيادة البطل خالد بن الوليد، وبين جيوش الحنفيين المرتدين وأشياعهم، بقيادة مسيلمة بن حبيب، فانتصر الجيش الإسلامي وقتل مسيلمة ومعه كثير من قومه، وفاز بالشهادة كثير من المسلمين، لا تزال قبورهم معروفة في تلك الجهة، كقبر زيد بن الخطاب أخي الخليفة عمر، وكان شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- في مبدإ دعوته إلى تنقية الإسلام، مما ألصق به من أمور محرمة، إذا مر على زوار ذلك الضريح من الجهلة الذين يعتقدون فيه النفع والضر ويصرفون له خالص حق الله وهو الدعاء. قال لهم: الله خير من زيد. وقد أثَّرتْ هذه الكلمة في نفوس كثير منهم.

وبعد أن وفق الله من وفق للاستجابة لدعوة الشيخ، سار ومعه أمير هذه الجهة في ذلك العهد عثمان بن مُعَمَّر لهدم قبة الضريح فهدمها، واسم الجبيلة اسم حديث، على أن في هذه الجهة قرية قديمة تدعى الجُبَيل، ليس من المستبعد أن يكون الاسم ينطبق عليها، والجبيلة واقعة فوق جبل مطل على الوادي، وقد تقلص اسم عقرباء

(*) (اليمامة) -العدد الأول- ذي الحجة سنة ١٣٧٢هـ (أغسطس سنة ١٩٥٣م) السنة الأولى.

بحيث صار لا يطلق الآن إلا على روضة تقع بقرب هذه القرية في الجهة الشرقية الشمالية تزرع حينما يجودها السيل. عندما يقف الانسان في سفح الجبل الذي تقع قرية الجبيلة عليه، ويطل على الوادي، يتمثل له الوادي بطرفيه الغربي والشرقي، مع موضعَ هذه القرية والأرض القريبة منها بصورة عقربٍ زباناها طرفا الوادي وذُناباها مسيل ممتد صوب الشرق، مارٌّ بروضة عقرباء، تنحدر معه السيول حتى تصب في الوادي. نزلنا من قرية الجبيلة فوجدنا الوادي يجري سيلا، فجزناه مشيًا على الأقدام، وجازته السيارة، فتابعنا السير فمررنا على قرية (العيينة) بصيغة التصغير - بعد أن قطعنا ما يقرب من خمسة أكيال (كيلو مترات) وتمتد آبار العيينة ومزارعها على ضفتي الوادي شمالاً وجنوبًا، وهذا الوادي هو المعروف في هذا العهد بوادي (حنيفة) نسبة للقبيلة العربية التي كانت تسكنه، واسمه القديم (العِرْض) بكسر العين وإسكان الراء وبالضاد المعجمة - ويطلق العرض على كل واد فيه قرى ومزارع، وكانت العيينة -على ما يقول محدثي- تسمى (العيين) بالتصغير أيضًا، ويسكنها بنو عامر من بني حنيفة. وفي سنة ٨٥٠ تقريبًا اشتراها حسن بن طوق جد آل مُعَمَّر، اشتراها من بقايا سكانها الأقدمين (آل يزيد) الحنفيين، فانتقل إليها من بلدة (مَلْهَم) فاستوطنها وعمرها، وتداولتها ذريته من بعده، بإحياء أرضها، وزرعها وغرسها بالنخيل، حتى كانت سنة ١١٣٨ فأوقع الله بأهلها وَبَاءً عظيمًا أفنى غالبهم، فأصبحت أثرًا بعد عين - جزنا هذه البلدة التي لم يبق فيها سوى آبار متفرقة هنا وهناك، يحيط بكل بئر مزرعة قمح صغيرة، فيها عدة بيوت أعدها الفلاحون ليسكنوا فيها - فمررنا بواد تصطفق غدرانهُ، وتهتز أغصان سَرْحِهِ، فذكرنا قول الأَبِيْوَرْدِيِّ الأمويّ في إحدى نجدياته:

وسـرحـة بربى نجـد مـهـدلة	**أغصانها في غدير ظل يرويها**
إذا الصبا نسمت والمزن يهضبها	**مشى النسيم على أين يناجيها**

فقال الرفاق: طاب المقيل، أرض مخضلة مخضرة، وغدير، وظل ظليل. فكان ذلك، حتى زال عنا التعب فواصلنا السير، ميممين نحو الغرب في بطن الوادي، ولما أوشكنا أن نصل إلى فروعه عُجْنَا ذات اليمين وتركنا طريق الحجاز يسرة، وخرجنا من الوادي مع ثنية تقع بين جبلين يدعيان (الأبكَّين) لهما ذكر في معاجم الأمكنة، وبعد اجتيازنا لتلك الثنية المزلة الكؤود نزلنا في وادي (سدوس) وهو وادٍ تبتدئ فروعه من وسط سفوح جبل عارض اليمامة، ويشق هذا الجبل شقًّا متجهاً صوب الشرق، حتى تفيض سيوله في الرياض الواقعة بقرب جبل (العَرَمة) وامتداده يبلغ مسيرة يوم للإبل أو تزيد، وفي أعلى هذا الوادي على ضفته الشمالية تقع القرية التي تدعى بهذا الاسم (سدوس) وقد قطعنا من سيرنا من الرياض إليها مسافة تقرب من ثمانين كيلا، وسدوس هذه قرية صغيرة يسكنها آل معمر وبعض مواليهم وجيرانهم، وهي أسرة كريمة المحتد، ترجع بنسبها إلى تميم.

ويقول الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى في «تاريخه»: إن آل معمر من العناقر، من بني سعد بن زيد مناة بن تميم. وكانت هذه الأسرة تسكن بلدة ملهم حتى منتصف القرن التاسع الهجري، فاشترى جدهم حسن بن طوق العيينة من الحنفيين، فنزلها، وملك هو وبنوه ما حولها من الجبيلة إلى حُريملاء. ومن مشاهير رجال هذه الأسرة الأمير عبدالله بن محمد بن حمد بن عبدالله بن معمر الذي تولى الإمارة من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١١٨٣، وهي السنة التي توفي فيها في الوباء الذي عمَّ أهل البلدة، يصفه المؤرخ ابن بشر بقوله: (لم يذكر في زمانه، ولا قبل زمنه في نجد في الرياسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث مثله، فسبحان الله من لا يزول ملكه). ومنهم محمد بن حمد بن عبدالله الملقب بخرفاش، تولى الإمارة بعد جده عبدالله – وفي عهده انتقل الشيخ عبدالوهاب بن سليمان بن علي – والد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب من العيينة إلى حريملاء، وذلك في سنة ١١٣٩هـ بعد عزله من قضاء العيينة، ومنهم الأمير عثمان

بن حمد بن معمر الذي عاصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقتل سنة ١١٦٣هـ. ومن علماء هذه الأسرة الشيخ حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر الذي توفي سنة ١٢٢٥ - في مكة قاضيًا فيها، من قبل الإمام سعود بن عبدلعزيز، وابنه الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن ناصر توفي في البحرين سنة ١٢٤٤ - وكانت صلة هذه الأسرة بالأسرة السعودية قديمة، فقد روى ابن بشر في «تاريخه» التجاء موسى بن ربيعة الجد الرابع عشر لجلالة الملك، إلى حمد بن حسن بن طوق، وإكرامه وإيوائه له - وذلك في آخر القرن التاسع الهجري، وقد عرف عاهل البلاد العربية السعودية ما بين الأسرتين من الصِّلة القديمة، فقواها بتقريب آل معمر[1]، وتولية كثير منهم في أعمال الدولة عن جدارة وكفاءة واستحقاق.

سدوس(*):

قلنا إن (سدوس) قرية صغيرة يسكنها آل معمر تقع في الجهة الغربية الشمالية من الرياض وتبعد عنها بمسافة تقرب من ثمانين كيلا. ولا يتجاوز عدد سكانها المئة من الرجال - في العهد الذي حدثت فيه الزيارة - بسبب انتقال كثير منهم إلى الرياض وإلى الطائف وغيرهما من مدن المملكة وهي من أقدم قرى نجد. وكانت تعرف قديمًا باسم (القرية) بضم القاف تصغير قرية، وتسمى أيضًا (قرية بني سدوس) لسكنى بني سدوس بن شيبان بن ذهل -من ربيعة- فيها. قال الهمداني في كتاب «صفة جزيرة العرب»: قرية بني سدوس فيها قصر بناه سليمان بن داود بالصخر وهو عجيب، خراب، وبقيت القصبة.

ونقل ياقوت في «معجم البلدان» عن السكوني: قرية بني سدوس بن شيبان بن ذهل فيها منبر وقصر يقال: إن سليمان بن داود بناه من حجر واحد من أوله إلى

---

(١) انظر عن هذه الأسرة وامارتهم في العيينة كتاب «إمارة العيينة وتاريخ آل معمر» تاليف عبدالمحسن بن محمد بن معمر.

(*) «اليمامة» عدد ٣ السنة الأولى - صفر ١٣٧٣هـ.

آخره. وهي أخصب قرى اليمامة، لها رمان موصوف. وربما قيل لها القرية. قال محبوب بن أبي الغشنظ النهشلي:

لروضــة من رياض الحــزن أو طرف	**من القُـرَيَّة جـرد غـيـر مـحـروث**
يفـوح منه – إذا مج الندى – أرج	**يشفي الصداع وينقي كل ممغوث**
أملي وأحلى لعـيني إن مـررت به	**من (كرخ) بغداد ذي الرمان والتوث**
الليل نصفان: نصف للهموم فما	**أقضى الرقاد، ونصف للبراغيث**
أبيت حين تســامـيني أوائلهــا	**أنزو وأخلط تسبيحًا بتغويث**
ســود مـدالج في الظلمـاء مـؤذية	**وليس ملتـمَسٌ منهـا بمشـبـوث**

كذا أورد الحموي شعر محبوب النهشلي شاهداً على اسم (القرية) ولعله يعني قرية أخرى. وكنا نود أن وصولنا هذه القرية في إبان إثمار الفواكه لنرى شيئًا من رمانها الموصوف. وقد رأينا فيها نخيلاً كثيرة حسنة. وفيها عدد آبار، ولكن غالب نخيلها يسقى من بئرين عظيمتين على إحداهما عشرون غربًا وعلى الثانية ثمانية عشر، ورأينا في هذه القرية بستانًا للأمير عبدالعزيز بن فهد بن معمر – أمير الطائف– فيه كثير من أشجار الفاكهة.

حُزْوَى:

وبقرب قرية سدوس – في جهتها الشرقية – قرية تدعى (حزوى) بالحاء المهملة المضمومة والزاي الساكنة بعدها واو مفتوحة فألف مقصورة – فيها قليل من النخل تتكون من أبيات قليلة، يسكنها (آل معمر) أيضًا. وقد ذكرها ياقوت في «المعجم» فقال: قال محمد بن إدريس بن أبي حفصة: حُزْوى باليمامة، وهي نخل بحذاء قرية بني سدوس. ثم أورد ياقوت قولاً آخر بأنها حبل من حبال الدهناء واستشهد بقول الشاعر:

خليليَّ عوجا من صدور الرواحل ... بجمهور حُزْوى، وابكيا في المنازل
لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد، أو يشفي لَظِيَّ البلابل

وكأن الأمر اختلط على ياقوت الحموي -رحمه الله- فلم يدرك أن اسم حزوى يطلق على هذه القرية ويطلق أيضًا على كثيب عظيم منفرد، من أكثبة شرق الدهناء، له ذكر كثير في شعر ذي الرمة وهو المعني بالشعر ولا يزال معروفًا.

كما اختلط على الهمداني قبله فقال في «صفة جزيرة العرب»: وفوق (ملهم) قرية يقال لها القُريَّة بها بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة -إلى أن قال-: والسدوسية لبني سعد. وأحسبها التي عنى ذو الرمة بقوله:

لقد جشأت نفسي غدية مشرف ... ويوم لوى حُزْوَى فقلت لها صبرًا!

اطلاق الاسم الواحد على عدة مواضع: واطلاق الاسم الواحد على مسميين أو عدة مسميات أوقع كثيرًا ممن ألفوا في تحديد المواضع في الغلط. ومن عادة العرب نقل الأسماء واطلاق الواحد منها على عدة مواضع متعددة. وأنت إذا طالعت «معجم البلدان» أو غيره من معجمات الأمكنة رأيت أقوالاً كثيرة متضاربة في تحديد مدلول اسم واحد، ولكنك إذا أدركت أن هذا الاسم قد يطلق على عدة مواضع، وأدركت أن ياقوتا وغيره يوردون التعريف بالموضع بصيغ مختلفة، باختلاف المصادر التي نقلوا عنها، وقد تكون كل صيغة من تلك الصيغ صحيحة وإن غايرت غيرها -إذا أدركت ذلك استطعت أن تهتدي مسترشدًا بتلك الأقوال على تعددها إلى تحديد كثير من الأمكنة، التي وقع الاضطراب في تحديدها عند المتقدمين. فعندما تجد في «المعجم»: أن حُزْوَى قرية لبني سعد وقيل: كثيب من كثبان الدهناء عظيم. تُدرك أن أحد المتقدمين أراد أن يعرف هذه القرية، وأن الآخر أراد أن يحدد الكثيب المعروف في الدهناء. وياقوت -ومثله كثير من المؤلفين- لم يسر في بلاد العرب سيرًا يمكنه من التدقيق في تحديد

الأمكنة، وإن لاحظ الاختلاف في عبارات التحديد والوصف، وأدرك أن الاسم الواحد يراد به في بعض الأحيان مواضع متعددة، وقد أُفْرِدَ هذا النوع من الأمكنة بتأليف نافع معروف.

قصر سدوس :

أما القصر الذي ذكره الهمداني وياقوت في قرية سدوس فقد بقيت آثاره إلى أول القرن الماضي. قال الشيخ محمود شكري الألوسي في «تاريخ نجد»: سدوس بقربها أبنية قديمة، يظن أنها من آثار حِمْيَرَ، وأبنية التبابعة، نقل لي بعض الأصحاب من الثقات من أهل نجد: أن من جملة هذه الأبنية شاخصًا كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة، منحوتة في الحجر، ومنقوشة في جدرانها، فلما رأى أهل القرية اختلاف بعض السياحين من الافرنج إليها، هدموها ملاحظة التداخل معهم. كذا قال الألوسي.

وحدثني الشيخ العلامة عبدالله بن عبدالعزيز العنقري، أنه مر في إحدى رحلاته في عهد الشباب لطلب العلم بهذه القرية، فأتى إلى موضع القصر فلمس بيده أحجاراً ضخمة، قال له بعض الحاضرين: بأن فيها كتابات قديمة انتهى. وقال لي بعض من أدرك بقية تلك الآثارمن أهل هذه القرية: إن آخر ما انهدم منها بناء مستطيل في السماء كهيئة المنارة مبني بصخور كبيرة موضوع بعضها فوق بعض ومحفور في كل صخرة حفرة صغيرة في وسطها، ترك لها في الصخرة التي وضعت فوقها طرف محدد في وسطها يدخل في تلك الحفرة بحيث تنطبق الصخرتان وتلتصقان التصاقًا تامًّا، والصخور مستديرة، واستدارة الصخرة الواحدة - على قولهم - باع أو ما يقرب من مترين، ثم هدم ذلك البناء، واتخذ بعض أهل القرية صخوره لبناء بيوتهم بعد تكسير تلك الصخور، وقد اتخذ بعضهم - فيما قيل لنا - صخرة واحدة منها مَكْنَزًا للتمر (إناءً لكنزه) وقد زرنا مكان هذا البناء فلم نرا إلاَّ تَلاً يقع في شمال القرية، وفوق طرفه الشرقي بيوت حديثة البناء. ويمتد هذا التل من الشرق إلى الغرب امتداداً يبلغ

مئات الأمتار، وفي طرفه الغربي قبور أهل تلك القرية.

أما نسبة بناء القصر إلى سليمان فمنشأ ذلك أن من عادة العرب إذا شاهدوا بناءاً عظيماً تظهر فيه آثار القوة والإحكام في الصنعة، فإنهم ينسبونه إلى جن سليمان أو إلى الشياطين المسخرة له. وإن لم يكن ذلك من فعل أولئك. ولكن متأخري العرب لعدم معرفتهم لكثير من فنون الصناعة يعتقدون أن إحكام كثير منها وإتقانه فوق طاقة البشر. ولا نعني بهذا انكار ما ذكره الله سبحانه وتعالى من تسخير الجن والشياطين لنبيه سليمان عليه السلام، ولكن ليس لدينا من الأدلة ما يثبت وجود سليمان في هذه الجهات أو مجيئه إليها. ولا يبعد أن يكون هذا القصر من آثار بعض الأمم، التي كانت تسكن هذه البلاد قبل انتشار العدنانيين فيها، كطسم وجديس. فقد روى الهمداني أن من آثار هاتين الأمتين - في اليمامة وهذه القرية تقع وسطها - البتل بضم الباء والتاء واحدها بتيل وهو كما يقول الهمداني: هُنٌ مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء، من طين. ثم أورد الهمداني عن أبي مالك - وهو نجدي بدوي معاصر للهمداني في القرن الرابع الهجري - أنه قال: لحقت منها بناء طوله مئتا ذراع، في السماء قيل: وكان منها ما طوله خمس مئة ذراع من أحدها نظرت زرقاء اليمامة إلى من نزل من جوجان (ثنية غربي الخرج مجهولة) من رأس الدام، مسيرة يومين وليلتين. كذا قال، ونستبعد أن بناء يتخذ من الطين يمكث ما يزيد على خمسة قرون (استيلاء العدنانيين على اليمامة بعد فناء طسم وجديس قبل المبعث بما يقرب من قرنين) ونرى أن الآثار التي شوهدت في قرية سدوس هي من البتل التي رآها أبو مالك وحدث بها الهمداني. أما القول بأنها حميرية فيحتاج إلى اثبات استقرار الحميريين ومكثهم في هذه البلاد مدة يتمكنون في خلالها من تشييد الآثار وهذا مما لم تتوفر أدلته[1].

مكثت[*] في قرية (سدوس) ليلة الثلاثاء ١١/٦/١٣٧٠هـ (٢٠/٣/١٩٥١م)

---

(١) انظر عن (سدوس) ما ورد في كتاب «رحَّالَة غربيون في بلادنا» ص.٢٠٧ إلى ٢٤٨.

(*) «اليمامة» -العدد الخامس- ربيع الثاني سنة ١٣٧٣هـ - يناير سنة ١٩٥٤م - السنة الأولى.

وشاهدت فتح مدرسة فيها لتعليم مبادئ القراءة والكتابة. ثم ذهبت ظهر ذلك اليوم إلى قرية (حُزْوَى) مشيًا على القدم، لقربها، فالمسافة بين القريتين لا تزيد على الكيلين، بدعوة من أميرها، وهو من آل معمر، وقد امتع رفيقي بحديثه، وأمتعنا كلنا بشيء من طعامه وشرابه. وروى عنه رفيقي قصيدتين، بلغة هذا العهد، لشيخين من مشايخ البدو، في القرن الثالث عشر الهجري هما محمد بن هادي شيخ قبيلة (قحطان) وراكان بن حِثْلَيْنِ شيخ قبيلة العجمان. حفظت منهما من قول الأول:

لي لابةٍ حدَّرْتها من تهامهْ	**وسلاحها صنع الفرنجي والأرْوَام**
يا ذا البهم بالعَوْن تباري الجهامهْ	**حتى تجي من بين صَفْوى والأوْجَام**

ومن قول الثاني :

ياراكب حُرٌ تشدَّرُ سنامه	**نَيِّهْ جديد، وزادنَيّه من العام**
ملفاك ابن هادي كبير العمامه	**راعي (البويضا) ألّي على الحرب عزام**
إن كان تبغي سابقكْ والسلامه	**فلا تحدَّرْ بـ(الجحادر) على (يام)**
أهديت لك (نور السلف) و(الجهامه)	**أبغيك ذخر في مقاديم الايام**
غديت أنا واياك مثل النعامه	**جاها بلاها من ثقيلات الاقدام**
بي نِعْتبي حقٌ المسيَّرْ كرامه	**شلف على شهب سريعات الاولام**
تسعين رمح فرقت في (العدامه)	**خمسين منها بين راكان وحزام**
حرِّمْ عليك (النوط) فكة بلامه	**ما دام فيها واحد من ضنا (يام)**

وهذه الأبيات تحتاج إلى إيضاح وتفسير - ليس هذا محله وملخص معناها: أن ابن هادي شيخ قحطان توعد العجمان بغزوهم، بقومه الذين يدعون (الجحادر) وقد انحدروا من تهامة إلى نجد، مسلحين بالبنادق التي صنعها الافرنج والروم. فأجابه راكان شيخ العجمان على لسان رسول أركبه نجيبًا من الإبل.سمينًا تراكم شحمه من عامين، ليبلغه بأنه إذا كان يريد السلامة فلا يغز (ياما) ويذكره بما بين الشيخين من التهادي والتواصل، لأن راكان قد أهدى

لشيخ قحطان فرسا دعاها (نور السلف) وناقة من خيار إبله تدعى (الجهامة) لكي يحظى بصداقته، وينال منه المساعدة وقت الحاجة، ثم يضيف راكان إلى ما ذكر من أن إهداءه لابن هادي سبَّب له شرًّا، فأتاه الضرر من حيث يرجو النفع، ومثل لذلك بالنعامة التي إذا حاوات الطيران هربًا من الشر منعها ثقل قدميها -على اعتقاد العرب- فجاءها البلاء من الجهة التي كانت تؤمل منها السلامة. ثم يقول راكان : إنه قد أُعدَّ الزائر -يعني ابن هادي- ما يجب أن يُعَدَّ لمثله من صنوف الإكرام، ولكنها رماح قصيرة (شلف واحدها شلفاء) على خيل شهب، سريعات الكر، ثم يتوعد ابن هادي بتحريم التمر عليه - يعني تمر الأحساء - التي كانت ذلك العهد تحت سيطرة قبيلة العجمان لانتشارهم حولها، وهم سيحولون دون امتيار قبيلة قحطان التمر منها. ويشدد راكان وعيده، ويؤكده ما دام يامي واحد موجودًا. وهذا الوعيد مقابل وعيد القحطاني بأن يطرد العجمان، حتى يوردهم البحر بين قريتي (صَفْوَى) و(الآجام) الواقعتين بقرب الساحل عند مدينة (القطيف). والنوط في كلام راكان وعاء من أوعية التمر، أصغر من الجُلَّة (القلة وهي تسع ما يقرب من خمسين أقة) ولعل الجلة - بضم الجيم وتشديد اللام - هو الاسم الصحيح لما يسمى في عهدنا بالقلة بالقاف المفتوحة. وقد وردت الجلة في شعر حميد الأرقط وهو يهجو أضيافه - خيبه الله :

باتُوا و(جُلَّتنا) الصهباء بينهم ... كأن أظفارهم فيها السكاكين
وأصبحوا والنوى عالي مُعَرَّسِهِمْ ... وليس كلّ النوى تلقى المساكين

انجر بنا الكلام إلى أوعية التمر وإلى هجو الاضياف، فلنورد قصة مماثلة لقصة حميد هذا. كان حميدان الشويعر الشاعر العامي الذي كان معاصرًا للامير عبدالله بن معمر أمير اليمامة في القرن الحادي عشر الهجري بخيلا، وكانت له جُلَّة - وتسمى خصفة أيضًا - فيها تمر مكنوز، وكان الوقت شتاء، والتمر فيه يزداد يبوسة، حتى يصعب إخراجه من وعائه، وكان إذا زاره أحد قدم له الخصفة بما فيها مُظهرًا للكرم، فيحاول الزائر إخراج شيء منها فلا يستطيع، فأتاه ضيف جائع -ماكر- فلما قدمها له قال : إنني أحتاج إلى الدفء قبل كل شيء فأوقد النار، فَقَرُبَ الضيف منها،

وأدنى الخصفة، فلان تمرها فانشب فيها أظفاره، وجعل يزدر من تمرها وكأنه يزدرد من لحم شويعرنا حميدان :

تجهَّزُ كفّاه ويحدر حلقه — إلى الزور ما ضمت عليه الأصابع

فلم يجد حميدان من الوسائل التي ينال بها الثأر من هذا الضيف الذي أتي على كثير مما في هذه الخصفة إلا القول مخاطبًا ابنه مانعًا -من قصيدة- :

يامانع اطلب للخاطر — أفعى في الدرب إذا راح

كأنّ الطايةْ من عقبه — بَنّ شويهات سراح

اطلب وارجي وادعي وامّن — عساه ونسله للماحي

اما يعطب وهو المطلب — والا يطلع جلد صاح

يقول لابنه: ادع لهذا الضيف بحية تنهشه في أثناء سفره، لأنه جشع، فقد أصبح السطح بعده مملوءاً بالنوى الذي يشبه بعر الغنم (البن) ثم يطلب من الله ويرجوه ويدعو ويؤمنّ على دعائه، بأن يمحوه ونسله من الأرض!

تشعب بنا الحديث - وهو ذو شعب وشجون كما يقولون - عدنا إلى سدوس وبقينا فيها إلى ما بعد عصر الثلاثاء ثم سرنا ميممين بلدة (ضرماء) .

تركنا(*) -من قرية (سدوس)- طريق (الأبكين) يسرة، وسرنا فوق ظهر الجبل مسافة لا تزيد على عشرين كيلاً، متجهين نحو الجنوب الغربي بطريق معبد، ثم نزلنا على وادي الحيسية (ويعرف قديمًا باسم الأحيسي)، وهو أعلى وادي حنيفة، فاجتمعنا بطريق الحجاز، ثم واصلنا السير حتى خرجنا من الجبل، وهو عارض اليمامة، ويسميه أهل نجد الآن (طُوَيقًا) بضم الطاء بعدها واو مفتوحة فقاف لأنه طوق كثيراً من بلدان نجد، ونزلنا منه في ثنية تدعى حديثا (السبع الملَفَّات) لأنها كثيرة المنعطفات، وهو اسم حديث .

(*) « اليمامة » - ع٧ - السنة الأولى - جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ (فبراير ١٩٥٤م) .

وللعرب ولع باطلاق كلمة السبع أو السبعة، على كثير من المعدودات فالبحور سبعة، والأرضون سبع، والأسبوع سبعة أيام، وهكذا وللرحالة المصري لبيب البتنوني في رحلته إلى الحجاز تعليل لكثرة استعمال هذا العدد فليرجع إليه من شاء.

تدعى هذه الثنية قديمًا باسم (ثنية الأحيسي) بضم الهمزة وفتح الحاء المهملة فياء مثناة تحتية ساكنة فسين مهملة مكسورة - وضبط ياقوت الاسم في « معجمه » بفتح أوله، وكسر ثانيه وياء ساكنة وسين مهملة والقصر (الأَحِيْسَى) ومن هذه الثنية دخل قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد لحرب المرتدين في وادي حنيفة (العرض)، ،وقد كانت صعبة حتى سهلت في عهدنا الحاضر، لمرور السيارات معها، نزلنا منها وبعد أن سرنا قليلاً عرجنا ذات اليسار عن طريق الحجاز (وهو الطريق العام) وواصلنا السير، وبعد غروب الشمس وصلنا إلى قاع واسع، فيه قصور مزروعة قمحًا، وعلى آبارها آلات حديثة لرفع المياه (مِضخَّات) يدعى ذلك القاع (سمحان) من السماحة، وهو مجتمع السيول التي تنحدر من الجبال القريبة منه من عارض اليمامة الواقع في شرقيه، ومن جبال أخرى تقع غربيه مجاورة له، منها جبل يدعى (قرادان) بقاف مضمومة فراء مفتوحة ممدودة فدال مهملة مفتوحة بعدها الف فنون.

ومن أعظم أودية تلك القصور واد يدعى (غددة) بغين مضمومة فدالان مفتوحان فهاء، بتنا قريبًا من أحد تلك القصور، لحاجتنا إلى الماء وقد وجدنا بقربِهِ غديرًا صافيًا.

وفي صبيحة يوم الأربعاء (الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ) وهو أول يوم من أيام الحمل، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من آذار سنة (١٩٥١م) سرنا فوصلنا بلدة (ضرما)، ومررنا في طريقنا إليها بكثير من القصور المزروعة المتواصلة في قاع ممتد امتدادًا عظيمًا، وصلناها بعد أن قطعنا مسافة ما بينها وبين (سدوس) بنحو ثلاث ساعات، بسير سيارتنا الكبيرة، وقد لا تزيد تلك المسافة على خمسين كيلا، هذا القاع الذي مررنا به بين قصور (سمحان) وبين (ضرما) يمتد من قرب قرية (العويند) الواقعة على الطريق المتوجه إلى الحجاز، إلى ما بعد (ضرما) جنوبًا مسافة تبلغ مسيرة يومين

بسير الإبل أي ما يقرب من مئة كيل، وكان في الزمن الماضي كثير الآبار والقرى، والسكان، وكان يدعى (قَرْقَرىَ) بفتح القافين واسكان الراء الأولى وفتح الراء الثانية ومدها – ولنرجع إلى «معجم البلدان» لنبحث عن شيء من خبره القديم قال ياقوت في رسم قرقرى بعد أن أشار إلى أن اشتقاق الاسم من الأرض الملساء – وكذا هذا القاع قال: (أرض باليمامة إذا خرج الخارج من وشم اليمامة، يريد مهب الجنوب، وجعل العارض شمالاً، فإنه يعلو أرضًا تسمى قَرْقَرَى، فيها قرى وزروع ونخيل كثيرة، ومن قراها الهزمة فيها ناس من بني قريش (كذا، ولعل الصواب من بني الحريش) وبني قيس بن ثعلبة وقرما والجواء والأطواء وتوضح، وعلى قرقرى يمر قاصد اليمامة من البصرة، يدخل مرأة – قرية المرأي الشاعر ينسب إليها – وفي قرقرى أربعة حصون: حصن لكندة، وحصن لتميم، وحصنان لثقيف كذا؟ قال ذلك كله أبو عبيد الله السكوني –رحمه الله– فقد سرني بما أوضحه، مما لم يتعرض له غيره. انتهى كلام ياقوت.

وهذه القرى التي عدها قد تغيرت اسماؤها، ودرس بعضها، والظاهر أن (قرما) هي التي تدعى (ضرما)، وإذا لا حظنا أن العرب قديمًا وحديثًا ينطقون القاف نطقًا يخالف ما ذكره علماء اللغة، ويخرجونها من مخرج يقرب من مخرج الكاف، ولا حظنا أن بعضهم لا يفرق بين مخرجي الضاد والظاء، تفريقًا واضحًا، سهل علينا إدراك تحريف الضاد قافًا، في هذا الاسم (قرما – ضرما) وعلى ذكر ما طرأ على هذا الاسم من التحريف ذكرت أن مؤلف «دائرة المعارف» البستاني – أورد اسم (ضرما) هذه الصيغة (ذو رمع) ومنشأ هذا التحريف هو أن المؤلف رأى الاسم مكتوبًا بحروف لاتينية، وهي خالية من الضاد ومن العين، فكتبه بهذه الصفة. أما الهَزْمَة و(الاطواء) فلم نجد من يعرفهما الآن، و(الجواء) يوجد موضع يعرف باسم (جو) وهو الآن أرض واسعة كثيرة الماء، خالية من السكان، تقع جنوب (ضرما) وغرب قرية (المزاحمية) بقربها فلعله المراد.

وقد ظن أحد المؤرخين المعاصرين أن جوًّا هذا هو جو اليمامة، والظاهر أن جو اليمامة هو الأرض الواقعة في إقليم (الخرج)، وفيه قرية اليمامة، وقرية السلمية،

وقرية السيح، وهناك مساكن طسم وجديس - ممتدة إلى ما يقرب منها من البلدان في العارض.

وأما (توضح) القرية التي عدها ياقوت من قرى (قرقرى)، فقد اندرست ومما تجب ملاحظته اطلاق اسم (توضح) على عدة أمكنة منها:

١- قرية في هذه الجهة.

٢- وروضة واسعة شرقي الخرج في حد الدهناء تجتمع فيها السيول، وصفها الأستاذ يوسف ياسين في أحد اعداد جريدة (أم القرى) سنة ١٣٤٨هـ تقريباً.

٣- وموضع في طرف حزن بني بربوع شرق الدهناء.

٤- واسم لموضع في جهات القصيم بقرب (الشيحيات) و(شرج) و(ناظرة) وليس من السهل تعيين ما عناه امرؤ القيس من هذه المواضع بقوله:

فـ (توضح) فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشَمْألِ

و(ضرما) قرية تحيط بها النخيل من جميع جهاتها، وأكثر بيوتها ضيقة متهدمة، وسكانها إذ ذاك لا يتجاوزون ألف نسمة، يشتغل جلهم بالفلاحة، وأرضها خصبة واسعة، وماؤها قريب من وجه الأرض غزير، وفيها وفيما يلحق بها من القصور ما يزيد على مئتي مضخة - آلة لرفع الماء - تستعمل في الزراعة، وتمتاز هذه القرية بجودة برها الذي يضرب أهل نجد به المثل في الصفاء والنقاء، فيقولون إذا أرادوا صفة شيء صاف (حب ضرما على وجهه). أي على خلقته وصفته، لم يشبه شائب، ومن أمثال أهل نجد المتعلقة بهذه القرية: (أردنا شقرا، وأراد الله ضرما) يضربونه مثلاً لانعكاس القصد، أو على حد المثل القديم: (أردت عَمْراً، وأراد الله خارجةَ)، وينسب المثل الأول إلى إبراهيم باشا القائد المصري، حينما غزا نجداً سنة ثلاث وثلاثين بعد المئتين والألف، وكان قد تهيأ تهيأً عظيماً، لحرب (شقرا) ولكن مدة حصاره لم تطل، ولم تزد على أسبوع، ذاق فيه هو وجنده الأمرين، من شجاعة أهل تلك البلدة، الذين رأوا أن الصلح

خير لهم من استمرار القتال، بعد نفاد مالديهم من ذخيرة العدة، فسار منها إلى قرية (ضرما) وقال تلك الكلمة فجالده أهلها جلاد الأبطال، ودافعوا -على قلتهم- دفاع المستميت، فصب عليهم قنابر مدافعه، وساق إليهم من الجنود مالا قبل لهم به، حتى قتل من شجعانهم نحو ثمان مئة رجل، من أهل البلدة وحدها، ومقاتلتها إذ ذاك -كما يقول المؤرخ ابن بشر- مئتان وألف، وقتل من الجنود المرابطين فيها من غير أهلها نحو الخمسين، وبعد ذلك استطاع الاستيلاء عليها فأمر جنده باستباحتها بالنهب والسلب وهدم قصورها، وقطع نخيلها، وجمع من فيها من النساء والذاراري والعجزة، وهم نحو ثلاثة آلاف نفس، وأرسلهم إلى (الدرعية) ليكونوا (ضغثًا على إبَّالةٍ).

يسكن بلدة (ضرما) في القديم بنو تميم، وبنو نمير، وأخلاط غيرهم، وفي العهد الحاضر يسكنها أخلاط من سكانها الأقدمين وغيرهم، وإمارتها لآل عبدالرحمن بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع، ويجتمع آل عبدالرحمن هؤلاء بآل (سعود) بإبراهيم بن موسى، ويضاف إلى (ضرما) عدة قرى منها قصور (سمحان) في شمالها وقصور (آل مقبل) في جنوبها على مسافة عشرة أكيال تقريبًا.

ثم قرية (المزاحمية) بضم الميم، وتسمى (المزاحميات) بصيغة الجمع، جنوب قصور (آل مقبل)، وتبعد (المزاحمية) عن ضرما بما يقرب من عشرين كيلاً، وهي أكثر سكانًا من ضرما، وفيها نخيل وزروع، وأرضها خصبة طيبة، وأهلها أنشط في الفلاحة من أهل ضرما لإقبالهم عليها، بينما يشتغل أهل ضرما بالأعمال الأخرى، وهذا القاع الذي تقع فيه ضرما، وما يتبعها من قرى ومزارع كله صالح للزراعة، ولم يرد له ذكر في التقرير الزراعي الذي قدمته (البعثة الزراعية الأمريكية) الموفدة إلى المملكة، والذي طبع في مصر سنة ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ).

إلى مكة المكرمة :

وبعد أداء الحج، كان (المعهد الإسلامي السعودي) قد فتح في مكة، في عام ١٣٤٦هـ، وكان الإقبال عليه ضعيفًا، وكان أول من اقترح فتحه الشيخ محمد كامل القصاب من علماء الشام، وممن وكل إليهم الإمام عبدالعزيز الاشراف على شؤون التعليم في ذلك العهد، وقد أسندت إدارة هذا المعهد إلى الشيخ محمد بهجة البيطار، فاقترح اختيار عدد من الشباب النجديين ليدرسوا في هذا المعهد، فكان أن تمّ اختيارهم، بواسطة الشيخ عبدالله بن حسن رئيس القضاة بمكة، وأكثرهم من مدينة الرياض، وكنت أحدهم.

وأذكر أننا في اليوم السابع عشر من ذي الحجة ١٣٤٨، حضرنا مع الشيخ ابن حسن، إلى (قصر السقاف) مقر الإمام عبدالعزيز لمقابلته، فلما أدخلنا عليه في صباح ذلك اليوم كان الشيخ عبداللّه بن حسن آل الشيخ، جالسًا بجواره، والشيخ عبداللّه السليمان جالسًا على الأرض تحت مجلس الملك، وبعد السلام والاستقرار في الجلوس وجه الكلام قائلاً: (حنا أحضرناكم ياعيالي لعل اللّه ينفع بكم الإسلام والمسلمين، نريد منكم أن تتعلموا في المعهد، وهذا الشيخ عبداللّه بن حسن وكيل عليكم، مايحصل منكم قصور، وهذا عبداللّه بن سليمان وكيل عني مايحصل عليكم قاصر، يرتب لكم كل ماتحتاجون) فلما قال هذه الكلمة، قال أحد الشبان من آل الشيخ: (لكن ياطويل العمر (عوايلنا) في الرياض، نبيكم تقررون لها مصرف) فما كان من الإمام عبدالعزيز إلا أن تغير واحتدّ قائلا: (قوموا، قوموا، تريدون تشترطون عليَّ)!! فأُخْرِجْنَا من مجلسه، وبعد أن خرجنا من القصر حادثت بعض الإخوة من غير آل الشيخ. فاتفقنا على أن نكتب كتاباً للإمام نوضح فيه رغبتنا في طلب العلم، وأننا نَعُدُّ مايتفضل به علينا مساعدة وفضلاً منه، لتحقيق رغبتنا في التعليم.

كتبت الكتاب وذهبت به في اليوم الثاني إلى القصر، وقدمته لابن جميعة، وكان

مذيلا باسمي ومعي خمسة من الإخوة، منهم عبدالعزيز بن صالح المداوي، وسعد بن حجرف البواردي، وابراهيم بن محمد بن جهيمان، وبعد نحو أسبوع، وكان من عادتي أن أجلس في سوق الجودرية عند رجل يدعى الفريح، صاحب دكان توضع عنده الكتب التي ترد من نجد، ولايعرف أصحابها، وقد يتولى بعض من لهم أقارب أو غيرهم بعث بعض الكتب مع أحد المسافرين إلى مكة، فتوضع عنده.

كنت جالسًا في دكان الشيخ الفريح، في الصباح وإذا بشرطي يقف عليه ويسأله عن حمد الجاسر هل يعرفه؟ فأشار إلي قائلا: هذا هو حمد، فقال لي الشرطي: تعال معي، فاتجهنا من الجودرية مع شارع المدعا، ثم جزنا المسعى، ودخلنا في الحرم، ولم أعرف لأيَّة غاية دعاني، ثم خرجنا منه مع باب الدّاووديّة، وكان الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ ساكنا في بيت الداوودية الموالي للحرم، فدخلنا البيت، فإذا الشيخ في مجلسه المطل على الحرم، وبعد أن سلمت عليه، قال لي: أنت كاتب كتاب للإمام؟!، فقلت: نعم معي خمسة غيري، فقال: غداً أحضرهم عندي هنا، فخرجت ولم أعرف الغاية، فقابلت بعض الإخوة فمنهم من وافق على الحضور، ومنهم من تملّص، وفي الصباح حضرت ومعي ثلاثة، واعتذرت للشيخ عن الباقين بأنني لم أعرف مساكنهم، فأخذنا في سيارته وذهب بنا إلى (قصر السقاف) حيث ينزل الملك فلما دخلنا في القصر، أمرنا بأن نجلس عند صاحب القهوة، وصعد إلى مجلس الملك، ولم يمض طويل وقت حتى رأينا خادمًا يأتي إلينا مسرعًا، ويسأل عن الطلبة، فذهبنا معه إلى مجلس الملك، وبعد السلام عليه دعا لنا بالتوفيق، وقال كلاما نحو كلامه الأول، وكان أن تم ترتيب إدخالنا في المعهد، وتهيئة جميع مانحتاج إليه من مسكن وغيره.

ثم كانت أمور أخرى، لادخل لها في ذكريات الرحلات.

رحلة إلى بلاد عسير :

وأثناء إقامتي في مكة للدراسة قمت في عطلة الصيف في شعبان سنة ١٣٥٢هـ برحلة إلى بلاد عسير، فقد كان لي صديق يشتغل بالتجارة من أهل الحوطة (حوطة

بني تميم) يدعى محمد السّنيدي، وكان قد شدا طرفًا من الأدب، فقويت الصلة بيني وبينه، وكان الغزو المتجه إلى اليمن بقيادة الأمير فيصل بن سعد مخيمًا في بلدة خميس مشيط، فأشار عليّ الأخ السّنيديّ بأن نسافر معًا إلى تلك الجهة وأن أشتري شيئًا مما يحتاج إليه الغزو من ألبسة وأدوات، فاشتريت من ذلك حمل بعير، وسافرنا بعد أن حملنا أربعًا من الإبل، في أيام عطلة الصيف في شهر رمضان سنة ١٣٥٢هـ.

ولاأذكر من تلك الرحلة إلا أننا لما حاذينا بلدة بيشة بينها وبين تبالة، وقد تركنا بيشة يسارنا بتنا، وفي الصباح فقدنا الراحلة التي كنت أحمل فوقها متاعي وأركبها، ورأينا آثار رجال قد أتوا إلى مراح الإبل فأخذوا الناقة، وفي الصباح بينما نحن نفكر في الطريقة التي نبحث بها عن الناقة، وكنا جالسين لتناول القهوة أنا وصاحبي، ومعنا جَمَّالان اثنان هما صاحبا النّياق، فإذا ببدويّ يسلم علينا من بُعْد فاشرنا إليه بالدّنوّ، فأتى وجلس معنا يتناول القهوة، فقال السّنيديّ - رحمه اللّه - وكان على جانب من الذكاء: البارحة فقدنا واحدة من رواحلنا الأربع، وأحمالنا أشياء أرسلها الأمير فيصل إلى الأمير ابن سعد رئيس الغزو الذين في الخميس، وماكنا نُحِبُّ أن ينال أهل هذه الجهة شرّ، ولكن لاشكّ أنه حين يعلم بأنهم أخذوا الراحلة التي تحمل متاعه سيحل عليهم بالغزو وسيطوقهم، والويل لمن يجد الناقة عنده، فقال البدويّ: (عندنا ورعان الياها الحين ماعقلوا، أعطوني عرقة أدوّرها لكم[1]) فقال له: يعطيك ابن سعود ماعلينا منها! فقام الرجل مسرعًا وقال: سأبحث لكم عنها! وسرعان ماعاد يسوقها، وكان الرجل من قبيلة يكلب (أكلب). واعتذر عما حدث، وأنه بفعل جهال.

ولما قربنا من بلدة (الخميس) تقدّم صاحبي واستأجر لنا بيتًا فيها من رجل يدعى حمدان بن عويمر من شهران، ثم استقبلني وأرشدني إلى البيت، وكان واسعًا، وأسفله غير مسكون، وإنما كان مملوءًا بالقصب الذي يتخذ علفا للدواب، واسمه عندهم (عجور).

---

(١) ورعان: أطفال. اليا: إلى. عرقة: أجرة. أدورها: أبحث عنها.

دهشت لأول مرة عندما حان وقت العَشَاء، فتقدم إليه معي ومع صاحبي صاحب البيت ومعه أربع نسوة، أمه وثلاث فتيات هن أخواته، وكنّ على جانب من الجمال، فاستنكفت من الأكل معهن، وانفردت فأعطوني أكلي، ويسمون الخبز (دوحًا) وهم يعملونه مستطيلا متينا من القمح في التنور، وكان الحجاب في هذه البلدة في ذلك العهد لم ينتشر بين النساء، وكان صاحبي متزوجا من بلدة أبها، فأحضر زوجته إلى بلدة الخميس، وكانت سافرة، كنساء تلك المنطقة - آنذاك -.

كان صاحب البيت قد استأجر امرأة قحطانية ترعى غنمه، وكانت لها ابنة تدعى (شاطرة) تعجب من رآها، وكان يتردد على بيتنا لزيارة صاحبي السّنيدي كثير من الناس من بينهم رجل ذو مقام كبير بين الغزو، فوقعت الفتاة في نفسه، فطلب من السّنيدي أن يخطبها له، فوافقت الفتاة وأمّها على الزواج منه وكانت يتيمة، وكان وليّ أمرها مترك بن شفلوت من مشايخ قبيلة قحطان، فوكلا الأمر إليه، فاتصل به الخاطب فوافق، وتمّ عقد الزواج، وأرسل الرجل ذبيحتين ليهّيأ طعام العرس في البيت الذي استأجرناه، وتم كل شيء، ودخل الرجل بأهله، وبعد أيام قليلة كان ذات صباح يحدث السنيدي ويصف فتوره عن الوصول إلى أهله، وكان يسمع الكلام فتى شهرانيّ يدعى سعيد، كنت أعطيه كل يوم بعض مامعي من البضاعة ليعرضه في مخيم الغزو، وماباع منه أكافئه عليه، وكان يعمل عندنا في البيت فيصنع لنا القهوة، ويقوم بخدمتنا، فسمع شكوى الرجل، وبعد أن انصرف قال لي على انفراد: أنا أعرف دواء لفلان، إذا كان سيعطيني مكافاة وصفته له، فلم أكترث بكلامه وهزئت ولكنه قال: إنه لايريد شيئًا إلا إذا قنع الرجل بصحة كلامه، وأنه يخْفي سرًا، وكانت خيمة الرجل ليست بعيدة عن البيت الذي نسكنه، فذهب إليه فدعاه فلما حضر أخبرته بما قال سعيد، وقلت له: لتسمع كلامه، فلما اجتمعا قال: إنّ حمدان قد عقّد لك، وقد رأيت ماعمل، كان أثناء (الإملاك) قد سلّ جزءاً من خنجره، من الجراب، ثم أدخله فيه عند قول الـمُمْلِك: قل قبلت زواج فلانة، وأنه بعد أن سُلِخَتِ الذبيحتان عمد

إلى عراقيبهما فأخذهما، وأخذ جزءاً طويلاً من الأمعاء فوضع كل عرقوب ذبيحة على عرقوب الأخرى، وربطهما بالأمعاء، وحفر حفرة عميقة بجوار صاير باب حوش البيت، ودفن ذلك في تلك الحفرة، وأنه متى أبطل عمله هذا زال مابك.

استدعى الرجل حمدان فلما حضر قال له: إنني قد عرفت بكل ماعملت من السّحر، وعقوبة الساحر القتل، وتوعده بأنه إنْ لم يبطل عمله ليقتلنه، وإن أبطله بسترٍ عفا عنه، وكان الرجل يحمل سيفا، وكان من كبار خدم أمير الغزو، وله كلمة مسموعة، فما كان من حمدان إلا أن أخرج الخنجر ومسحه بخرقة ثم أعاده، ثم ذهب إلى باب حوش البيت، وحفر حفرة بطول الذراع، واستخرج العراقيب التي قد طويت فوقها الأمعاء فحلّ الطّيّ منها. لست ممن يعتقد بأمثال هذه الخرافات، ولاشك أن هذا العمل من الأمور المحْرمة، ولو حدثني إنسان بما شاهدته وعلمته لما صدّقت، ولقد حدثت الدكتور أمين رويحة وهو من علماء الطب الحديث، وله مؤلفات في العلاج النفسي، فذكر لي تعليلاً، لكنني لم أستطع فهمه لأنني لاأتصور صحة ذلك. وهو أن هذا المتزوج كان يسمع أن في أهل هذه البلاد من يمنع المتزوج من الاتصال بأهله، بطريقة سحرية، فخشي من هذا خشية لا زمته. حتى قرب من زوجته، فلم يستطع التغلب على ما طغى على شعوره.

أما الرجل المتزوج فقد أنجب من أهله أولاداً ولايزال حيًّا يرزق.

نزلت أيامًا في مدينة (أبها) بعد أن استأجر لي رجل يدعى (الحبيني) بيتًا صغيراً بجوار بيت القاضي، وكان إذ ذاك الشيخ فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، ولم تكن صلتي به قوية، وكان الحبيني هذا يقوم بأعمال كثيرة، فهو دلأل، وهو حفّار للقبور، وهو من رجال الحسبة، وذو صلة بالقاضي. وأذكر إذ ذاك أن أحد الغزو من الجند توفي وكان فقيراً، وكان يلقب (صنعاء) فأتى رفقاؤه إلى الحبيني ليتولى غسله، وليحفر قبراً له، على أن يأخذ سلبه، وهو كلّ ماخلف، ولكنه سرّ عندما رأى أنَّ أحد أسنانه تعلوه قشرة ذهبية، فاشترط أن يقلعها.

كان يعقد في مدينة أبها سوق أسبوعي، وكان مما يلفت النظر فيه أن النساء اللواتي يحضرنه من تهامة يلبسن نوعًا من القبعات الكبيرة المعمولة من الخوص، وكانت تسمى (الطّهفة) وكان لباس كثير منهن الإزار والصدارة، بحيث تبدو أجزاء كثيرة من الجسم، وكان الناس في ذلك الوقت على جانب كبير من الطّيبة، قل أن تجد من يتعرض للنساء، وكان أهل أبها يجلبون الماء من بئر ليست بعيدة عن البلدة ماؤها عذب، فكان المرء يرى أسراب الفتيات تتوالى إلى هذه البئر، ولاعتدال جو هذه البلاد كانت نساؤها على جانب كبير من صباحة الوجوه والرقة.

تزودت بجزء من ثمن بضاعتي ببضاعة أخرى، فاشتريت كمية من الرصاص، وكان السلاح وعتاده في ذلك الوقت كثيراً، لأنه يفرق على الغزو بسخاء، وكان الجند الذين مع الغزو وكان يرأسهم القائد المعروف صالح البلاّع، من أهل بلدة الرّسّ، قد مكثوا عدة شهور لم تصرف رواتبهم، فكان بعضهم يتعاطى بيع الأسلحة بدافع الحاجة، وما كان ذلك ممنوعًا في ذلك العهد ولا تَسَلْ عن كساد البضاعة التي اشتريتها من أبها، في مكة، لمنع المتاجرة بها، بحيث حاولت التخلص منها بأية وسيلة !!

أردت ستره ولكن ... !! كنت أثناء دراستي في (المعهد) في مكة في أوائل عشر الستين من القرن الماضي، - من سنة١٣٤٩هـ وما بعدها - أحاول البروز، كَلِدَاتي من الشباب من زملائي، الذين أرى أسماء بعضهم منشورة في الصحف، فأحاول أن أرى اسمي، فأكتب ما أسارع بتقديمه إلى إحدى الصحيفتين « أم القرى » أو « صوت الحجاز » ولا يصدر في مكة إذ ذاك سواهما، وما أشد سروري حين أشاهد اسمي في إحدى صفحاتهما، ولا أبالغ إذا قلت بأنني أتمنى أن في إمكاني أن أبرزه ما استطعت لكل أحد، وتقدمت بي السن، ونلت طرفًا من الثقافة بحيث كنت إذا اطلعت على شيء مما نشر لي في تلك الفترة، وأكثره نظم غثٌّ بارد، ضعيف المعاني، مختل المباني، أكاد أواريه عن وجهي ما استطعت، إلاّ أننا أكرمنا أو (ابتلينا) في أيامنا الأخيرة بباحثين من شبابنا المثقف الواعي، الذين اتجهوا للبحث والتعمق في

دراسة مصادر ثقافتنا الحديثة، وإبراز ما يعترضهم أثناء تنقيبهم في تلك الصحف، ومنه ما ينبغي (وَأْدُهُ) إلاَّ أنَّ مهمة الباحث إبراز جوانب ما يتصدى لدراسته على علاَّتِهَا و(عِلَلِهَا) وكان من هذه بعض ما نشر لي في الصحيفتين المذكورتين، مما تحدث عنه ابن العم الأستاذ الدكتور منصور الحازمي، بذكر جميع ما اطلع عليه منه، في مؤلف له، نشره الأستاذ علوي طه الصافي، وحمدت الله على أنني قد استرحت من أكثر ذلك الغثاء الذي لم ينشر في الصحف، وتوقعت أنه (مات) بموت مناسباته وعدم نشره، ولكنني فوجئت وأنا أصحح تجارب طبع هذا القسم من رحلاتي في شهر ربيع من هذا العام (١٤١٩هـ) بكتاب من الأستاذ محمد بن عبدالله بن علي بن حميد، رئيس (نادي أبها الأدبي) ومعه (هَنَةٌ) من الهنوات التي كنت أحاول سترها، ويأبى الله إلاَّ كشفها، كان لحمدان بن عويمر الشهراني صاحب البيت الذي سكنته أنا وصاحبي أخت تزوجها محمد بن ضاوي من أهل بلدة (حَرْمَة) في (سُدَيْر) هو الكاتب الخاص للأمير تركي بن أحمد السديري - أمير بلاد عسير إذ ذاك - وكان ابن ضاوي يرتاح للأحاديث الأدبية التي تجري بيني وبين صاحبي محمد السنيدي، فحبَّذ لي زيارة الأمير السديري لتهنئته بشهر رمضان سنة ١٣٥٢هـ فلم يبق على دخوله سوى أيام بسيرة، ورآى أن تكون الزيارة يوم الجمعة لحضور صلاتها في الجامع، حيث يقدمني للأمير ويعرفه بي، فتم كل هذا، إلاَّ أن الأمير كان مشغولاً، فلم ينبس ببنت شفة، واكتفى بمد يده، واتجه لسبيله، وكنت أعددت شيئًا من ذلك النظم لإلقائه، فاكتفيت أن قدمته لابن ضاوي، ومضت فترة تزيد على ستين عامًا (١٣٥٢ إلى ١٤١٩هـ) استيقنت أنه (مات) حتى فاجأني الأستاذ محمد بن حُميّد بصورة منه، وأنا الآن كما قال الشاعر :

أنا الغريق فما خوفي من البلل !

فلماذا لا أضعه أمام القراء، كما كتبته بخط يدي، وقد تتكشف لي أو لغيري أمثاله، مما لا بد لي من ستره ؟!!

قصيدة في مدح صاحب السمو الأمير الجليل الشيخ تركي بن أحمد السديري حفظه الله تعالى آمين

جائري الحكم أنصفوا باعتدال … واتقوا الله في هواة الجمال
أتجيزون أن تطل دماء … سفحت في حروب أهل الضلال
سفحتها الحسان في غير حق … ببهاء ورونق ودلال
وفروع كثيفة فاحمات … ووجوه تفوق حسن الهلال
وثنايا كمخضلات الأقاحي … ورقاب كسالفات الغزال
وعيون ولا بنواظر عين … هي أزرت بفعلها بالنبال
ونهود عن اللوامس صينت … وخصور حرية بانفصال
ثم ردف كدعص رمل عظيم … فيه غصن مرنح ذو اعتدال
هذه صنعة الإله تعالى … ليس شيء في فعله بمحال

•••

إن يكن فقن بالجمال البرايا … فالسديري فاق أهل المعالي
الأمير الجليل نجل أحمد (تركي) … وأكرم بالآباء والأنجال
أريحي حوى المكارم طرا … وغدا قدوة لأهل الكمال
بخصال حوت لكل جميل … وخلال أكرم بها من خلال
وضروب من المكارم جلت … أن يجارى بها وحسن فعال
وفخار مؤثل ودهاء … وذكاء وعفة واكتمال
فاق بالمجد والمعالي البرايا … حين أضحى بهم عديم المثال
جمعت فيه للمفاخر أضداد … بها نال ما ابتغى من جلال
فهو كالغيث للحياة مقر … وهو كالبحر معرض الأهوال
وهو كالليث يجذل القرن قهرا … وهو كالبدر في ظلام الليالي
وهو للضد كالزعاف مبير … ولذي الود كالفرات الزلال
وهو في الجود بابن طيء يزري … ولقد فاقه بجل الخصال
إنما جود (حاتم) عن سؤال … للحق، وذا بغير سؤال
لم يشب جوده المسح بمن … أو يكدر لصفوه بالمطال

وهو إن رام مطلبًا لم يحل دو … نَ الذي رام مانع عن منال
وهو إن جال للوغى في مجال … عدم الند وسط ذاك المجال
أشجع القوم من ينال نجاة … فلديه تصرم الآجال
بأبي ذاك من همام أغر … صادق القول طيب الأعمال
ليس يحصي فعاله الغر قول … أو يجاري بأحسن الأفعال

◆◆◆

(يا أبا فهد) مدحكم خير مدح … وهو الحق لست فيه مغالي
هكذا المدح لا تقول لقوم … زعموا المدح وافر الأقوال
إنما المدح ما أشاد لحق … أو غدا هادمًا لركن ضلال
لكنه الصدق إن أقيم فحق … سوف يكسوه حلة الإجلال
وإذا الصدق لم يقمه فلغو … وغدا القول عرضة الإهمال
هكذا هكذا وإلا فدعه … أحسن القول منتهى الإجمال

◆◆◆

أيها الشهم راقب الله فيما … قد توليته وافتكر في المآل
واتق الله في جهار وسر … فبتقواه مبلغ الآمال
وتهنأ بشهر صوم عظيم … واغتنمه على رضا ذي الجلال
ولك الله مرشد ومعين … وحفيظ على ممر الليالي

◆◆◆

وعلى المرشد الحكيم صلاة … وذويه وصحبه والآل
ما استعيد الأديب إنشاد مدح … فاق في حسنه عقود اللآلي

٢٨ شعبان ٤٠٢هـ في أبها : حمد بن محمد الجاسر
من أهل البر و د

عدت إلى مكة المكرمة قرب وقت بدء الدراسة لاستئنافها، ولم أسافر منها إلا بعد أن أكملت دراستي في (قسم التخصص) في المعهد وكان اسمه أولاً (قسم التخصص الديني)، ثم غير باسم: (قسم التخصص في القضاء الشرعي)، غير أنني عينت برغبتي في أول وظيفة بعد تخرجي مدرسًا في مدرسة ينبع، براتب قدره ٣٣٠ قرشًا (اميريًا) كذا كان يسمى، وهذا المبلغ يعادل ٣٠ ريالاً.

كان أول من تولى شؤون إدارة المعارف الشيخ محمد كامل القصاب من علماء الشام، وتدعى في ذلك الوقت (مديرية المعارف العامة) وبعده آخرون حتى تولاها الشيخ محمد أمين فودة من علماء مكة من سنة ١٣٤٨ إلى سنة ١٣٥٣ ثم تولاها بعده بالوكالة الشيخ ابراهيم الشورى من مصر، وقد أصبح سعوديًا، وكان إذ ذاك مدير المعهد.

وأذكر أن الشيخ الشورى بعد أن أبلغني التعيين في مدرسة (ينبع) كتب كتابًا إلى (النيابة العامة) أي نائب الملك في الحجاز، وهو فيصل – رحمه الله – وكان يتولى رئاسة ديوانه الشيخ ابراهيم السليمان بن عقيل، فقال لي الشيخ الشورى: يحسن أن تذهب إلى ديوان النيابة للمراجعة بشأن إركابك بالباخرة إلى (ينبع) فذهبت وقابلت الشيخ ابراهيم صباحًا، حول الساعة الرابعة، فلما كلمته في الموضوع قال لي: اجلس، فجلست طويلاً، ثم وقفت أمامه فكرر لي كلمته الأولى، فجلست ثم عدت إليه ثانية بعد أن قاربت الساعة السابعة وقلت له: إذا لم يكن موضوعي انتهى فسأعود غداً، فكلمني بحدّة ووصفني بالحمق وانتهرني، وأخذ الهاتف فاتصل بالشيخ ابراهيم الشورى فكلمه وأنا أسمع قائلاً ما معناه: هذا إنسان أحمق لايصلح للتعليم كيف تعينونه؟!، ولم أسمع ماأجاب به الشورى، ولكنني خرجت متأثراً، وذهبت إلى (مديرية المعارف) وكان مقرها إذ ذاك في (الحميدية) بجوار الحرم وكذا كل دوائر الحكومة، سوى (النيابة العامة)، فوجدت الشيخ الشورى متأثراً، وقال لي: سنذهب معًا إلى الشيخ ابراهيم لتعتذر منه،

فقلت: كيف اعتذر وكيف ترضى مني هذا، وهو الذي أخطأ علي، وأهانك أنت، وأهان المعارف حين تطاول على أحد موظفيها وأهانه؟! لايمكن أبداً أن أعتذر عن ذنب لم أفعله، وكنت منفعلاً، وكان الشيخ الشورى لايخلو من حدّة أيضًا، فخرجت من عنده، ولكنني بعد ثلاثة أيام علمت بأنّ (النيابة) قد أمرت بإركابي في الباخرة إلى (ينبع) فكان أن سافرت إلى تلك البلدة التي كتبت عن ذكرياتي فيها مؤلفًا دعوته "بلاد ينبع" وهو مطبوع.

وفي سنة ١٣٥٧ وكنت في (ينبع) تلقيت برقية من رئاسة القضاة بصدور (الإرادة الملكية) بالموافقة على تعييني قاضيًا في بلدة (ظبا) في شمال الحجاز، وكنت إذ ذاك أتولى إدارة مدرسة (ينبع) والإشراف على مدرسة أبناء البادية، وكنت مرتاحًا في عملي، فاعتذرت عن وظيفة القضاء، ولكن لم أمكث طويلا حتى ورد إلى أمير ينبع (برقية) من (النيابة) بفصلي من عملي، وتكليفي بالسفر لمباشرة وظيفة القضاء، فرفضت، وسافرت من ينبع إلى مكة المكرمة، فأمضيت مايقرب من شهر، وبينما أنا نازل عند أحد أصدقائي في (رباط باب الداوودية) إذا بشرطي يأتي إليَّ، ويذهب بي إلى مدير الأمن العام في (الحميدية) وكان إذ ذاك مهدي القلعلي، الذي لقّب فيما بعد بمهدي المصلح، فلما دخلت عليه قال له أحد الضباط: هذا فلان، فانتهرني قائلاً مامعناه: لماذا تعصي أمر جلالة الملك؟، فقلت: أنا لم أعص أمره، ولكنني لاأصلح للقضاء، فقال: أنت مخيّر بين أمرين: إما أن تسافر الآن، وقد صدر الأمر للمالية بأن تُهَيِّئ لك لوازم السفر، وإما أن ندخلك السجن. فاخترت الأولى، وسافرت بالسيارة إلى جدة، ثم بالباخرة إلى الوجه.

وفي الوجه كانت المالية قد أبلغت بترحيلي إلى مقر عملي، وكان يديرها إذ ذاك الشيخ عبدالله بن محمد القين، وكان أمير البلدة الشيخ علي بن حمد آل مبارك، وهو من خيرة الرجال خلقًا وكرمًا، فكان استقباله لي كريمًا.

كان السفر من الوجه إلى ظبا بالنسبة لي متعبًا، إذا كان على راحلة، وكان لدى الأمير سيارة، ولكن (البنزين) في تلك البلدة يوشك أن يكون معدومًا، وقد علمت بأن إنسانًا يتعاطى بيعه خفية، فطلبت من الأمير السيارة، وأرسلت إلى مدير المالية القين أطلب منه بأن يصرف لي الأجرة التي ستدفع لكراء الرواحل التي ستنقلني مع أمتعتي ومع مرافقي لكي اشتري بها (بنزينًا)، كان الشيخ القين - رحمه اللّه - شكسا، فما شعرت إلا به قد جاء إليَّ، وأنا في بيت الأمير، ولما استقر به المجلس قال لي : أحب أن تخبرنا بهذا الرجل الذي ستشتري منه (البنزين) لأن لدينا أوامر مشددة بمصادرته . فقلت له : لن أخبرك، فإذا أردت أن تدفع لي ماطلبت، وإلا فَهَيِّئْ لي وسائل سفري، ولكنه لَجّ في إلحاحه، ولم يحل بيني وبينه سوى تدخل الأمير، وكان السفر على الرواحل، والوصول إلى ظبا في اليوم الخامس من مسيرنا من الوجه .

أعجبت بالبلدة وأهلها، فهي تقع على شاطئ جميل، وبقربها واد فيه آبار عليها بساتين قليلة، وماؤها عذب، مع قربها من البحر، والبلدة ليست كبيرة، ولكن كل بيوتها عامرة، مما يدل على أنها حديثة وسكّانها أسر نزحت من السّويس أو الصعيد، وأشهرها أسرة آل بديوي وكبيرها الشيخ محمود بديوي شحاتة، وابنه الشيخ اسماعيل، والأسرة قسمان : قسم في الوجه، وقسم في هذه البلدة، ورجالها أهل ثراء، ومن أسر بلدة ظبا آل خضير، ومنهم الشيخ حسين خضير، وكان من العلماء، وتولى القضاء في عهد حكم أشراف مكة، وعند حضوري كان في وظيفة (رئيس كتاب محكمة ظبا) وأخوه الشيخ علي خضير كان رئيس البلدية، وجميع سكان البلدة كالأسرة الواحدة من حيث الألفة والتآخي، ومدير المدرسة الشيخ محمد رشيد فلسطيني الأصل، قدم جنديًا في عهد الأتراك، فأقام في هذه البلدة، وتولى إدارة مدرستها، وكان رجلاً عاقلاً، طيب

الخلق، وله ابنان كبيران يقومان بالتدريس فيها، وأذكر أن أحدهما عندما زرت بلدة حقل قبل بضع سنوات قيل لي إنه هو القاضي في تلك البلدة.

أما الوظائف الأخرى، فيتولاها أناس من غير أهل البلدة، وكان الأمير محمد بن عبدالعزيز بن ماضي الذي تولى عدة إمارات بعد ذلك في جنوب المملكة وشرقها ولكنه كان غائبا، وقد أناب أخاه الأمير عبدالعزيز، ثم أخاه الأمير مشاري.

ومع أن أهل البلدة أضفوا عليّ كثيراً من اللطف والكرم، حتى قويت صلتي بكثير منهم، إلا أنني أحسست أنني في غربة في هذه البلدة النائية الهادئة حقًا، ولعل هذا يرجع إلى أنني قدمتها غير راغب، بل كنت مرغما، وهذا مادفعني لأن استقبل أموري استقبال المرء الذي يتوقع الرحيل في كل لحظة، فكنت كثير الاتصال بالجهات الحكومية العليا، مع أنه ليس من حقي سوى الاتصال برئاسة القضاء.

كان مرتب قاضي هذه البلدة بل قضاة شمال الحجاز أمّ لُجٍّ، والوجه، والعلا، وتبوك لاتزيد على خمسين ريالاً في الشهر، ومن القضاة في ذلك العهد الشيخ ناصر الوهيبي والشيخ محمد الحركان والشيخ ضياء الدين رجب، والأخيران عيّنا في السنة التي عينت فيها.

وكان رؤساء المالية والجمارك في تلك الجهات يتقاضون رواتب أكثر من رواتب القضاة، لاتقل عن ستين ريالاً، فأرسلت برقية إلى الملك عبدالعزيز - رحمه اللّه - بهذا الشأن، وأنه لايصح أن يفضل موظفي (المكوس) على رجال العلم والقضاء. وسرعان ماتلقيت جوابًا برقيًا، بأنه صدر الأمر لابن سليمان وزير المالية بأن لايقل راتب القاضي عن ستين ريالاً.

كان في جهات بلدة ظبا أودية فيها نخيل قليلة، في وادي مقنا، والبدع، وحقل، وغيرها، وفي كل عام ترسل إدارة مالية ظبا جباة للزكاة، وكانوا يسيرون

في عملهم على مذهب الإمام أبي حنيفة، فيأخذون الزكاة من ثمرة كل نخل سواء بلغت نصابًا، أو لم يبلغه، لأن أبا حنيفة لايشترط النصاب، وكان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة الرسمي قبل الحكم السعودي، فلما علمت بهذا أبرقت للملك، بأن مذهب الدولة الرسمي هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهو لايرى الزكاة فيما دون خمسة أوسق والوسق ستون صاعا، أي لازكاة في ثمرة نخل تقل عن ثلاث مئة صاع، فكان أن تلقيت جوابا بإبلاغ وزير المالية بأن لايخرج عمال الزكاة لأية جهة إلا بتعليمات من قضاة الجهات التي يزكون فيها، فطلب مني مدير المالية، وكان إذ ذاك السيد ياسين طه - طلب أن أقدم له تلك التعليمات، وكنت أعلم أن بعض جباة الزكاة يستعملون شيئًا من عدم الرفق في جبايتها، وقد يحيفون على صاحب المال، فكان أن وضعت قواعد للجباية تحول دون ذلك، فأبرقت المالية إلى وزير المالية بأننا إذا سرنا على ماقدمه لنا القاضي من تعليمات فإننا سنضطر لدفع جميع تكاليف عمال الزكاة بدون مقابل، لأنهم سوف لايجبون شيئًا. وحصلت مكاتبات طويلة بهذا الشأن، انتهت بعدم جباية الزكاة إلا على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وفي صباح يوم من الأيام دخل عليّ في المحكمة بدويّ علمت منه أنه كان يملك بعيرًا يحتطب عليه، ويبيع الحطب في سوق البلدة، ومنذ أيام أتى إليه أحد خدم الأمير ويدعى ابن سلامة، فأخذ البعير منه بحجة احتياج الإمارة إليه، ولكنه في الأمس عاد إليه الخادم ليخبره أن بعيره قد مات، وشكى لي ضعف حاله، فاتصلت بالأمير وكان مشاري بن ماضي، ولكنه قال لي: إن هذا من الشؤون الإدارية التي لادخل للقاضي فيها، والعادة أن الإمارة إذا حدث مايستدعى إرسال أحد رجالها خارج البلدة فإنها تأخذ أية راحلة تجدها في السوق، وهذا ماحدث، وأبدى الأمير - رحمه الله - شيئًا من عدم الارتياح لتدخُّلي في الموضوع، فما كان مني إلا أن كتبت كتابًا إلى الشيخ (محمود أبو طقيقة) وكان إذ ذاك في وظيفة (قائم مقام)

أي شيخ البادية، وطلبت منه التحقيق في قضية البدوي، مع تقدير قيمة جمله إذا كان صادقًا، فكتب إليّ يثبت الأمر، ويقدر القيمة، فأرسلت كتابًا إلى الأمير طالبًا منه أن يدفع للبدوي ثمن جمله حسبما قدرها (القائم مقام) وأرسلت الكتاب مع صاحب الجمل، ولكنه عاد إليّ مطروداً، فكتبت برقية للملك أصف فيها الأمر، وبعثتها إلى مدير (اللاسلكي) وكان إذ ذاك (حاتم توفيق) أخو غالب توفيق الذي كان مديراً لشرطة الظهران عام ١٣٦٣ ومابعدها، وبعد ساعات من بعث البرقية حضر إليّ في المحكمة بعض أعيان البلدة وأظهروا أنهم على استعداد لدفع ثمن البعير، وأنه لاداعي للإبراق بهذا الشأن، فتأثرت لتأخر إرسال البرقية. وكتبت أخرى قلت فيها: إنني بعثت برقية لجلالتكم، في هذا الصباح وقد علمت بأنها لم ترسل حتى ظهر هذا اليوم، فلم أشعر إلا بعدد من كبار الموظفين كمدير الشرطة، ومدير اللاسلكي، ومدير البلدية، يحضرون إليّ، ويخبرونني أن الأمير وافق على دفع ثمن البعير، وأنهم يحبون تهدئة الأمور بعدم إرسال البرقيتين، فكان ذلك.

كانت القضايا في هذه البلدة التي تصل إلى المحكمة قليلة، وخاصة بين أهلها وإذا حدث شيء من ذلك، أوعزت للشيخ حسين خضير بأن يتولى حَلَّ القضية، بطريقة مرضية، فكان يفعل ذلك، أما قضايا البادية فكانت كثيرة.

في يوم من الأيام، أتت إليّ بدوية وادعت بأنها زوجة لرجل يدعى خضر بن شهبي، كبير العميرات، وأنه يكلفها من العمل مالا تطيق، وهو رعي إبله، بينما له ثلاث زوجات غيرها لايكلفهن بذلك، وأنه كثيراً مايضربها، فكتبت إلى الإمارة طالبًا إحضار الرجل، فكان الجواب إنه شيخ العميرات، وليس رجلاً من العامَّة، وجماعته قسم كبير منهم في شرقي الأردن، وكانت الأحوال إذ ذاك بين حكومتنا وبين حكام تلك البلاد ليست على مايرام، ولكنني الحَحت بطلب الرجل، فكان أن أحضر إليّ، فلما بدأت بنصحه بأن يحسن معاملة زوجته وأن يعدل بينها وبين زوجاته، أظهر الاستنكار قائلاً مامعناه: هي زوجتي ولاحقّ لك بأن تتدخل بيني

وبينها، ومادام الأمر بلغ هذا الحد فتدفع لي المهر الذي دفعته لها، وأطلقها، فاستعدت لدفع ذلك، وتولى أحد الحاضرين معها ضمان مادفع من المهر، فكان أن خلى سبيلها، وكتب طلاقها في ورقة سلّمت لها، ولكنني لم أشعر بعد أسبوع إلا بالمرأة تدخل المحكمة، وتدّعي بأن خضر بن شهبي أتى إليها وهي في بيت أهلها، وفعل بها مافعل، فطلبت إحضاره، فلما حضر اعترف بأنه جاء إليها ليحاول إرجاعها إلى بيته، وأنه لايعترف بذلك الطلاق، لأن أمور العميرات راجعة إلى (حكومة الأردن). فكتبت إلى الإمارة بأن يعزّر الرجل ويحبس شهراً، فسجن، وبعد بضعة شهور تلقيت برقية استيضاح عن أسباب حبس ابن شهبي هذه المدة الطويلة، فأجبت رئاسة القضاة بتفصيل ماحدث، وبأنّ المدة المقررة لحبسه هي شهر، ولكنه نسي في سجنه، وكان هذا سبباً لعتاب الإمارة على ذلك بعد أن قام أحد أقربائه بالاتصال بالملك بشأنه.

وجاء الفرج من حيث لم أحتسب، فقد حدثت قضية قتل بين اثنين من أهل البادية، استوجبت أن أحكم بدية، لأن القتل خطأ، فحكمت بمئة من الإبل مفصلة الأسنان، كما في كتب الفقه، فرفعت الإمارة الأمر لنائب الملك، الذي عرض الموضوع على الملك نفسه، فصدر الأمر بلفت نظر القاضي إلى قرار (مجلس الوكلاء) بتحديد الدية بعشرة آلاف ريال، ولكنني أصررت على أن تكون الدية مئة من الإبل، وأرسلت برقية للملك ولنائبه ولرئيس القضاة، معناها أنني حكمت استناداً إلى حديث نبوي شريف، أورده صاحب "المغني" وهو الكتاب المطبوع على نفقة الملك، والذي كان يوزع على القضاة، وأن قرار مجلس الوكلاء لايصح أن يقدم على كلام الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) إذ لارأي لأحد كائناً من كان مع قوله عليه الصلاة والسلام، وأصررت على عدم نقض الحكم الذي صدر مني، فكان أن أمر الملك عبدالعزيز - رحمه اللّه - بفصلي من القضاء، فتم ذلك.

ولما حاولت السفر من البلدة بعد أن بلغني الأمر بغير طريقة رسمية تلقيت برقية تهديد بلزوم بقائي حتى يحضر القاضي الذي سيخلفني، وكان السيد صالح الدّباغ والد السيد عبدالله الدباغ، الذي كان وزيراً للزراعة.

ومن طريف ماحدث لي وأنا في تلك البلدة، أن الإمارة تلقت برقية من النيابة العامة بثبوت رؤية هلال شوال، فكتبت إليّ بذلك، ولكنني أجبتها بأن ثبوت الأهلّة من الأمور الشرعية التي لاتثبت إلا بحكم قاض، ولهذا لايمكن أن أعتمد على مجرد هذا الخبر، حتى أتلقى من رئاسة القضاء مايثبّته، فأبرقت الإمارة للأمير فيصل – رحمه الله – بذلك، فكان أن أرسل برقية يقول فيها: اخبروا القاضي بأن رؤية الهلال ثبتت لدى جميع علماء المسلمين فإن قبل، وإلا فصلوا العيد واتركوه!

وبعد نحو عام من هذه الحادثة وكنت في القاهرة، فمر بها فيصل – رحمه الله– فذهب طلاب (البعثة السعودية)، وكنت أحدهم، للسلام عليه، فلما قدمني إبراهيم السليمان له، قال: أعرفه صاحب قصة الهلال، مع أنه كان يعرفني قبل ذلك، فقد مدحته بقصائد كثيرة، حينما كنت طالبًا في المعهد، واجتمعت به مراراً.

ثم في سنة ١٣٨١ ذهبت في صبيحة اليوم الأول من رمضان لتهنئة سموه بالشهر، فجرى الحديث في رؤية الهلال فصار الشيخ يوسف ياسين يتحدث في الموضوع، فالتفت إليه فيصل – رحمه الله – قائلاً: لاتتدخل في هذه المسائل مادام فلان موجود، فهو أعلم منك بها!! قال ذلك وهو يبتسم. وقد مضى على تلك الحادثة أكثر من ستة عشر عامًا.

إلى الرياض مرة ثالثة :

وحدثت(*) الحرب العالمية الثانية، سنة ١٣٥٨هـ وكنت في القاهرة، في البعثة العلمية السعودية، في كلية الآداب، وكان من جرّاء حدوث تلك الحرب عودة البعثة إلى المملكة، وحين وصولي إلى مكة أشار عليَّ الصديق الأستاذ الشيخ عبدالله الخيال أن ننزل مَعًا في ضيافة الأمير فيصل -رحمه الله-، وكان الأستاذ الخيال قد عمل في إحدى شعب ديوان سموه، فكان أن أنزلنا في الضيافة العامة، بينما أنزل زملاؤنا من أعضاء البعثة في (فندق بنك مصر) حتى عاد كل واحد منهم إلى بلدته، وكانت عودتي مع زميلي في إحدى سيارات البريد إلى الرياض، والوصول قبل فجر اليوم العاشر من رمضان سنة ١٣٥٨ ومبيتي تلك الليلة في حوش في محلة القري يدعى (حوش البرقية) حتى الصباح، حيث ذهبت إلى القصر فسجلت ضمن ضيوف الملك، وكان النزول في الضيافة الممتازة، أما صاحبي فنزل في بيته عند أهله، وقد أمضيت في مدينة الرياض أحد عشر يومًا حدث لي في أثنائها مالم يكن في الحسبان، فقد نقلت إلى ضيافة أخرى لأسباب لاداعي لذكرها، ولكنني بشفاعة الشيخ محمد بن ابراهيم - رحمه الله - نجوت، فغادرت الرياض متوجهًا إلى الأحساء.

إلى الأحساء :

كان بيني وبين الشيخ محمد علي النحاس - رحمه الله - مدير مدرسة الأحساء صداقة، فقد شاركته العمل حينما كان مديراً لمدرسة ينبع، ثم حللت محلّه، وتنقّلت به الأحوال حتى صار مديراً لمدرسة الأحساء، وكان قد اقترض مني مبلغًا من المال لما كان في ينبع، أصبحت بحاجة إليه، فكان هذا من دواعي السفر إلى تلك البلاد، ولقيت في الرحلة إليها كثيراً من المشقة، إذ لاعهد لي بركوب الإبل منذ زمن، وكانت الراحلة قعوداً صعبًا، مع رجل من أهل بلدة الزُلفي يدعى ابن برجس، وكان إصلاح حالة قعوده أحبّ إليه من ارتياح صاحبه الذي كان طيلة الرحلة لايسميه إلا باسم

(*) مجلة «العرب» س ١٣ - ص٦٤١-.

(محمد الحجازي) أو (الملاّ) وكان على الحجازيّ هذا – وهو أنا – بعد أن يتعب من مشقة السير على القدم، ويحين وقت النزول أن يتولىّ إعداد الطعام، لأن صاحبه ابن برجس لايهمه إلاّ أن يجد شيئًا يؤكل مهما كانت درجته من النظافة : (ماأنبت الوادي، وماحشّ المحشّ) بخلاف صاحبه الذي كان حديث عهد بحياة فيها شيء من اللّين والرفاهية .

كان الوصول إلى بلدة الأحساء، ثم الاشتغال في التعليم في مدرستها بضعة شهور، اضطررت بعدها لترك العمل، ومع قصر الزمن الذي أمضيته في هذه البلاد، فقد كان ذا أثر عميق في نفسي، فقد عرفت كثيراً من أهلها، وامتدت الصلة بيني وبين كثير من تلاميذي في المدرسة إلى هذا العهد، وحاول كثير من وجهاء أهل البلاد بقائي في المدرسة ولكنني لم أستجب لذلك .

وكنت اتفقت مع رجل يدعى ابن ماجد، يجيد اللغة الإنجليزية على فتح مدرسة خاصة، وضعنا لها منهجًا، وتقدمنا بطلب إلى أمير البلاد ليسمح لنا بفتحها، فلم تتحقق رغبتنا بعد طوال الانتظار .

وكانت العودة إلى مكة المكرمة، حيث عملت في التعليم مدرسًا في المعهد وتحضير البعثات، وحدث سوء تفاهم بيني وبين الشيخ محمد بن مانع . وكان مشرفًا على التعليم الديني وكنت من مدرسيه مع بعض العلوم العربية، مما اضطرني للاستقالة من العمل، وبإلحاح من مدير المعارف السيد طاهر الدباغ، رجعت للتدريس على مضض .

وذات يوم دعاني وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان، وعرض عليَّ فكرة الإشراف على تعليم أبنائه وإنشاء مدرسة خاصة بهم وبأتباعهم، إذ كانوا في ذلك الوقت يدرسون مع أبناء عمهم حمد السليمان وكيل وزارة المالية، في مدرسة يديرها الشيخ محمود مرزا – رحمه الله – فقبلت العمل وأنشأت المدرسة، وكانت متنقلة بين مكة، والخرج، والطائف، وجدة نحو ثلاث سنوات .

إلى المنطقة الشرقية :

ثم كانت الرحلة الثانية إلى المنطقة الشرقية، كنت مساء يوم من أيام ذي القعدة سنة ١٣٦٣في زيارة صهري الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله العنقري - رحمه الله - في بلدة الطائف، وكان إذ ذاك يشرف على الشؤون الخاصة للأمير فيصل، فما شعرنا إلا بالشيخ صالح العباد رئيس ديوان الأمير يدخل، وبعد أن استقر به المجلس سأل الشيخ عبدالعزيز عنّي وكان لا يعرفني فعرفه بي، فقال لي : إن سمو الأمير يريد أن يراك غداً الساعة الخامسة، فأفهمته أنني موظف أتولى إدارة (المدرسة الوزيرية) مدرسة أبناء عبدالله السليمان، ولا أستطيع في ذلك الوقت ترك عملي قبل الساعة السابعة، فكان أن وافق على هذا الوقت، وأن آتيه فيه في الديوان.

وكانت مقابلة الأمير فأخبرني أنّ الملك أمر بأن أتوجه إلى الرياض، ولما استوضحت من سموه عن الغاية، قال : قد تقرر فتح مكتب في الظهران لمراقبة مدارس أنشأتها الشركة والإشراف على المطبوعات التي ترد لها، وملاحظة بعض أمور أخرى، ولما أفهمت سموه أن الأمر يتطلب إجادة اللغة الانجليزية، وأنا لا أعرف شيئًا منها، قال : أنت ستكون رئيسًا لهذا المكتب، وتختار الموظفين الذين فيهم كفاءة، فوعدت سموه بأنني غداً سأحضر وأوضح لسموه ما يستقر عليه رأيي، لأن الأمر بالنسبة لي يتطلب التفكير.

كنت لم أستحسن البتّ في الأمر قبل إخبار الشيخ عبدالله السليمان الذي أشرف على تعليم أبنائه، وكان قد أظهر لي رغبته في بعث بعضهم إلى مصر، وأنه يود أن أسافر معهم، وكنت متردداً، فلما أخبرته بمقابلتي لسمو الأمير قال : سأبرق الآن للملك، وأطلب بقاءك، غير أنني قلت له : أنا أفضّل الاستجابة للأمر، ومن الممكن أن تجدوا من يحلّ محلي، فكان ذلك.

وكان السفر إلى الرياض في سيارة البريد، والرفيق هو الأستاذ عبدالله بن عبدالرحمن الملحوق، الذي طلبت من سمو الأمير أن يذهب معي، فوافق، وأمرني

بإبلاغه ذلك، فوافق هو أيضاً. والوصول إلى الرياض في اليوم الرابع، وكان أول ذي الحجة سنة ١٣٦٣هـ.

وفي صبيحة يوم وصولنا إلى الرياض كان السلام على الملك عبدالعزيز، وكان استقبالاً حسنًا، وبدأ - رحمه الله - الحديث بقوله : الشيخ إبراهيم بن جاسر - الله يغفر له - عالم زاهد، كافّ عن الناس، ولكن أهل الشرّ ما يخلّون أحد. واسترسل في الثناء على الشيخ حتى قلت : ما بيني وبينه صلة إلا بالاسم، ونجتمع في (آدم) أنا من الكتمة من بني عليّ من حرب وهو لا أعرف نسبه. فقال : اللّه يرحمه! اللّه يرحمه!! وسكت. وبعد خروجي قال لي ابن جميعة : ليتك ما استعجلت بالكلام.. وفي صبيحة اليوم الثاني دعيت إلى الديوان، وأخبرت بأن الملك أمر بتوجهي إلى الخرج، فكان ذلك أنا وصاحبي، وأنزلنا في بيت واسع، وفي المساء أنزل معنا فيه قاضي الرياض الشيخ سعود بن رشود - رحمه اللّه - وكان من خيرة من عرفت من العلماء، خلقًا ، وعقلاً، ورحابة صدر، ورغبة في المباحثة الأدبية.

وفي صباح اليوم الثاني دعينا لمقابلة الملك في الشعبة السياسية، وكان الحضور ثلاثة من رجال الخاصة منهم رشدي ملحس، وبشير السعداوي، ونسيت الثالث. وكانت مقابلة كريمة. وقد روى الأستاذ خير الدين الزركلي - رحمه اللّه[1] - أن أحد الإخوة لما استقرّ بنا الجلوس نهض واقفًا وقال : أستأذن جلالتكم بالقاء قصيدة، فأجاب جلالته (ما يخالف) فابتدأ صاحبنا قصيدته بصوت جهوري: **أنت آمالنا وفيك الرّجاء.**

فقاطعه الملك قائلاً : اللّه وحده هو الذي يرجى، وأمره بالجلوس، ووجه إليّ الكلام قائلاً ما معناه : لماذا لم تعلم صاحبك التوحيد ؟ فأردت أن أعتذر عنه قائلاً : إن بعد هذا البيت ما يوضح المقصود منه، ولكن جلالته كان متأثرًا فلم يقبل هذا. والواقع أنني ما كنت أعرف شيئًا عن هذه القصيدة، قبل سماعي مطلعها، ومحاولة الاعتذار عن صاحبي.

---

(١) «شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز»: (٤٧٦) الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

في الظهران :

وتمّ ترتيب السفر إلى الظهران من الخرج عن طريق الأحساء، حيث كان النزول على الأمير سعود بن جلوي، وتقديم كتاب له من الملك عن العمل الذي سنقوم به في الظهران، ولم تزد الإقامة في مدينة الأحساء على يوم واحد، كان السفر فيه بعد العصر بعد تناول العشاء مع الأمير ابن جلوي، وكان الوصول إلى الظهران في الساعة الخامسة ليلاً، وفيه كان المبيت.

وفي الصباح كان المرور بمدينة الخبر، حيث كانت إذ ذاك مقرّ الإمارة، والأمير هو محمد بن عبدالعزيز بن ماضي، وكان ممثل الحكومة لدى الشركة السيد سامي كتبي وكان يقيم في الدمام، وبه كان اتصالنا لتنظيم شؤون العمل، وكان رجلاً فاضلاً، ذا أدب جمّ.

امتدت الإقامة في الظهران ما يقرب من خمس سنوات، وما كان العمل فيها منتظمًا، فقد كان في أول الأمر مرتبطًا بالشعبة السياسية بديون جلالة الملك، ثم أصبحت تتنازعه جهات أخرى منها (مديرية المعارف) وإمارة المنطقة.

وأذكر أنني كتبت تقريراً مطولاً عن حالة التعليم في مدارس الشركة، وعن بعض الأمور الأخرى، وأشرت إلى ضرورة ربط جميع شؤون التعليم بإدارة المعارف، وربط الإشراف على أمور المطبوعات برئاسة القضاة التي تشرف على هذا العمل في جميع أنحاء المملكة، ولما قرئ التقرير ملخّصاً على الملك عبدالعزيز – رحمه الله – استحسنه، فاستدعيت إلى الرياض، وكان الأمير خالد السّديري[1] قد عيّن في تلك الأيام أميراً للدمام، فصدر الأمر بأن أسافر معه، وأبلغ الشيخ يوسف ياسين – وكان من المقرر سفره مع الأمير خالد السديري – أبلغ بشأن ذلك التقرير، ولكن بعد الوصول إلى الدمام جرت الأمور خلاف ما كنت أتوقع مما قيل لي عن موافقة

(١) كان خالد –رحمه الله– من خيرة الرجال خلقًا وأدبًا ومروءة وقد تنقل في وظائف الدولة حتى توفي في محرم سنة ١٣٩٩هـ وهو أمير على بلاد نجران.

الملك على ما اقترحت، مما اضطرني بعد نقاش طويل بيني وبين الشيخ يوسف ياسين إلى أن أرسل برقية للملك، أطلب إقالتي متعللاً بضعف صحتي، وعدم قدرتي على القيام بالعمل، فلم أشعر في اليوم السابع إلا بالشيخ إبراهيم الشّورى، وكان إذ ذاك يعمل مستشاراً للأمير خالد السديري يأتي إليَّ من الدمام، وكنت أقيم في الخبر، فيطلعني على برقية من الملك إلى الأمير خالد السديري مضمونها : (خيروا فلان بين أحد أمرين الاستمرار في عمله أو أدخلوه الحبس وأخبرونا) .

فاخترت الأمر الأول لا سيما والعمل لا يتطلب مني المواظبة، وإنما هو إشراف عامّ لا ضابط له، ولست مسؤولاً أمام أحد، فأمضيت سنوات في تلك البلاد، ولم تطل مدة إقامة الأمير خالد السديري فقد أسندت إمارة الجهة كلها إلى الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي، فعين أخاه الأمير عبدالمحسن أول الأمر، ثم أصبحت الدمام قاعدة لإمارة المنطقة، فانتقل إليها الأمير سعود.

سار الأمير سعود في إدارة كثير من أمور المنطقة بحل جميع ما ينشأ من المشكلات بطريقة تكليف هيئة تدرس المشكلة وتقرر ما تراه، ثم تقدم التقرير لسموه. وعلى ضوئه يتخذ ما يراه.

وكنت كثيراً ما أندب من بين أعضاء تلك الهيئة التي كانت كثيرة التنقل بين مدن المنطقة وقراها، كل ما حدث ما يستدعي ذلك.

وفي الفترة(*) التي تَلَتْ نقل الأمير خالد السُّدَيْري – رحمه الله – من الإمارة تولاها – وكالةً أَحَدُ خَدَمِ الأمير الذي سيخلفه، فَحَبَّذَ صاحبي الذهابَ للسلام على هذا الأمير الجديد، على ما جرت به العادة، فكان ذلك، وعند الدخول عليه قال أحد الواقفين على باب المجلس: (سَلِّمُوا واسكتوا تَرَى الأمير ما يحبّ الكلام) ولعله كان يعرف عَنّي أنّنِي (ثَرْثَارٌ) وهكذا كان، فبعد أَن استَقَّر بنا المجلس، رأيت

(*) مجلة "العرب" س١٣ – ص٨٠٢.

من مظهر الرجل ووجاهته وَوَسَامته وحُسْن مَظْهرِهِ ما دفعني إلى أن أقول – موجّها الكلام إليه – وكان في جلسته منحرفًا عن الجهة التي أجلس فيها أنا وصاحبي: (كيف حالكم طال عمرك؟!) فاتجه إلينا محدقًا النظر قائلاً: (وِشْ انْتُم ياحْبَيبي[1]؟!) وسكن الحاء وفخّم الباء. فَقُلْتُ: طال عمرك! أنا فلان وصاحبي فلان، نعمل في (مراقبة التعليم) فقال: (تِعْلُوْمَ العَسْكر)؟ فقلت: لا! تعليم المدارس!، فما كان منه إلا أن انحرف بجسمه قائلاً: (مْعَلّمة وِغْدَان)!!

فقلت في نفسي: (على نَفْسها جَنَتْ براقش). وانصرفت خجلاً.

ولما تولى الأمير عبدالمحسن بن عبدالله بن جلوي الإمارة كنت أتمتع منه برعاية خاصّة، فكان كثير التفقد لي في كثير من المناسبات، ولما زار الملك عبدالعزيز – رحمه الله – البلاد عرض عليّ أن أُلقي كلمة في حفلة الاستقبال، فكان أن أَنْشَدْت قصيدة من النظم أَولها:

احلل على الرّحب فالأحداق أوطان ... يامن بمقدمه الأوطان تزدان

ما غبت عن أمّة قد ظلّ يمطرها ... من فيض جودك بالإحسان هتّان

ويظهر أنَّ لِحُسْنِ الإِلْقاءِ منَ الأثر ما يُخْفِي عُوَارَ القول، فكان الاستحسانُ وكانت الجائزة.

بين الدمام والقطيف:

في أحد أيام الخميس ذهبت إلى القطيف، وهو يوم السوق في تلك البلدة، فمررت بدكان رجل كان يبيع الكتب القديمة ويدعى – إن لم تخنّي الذاكرة – علي الكسَّار، وكان دكانه واسعًا مملوءاً بالأنواع التي تجلب ذلك اليوم، أقصاه فيه قلال التمر التي يتسرب منها الدبس، ومن دونها مختلف الأواني القديمة، وبجانب منه كتب مخطوطة مركوم بعضها فوق بعض على الأرض، وفي المدخل أنواع الْخُضرِ والأسْماك وكان أُمِيًّا،

---

(١) : وش أنت: أي شيء أنت؟ من أنت؟ – استفهام تجاهل – حبيبي: تصغير تحقير حبيبي.

ولهذا فهو يقدر ثمن الكتاب بأمرين : رغبة المشتري وحرصه، وحسن مظهر الكتاب، وثقله في الْيَد، وقد اشتريت منه في ذلك اليوم كتابين، وسمكة بطول الذراع، طريّة، وقُفَّة صغيرة، وضعت فيها ما اشْتَرَيْتُ وكان الْجَوُّ بارِدًا، والوقتُ ظُهْرًا، وقد أحسست بالجوع، فاستوضحت منه عن مكان عين ماؤها حارّ، يذهب إليها أهل البلدة للاستحمام تدعى (خَبَّاقَة) فوصف لي موقعها، فحملت قُفّتي، وذهبت إليها ماشيًا، ولَمَّا وصلتها، وكان الجوع قد أخذ مني مأخذه، جلست غير بعيد عن قُبَّة الحمام، وجمعت من الكَرَب وعِسْبَان النّخَل كومةً، أشعلت فيها النار، ثم وضعت السمكة قبل أن يُجَمِّرَ الحطبُ، فانْطفأت النَّارُ، وثار منها دُخانٌ دخل في منافذ القبّة، فما شعرت إلاَّ بعددٍ كبير ممن كان داخلَ الْحَمَّام يخرجون شِبْهَ عُراةٍ مسرعين نحوي، بعد أن أشرقهم الدخان، فلما رأيتهم أقبلوا عليَّ أسرعت في الهَرَب، فما كان منهم إلا أن أَتَوْا بماءٍ وأَطْفَأوا به النارَ، وتركوا السمكةَ والقُفَّةَ، فاحتملتهما وعدت إلى الْقَطِيف.

وعلى ذكر صاحبنا الْكُتْبِيِّ ألأمِيِّ - كان ألأستاذ الشيخ خالد الفرج[1]، مقيمًا في القطيف، وكانت صلتي به قوية، وقد اقتنى مجموعة من المخطوطات اشتراها من صاحبنا الكتبي الأمي ومن غيره، وله مقطوعة من الشعر، لا أحفظ شيئًا منها، ولكنها تدور حول وصف مدينة (حاكمها) أُمِّيٌّ، و(رئيس المجلس البلديِّ) فيها أُمِّيٌّ، ولا يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل حتّى (بائع الكتب) فيها أُمِّيٌّ. ومعذرة للإخوة من أهل هذه البلاد، فأنا أتحدث عن زمن مضى له الآن أكثر من نصف قرن وقد تغيّر كل شيء الآن.

كان مما اشتريت من المخطوطات من الأخ الكسَّار كتاب "الراموز" في اللغة، ومؤلفه معاصر لصاحب "القاموس" وكنت في إحدى رحلاتي للقاهرة أخذته معي للبحث عن نسخة أخرى منه، وكانت نسختي بخط المؤلف.

---

(١) توفي -رحمه الله - في ربيع الثاني من سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) في بيروت انظر مجلة اليمامة س٢ ص ٢٥ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ.

وقد طالت إقامتي في القاهرة حتى احتجت إلى شيءٍ من النقود، ففكرت في تقديمه لدار الكتب، لكي أحصل على بعض حاجتي، ولكي يبقى الكتاب محفوظًا في مكان أستطيع، فيما لو احتجت إلى الرجوع إليه - أن أجده. وفعلاً قدمته لقسم المخطوطات في الدار المذكورة، وكتبت تقريراً عنه قلت فيه : إنه مسودة المؤلف.

وقد علم أحمد العطار بذلك، وكان قد طلب مني أن أبيعه إياه فقلت له : إنني أُريد أن أَضَعَهُ في مكان أتمكن من الاطلاع عليه متى أردت، وعندك لا يَتَسَنَّى ذلك في كل وقت، وقد يخرج من يدك.

وبعد أُسبوع قال لي العطار: أتعرف ماذا قَدَّر (قسم المخطوطات) ثمنًا للكتاب؟ إنه أربعة عشر جنيهاً.

ذهبت إلى (دار الكتب) فاطلعت على تقرير (قسم المخطوطات) عن الكتاب وعن تقدير قيمته، فإذا في التقرير : (وقد أخبرنا فلان - وهو العطار - بأنّ مسودة المؤلف من هذا الكتاب في مكتبة شيخ الإسلام في المدينة المنورة).

فأخذت الكتاب، واضطرتّني الحاجة إلى أن أبيعه على صاحبي - بمئتي جنيه - وما كان هذا المبلغ قيمة له. لقد أخذته بدافع الغضب من جهل كاتب التقرير، الذي قلت له : كيف تعتمد على مجرّد قول قيل لك، لا تعرف مبلغه من الصّدق ؟!

وكانت الدولة قد بدأت بإقطاع الأرض في الدمام لمن يعمرها، فكان أن تقدمت بطلب إلى (الإمارة) أحيل إلى (البلدية) فأقطعت أرضًا مساحتها ٨٠ قدمًا طولاً و٤٠ قدمًا عرضًا، في ناحية من البلدة، وكانت صغيرة إذ ذاك، ففكرت في بناء بويت في تلك الأرض، وكنت عرفت رجلاً يدعى (أبو دحيم[1]) وكان ممن يتّسم بسيما أهل الصلاح والخير، وكان حمَّاراً لديه ثلاثة أحمرة، ينقل عليها الحصا من البحر إلى السوق لبيعه، فلما علم بما فكرت فيه أبدى استعداده للقيام ببناء البويت، على طريقة

---

(١) القاعدة (أبا دحيم) ولكن كذا ينطق الاسم في جميع حالات الاعراب.

بناء مساكن البلدة في ذلك الوقت، تبنى جدران المنزل بألواح رقيقة من حجر البحر (فروش واحدها فرش) تكون طويلة وعريضة ورقيقة، يقام بعضها فوق بعض، ويحشَى ما بينها من الخلل بكسر صغيرة من الحصا وتبلّط بالجص، ويقام في ملتقى الجدران سواري مربعة بالحجر والجصّ، والسقف يكون بالخشب، يوضع فوقه نوع من الحصر الخشنة تدعى (بواري) واحدتها بارية، معمولة من قصب الحلفاء.

تمّ الاتفاق مع (أبو دحيم) على بناء بويت خطّطت أمكنته وحددتها، والأجرة سبعة آلاف ريال، ولها وزنها في ذلك العهد.

وكنت حين أعود ظهراً من عملي آخذ معي بعض الطعام، وآتي إلى العمّال فنشترك بما أحضرته، وأذكر أنني في إحدى المرات وقد جلسنا في ظل جدار قريب من البويت نأكل تمراً، إذا بسيارة فخمة تقف غير بعيدة عنّا وإذا بداخلها رجل يدعو باسمي ويضيف: (ياإقطاعي ياإقطاعي) !! وإذا به الشيخ عبدالله الطّريقي[1]، فدعوته للأكل معنا، فقابلني بضحكة عريضة. وكان يذكرني بذلك كل ما رآني.

انتهى بناء المنزل، ودفعت للرجل الذي بناه حقّه كاملاً. ولكنني فوجئت وأنا أتاهب للانتقال إليه، عندما شاهدت في الجدار الخارجي ميلاً، وبصدع (شلخ) مستطيل باستطالة البيت، فاتّصلت بـ (البلدية) فأرسلت معي مهندسًا قرر أن البيت سيسقط، وينبغي أن تهدمه (البلدية) لئلا يسقط على أحد، وهكذا كان.

ذهبت إلى صاحبي (أبو دحيم) فوراً فأخبرته، فكان جوابه : (سلمته لك وهو ما فيه عياب)! ثم تراضينا على الحضور عند القاضي وهو الشيخ عبدالله بن عامر -قاضي الدمام-. فقال أبو دحيم : أنا سلمته البيت وهو ما فيه خلل، والذي حدث قضاء من الله! فوجه إليَّ الشيخ سؤالاً : أنت إن شاء الله تؤمن بقضاء الله وقدره؟! فقلت: نعم. ولكن.. غير أن الشيخ، وكنا تراضينا بحكمه - أمرنا بالقيام من عنده

(١) انظر ترجمته مفصلة مجلة «العرب» س ٣٣ ص٣٢٩ و٤٤٦.

قبل إكمال جملة (ولكن) .. وانتهى الأمر عند هذا الحد، فاضطررت لإعادة بنائه على الطريقة الأولى. ولا يزال - ولله الحمد قائمًا - غير أنني منذ أعوام مررت به، فلم أدخله خشية أن لا أخرج منه، ومع ذلك فقد كان مسكونًا - على ما قيل لي - !!

ومن أمتع الذكريات وأبقاها في النفس، وأجلّها فائدة رحلة[1] قمت بها مع الأستاذين محمد بن ناصر العبوديّ وسعد بن عبدالله بن جنيدل في شهر صفر من عام ١٣٩٥هـ في عالية نجد من الرياض فالدوادميّ، فعفيف، فحمّى الرّبذة، فوادي الرّمة، فالعلم فالحرّة، فبلدة الحويّط (يديع) في حرّة خيبر، فبلدة الحائط (فدك) فبلاد الجبلين (حائل) فطريق الحج الكوفي إلى منتهاه من ناحية العراق، ثم الاتّجاه نحو الشمال إلى (عرعر) فرجوعًا إلى الجوف فتيماء، فالمدينة المنورة.

ولهذه الرحلة آثار طيبة منها تحقيق موقع (الرّبذة)[2] البلدة التي توفي فيها الصحابيّ الجليل أبو ذر - جندب بن جنادة الغفاريّ - رضي الله عنه - وتحقيق مواضع تاريخية أخرى.

إلى المنطقة الشرقية أيضًا :

كانت الغاية من هذه الرحلة إعداد معجم جغرافي يتضمن وصف المدن والقرى والأماكن المأهولة، وصفًا مستوفيًا متضمنًا ماورد عنها في النصوص القديمة، ومطابقتها بمشاهدتها، وإيضاحها على ماهي عليه الآن بطريقة مستوفية، استجابة لرغبة (وزارة الإعلام) التي هيأت لي الوسائل التي تمكنني من القيام بذلك، ومنها اختيار من سأحتاج إلى أن يصحبني في الرحلة ممن أحتاج إليه، فكان أن اخترت الأستاذين محمد العبوديّ وسعد بن جنيدل، وهماهما في دراسة النصوص الجغرافية المتعلقة ببلادنا، وففهمها وتطبيقها على المشاهدة فيما قاما بتأليفه من

---

(١) سيأتي كلام عن هذه الرحلة فيما بعد.

(٢) انظر عن الربذة "العرب" السنة الأولى ص ٤١٨ / ٤٦٥ / ٦٢٥ / ٧٢٤ والسنة العاشرة ص ١ / ٤ والسنة الحادية عشرة ص ١٦١ / ١٦٧. وكتاب «الربذة» للدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد.

أقسام "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" وفي الإلمام التامّ بتلك النصوص في مختلف مصادرها ومواقعها، وبهما تصبح الأسفار وسيلة إمتاع ونزهة، بما يتصّفان به من أدب جمّ ولطف وظرف، وطول معاناة لها، مكنتهما من التغلب على ما يحدث فيها من عناء وتعب ومشقة.

ولكن تكشف ليَ فيما بعد أن أولهما كان يبطن خلاف ما يظهر، مما لا داعي لإيضاحه هنا، ولذلك رجع من أثناء الطريق بعد أن انتهت الغاية التي قصدها ولم يكمل الرحلة.

كان السفر في صباح يوم الأحد المكمل لشهر جمادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ.

وقد رأى الأخوان – وحسنًا ما رأيا – أن تبدأ الدراسة من طريق الحج البصري القديم، الذي يخترق الدّهنا، فيما بين شقيق النّباج والأسياح غربا، حيث تقع السّمينة قديما (البيصيّة الآن) وبين أسفل وادي الأجردي شرقًا، حيث توجد بريكة الأجردي (الينسوعة قديمًا).

فكان السير مع طريق سدير، والقيلولة بقرب مدينة المجمعة قاعدته، ثم المرور ببلدة الأرطاوية ومنها تفترق الطرق، وتتشعّب، وحينئذ فلا بدّ من دليل، يعرف أسهلها سيراً، وأقصدها لبلوغ الوجهة. فقصدنا مقرّ الإمارة، واتجه العبودي عميد الرحلة ووجيهها، بل (جذيلها المحكّك، وعذيقها المرجّب) في جميع أمورها –وكان الاختيار له عن جهل بحقيقة حاله– اتجه لمقابلة الأمير، وسرعان ما أتيا معا، فرحّب الأمير وألحّ بطلب النزول، مبالغة في الاكرام، ولما رآى حرصنا على مواصلة السير، أنعم لنا بالدليل، وأتبع ذلك بضيافة سخيّة، على حدّ قول الشاعر :

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيث سارا

وكان السير – بإرشاد الدليل – نحو الشمال، حتى جزنا الأرض السهلة، واعترضتنا كثبان الرمال (نفود السياريات) الممتدة من الدهنا، فكان المبيت، وما

أهنأ النوم بافتراش ناعم الرمل النّقيّ، والنّسيم العليل يعطّر الجوّ بأريج الشّجيرات الغضّة الريانة غبّ القطر أو النّدى :

كم ضجعة في القاع في غلس الدّجا   بين الرمّال العفر، وهي وسادي[1]

ومقيل يوم الاثنين غرّة شهر جمادى الآخرة ١٣٩٨هـ تحت ظلال الأثل، على مقربة من قرية (الطِّراق) – بكسر الطاء المهملة وفتح الراء بعدها ألف فقاف – ويظهر أن الموضع سمي بهذا الاسم لأنه أرض منخفضة بين مرتفعين الجنوبي منهما حبال رمال الدّهنا، والشمالي آكام وحزون وأرض خشنة مرتفعة تدعى (التيسيّة) والطراق منخفض ممتد من الغرب نحو الشرق، فيه مجرى وادي (الأجردي) الذي هو امتداد لوادي الرّمة، لو لم تحجز رمال شقيق النباج (عروق الأسياح) ذلك المجرى من جهة الغرب، ثم رمال الحفر من الشرق، وتلك الرمال ألسنة ممتدة من حبال الدهناء.

وكانت المسافة التي قطعناها من الرياض إلى الطراق ٤٣٧ من الأكيال (من الرياض إلى المجمعة ٢٢٧ ومن المجمعة إلى الارطاوية ٧٠ كيلاً ومن الارطاوية إلى الطراق ١٤٠ كيلاً).

رغب الإخوة في زيارة هجرة (قبة) – بضم القاف وفتح الباء مخففة بعدها هاء – وتبعد عن قرية (الطّراق) نحو ٢٦ كيلاً، وتقع في الشمال الغربي منها غرب مرتفعات التّيسيّة، التي هي قديمًا من الحزن، حزن بني يربوع، وتقع (قبة) في وهدة من الأرض، حيث تفيض أودية التيسيّة الغربية في براح واسع، يلبُّ به من الغرب رمال الدهنا، ومن الجنوب منخفض وادي الأجردي، ومن الشمال والشرق آكام وحزون هي امتداد التّيسيّة.

وتقع (قُبَة) على أوسط الطرق التي تتّجه من شمال الجزيرة ووسطها إلى الكويت والعراق، كما أنهاتقع متوسطة بين الدهناء وبين الأرض التي كانت تعرف قديمًا باسم (الحزن) والدهناء والحزن من أطيب مواضع الجزيرة من حيث جودة المراعي، ووفرة النبات، حتى جاد الغيث تلك البلاد، ومن هنا كانت الرغبة الدافعة إلى اتخاذها

---

(١) البيت لفؤاد الخطيب. وكلمة (القاع) لا تتلاءم مع (الرمال) فلو قال : (في البيد) لكان أنسب.

هجرة في أول الأمر. ومن مأثور العرب قديمًا : (من تشتّى الدّهنا وتربّع الحزن فقد أصاب المرعى) وقيل : (لا يصلح العرب، إلاّ ما يصلح إبلهم) والقرية الآن حضريّة بدويّة في مظهرها، ونمّوها بطيء، وذلك يرجع إلى قلة الماء فيها.

ثم كان السير من (الطّراق) باتجاه الشرق، مع مجرى وادي الأجردي، والمرور بروضة واسعة في ملتقى واد يأتي من الشمال، منحدر من مرتفعات التّيسيّة، يدعى شعيب السّهل، وتدعى هذه الروضة التي يكثر فيها شجر العشر (أمّ عُشَر) العليا، و(أم عشر الأجردي) للتفريق بينها وبين موضع آخر سيأتي ذكره قريبًا.

والاسم القديم لهذه الروضة هو (الخبراء) وقد تضاف إلى منهل كان يقع بقربها فيقال : (خبراء الينسوعة). وتبعد عن (الطراق) سبعة عشر كيلا، ولا أدري لِمَ لَمْ تُحْيَ هذه الروضة! ولعل هذا يرجع إلى عدم العثور على الماء الكافي.

ويدل على هذا وجود آثار حفر بالآلات الحديثة، وبجواره طين يابس، مستخرج من جوف الأرض وفوهة ما حفر مغطّاة.

وكان مبيت ليلة الإثنين (ثاني جمادى الآخرة ١٣٩٨) بقرب هذه الروضة.

وكان السير صباحًا من (أم عُشَر) هذه - الخبراء قديمًا - إلى بريكة الأجردي تصغير بركة - مضافة إلى وادي الأجرديّ، والبريكة من آثار طريق الحج القديم، وموقعها يدعى (الينسوعة)، بالياء المثناة التحتية والنون الساكنة بعدها سين مهملة مضمومة، فواو ساكنة فعين مهملة مفتوحة فهاء - ويصحف هذا الاسم لغرابته وتشابه بعض حروفه، والبريكة تصغير بركة، حيث مجتمع الماء.

والمسافة بين الخبراء (أمّ عُشَرٍ) وبريكة الأجردي (الينسوعة) ستة عشر كيلاً.

وتقع (بريكة الأجردي) في جوّ واسع من الأرض، في مفيض الوادي، وما يرفده من شعاب تأتيه من الجهة الشمالية، من مرتفعات التّيسيّة، ويكثر السِّدر في الجهة الغربية منه، حيث يستريض السيل، فيكونُ مستنقعات واسعة (رياضًا).

أما البريكة فهي في الجانب الشرقي مرتفعة عن تلك المنخفضات، لئلا تمتلئَ بما يجرفه السيل من الطين الناعم (الغرين) والماء يصل إليها من مجار تمتد من الخباري التي تجتمع فيها سيول وادي الأجردي، ومن شعب أخرى.

وقد تهدمت جوانب البريكة، وامتلأ جوفها بالطين، وكثر نبات السدر بقربها.

وتقع البريكة في الجانب الشمالي الموالي لمفيض الوادي، من ذلك الجوّ الواسع، وبقربها آبار قديمة، لا يزال بعضها مستعملاً، وتلك آبار الينسوعة، إحدى مناهل طريق الحج البصري التي قال عنها الأزهريّ صاحب كتاب "تهذيب اللغة" - قبل ألف عام: (ينسوعة القُفّ: منهل من مناهل طريق مكة، على جادّة البصرة، بها ركايا عذبة، عند منقطع رمال الدّهنا، بين ماويّة والنّباج، وقد شربت من مائها). انتهى. وقد وصف ماءها بالعذوبة قبل الأزهريّ وهب بن أبي حازم من أهل القرن الثاني الهجري فقال في أرجوزته في وصف طريق الحج[1]:

فأوردوا المطيّ عذبًا باردًا ثمّ ارتووا، وقرّبوا المزاودا

ولن أطيل - عند وصف الأماكن والمناهل - بذكر أقوال المتقدمين، بل سأكتفي بإشارات موجزة، ومن رغب الاستزادة فليرجع إلى "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" (قسم المنطقة الشرقية).

تفرّق الإخوة في مفيض الوادي بحثًا عن موقع البركة، وهذا المفيض روضة من أوسع ما رأيت من الرياض، وأكثرها أشجارًا، وقد جرفت السيول التي تأتي من الوادي ومن الشعاب المنحدرة من المرتفعات الواقعة شمالها جرفت من الطين الناعم (الغرين) ما كَوَّنَ طبقة سميكة غطّت أرض هذه الروضة الواسعة، ويستغرب المرء بقاء هذا المكان الخصب بدون إحياء.

وبعد أن بلغ أحد الإخوة موقع البركة أخبر الباقين، وكان بعضهم قد أعياه إكثار المشي

---

(١) انظر تلك الأجوزة الفريدة في بابها في كتاب "المناسك ومواضع طرق الحج" من منشورات (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر).

فاستظل تحت شجر السّدر، إذ السيارة يصعب سيرها داخل الروضة لكثرة الأشجار، ولوجود كثير من الآكام الصغيرة المتكونة من تراكم الطين حول جذوع تلك الأشجار.

فكان الاجتماع عند البركة، ثم أبصرنا على مقربة منها آثار الآبار، ورأينا إبلا غير بعيدة عنّا تبين لنا أنها مجتمعة على ماء يمتحه لها صاحبها من إحدى الآبار - آبار الينسوعة -.

ولما بلغناها بادر بعض الإخوة للشرب من الماء، فناولهم الماتح الدّلو، ولعلهم أرادوا التأكد من وصف المتقدمين لماء الينسوعة بالعذوبة، وللاقتداء بفعل عالم جليل شرب من هذه الآبار، ولكن هذا العالم في حالة أسر[١]، والأسير قد يستعذب ما ليس عذبًا! ولهذا بدا طعم ماء هذه البئر مقبولاً، مستساغًا في الشرب وإن لم يكن عذبًا، فهو - بتعبيرنا اليوم (دبج[٢]). ويظهر أن طعم الماء تغيّر خلال هذه السنين الطويلة، أو أنّ الآبار العذبة الماء قد درست.

وبعد الاستراحة كان الاتجاه شرقًا، وبعد اجتياز حبال الدهنا، كان الاتجاه إلى (ذات العُشَر) ابتداء من أعلى وادي الباطن (فلج قديمًا) ولتشعب الطرق في الرمال لم يكن سيرنا قصداً، بل امتد شرقًا بدون قصد منا، ثم عدنا للاتجاه نحو الجنوب الغربي، حتى خرج بنا الطريق على منهل الثّمامي (المجازة قديمًا) فجزناه ولم نقف، ولم نقل إلاّ في (أمّ عشر) - وهذه أمّ عشر الباطن - وهي (ذات العشر) قديمًا - وفيها مزارع، وآثار عمران قديم، وبيوت وسكان من قبيلة مطير، والعُشَرُ نوع من أشجار البادية معروف.

كان الحجاج قديمًا يقطعون ما بين المجازة (الثّماميّ الآن) وبين الينسوعة (بريكة الأجردي) من رمال الدهنا بأقل من مرحلة، إذ المسافة بينهما تقارب ثلاثة عشر ميلاً. فالمرحلة عندهم من ذات العشر إلى الينسوعة، أما المجازة فكانت المتعشّى بعد رحيلهم من ذات العشر، ومنها إلى الينسوعة نحو عشرة أميال، ولكن السير فيها شاق حيث تعظم رمال الدهنا، فيصعب قطعها، وأهل السيارات الآن يتحامون السَّير فيها،

---

(١) انظر عن الأزهري مقدمة قسم (المنطقة الشرقية) أحد أجزاء "المعجم الجغرافي".

(٢) لعل هذا الوصف للماء مما فات علماء اللغة تدوينه فلم أره فيما اطلعت عليه من كتبهم.

فينكبّونها ذات اليمين أو ذات اليسار، إلى الجوانب التي يمكن اجتيازها.

كان المقبل في بستان، في أم عشر (ذات العشر قديمًا) صاحبه مطيري يدعى الحمدانيّ، والمسافة بينها وبين الثمامي (المجازة) سبعة عشر كيلاً. ولم يضق صاحب البستان ذرعًا بنا، فقد تظللنا بشجر بستانه، وانتفعنا بمائه وقابلنا بمحيًا طلق، ورحّب بنا.

ويعلّل صاحب كتاب "المناسك" الاسم قائلاً[١]: سميت ذات العشر لأنها كانت منابت العشر، وذكر أن فيها آباراً.

وقد شاهدنا آثار بناء قريب من مقيلنا، على الجانب الشمالي للوادي، يظهر أنه من الحصون التي بنيت لتكون مقرًّا لحراس منازل طرق الحج، وقد نقلت أحجاره لاستعمالها أثناء عمران القرية في هذا العهد، ورأينا صخوراً عظيمة بقرب موقعه عند مبزنة (محطة بنزين) بقربه.

ووادي الباطن (فلج) قديمًا، يتضح مجراه من غرب منهل الثّمامي غير بعيد، حيث يبدو جانبا الوادي مرتفعين، ومجراه غور منخفض انخفاضًا عميقًا، وفم الوادي من أعلاه قد سدّته رمال الدهنا، وحفّت بجانبي المجرى جنوبًا وشمالاً، منحدرة بانحدار الوادي إلى قرب (أمّ عشر) حيث انقطعت الرمال، وبرزت جوانب الوادي مرتفعة، ذات أرض صلبة.

ويظهر أن الوادي من أعلاه إلى قرب مفيضه كان في العهود القديمة مملوءاً بالآبار، كما تدل على ذلك الآثار ونصوص المتقدمين.

وكان وادي الحفر هذا من منازل بني العنبر، من بني تميم، ويجاورهم بعض فروع من تميم من بني مازن وغيرهم. وكان الوادي يسمّى (فلجا) بالفاء مفتوحة واللام ساكنة وآخره جيم.

قال الراجز:

إنّ بني العنبر أحموا فلجا ... ماءاً رواءا وطريقًا نهجا[٢]

وكانت مياهه عذبة. قال أحد الشعراء:

---

(١) ص: ٥٨١.

(٢) ويروى: من يك ذا شك فهذا فلج ... ماء رواء وطريق نهج.

الا شربة من ماء مزن على الظّما ... حديثة عهد بالسّحاب المسخّر
على رضف من بطن فلج كأنّها ... إذا ذقتها بيّوتة ماء سكّر

– لندع الحديث عن هذا الوادي في محله من "المعجم" ولنسر على بركة اللّه من ذات العشر –.

بعد أن قطعنا نحو ٣٠ كيلا قاربنا قرية حديثة، سيئة الاسم، فاستحسن الإخوة المبيت قبل بلوغها، وتدعى (ذبحة) وتجاوزناها في الصباح، وكنّا مررنا بعد مسيرنا من أمّ العشر بروضتين واسعتين، متجاورتين في بطن الوادي تدعيان (القراين)، وقد تحدثت عنهما في (قسم شمال المملكة) وظننتهما (الرقمتين) اعتماداً على نص أوردته هناك، غير أنني بعد مشاهدة هذه المواضع والمسير في هذا الوادي بدا لي وللأخوين رأي آخر. هو أن الرقمتين الواقعتين في هذا الوادي هما أقرب إلى الحفر من روضتي (القرائن) ويدل على هذا نصّ أورده صاحب "المناسك"[١] : (وكان في البطن من وراء ماويّة عند التواء الوادي – وذلك الموضع يسمى العوصاء لالتوائه – الرقمتان، وفلج يضيق في ذلك الموضع، وهما قريتان على شفير الوادي من جانبيه، والقفّ في ذلك الموضع مرتفع، كانت إحداهما بإزاء الأخرى، وهي منزل مالك بن الريب[٢]. قال :

فللّه درّي يوم أترك طائعا ... بنيّ بأعلى الرّقمتين وماليا

ثم ذكر بعد ذلك المتعشّى للمتّجه من ماويّة، والمنزل الذي يلي ماوية ذات العشر، والقراين شرق ذات العشر بنحو ستة أكيال، فهي بعيدة عن الموضع الذي حدده صاحب "المناسك" للرقمتين.

بعد أن أقبلنا على قرية (أمّ العواقيل) الواقعة غرب ماوية بنحو ثلاثة أكيال شاهدنا روضتين واسعتين متجاورتين على الجانب الشمالي من الوادي، على مقربة من التوائه

---

(١) ص : ٥٨٠.

(٢) مالك هذا من بني مازن وكان من مشاهير اللصوص في أول أمره ثم ترك ذلك وانضم إلى الغزاة أثناء الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري، فلدغته حية وهو في بلاد فارس ببلدة (طبس) التي تحرف في أخبار (ايران) هذه الأيام إلى (تاباس) فرثى نفسه بقصيدة من عيون الشعر أوردها صاحب كتاب "جمهرة أشعار العرب" كما أوردها ياقوت مجزاة في "معجم البلدان" ولمالك هذا ترجمة في "الأغاني" ١٩ / ١٦٤ ط الساسي.

وارتفاع جانبه، وهو قفّ - أرض خشنة - لم يداخلنا شكٌّ في أنهما الرقمتان، وتقعان غرب (أم العواقيل[١]) التي هي ماوية في القديم. التي تبعد عن أمّ عشر ٣٨ كيلاً.

وقد حدد صاحب "المناسك" المسافة بينهما ٢٩ ميلاً وهي تقارب التحديد الأول.

كان علينا أن نتحقق من انطباق موقع (أم العواقيل) على موقع ماويَّة.

وماويَّةُ هذه من أشهر منازل طريق الحج البصري، بل من أشهر المناهل في هذا الوادي (فلج). نقل صاحب كتاب "المناسك" : كان من وراء الحفر منازل للعرب قديمة، في بطن فلج، مياهها عذبة، وزعمت العرب أنهم لم يشربوا أعذب من ماء ماويّة، غابًّا في السّقاء. وكان الحجاج[٢] لما سار في طريق البصرة منصرفًا من الحج، أمر بالمياه فوزنت، فيما بين البصرة ومكة، فلم يجد أخفّ من ماء ماويّة. انتهى.

لقد شاهدنا آثار عمران قديم، من آبار دارسة، وبركة واسعة، رأينا في وسطها كسرة حجر من رخام، بقيت بعض حروف كتابة فوقه بارزة، وهذه البركة على شفير الوادي من الناحية الجنوبية.

ومن شاهد موقع (أمّ العواقيل) وما حولها وقرأ ما ورد من النصوص القديمة عن (ماوية) يجزم بأن الاسمين ينطبقان على موضع واحد، أي أن (أمّ العواقيل) أحدثت مكان (ماوية) القديمة. مع ملاحظة اتساع موقع ماوية في القديم، لكي يسع عشرات الآلاف من قوافل الحجاج، في العهود القديمة.

فالبركة وآثار الآبار تقع شرقًا من القرية الحديثة (أم العواقيل) بنحو ثلاثة أكيال. وهذه تقع في بطن الوادي وعلى ضفّتيه، وبئرها ارتوازية حديثة، وماؤها ليس عذبًا، واسم القرية حديث، والعواقيل : العاقول، وهو شجيرة شاكة، يجود نباتها في القيعان، فتتكاثر في روضة هنا عرفت بالاسم، ثم حفرت فيها آبار، فأصبحت قرية.

---

(١) أم العواقيل روضة أكثر نباتها العاقول واحدته عَاقُولة شجيرة شاكة ترعاها الإبل.

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي.

والآن وقد انتهينا من مشاهدة المواضع الواردة في النصوص التي اطلعنا عليها في كتب المتقدمين مما هو واقع في بطن وادي فلج (الباطن) ولم يبق بيننا وبين بلدة (الحفر) ما هو جدير بالمشاهدة ومواصلة السير في بطن الوادي شاقة، فلنعدل ذات اليمين لسلوك الطريق المعبّد، الممتد من المطار العسكريّ الحديث إلى بلدة الحفر، وفيها كان المقيل.

رحلة إلى طيبة (*)

الغاية من الحديث عن هذه الرحلة، تكاد تنحصر في جانب واحد، هو أن كثيراً من مواضع بلادنا لا يزال محتفظًا باسمه القديم الذي نقرأه في كتب التاريخ والرحلات وفي شعر الشعراء المتقدمين. وقد تكررت رحلاتي إلى هذه البلاد الطيبة، فقد وجدت في مكتباتها من نوادر المخطوطات ما كنت شديد التطلع إلى معرفته، وقد أمضيت فيها من صيف عام ١٣٥٤، وزرتها مرات أخرى.

ولقد خطر لي - أثناء تعليقي على القسم المتعلق بتحديد الأمكنة من كتاب اللغوي المعروف مجد الدين الفيروز آبادي عن تاريخ المدينة المنورة النبوية المسمى "المغانم المطابة من معالم طابة» خطر لي القيام بزيارة البلدة الطيبة، لعلي استطيع أن أحدد بعض الأماكن القريبة منها مما ذكره الفيروز آبادي أو التابعة لها على ما جاء في كتابه، تحديداً صحيحًا. وكنت ضعيف الأمل في الاهتداء إلى معرفة تحديد كثير من الأمكنة لتغير الأسماء، وانقطاع تدوين تحديدها منذ أمد بعيد. وقلت في نفسي لتكن تجربة، أقوم بها متتبعًا طريق هجرة المصطفى (ﷺ) إذ العلماء أولوا آثاره عليه الصلاة والسلام، عناية فاقت كل عناية.

وكان أن رجعت إلى أقدم المؤرخين الذين حددوا معالم ذلك الطريق، وأقدم من استطعت الحصول على تحديده، هو ابن هشام مختصر سيرة ابن اسحاق، ثم ابن جرير من بعده، فنقلت أسماء المواضع التي ذكرها هذان العالمان من كتابيهما المعروفين.

(*) مجلة «العرب» س ١ - ص ٤٨١ -.

ووجدت من كرم أخي الأستاذ أبي الخضر عبدالرحمن الشيباني، – وكان وكيلاً لوزارة الإعلام – ما يسر لي وهيأ كل وسيلة لتحقيق أربي، فكان أن قمت بتلك الرحلة القصيرة إلى المدينة في القعدة من عام ١٣٨٦هـ، وان لم تكن كاملة من كل ناحية، إلا أنها بعثت في نفسي آمالاً طيبة، وكان لها من الآثار الحسنة ما ملأ فؤادي تفاؤلاً بأن كثيراً من معالم تاريخنا، وما يتعلق بتحديد المواضع الأثرية في تاريخنا لا يزال سهلاً ميسوراً.

للمدينة المنورة من مكة طرق كثيرة أشهرها ثلاثة :

١ – الطريق الساحلية التي بمحاذاة ساحل البحر الأحمر – بحر القلزم – حتى تحاذي بلدة (بدر) التي كانت في السابق إحدى المحطات الرئيسة لطرق القوافل في غربي الجزيرة إلى الشام، والتي حدثت فيها الوقعة العظيمة التي انتصر فيها الإسلام أعظم انتصار في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن بدر يتجه المرء إلى المدينة ذات اليمين، سائراً مع وادي بدر، الذي أعلاه (وادي الصفراء) حيث تجتمع أودية كثيرة تنحدر من السلسلة الجبلية جنوب المدينة – وسيأتي الحديث عنها – ثم يسلك السائر أحد تلك الأودية متجهًا صوب الشمال، حتى ينتهي منحدراً في وادٍ آخر ويفضي به الطريق بعد ذلك، إلى وادي العقيق مدخل المدينة الكريمة.

٢ – الطريق النجدية وهو طريق يتجه من مكة مشرقًا مع وادي نخلة، حتى يقطع سلسلة جبال الحجاز، ثم يسير منحرفًا نحو الشمال بمحاذاة تلك السلسلة الجبلية مارًّا بأودية كثيرة ومخترقًا قسما من بلاد هذيل، ثم بلاد بني سليم، وطرفًا من بلاد مزينة، ثم يأتي إلى المدينة من الناحية الشرقية، وهذا الطريق كان مسلوكًا إلى عهد قريب، وقد كان للعمل في معدن بني سليم – الذي يمر ذلك الطريق بقربه في الأزمنة الأخيرة – كان للعمل في ذلك المعدن من الأثر ما أحيا هذا الطريق، وأصلح كثيراً من المواضع التي تحتاج إلى إصلاح وتقع محطات له أو قريبة منه.

٣ - الطريق الأوسط الذي يعد الطريق الرئيس إلى المدينة من مكة، وهذا يمر بكثير من الأودية ويعترضه عقبات وأمكنة وعرة، وكانت قوافل الحجاج والزوار في العصور القديمة تسلك هذا الطريق، وقبل عشر سنوات أصلح بعضه حتى صار طريقًا للسيارات، ومن أشهر العقبات التي تقع في هذا الطريق، عقبة (هرشا) وقد عبدت قديمًا لسلوك القوافل ثم سهلت لمرور السيارات.

ويجتمع هذا الطريق مع طريق الساحل في محطة تعرف قديمًا باسم (المنصرف) وحديثًا باسم (المسيجيد) وقد أصبحت قرية كبيرة الآن.

وهناك طرق فرعية أخرى، إلا أن فيها كثيراً من الوعورة بحيث لا تجتازها الإبل الا بمشقة كطريق (الغاير) الذي يتجه إلى المدينة قبل محطة (المسيجيد) بما يقارب مرحلة بسير الإبل. فإن هذا الطريق على وعورته ومروره في أودية رملية وتلاع صخرية، كان مسلوكًا إلى منتصف القرن الماضي، لأن الزوار في شهر رجب كانوا يسلكونه لاختصاره ولكونه هو الطريق القديم، وأكثر من يسلكه راكبو (الحمير) الذين يسيرون في موكب معروف في شهر رجب من مكة، ويجوزون ثنية الغائر، مشاة أو ركبانًا فوق دوابهم، فيصلون إلى قمة السلسلة الجبلية الواقعة بقرب المدينة ثم ينزلون مع وادي (رِيْم) إلى وادي العقيق ثم المدينة.

ومما ينبغي الانتباه له، أن بعض المتقدمين قد يحددون جبلاً أو موقعًا بأنه على الطريق بين مكة أو في شمال الطريق أو يمينه، وإذا لم يكن لدى الباحث المام بمعرفة تلك الطرق وتعددها، قد يقع في إشكال من هذه الناحية.

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم من أن جبل (عَيْرٍ) - وهو جبل عظيم لا يزال معروفًا ومشاهداً بقرب المدينة - يقع على يمين طريق المتوجه من المدينة إلى مكة، وهذا الكلام حق بالنسبة لمن سلك طريق (ريم) ونزل من ثنية (الغائر) ولكن من أتى مع الطريق الأوسط ماراً بالسيَالة فملل فالفرش، يدعه عن يمينه إذا اتجه إلى المدينة، وعلى يساره إذا اتجه إلى مكة.

وملاحظة أخرى ينبغي إدراكها : هي أن الاسم قد يطلق على عدة مواضع، وكثير من المتقدمين لا يفرقون بين تلك المواضع، فيوردون تعاريفها وما قيل في تحديدها. عند الكلام على أحدها فيقع الالتباس، ويقع التضارب عند المتقدمين عندما يحاولون تحديد موضع من المواضع، إذ يعتمد أحدهم على قول، ويعتمد الآخر على قول ثان يخالفه في ظاهر الأمر، وقد يكون في الواقع منطبقًا على موضع آخر، بعيد عن الموضع المقصود. وأمثلة ذلك كثيرة فيما بين أيدينا من معجمات الأمكنة، وكتب التاريخ والرحلات، التي حاول مؤلفوها إيراد ما جاء عن المتقدمين في تحديد بعض الأمكنة التي يتعرضون لذكرها.

ولقد سلك(*) رسول الله (ﷺ) عندما هاجر إلى المدينة طريقًا غير الطريق الذي اعتاد الناس في ذلك العهد سلوكه. يقول السّهيليّ - في «الرّوض» -، حاكيًا عن دليلهما : فكنت آخذ بهم في أخفاء الطريق. وفقه هذا انهم كانوا خائفين، فلذالك كان يأخذ بهم أخفاء الطريق ومخارمه انتهى .

وعندما خرج هو ﷺ وصاحبه الصديق - رضي الله عنه - أخذهما دليلهما فسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل (عسفان) ثم سلك بهما على أمج، ثم جاز بهما، تاركًا الطريق على يمينه، وقد فعل ذلك خوفًا من ترصد قريش للرسول (ﷺ).

وإذا أردنا أن نبحث عن تحديد المواضع التي ذكرها ابن هشام وغيره فإنها تبدو بهذا الترتيب :

١ - أسفل (عسفان) معروف وهو أسفل الوادي عندما يصب في البحر بقرب (ذهبان) الذي يبعد عن جدة ٥٠ كيلاً.

٢ - أمج : وأمج هو أسفل وادي (ساية) الوادي الذي يقع في أسفله (خُلَيْص).

(*) مجلة «العرب» - س ١ ص ٥٨٨ -.

وقد حدد المتقدمون المسافة بين (عين خليص) وبين أمج، بميلين، أي إن العين بعد أمج للمتوجه إلى المدينة، وهذا الوادي يجتمع مع وادي (غُرَان) فيكوِّنَان واديًا واحدًا يفيض في البحر فيما بين (ذهبان) (وثُوَل).

٣ – قُدَيْد : واد طويل، ويظهر أن طريق الرسول (ﷺ) كان على أسفل الوادي، لأن ابن هشام وغيره ذكر أن الدليل سلك بهما الخرّار بعد قديد.

٤ – والخرار على ما ذكر المتقدمون قريب من (الجحفة) وبعضهم يعدّه فيها و(الجحفة) لاتزال معروفة، فكأنَّ الدليل جاز وادي (السّتارة) وهو أسفل (قديد) ويصب في البحر فيما بين (القضيمة) و(ثُوَل) ثم سار قريبًا من الساحل حتى جاز (الخرّار) ثم أخذ ثنيّة تدعى (ثنية المرة).

٥ – وثنيّة المرة لم أجد من يعرفها ولكن يوجد بجهة (كُلَيَّةَ) فيما بينها وبين (رابغ) ثنية يسلكها المتوجه إلى (كلية) والمتقدمون يقولون : عن ثنية المرة إنها قريبة من ماء يدعى (الأحياء) وأنه في وادي (رابغ).

٦ – ويسوق المتقدمون خبر الطريق فيذكرون أن الرسول (ﷺ) بعد (ثنية المرة) سلك (لقفا).

ولقف هذا واد لا يزال معروفًا، وهو من روافد (وادي النَّخل) يقع بين وادي (الفرع) ووادي (مجاح) ويفيض في وادي النَّخل عند محطة (بئر رضوان) التي تبعد عن (بئر مبيريك) مسافة تقرب من ٣٠ كيلاً من جهة مطلع الشمس.

ووادي النَّخل يصب في (القاحة) عند (بئر مبيريك) ووادي (القاحة) يصب في وادي (الأبواء) وقول ابن هشام : أن (لقفًا) يقال له (لفت) واستشهاده بشعر معقل ابن خويلد الهذلي على ذلك، يظهر أنه تصحيف، فابن اسحق أعرف منه بتلك المواضع لقدمه ولإقامته في المدينة. وقد سماه (لقفا).

ويظهر من سياق الخبر أن الرسول (ﷺ) ترك طريق ثنية (هرشا) يساره إذ هو

الطريق المعروف وأنه نزل من (مَدْلَجة لقف) .

٧ - و(مدلجة لقف) تلعة كبيرة، تصب في وادي (لقف) تبعد عن (بئر رضوان) مسافة ١٠ أكيال إذا سنَّدْتَ في وادي (لقف) تفيض فيه من جهة الشمال .

٨ - وفي الخبر : ثم استبطن بهما (مدلجة مجاح) . و(مدلجة مجاح) رافد من روافده لا يزال معروفًا .

٩ - أما (مجاح) فقد ورد في كتب المتقدمين بصيغ مختلفة (محاج) و(مجاج) و(مجاح) وغيرها . والأخيرة هي الصواب، وقد لاحظ هذا السّهيلي حيث قال : وقد ألفيت شاهداً لرواية ابن اسحق في (لقف) وفيه ذكر (مجاح) بالحاء المهملة بعد الجيم، وهو قول محمد بن عروة بن الزبير :

لعن اللّه بطن لقف، مسيلا   و(مجاحا) وما أحبّ (مجاحا)!!

لقيت ناقتي به ، وبـ(لقف)   بلد مجدبا، وأرضا شحاحا !

ان وادي (مجاح) لا يزال معروفًا، وهو من فروع وادي النَّخل، يصب فيه قبل اجتماعه بوادي (القاحة)، بما يقرب من ٥ أكيال قبل (بئر مبيريك) .

وقد رسم على المصور الجغرافي رقم (B ١٠ I - أبحاث جيولوجية مختلفة) ولكنه ورد بالنون (نجاح) محرفًا، والصواب ما ذكرنا .

١١ - ثم سلك بهما (مَرْجِحَ مجاح) .

(مَرْجِحُ) رافد من روافد (مجاح) مقابل لمدلجة مجاح، يصب فيه .

وقد ورد في كتاب «المياه والجبال والآثار» لنصر بن عبدالرحمن الاسكندري مصحفًا : (مدجج) بضم الميم، وفتح الدال وتشديد الجيم الأولى وكسرها - والصواب : بفتح الميم وسكون الراء وجيم مكسورة، بعدها حاء مهملة .

١٢ - وجاء في الخبر : ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين. قال ابن هشام : ويقال (العضوين)، وأقول : المعروف الآن عند أهل هذه الجهة (العصوين) بالعين والصاد المهملتين، تثنية، عصا، وهما تلعتان كبيرتان، كل واحدة منهما تسمى (العصا) تلتقيان، ثم تصبان في وادي (مجاح) بقرب اجتماعه بوادي النخل. وأرى أن الغضوين أو العضوين تصحيف.

١٣ - ثم بطن (ذي كشر).

يعرف هذا الموضع الآن باسم (أم كشد) بكاف مكسورة، وشين معجمة ساكنة، ودال مهملة، لا كما جاء في "سيرة ابن هشام" وفي "معجم البلدان" (وأم كشد) هذه تلعة تصب في وادي يدعى (ثَقيب) وهو واد يجتمع مع وادي (القاحة) بعد أن يتجه المرء من (بئر مبيريك) إلى جهة المدينة، بما يقرب من ١٥ كيلاً.

فكأن طريق الرسول (ﷺ) ترك وادي (القاحة) يساراً في هذه الجهة، ثم التقى بهذا الوادي فيما بعد.

١٤ - وفي الخبر : ثم أخذ بهما على (جداجد) وهو واد صغير من روافد وادي (ثقيب)، وثقيب هذا واد معروف سيأتي ذكره.

١٥ - وورد في الخبر ذكر (الأجرد) و(ذي سلم).

والأجرد يسمى الآن (أجيرد) بالتصغير و(ذا سلم) يسمى (أم السَّلَمة).

بعد أن يقطع المسافر ما يقرب من ثمانية أكيال سائراً في وادي (ثقيب) يصل إلى موضع يدعى (البستان) مسكون، ومنه طريق إلى (الفرع) حيث اتجاه أعلى (ثقيب) وعلى بعد أقل من كيل واحد تقع (أم كشد) وهي وادٍ. ويقع (أُجيرد) على الشمال منها و(أم السَّلَمة) تلعة كبيرة تصب في (أجيرد) وكلها تصب في وادي(ثقيب) ثم يسير الطريق المتجه إلى (القاحة) تاركًا (أجيرد) على يمينه، جازعًا أعلاه، وبعد أن يتركه ينحدر في تلعة تصب في وادي (القاحة) حيث يرجع الطريق إليها مرة أخرى.

١٦ - وورد في الخبر أسماء منها (تعهن) و(أعداء) .

أما (تعهن) فانها واد كبير يصب في (القاحة) عند المحطة المعروفة الآن باسم (أم البرك) وقديمًا باسم (السُّقْيا) - كما سيأتي الحديث عن مراحل الطريق العام .

والغريب أن أهل تلك الجهة ينطقون هذا الاسم (تعهن) بفتح التاء بإمالة نحو الكسر، وكسر العين وبالهاء المشددة المكسورة بعدها نون .

١٧ - وذكر ابن هشام(*) في سياق خبر الهجرة بعد أعداء مدلجة تعهن قال : ثم العبابيد، قال ابن هشام : ويقال : العبابيب، ويقال : العثيانة، يريد العبابيب .

لم أجد أحداً يعرف شيئًا عن هذا الموضع الذي ذكر له ابن هشام ثلاثة أسماء، مع أن من قابلتهم لم يكونوا من أهل الموضع الذي يقع بعد (تعهن) ذلك أنني مررت بتلك الناحية ليلاً، فلم أصادف أحداً من أهلها .

ولعل أخي الأستاذ سليمان سليم مدير التعليم في تلك النواحي يكرم - وهو كريم - فيحقق للقراء هذا الموضوع وغيره مما تقدم أو سيأتي ذكره، فالمار والذي من غير أهل البلاد يفوته الشيء الكثير.

١٨ - قال ابن هشام : (ثم أجاز بهما الفاجة - ويقال القاحة فيما قال ابن هشام) .

وقول ابن هشام هنا هو الصواب، فالقاحة بالقاف ثم الحاء المهملة المفتوحة المخففة بعدها هاء، واد عظيم يفيض فيه في أعلاه وادي (تعهن) والسالك مع هذا الطريق بعد (تعهن) يجوزه، بقرب ما يدعى الآن باسم (أم البرك) جمع بركة وهي قرية كانت كبيرة، إلا أنها ضعفت الآن وكانت تدعي قديمًا (السّقيا) بالسين المهملة المشددة المضمومة بعد قاف - ساكنة فياء مثناة تحتية مفتوحة ممدودة، وهي سقيا بني غفار قبيلة معروفة قديمًا كانت من مساكنها في القديم، وأعالي (السقيا) تبتدئ من مكان يبعد عن (أم البرك) بما يقارب ٤٥ كيلاً بعد أم البرك للمتوجه

(*) مجلة « العرب » س ١ - ص ٦٩٢ - .

إلى المدينة، عند محل يدعى (الرَّصفَة) وهو جبل منحوت قديمًا لسلوك المسافرين أرضه مرصوفة.

ويمتد وادي (القاحة) من هذا المكان متجهًا صوب الجنوب، حتى يفيض في وادي الأبواء، وتجتمع به أودية كثيرة من أشهر ها وادي ثقيب ووادي النَّخْل الذي يفيض فيه سيل واديي (مَجَاح) و(لَقْف) وأودية أخرى كثيرة تقدم ذكر بعضها.

١٩ - وقال ابن هشام: ثم هبط بهما (العرج).

والعرج على ما ذكر المتقدمون يبعد عن أول وادي (القاحة) بما يقارب ثلاثة عشر ميلاً.

ولعله هو أعلى ما يسمى الآن وادي (الجيّ) بجيم مكسورة بعدها ياء مشددة، وهو يبعد عن أعلى وادي (القاحة) بما يقارب الميل الواحد، هذا أعلاه، فكأنّ طريق الرسول (ﷺ) جزعه من اثنائه.

ووادي (الجي) يقول بعض المتقدمين إنه منزل فيه بئران، عذبتا الماء، وأنه في سفح جبل، وان ورقان الجبل العظيم المعروف ينتهي عنده، ويحدد المسافة بينه وبين (عقبة العرج) بأقل من عشرة أميال، ويقول بأن عقبة العرج بين جبلي (قدس) و(ورقان) وهذا الوصف ينطبق على أعلى وادي (العرج) فكأن اسم الجي غلب على وادي العرج لوقوع الجي في أعلاه.

أما (قدس) هذا فهو من أشهر الجبال القديمة وأعرفها، ويسمونه الآن (ادقس) بهمزة مكسورة بعدها دال ساكنة، فقاف فسين، تحريف للاسم القديم.

من أول وادي الجي تتجه سيول الطريق مغربة حيث تجتمع كل الأودية الواقعة دون المدينة عن يسار جبل ورقان، وهي السلسلة الجبلية الممتدة من نهاية وادي الجي إلى نهاية وادي (الرّوحاء) مما يسيل من هذه السلسلة وغيرها فتكوِّن أودية عظيمة تجتمع بهذا الوادي المسمى الآن بوادي الجي ثم يجتمع معها وادي الروحاء،

ووادي (النازية) بتخفيف الياء ووادي (رحقان) وتفيض كلها بوادي الصفراء ثم تتجه صوب البحر غربًا حتى تصب فيه بقرب (الرايس) موقع (الجار)[1] ميناء المدينة القديم، شمال (مستورة) التي انشئت بقرب (ودَّان) الموضع المشهور قديما، ويقع الجار بقرب خط الطول: ٣٨ْ / ٣٠َ، وخط العرض: ٢٣ْ / ٣٠َ.

لقد ترك الرسول (ﷺ) كل هذه المواضع بيساره وعدل عن الطريق المعروف وسلك ثنية الغائر - والعائر بالعين المهملة تصحيف صوابه الغائر - بالغين المعجمة وهي ثنية لا تزال معروفة، ويسلكها الذين يذهبون للزيارة قديمًا مشاة أو على الدواب، وهي ثنية صعبة السلوك، وغير معبدة في الوقت الحاضر، ولا تسلكها الإبل إلا بجهد ومشقة.

وعندما رغبت المرور بها، لم أجد في تلك الناحية أحداً يرشدني إلى الطريق، وقيل لي : إن الإبل - في هذا العام لتوالي الجدب - هزيلة لا تستطيع اجتيازها ومن الأيسر أن أنزل معها نزولاً من جهة المدينة.

٢١ - وقال ابن هشام بعد ذكر ثنية الغائر : (حتى هبط بهما بطن رِئْمٍ).

ورئم هذا وهو ينطق الآن بتسهيل الهمزة (ريم) - وهو واد من روافد وادي عقيق المدينة - لا يزال معروفًا.

ويحسن إيراد وصف موجز للطريق العام الذي سار النبي عليه الصلاة والسلام بقربه ولم يسلكه عند هجرته، ولكنه سلكه بعد ذلك.

ولقد عني المتقدمون بتحديد مواقع هذا الطريق عناية كبيرة كما عني ملوك المسلمين المتقدمون بإصلاحه، ووضع العلامات التي تحدد المسافات فيه لأنه الطريق الذي يصل بين المدينتين الكريمتين من أقرب المسافات، ولكن هجران هذا الطريق منذ أن اختل الأمن في أثناء العهد العباسي جعل الناس ينصرفون عنه، لوقوع أكثر منازله بين أودية وجبال تحتلها القبائل، الذين كثيراً ما تقسو عليهم الحياة، وتضطرهم إلى النهب والسلب أثناء عجز ولاة تلك النواحي عن تأمين ذلك الطريق. وكان من أَهَمِّ الأمور التي دعت إلى تحديد

---

(١) انظر عنه « العرب » س٤ ص١١٧٠.

منازل هذا الطريق سلوك الرسول (ﷺ) وسيره فيه أثناء أسفاره من المدينة إلى مكة، والمتقدمون كانوا يعنون بتتبع آثار الرسول (ﷺ) وخاصة مساجده. وقد كان من أبرز من عني بتحديد منازله من العلماء المتقدمين عالم يدعي أبا عبدالله محمد بن أحمد الأسدي[1] ولا نعرف عن هذا العالم إلاَّ ما أورده السمهودي مؤرخ المدينة فهو يقول[2]: (إنه من المتقدمين يؤخذ من كتابه أنه كان في المئة الثالثة) وقد ذكر ان له منسكًا حدد فيه أمكنة المساجد النبوية، وأورد السمهودي ذلك التحديد مفرقًا في كتابه ويتفق بتحديد كثير من الأمكنة – بل حتى في بعض العبارات– بما ورد في الكتاب الذي نشرته باسم «المناسك» منسوبًا للحربي، وترجَّح عندي أنه كتاب «الطريق» للقاضي وكيع، تلميذ الحربي، فيما نشره الدكتور عبدالله الوهيبي في مجلة «العرب»[3].

ويظهر مما نقل السمهودي عنه أنه من العراق لوصفه مواضع تقع في طريق البصرة إلى مكة في نجد[4] ومواضع أخرى تقع في طريق الكوفة كتحديده للطريق من فيد إلى المدينة[5] وقد حدد مواقع في طريق المدينة إلى مكة، الطريق النجدية مثل (أفاعية[6]) وحدد الطريق من ذات عرق وهو ميقات أهل المشرق[7].

وقد نقل القاضي عياض في «شرح مسلم» عند الكلام على (إهاب) عن عالم يدعي الأسدي ووصفه بأنه من مشائخه ولا نعلم هل هو هذا أم غيره؟.

يحدد المتقدمون مراحل هذا الطريق على النحو التالي :

– من المدينة إلى الشجرة (٦) أميال، ومعروف أن الشجرة في ذي الحليفة مكان الإحرام المعروف الآن بأبيار علي، وقد بلغه عمران المدينة.

ويستمر الطريق القديم مع الطريق الذي تسلكه السيارات الآن إلى المسيجيد ومن أشهر المواضع القديمة فيه (الروحاء). ولا تزال معروفة وكانت لها شهرة قديمة، ويروى

---

(١) «وفاء الوفاء» ١ /٦٨ ط: ١.. (٢) نفس المصدر ٢ / /١٦٤. (٣) س ٢٣ ص٤٣٣.
(٤) المصدر السابق ٢ /٢٢٨. (٥) نفس المصدر ٢ / ٢٦١.
(٦) المصدر السابق: ٢ /٢٤٨. (٧) المصدر السابق: ٢ /١٨٣.

عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال وهو في وادي الروحاء مشيراً إلى الجبل العظيم الممتد عن يسار المتجه إلى مكة : "وما اسم هذا الجبل"؟ قالوا : (ورقان) فقال : (اسمه (حمت) جبل من جبال الجنة، اللهم بارك فيه وبارك لأهله فيه، أتدرون ما اسم هذا الوادي يعني وادي الروحاء؟ هذا سجاسج لقد صلى في هذا المسجد قبلي ٧٠ نبياً ولقد مر بها - يعني الروحاء - موسى بن عمران في ٧٠ ألفًا من بني اسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان على ناقة له ورقاء ولا تقوم الساعة حتى يمر بها عيسى ابن مريم حاجًّا أو معتمراً) والحديث من رواية ابن زبالة ومعروف مقامه عند المحدثين.

ولقدم الروحاء نشأت فكرة وجود قبر مضر بن نزار فيها، كما أشار إلى ذلك البكري في "معجم ما استعجم".

ويشاهد المرء غرب البئر والمسجد آثار بناء قديم ومقابر كثيرة هناك، وتبعد الروحاء هذه عن المدينة بما يقارب ٨٠ كيلاً وبعد الروحاء بأربعة أكيال يمر المسافر بطرف جبل عن يمينه يسمى عرق الظبية، بجواره مسجد متهدم، وآثار قبور بطرف المسجد، وللمسجد هذا ذكر عند المتقدمين حيث يعدونه هو ومسجد الروحاء من المساجد النبوية، والذي يَعْنِينا من هذا هو الإشارة إلى قدم هذه المواضع.

ومن الروحاء إلى المسيجيد القرية الكبيرة الآن ثمانية أكيال، والمسيجيد اسم حديث ويعرف قديمًا باسم المنصرف بفتح الصاد، وفيه مسجد يعرف بمسجد الغزالة، لا يزال معروفًا وهو قديم أيضًا ذكره البخاري في صحيحه.

وسيل وادي الروحاء يفيض إلى المنصرف ولهذا يسمى منصرف الروحاء، ويجتمع مع أودية النازية ورحقان ووادي الجيِّ ثم تفيض هذه الأودية في الصفراء.

والطريق القديم ينصرف من المنصرف ذات اليسار متجهًا صوب الجنوب تاركًا الطريق المعروف الآن بيمينه.

ومن الأمكنة القديمة التي كان يمر بها هذا الطريق الرويثة، وكانت من أشهر منازله فيها آبار وحياض، ويقع بقربها جبلان يدعى الشرقي منهما (الحسناء)

ويدعى الغربي (الحمراء) ولا تزال آثار قرية الرُّوَيْثَة باقية بعد أن ينزل المرء في الوادي يشاهد تلك الآثار عن يمينه، ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الروحاء بـ ١٥ ميلاً على وجه التقريب.

ومن الرُّوَيْثَة إلى السُّقْيَا، وهذه درس اسمها وتعرف الآن باسم (أم البِرَك) وقد نقل السمهودي عن الأسدي أن في السقيا أكثر من عشر آبار، وأن عندها بركة وفيها عين غزيرة الماء تصب في بركة المنزل، وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد، عليها نخل وشجر كثير وكانت قد انقطعت ثم عادت في سنة ٢٤٣هـ ثم انقطعت في سنة ٢٥٣هـ[١] وعلى ميل منها تقع صدقات الحسن فيها من الآبار المزروعة ٣٠ بئراً، وفيها مما أحدث في أيام المتوكل ٥٠ بئراً، ماؤهن عذب، وطول رشائهن قامة وبسطة وأقل وأكثر، وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين يقال لها (تعهن) انتهى كلامه وهو يتفق مع ما في كتاب «المناسك، الطريق» وهذه السقيا تعرف قديمًا بسقيا بني غفار، تفريقًا بينها وبين السقيا التي في وادي الجزل، وتقع السقيا هذه في أعلى وادي القاحة حيث يلتقي بوادي تعهن.

وقبل السقيا هذه يمر المسافر بواد عظيم هو وادي الجيّ، جاء في «رسالة عرام بن الأصبغ السلمي»: (ورقان جبل أسود عظيم ينقاد من سيالة إلى المتعشى بين العرج والرويثة، ويقال للمتعشَّى الجيّ، وبسفح ورقان من عن يمين: سيالة ثم الروحاء ثم الرويثة ثم الجي).

وقال ياقوت في «المعجم»: (جي بالكسر واد عند الرويثة بين مكة والمدينة، ويقال له المتعشَّى، وهناك ينتهي طرف ورقان وهو في ناحية الجبل الذي سال بأهله وهم نيام فذهبوا والله أعلم!) وهذا القول لنصر الاسكندري في كتابه.

إن الطريق من المسيجيد إلى (أمّ البرك) المعروفة قديمًا بالسقيا، يتجه إلى الشرق

---

(١) هذا الكلام لصاحب كتاب «المناسك».

ثم إلى الجنوب، وعندما يقبل على (أم البرك) ينحرف، اتجاهه إلى الجنوب فيتجه شرقًا بميل نحو الشمال، ولا يزال على هذا الاتجاه حتى يصل مدينة رابغ.

أما الطريق الحديث فإنه من المسيجيد يتجه غربًا ثم يأخذ في الاتجاه صوب الجنوب عندما يصل بلدة بدر ويستمر بمحاذاة البحر حتى بلدة (رابغ).

وأهم المواضع الأثرية الواقعة على الطريق القديم بعد السقيا : عين تعهن وقد ضعفت هذه العين منذ أمد طويل، ولم يبق الآن سوى آثارها، يدعها المرء عن يساره إذا اتجه من السقيا إلى الأبواء.

يسير المتجه في وادي القاحة، والسقيا في هذا الوادي، ويلتقي بوادي تعهن بعد السقيا بكيلين اثنين تقريبًا، ثم يدع وادي القاحة بيمينه وينزل في واد يدعى ثقيب بفتح الثاء وكسر القاف، له ذكر في الشعر القديم وفيه آثار عمران لا يزال باقيًا منها موضع يدعي البستان، وهو بستان كاسمه. وثقيب من روافد وادي القاحة، ومنه طريق إلى الفُرْع في اتجاه أعلى الوادي، وبعد ثقيب بما يقارب عشرة أكيال واد يدعى (نعا) في ملتقاه بوادي القاحة آثار بنيان وعمران قديم.

ثم يستمر السير في وادي القاحة، وعلى بعد عشرة أكيال من وادي نعا للمتجه نحو مكة هناك يلتقي وادي النخل بوادي القاحة وهذا الوادي من أشهر الأودية، وعند التقائهما تتسع الأرض، وتكثر آثار العمران القديمة حول المكان المعروف باسم (بئر مبيريك).

ويذكر المتقدمون أن بين السقيا وبين الأبواء في الوسط بينهما عين تدعى عين القشيري وهي عين كثيرة الماء، ويقال للجبل الأيسر المشرف عليها قدس وأوله في العرج، وآخره وراء هذه العين. ويقال للجبل الذي يقابلها يمنة يقال له بَاقِل[١]، وللوادي الذي بين هذين الجبلين وادي الأبواء[٢] إن هذا الوصف ينطبق على الموقع

---

(١) لعل الصواب (ثافل) كما في كثير من المصادر.

(٢) "وفاء الوفاء" في الكلام على مسجد الرمادة.

المعروف الآن باسم (بئر مبيريك)، والتي يقال بأنها منسوبة إلى أحد مشايخ قبيلة زُبيد أهل رابغ في العصر الحاضر، وانه حفر هذه البئر منذ عهد قريب في هذا الموضع فنسبت إليه، ولا يزال يعرف بوادي الابواء.

وعلى بعد خمسة عشر كيلاً توجد القرية المعروفة باسم الأبواء، وكانت إلى عهد قريب تعرف باسم الخُريبة، وفي سفح الجبل الواقع بقرب مدرسة هذه القرية يوجد آثار قبر منسوب إلى آمنة أم النبي (ﷺ)، وبقربه مسجد قديم. والمتقدمون يذكرون من المساجد النبوية، مسجد الأبواء.

ومن الأبواء يأخذ الطريق ذات اليسار متجهًا صوب الشرق، وبعد ١٩ كيلاً يصل إلى ثنية هرشا، وهذه الثنية تجزع طرفا يمتد من الحرة (حرةُ رهَاط) يمتد معترضًا الطريق إلى الغرب حتى يقرب من البحر فيما بين رابغ ومستورة، وفي هذا الطرف قسم يدعى باسم هرشا، فيه ثنيتان الغربية منهما أسهل من الشرقية لتعبيدها وفي الثنية ورد المثل :

خذا أنف هرشا أوقفاها فإنما كلا جانبي هرشا لهن طريق

وقد حرّف هذا الاسم في بعض الكتب الحديثة إلى حرشا[1] وقد مهدت ثنية هرشا في عشر الستين من القرن الماضي لمرور السيارات، عندما كان هذا الطريق مسلوكًا قبل إصلاح الطريق المسلوك الآن طريق الخبت، أما هذا الطريق القديم الذي سلكه الرسول (ﷺ) إلى مكة ثم كان المسلمون قديمًا يسلكونه. فقد كان يمر بهذه الثنية. ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الأبواء بثمانية أميال وقد سلكتها بالسيارة فبلغت من الثنية إلى مدرسة الأبواء ١٩ كيلاً، وهذا يقارب تحديد المتقدمين.

وبقرب الأبواء تقع (ودَّان) وليست على الطريق، ولكنها في أسفل الابواء، ووادي الأبواء يفيض فيها، والذي يقصدها ينحرف إليها ذات اليمين قبل وصوله إلى الأبواء، وبعد صدوره منها يعود إلى ثنية هرشا، ولا يمر بالأبواء.

---

(١) «مسافات الطرق في المملكة».

وتقع (ودّان) بحسب ما حدده المتقدمون بقرب قرية مستورة، إذ وادي الأبواء يفيض في البحر عندما يحف مستورة من جهة الجنوب. وودَّان هي بلدة الشاعر نصيب المشهور التي يقول فيها :

اقول لركب موجفين لقيتهم ... قفا ذات أوشال، ومولاك قارب

قفوا حدثوني عن سليمان إنني ... لمعروفه من أهل ودّان طالب

فعاجوا فاثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

يقصد الخليفة سليمان بن عبدالملك.

وممن عرف من شعراء هذه النواحي الشاعر خارجة بن فليح المللي وكان يسكن وادي ملل، وهذا الوادي لا يزال معروفًا، ويقع بين الفريش الذي يبعد عن المدينة بـ ٤٩ كيلاً وبين وادي تُرْبان الذي يصب في ملل، ويبعد عن المدينة ٣٣ كيلاً.

ومن (تربان) : الشاعر عروة بن أذينة الكناني.

ومن هرشا يتجه الطريق إلى الجحفة هذا الطريق القديم، وتقع الجحفة في الجنوب الغربي من بلدة رابغ، ولا تزال معروفة، وتبعد عنها بـ ١٩ كيلاً وكان المتقدمون يحرمون من رابغ قبل محاذاة ميقات الإحرام، لأن طريق رابغ يأخذ الساحل ويدع الجحفة بيساره، ووادي الجحفة يصب في البحر عند نقطة تبعد جنوبًا عن رابغ بـ ٢٠ كيلاً.

والجحفة كانت قديمًا مدينة أثرية في العهد الجاهلي وفي صدر الإسلام، ولا تزال آثار المسجد النبوي قائمة وقد بني بقربه مسجد حديث. ويشاهد المرء على ضفاف الوادي آثار العمران من آبار ومزارع وقبور واساسات بالصخور.

ومن أغرب ما يشاهده المرء بقرب الجحفة وعلى مسافة ١٠ أكيال تقريبًا غرب المسجد يشاهد آثار بناء وأطلال قصر لا تزال قائمة يدعى (قصر عليا) ويحوك اهل تلك الجهة حوله أخبارًا تنسب لأبي زيد الهلالي وبصلة عليا هذه به. والعرب في

هذا العصر كثيراً ما ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة (بني هلال) كما كان المتقدمون ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة (عاد) .

وهذا القصر مبني بحجارة الحرة السوداء وبالجص بناء محكمًا، وهو شبه مربع، ولا تزال جدران الجهة الغربية والجهة الجنوبية قائمة سامقة الارتفاع .

ويحيط به من داخله محاريب كثيرة باستطالة الجدارين القائمين، وهذه المحاريب ممتدة بامتداد الجدارين من الداخل وليس فيها نوافذ . ويظهر أن هذا معبد قديم، إن لم يكن حصنًا أنشئ للجند الذين يحرسون الطريق، وهو قديم، وغريب التصميم .

وهو يقع على الضفة الغربية من واد يدعى الغايضة يفيض في وادي الجحفة .

وعلى بعد ٢٠٠ خطوة تحت القصر في بطن الوادي، توجد بئر مطوية بالصخر وحولها آثار الزراعة مما يدل على انها كانت عامرة إلى عهد قريب .

وفي فناء القصر، توجد بعض الأشجار، مما يدل على أن الماء كان متصلاً به .

حول طريق المدينة المنورة (*) :

من كتاب بعثه إليَّ الشيخ إبراهيم العياشي : أود أن تقبلوا ما أقدمه حيال خطة السير التي تابعتم فيها طريق الهجرة :

١ – جاء في العدد الثالث من سلسلة "رحلة إلى طيبة" كلمة العبابيب فمن تصفح ما قاله السيد السمهودي يتبين أن العبابيد بالدال في آخر مبناها. ثلاثة أَجْبُلٍ هي عابد وعَبُّود وعُبيد بالتصغير والذي عليه نطقها اليوم في الثالث عبيبيد (مصغر المصغر) وهذا شأن البادية في تصغير المصغر كمسيجيد، والذي أعرفه أنها جبال حمر عليها سواد، بين فرش ملل وفرش السيالة المعروف اليوم بالسدارة، وموقعها من المدينة بالترتيب : عابد بعد فرش ملل، ثم عبود وكلاهما على يمين الذاهب من المدينة، وفي الشمال إلى الشرق منهما يقع عبيبيد، وفي غربه يقع وادي الرمث وعدنة والوادي الذي يجري بينهم هو وادي القاحة .

(*) مجلة "العرب" – س ١ – ص ١١٥٧ –.

ذكرت عدنة استطراداً لما يقتضيه التحقيق وأعرفه بأنه جبل يقع عند مغرب الشمس من عبُّود في الفريش، وهو كبير جدًّا ومرتفع في السماء، وسكانه اليوم الشعرة من بني سالم من حرب، والذي قاله السيد السمهودي فيها أنها موقع من الشّربّة.

وهضبة الفريش: أقول هضبة الفريش هي ما يعرفه السكان بعدنة لكن السيد ذكر أنها محركة والسكان اليوم يسكنون الدال مع كسر العين (الحرف الأول من الكلمة).

٢ – جاء في نفس العدد كلمة (العرج) أقول إنها ثنيّة الرجع وهي أيضًا ثنية ركوبة، وثنية ركوبة، وثنية الغاير، وينطقها السكان محرفة إلى الرجع، وهي بين ورقان والقدسين (ادقس).

٣ – جاء في المادة ١٩ من نفس العدد ما ذهبتم إليه أن العرج هو وادي الجيّ. فالجيّ منطقة واسعة جدًّا، ذات شجر كثير من السّلم في جنوب الرّويثة (بير عباس اليوم) وفيها وادي رحقان وفي شمالها المنصرف (المسيجيد) اليوم.

وطريق الرجع يمتد من الجنوب الشرقي من الجيّ ويمضي في الشرق بين جبال الرجع حتى الغاير – ذات الغار قديمًا؟ – وفي هذا الطريق وادي القاحة الذي يمر في جنوب وادي الروحاء، يفصل بينهما كثيف من الجبال وفيه السقيا وتعهن، ومن جباله أبو العيون، والحمراء والسمراء وأم أصبع ومن أوديته : عاند، وأبو الغيل، ومجاح، والمرير وعرفوط ومظعن ومن مياهه : أم البرك والبركة. والسقيا بين تعهن والمدينة.

أخوكم في الله : إبراهيم العياشي(١)

«العرب» : شكرًا من الأعماق.

ولكن ألا يوافقني الشيخ على أن الجبال التي قال: إنها تدعى العبابيد (عبّود، وعابد، وعبيد) الواقعة في الفريش، بعيدة عن الطريق الذي سلكه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في هجرته؟! إن العبابيد التي ورد ذكرها في طريق

(١) توفي – رحمه الله – عام ١٤٠٠هـ.

الهجرة، تقع بين تعهن، وبين ثنيّة الغائر، والتي ذكرها الأستاذ تقع على الطريق العامّ، طريق السيارات الآن، والرسول (ﷺ) لم يسلك هذا الطريق حينما هاجر، بل سلكه مراراً بعد ذلك.

ان العبابيد الوارد في خبر الهجرة هو وادي القاحة، كما في («معجم ما استعجم»: ٩٥٥) قال: (وقبل السّقيا بنحو ميل. وادي العبابيد، وهو القاحة).

أما قول الشيخ عن الجي، وعن الرويثة فلا يتفق مع أقوال من حدد الموضعين من العلماء المتقدمين.

والواقع أن طريق هجرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- بحاجة إلى دراسة تقوم على أساس محاولة مطابقة النصوص على المشاهدة، والاسترشاد ببعض سكان البلاد القدماء، وعدم التعويل على أقوال العامة.

وأقولها كلمة حقٍّ - لا أريد منها ذكر الشيخ رحمه الله - بسوء، وهي أنني بعد أن بلغت المدينة في رحلتي هذه أردت الاتجاه منها مارًّا بوادي (رِيْم) ثم بـ (النَّقِيع) للنزول من (ثنية الغاير) التي تمر بطرف جبل (قدس) حيث التقي بالطريق الذي انحرفت منه عن سلوك هذه الثنية، وكنت قد عرفت عن الشيخ العياشي - عفى الله عنه وتغمده بواسع غفرانه - أنه من المعنيين بتاريخ المدينة، فمررت به في بيته، وعرضت عليه الذهاب معي، فسارع إلى ذلك، وسرنا ثلاثة في سيارة ثالثنا سائقها يدعى عبدالعزيز الرَّبيعي، فكان الشيخ إبراهيم منذ الخروج من بيته حتى بلغنا بئر (اليتمة) على نحو سبعين كيلاً من المدينة، يفيض في أحاديثه عن المواضع التي مررنا بها إفاضة اضطرتنا للعودة به - رحمه الله - إلى منزله.

وقد نشر له مؤلفان يتعلقان بتأريخ المدينة.

في مرابع حاتم الطائي (*)

وكانت الرحلة في أول فصل الربيع والبلاد قد جادها الغيث فجاد نبتها، وهذا كان من أسباب الاستفادة بتلك الرحلة، والارتياح خلال الأيام العشرة التي استغرقتها من اليوم التاسع عشر من شهر المحرم إلى اليوم التاسع والعشرين منه.

ورفيق الرحلة عبدالعزيز بن عبدالله الربيعي، والغاية من الرحلة معرفة الأمكنة بمشاهدتها ومحاولة تطبيق نصوص المتقدمين في تعريفها، إعداداً التأليف معجم جغرافي شامل لمختلف مناطق المملكة.

في صباح يوم الاثنين الرابع والعشرين من المحرم، كان السير من وادي (الحِنَاكية) المعروف قديمًا باسم (نخل) بعد أن قطعناه ليلاً، وسيله يجري،قطعناه بمشقة وجهد، وكان السير في الطريق المعبد باتجاه نجد، وبعد أن قطعت السيارة ٢٧ كيلاً كان الاتجاه إلى ذات اليسار، وتركنا طريق نجد ذات اليمين، وكان معنا دليل من بني حرب، قال: بأنه يستطيع إرشادنا إلى جميع الجهات التي نريدها من المدينة وشمالاً إلى حائل وما بينهما من تلك البلاد. وابن البادية قد يظهر منه التزيد عندما يكون محتاجًا، وهكذا كان شأن صاحبنا الحربي، فبعد أن انحرفنا عن الطريق العام إلى جهة الشمال بإرشاده قاصدين بلدة (الحائط) المعروفة قديمًا باسم (فَدك) وسرنا سيراً طويلاً مملاً في أرض وعثة، وفي طريق غير مسلوك، مررنا براعي إبل، فعلمنا منه بأننا قد تجاوزنا الطريق المتجه إلى (الحائط) وأننا إلى حائل أقرب، فكان الاتجاه إليها، وكان المَقيل في وادي الحليفة، وهذا يبعد عن الحناكية بـ (١٣١) كيلاً وبينه وبين مدينة حائل مئتا كيل.

واسم الحليفة يطلق على عدة مواضع أشهرها ذو الحليفة القريب من المدينة

(*) مجلة «العرب» - س٢ - ص١٠٥٧ - ومرابع حاتم بلاده، وتعرف قديمًا بـ (الجبلين) وهما أجأ وسَلْمَى أبرز جبال تلك البلاد، أو (بجبلي طيّء) بالاضافة إلى القبيلة، ثم (بجبل شَمَّر) أحد فروع تلك القبيلة، والآن (إمارة منطقة حائل).

المنورة، ومنه إحرام أهلها ويعرف الآن بأبيار علي، وقد أصبح داخل العمران.

والحليفة هذا الذي قلْنا به قرية صغيرة فيها نخل، وبقربه حليفة أخرى مسكونة تركناها ذات اليسار.

ثم تابعنا السير إلى حائل فمررنا بمكان يدعى (القاعية) وادٍ فيه قصيرات قليلة ومزارع، ويبعد عن الحليفة بـ ١٣٣ كيلاً، ثم بواد يدعى وادي الشعبة يقع بعد القاعية بـ ١٤ كيلاً وهو واد يجزعه الطريق، ثم بعد وادي الشعبة بـ ١٦ كيلاً شاهدنا قرية (الغزالة) على يميننا مررنا بقربها، وشاهدنا قبل الوصول إليها (غَضْوَرَ) موضع له ذكر في الشعر القديم ويدعى (قُصَيْر غَضْور) تصغير قصر.

ثم بعد أن تجاوزنا قرية الغزالة بـ ١٤ كيلاً وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى (المَهَاش)، وقد رسمت في المصور الجغرافي (المحاش) خطأ، وتسمى قُصَير المهاش، وكثيراً ما يطلق أهل تلك الناحية اسم قصر أو قصير على القرية الصغيرة.

وبعد المحاش بـ ٢٧ كيلاً وصلنا بلدة (سَرَّاء) وهي قرية كبيرة فيها نخيل، وتبعد عنها مدينة حائل بـ ٥٢ كيلاً.

ومما تجدر ملاحظته أننا نسير في طريق غير معبد، منذ أن جاوزنا واد الحِنَاكيّة، وما بينه وبين المدينة فيه أجزاء يسيرة معبدة أي أن كل الطريق من المدينة إلى حائل لم يجر إصلاحه بعد.

في مدينة حائل: وصلنا المدينة بعد العشاء فبحثنا عن محل نأوي فيه أيًّا كان، فلم نجد، فخرجنا من المدينة وبعد أن جاوزنا نخيلها عرجنا ذات اليمين إلى براح من الأرض فنزلنا فيه ونصبنا خيمتنا، وأوقدنا ناراً وكنا بحاجة إلى الدفء، إذ جو تلك البلاد في أول فصل الربيع أقرب إلى البرودة، ولما بدأنا بإعداد طعامنا إذْ بأصحاب سيارة (جيب) ضبَّاط يقفون عندنا، ويسألوننا بلهجة المستغرب المؤنب لم نزلنا ها هنا؟ فلم استوضحنا عن وجهة الاستغراب علمنا أننا نزلنا بطرف أرض

المطار، وهي أرض غير محددة، وليس فيها ما يشير إلى أنها أعدت لتكون مطاراً، وإن كنا نشاهد عن بعد نوراً كهربائياً يدل بغرابة مظهره على أنه مركز حكومي، حقًا لقد كان أصحاب السيارة كريمي النفوس، فقد أذنوا لنا في المبيت على أن لا تطلع الشمس وخيمتنا منصوبة، وأن ننتقل إلى مكان آخر، وكان ذلك.

كنت علمت من أحد الإخوان أن الأخ الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله المَلَق مدير معهد المعلمين في مدينة حائل، ممن يُعْنَى بالأبحاث التاريخية المتعلقة بهذه المدينة، فبكرت بكور الغراب للبحث عنه، فوجدت فيه أكثر مما علمت خُلُقًا وسعة اطلاع، وبعد أن زرته في مقر عمله وعرفت بعض إخوانه في العمل، خرج بنا لزيارة بعض الأماكن، فعرجنا في الطريق على الأخ الصديق الأستاذ محمد بن علي المبارك مدير التعليم في المنطقة[1]، غير أننا بعد الاجتماع به والاستئذان منه ليسمح للأستاذ الملق بإرشادنا إلى بعض الأمكنة، رأى أن أول ما نبدأ به زيارة سمو الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي آل سعود، أمير المنطقة -إذ ذاك- فكان ذلك، وأقبلنا على القصر فوجدنا في مدخله شاباً، لطيف المعشر والمظهر والمخبر، وهو ناصر بن عبدالرحمن بن مبيريك كاتب سموه الخاص.

فأدخلنا في مجلس الأمير، وبعد برهة من الوقت حضر سموه، وقد شاهدت من حسن استقباله وبشاشته ولطفه، ما لم أشاهده عند كثير من أمثاله مع كبر سنه، ولم يقف الأمر من سموه عند هذا الحد، بل أمر بإعداد مكان لكي نسكن فيه، غير أنني وقد أردت من رحلتي زيارة ما أستطيع زيارته من الأمكنة، اعتذرت لأنني سوف لا أقيم في حائل، ولما أخبر سموه في ذلك أمر بأن نبقى إلى ما بعد تناول الغداء عند سموه، ولكنني رجوت سموه وألححت في الرجاء بأن يأذن لنا

---

(١) نقل بعد ذلك وتولى عدداً من الأعمال، آخرها في وزارة الداخلية، ثم مرض وتوفي -رحمه الله- في ٢٣/٥/١٤١٥هـ، وهو في عشر السبعين من عمره، وهو صهر للأستاذ الكريم سليمان بن عبدالرحمن العنقري الملحق الثقافي بالقاهرة.

سموه في الذهاب، ففعل ولكن على حد قول الشاعر :

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

والأمير عبدالعزيز يُعَدُّ من أركان هذه الدولة الكريمة، وممن أسهموا إسهامًا فعليًا في إنشائها، منذ أن قام -الملك عبدالعزيز- رحمه الله- بإنشائها إلى وقتنا الحاضر، فقد كان أحد الأبطال الذين رافقوا الملك عبدالعزيز في فتح الرياض في سنة ١٣١٩هـ، ثم كانت له مواقف مشهورة في ضم بلاد عسير إلى الدولة السعودية، ثم تولى إمارة القصيم في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ بعد الأمير فهد بن معمر -رحمه الله-.

وفي ١١ رمضان ١٣٤٢هـ ولاه الملك عبدالعزيز -رحمه الله- إمارة بلاد الجبل (حائل وملحقاتها)، وليس المقام مقام تفصيل لما قام به من أعمال ولكن المناسبة دعت إلى ذكر هذه الإشارات الموجزة.

كان صديقنا الأستاذ محمد بن مبارك ألح بأن نتعشى عنده، فقلت له: إذا كان ولا بُدَّ فليكن خارج المدينة وليكن في موضع تاريخي ولو كان بعيداً، فطلب أن أحدد له المكان، فقلت: ليكن (بُلْطَة) ذلك الموضع التي تشوقت إليه الاعرابية وهي في مصر وفضلته على ما شاهدت هناك من صنوف الملذات في عهدها.

اعرابية من أهل الجبلين تزوجت رجلاً من مصر يدعى (سودان) ولكنها اجتوت تلك البلاد على كثرة خيراتها، وحنت إلى موطنها القديم فقالت في شعر لها :

لأهل بُلْطة إذا حلوا أجَارِعَها أشهى إلى القلب من أبواب سودان

جاؤوا بكعك ورمان ليشفيني ياويح نفسي من كعك ورمان

وكان العشاء في بلطة هذه، وهي شعبة من واد عظيم، يخترق جبل أجا أحد جبلي طيء، وفيها عين قليلة الماء يحيط بها نخيلات جميلة وتقع في مُتَّسَعٍ من الوادي يقصده أهل مدينة حائل للنزهة.

اتصرفنا من الأخ المبارك في سيارة الأخ الصديق عبدالرحمن الملق لنتابع جولتنا، وقبل أن نخرج إلى المدينة، قال: إن ههنا رجل خبير بالمواضع فلنأخذه معنا. فكان ذلك الرجل هو الأخ مُنَوِّخ بن فِضِي الشمري، من موظفي الوحدة الزراعية في مدينة حائل، ولقد كان خبيراً حقًّا بكل ما سألناه عنه، وكان نعم المرشد لنا إلى ما رغبنا في معرفته.

هل كانت حائل قديمة؟ النصوص التاريخية القديمة يفهم منها أن الاسم حائل يطلق على الوادي، الذي تقع المدينة الآن على ضفته الغربية، فيما بينه وبين السفوح المنحدرة من أجا، وكانت في عهد لا يتجاوز مئة سنة في القدم، تقع على ضفتي الوادي الغربية والشرقية، أسفل من مكانها الآن، في مكان لا تزال آثار البناء القديم باقية فيه، كما يوجد فيه بعض السكان، في مكان تكثر فيه النخيل، يدعى (السافلة) وفيه سكان الآن وفيه مدرسة، ولعل ضيق ذلك المكان لوقوعه بين جبلي السمراوَين هو الذي دفع إلى انتقال المدينة إلى موقعها الحالي. النصوص القديمة التاريخية تدل على قدم سكنى الجبلين، والمؤرخون يرون أن قبيلة جديس انتقلت من اليمامة بعد غزو الملك الحِمْيَرِيّ لتلك البلاد، فاستقرت في الجبلين في قصة خرافية طويلة أوردها ياقوت في «معجم البلدان[1]».

وخصوبة أرض هذه البلاد وكثرة أودية جبالها وما فيها من المياه وخاصة أجا، كل ذلك يدل أنه كان لها شأن عظيم، ولكن كتب المواضع وإن حفلت بالكثير من أسماء ما في الجبلين من أودية ومياه وقرى – لا يجد فيها الباحث ما تتوق إليه نفسه من حيث معرفة أهم بلدة كانت في هذه الجهة.

ومما لا شك فيه أن جبل أجا لحصانته وكثرة أوديته وسعتها، هو أهم موقع في تلك الناحية، وقد ذكر المتقدمون أسماء قرى كثيرة ومياه نخيل في داخله، منها ما يزال باقيًا ومنها ما تغير اسمه.

(١) مادة (أجا).

وليس من شك بأن قاعدة تلك البلاد في القديم كانت بقرب هذا الجبل، ولكن أين تقع؟. وهناك موضع مسكون لا يزال معروفًا وهو في واد يخترق الجبل يدعى (تُوَارِن) له ذكر في الكتب القديمة، وتتناقل الأجيال من سكان تلك الناحية خرافات وقصصًا عما جرى فيه من الحوادث، وفيه آثار، وفيه قبور ينسب بعضها إلى بعض عظماء الجاهليين، كحاتم الطائي، ولكن الموقع ليس من السعة بمكان يحمل على الاعتقاد بأنه كان مدينة كبيرة، ومن غير المعقول أن تكون تلك الناحية الواسعة الأرجاء لا يقع فيها بلدة ذات أهمية. ومن عادة المدن أنها في حال اندراسها يقوم على أطلالها أو بقربها مدن أخرى، قد تكون أقل أهمية منها، وقد تتسع وتنمو، فإذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات التي لابد من مراعاتها عند تكوين المدن - إذا نظر الباحث إلى ذلك - فأن أقرب موقع يتبادر إلى الذهن أنه هو موقع قاعدة هذه البلاد في القديم، ينطبق على موقع مدينة حائل الواقع على ضفتي الوادي المعروف بهذا الاسم، وفي المتسع ما بين جبلي السمراوين عند اتساع الوادي وعلى سفوحه المتصلة في الجبلين المعروفين الآن باسم السمراوين، فهل نجد من النصوص القديمة ما يؤيد هذا الظن؟.

١- نجد في كتاب نصر بن عبدالرحمن الاسكندراني[١]: تنغة بعد التاء نون ثم غين معجمة: قرية من حضرموت عندها وادي برهوت. وأيضًا في ديار طيء حيث قبر حاتم، وبخط أبي الفضل: تنعة منهل في بطن وادي حائل لبني عدي بن أخزم وكان حاتم ينزله.

٢- ومثل هذا في «معجم البلدان» لياقوت وفيه ماء من مياه طيء وكان منزل حاتم الجواد وبه قبره وآثاره.

٣- وفي «التاج» ما ذكره ياقوت.

٤- وأقدم من هذه النصوص ما جاء في أخبار حاتم الطائي في «كتاب الأغاني»[٢]

(١) باب: (تَلْعَةَ وتَنْغَةَ ونبْعَةَ وبَتْعَةَ).

(٢) ج ١٦ ص ١٠٥.

أن ملك الشام المحرق من آل جفنة أراد من حاتم مبايعته فقال: إن لي أخوين ورائي، فإن أذنا لي أبايعك وإلاّ فلا. قال: فاذهب إليهما فإن أطاعاك فأتني بهما وأن أبيا فائذن بحرب. فلما خرج حاتم من عند الملك قال أبياتًا منها:

أتاني من الديان أمس رسالة وغدرًا بحيٍّ ما يقول مواسل

فسأل محرق: ما أخواه؟! قالوا له: طرفا الجبل، فأقسم ليجللن مُوَاسِلاً الريط مصبوغات بالزيت، ثم ليشعلنه بالنار، فقال رجل من الناس: لقد جهل مرتقى بين مداخل سبلات. فلما بلغ الملك أن حاتمًا لا يريد الانقياد له، بعث إليه لأقدمن عليك قريتك. ولكنه قيل له: إنك إن تقدم القرية تهلك فانصرف عن عزمه.

هذا النص يدل على حصانة بلدة حاتم، ومن المفهوم أن الملك لا يهم عندما يفكر في غزو البلاد إلاّ بأقوى مدينة فيها، والخبر يدل على حصانة هذه البلاد، ويفهم منه أنها بداخل الجبل، جبل أجا إذ مواسل ويسمى (موسيل) أيضًا إحدى قمم ذلك الجبل، ولكن النص المتقدم عن أبي الفضل ينص على أن البلدة على شاطئ الوادي، وهو ما نعتقد أنه موقع حائل القديمة، أي أسفل المدينة في الوقت الحاضر، وهو منفصل عنها إلاّ من حيث اتصال حدائق النخيل به.

ولو أردنا أن نتخذ من أخبار حاتم الطائي وسيلة لمعرفة موقع المدينة القديم لما اسعفتنا بذلك لتضاربها.

ولقد جاء ذكر المتقدمين موضع قبر حاتم في ثلاثة أقوال:

١- قال الهجري[1]: (وُظَايف جبل شرقي أَجَا مطلع الشمس، به قبر حاتم ليس قربه جبل).

٢- وفي «ديوان حاتم» أن قبره بمكان يقال له: تنغة وحوله أنصاب النوائح من حجارة كأنهن نساء، وتقدم قول ياقوت أن قبره في تنغة وفيها آثاره.

---

(١) كتاب «أبي علي الهجري» ص ٣٨٥.

٣- وأغرب البكري[1] فيما نقل عن أبي رياش: عوارض جبل في بلاد طيء وعليه قبر حاتم وهذا هو الصحيح كذا قال البكري.

٤- وشائع عند المتأخرين أن قبر حاتم لا يزال معروفًا في توارن في داخل أجا. إن أقرب هذه الأقوال إلى الصواب -في رأيي- هو القول بأن حاتمًا كان ينزل في تنغة، وانها تقع في شرق موقع مدينة حائل الحديثة، حيث يوجد هناك سلسلة من الجبال منفصلة عن أجا، واقعة شرقيه تقع المدينة الحالية بينهما، وهذه السلسلة تدعى السمراء لسمرة لونها، ويفصل وادي حائل هذه السلسلة، حيث يضيق بين طرفين منها يدعيان السمراوين، ومضيق الوادي يسمى الخَنَقَة، وتمتد مدينة حائل حتى تتصل بالخنقة، بمحلة تدعى السافلة وأسفل منها في متسع الوادي تدعى الربيعية، والخنقة ذات نخيل كثيرة وفيها آثار البناء لا تزال مشاهدة. ويقول أهل تلك البلدة: إنها حائل القديمة وأنها كانت معمورة إلى عهد قريب، حيث كانت مقر آل علي حكام حائل الذين انتزع منهم آل رشيد الحكم في منتصف القرن الماضي، ولا تزال آثار سور البلدة قائمة.

أما القول بأن قبر حاتم كان في جبل وظايف، فأراه غير صحيح، ذلك إذا عددنا الجبل المعروف بهذا الاسم هو ما يقصده المتقدمون، إذْ هذا الاسم يطلق على جبيل صغير من سلسلة جبال يدعى أكبرها القاعد، وتبعد عن مدينة حائل بما يقارب أربعين كيلاً فقط، ووظايف هذا لا يقع شرق أجا، بل يقع في الشمال منه.

وقد أورد نصر في كتابه ما هذا نصه: (أظايف جبل فارد لطيء، طويل أخلق أحمر، على مغرب الشمس من تنعة وكانت تنعة منزل حاتم الطائي).

وأظايف هذا هو ما سماه الهجري وظايف، إذ الهمزة تسهل فتنطق بالواو كما يقال في (أضاخ) (وضاخ).

وليس من المستبعد أن يكون اسم وظايف نقل إلى اسم الجبل، الواقع في شمال

(١) «معجم ما استعجم»: مادة عوارض.

أجا ومثل هذا مشاهد في تلك الناحية، فجبل (أُعَيْرِفَ) وكان في القديم يطلق على قنة عظيمة من قنن جبل أجا، يسمى به الآن جبيل صغير، يقع في طرف مدينة حائل، وهذا منفصل عن أجا، ولا شك أن هذا الجبيل ليس ما يعنيه المتقدمون.

وينبغي أن يلاحظ أن المكان الذي يقع فيه الجبل المعروف باسم (وظايف) الآن ليس بقربه ما يدل على أنه كان مأهولاً قديمًا، أو أن تلك الأرض كان فيها آثار للسكنى.

و(عوارض) الذي نقل البكري عن أبي رياش ما نقل يقع غرب بلاد طيء بعيداً عن أجا، بقرب جبل (قنا) الذي لا يزال معروفًا الآن.

وما شاع عند المتأخرين من أهل هذه البلاد من أن حاتمًا كان يسكن في تُوَارِنَ، ليس هناك من النصوص القديمة – فيما اطلعت عليه – ما يؤيده، ولعل هذا ناشئ عما ذكر ياقوت وغيره أن توارن قرية لبني شَمَّر، وسكان هذه البلاد هم من شمر، وشمر من طيء كما هو معروف، وحاتم من طيء أيضًا، ومن هنا نشأ الخلط بنسبة الموضع إلى حاتم ونسبة القبر الذي فيه إليه.

وهذه ملاحظات عابرة. والموضوع بحاجة إلى دراسة وافية.

ولا أنسى تلك السويعات الجميلة حقًّا الممتعة، التي غمرني فيها إخواني من أشرت إليهم في حديثي هذا، ومن أمتعوني بكرم أخلاقهم أثناء تجوالي حول تلك المدينة وفي ذلك الموضع المعروف باسم (بلطة) الواقع على بعدد ٢٢ كيلاً من المدينة فلهم أطيب الشكر وأجمل الذكرى.

ورحلة أخرى إلى هذه البلاد الطيبة

كانت مغادرة مدينة (الرياض) يوم ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٩٥، وفي صباح اليوم الثاني كان المرور بمدينة (الدوادمي)، وكان أميرها رجل فاضل من أسرة (آل جبرين) وهو الأستاذ حمد بن جبرين، فلما مررنا به في الصباح وطلبنا بعث مرافق

يعرف الطرق، ألح بالبقاء حتى تناول طعام الغداء، فأوضحنا له أن المسافر من الخير له أن يتجه إلى غايته، مغتنمًا الوقت، وعبرنا له عن شكرنا وتقديرنا، ولكنه -مع ذلك- ألح بأن يعد الغداء في المكان الذي يتوقع أن نبلغه وقت المقيل، وهَيَّأ هناك ما يلزم، مما يدل على كرمه، وحسن استقباله.

وبينما نحن نتناول الطعام بعد صلاة الظهر، إذا بسيارة صغيرة (جيب) مسرعة متجهة إلينا، فنزل منها أحد اتباع الأمير وخلا به فترة، ثم أتى إليَّ وانفردنا معًا، فعزاني في الملك فيصل - رحمه الله- وأخبرني بما حدث له.

وكان الأمير نايف قد أبرق للإمارات التي أوضحت أسماءها حين كتبت إليه رغبتي في القيام بزيارة المنطقة الشمالية، إعداداً لتأليف «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» لطلب (وزارة الأعلام) مني ذلك، فأمر بإرسال برقيات إلى امراء تلك الجهات التي سنمر بها للمساعدة وتسهيل المهمة.

واصلنا الرحلة ومررنا بأمكنة عديدة قديمة، وأدركنا المبيت بعد أن دخلنا (حرة خبير) وحللنا بقرية (الحُوَيِّط) المعروفة قديمًا باسم (يَدِيْع)، فوجدنا مدرسة قد فرغ من بنائها، ولم تشغل بعد، فبتنا فيها تلك الليلة.

وفي الصباح اتجهنا لقصدنا، وكانت القرية من أشهر القرى الأثرية القديمة، من حيث وفرة آثارها البارزة من مجاري العيون، وكثرة الكتابات على الأحجار، فكان هذا مما لفت النظر، فانتشرنا للاطلاع، ولتسجيل ما أمكننا تسجيله.

وكان الإخوة الأساتذة سعد بن جنيدل ومحمد العبودي ومرافق ثالث وأنا معهم في سيارة صغيرة (جيب) وبقية السيارات الأربع التي لا تستطيع السير في الأرض الوعرة منتشرة على مقربة منا. وكنت قد ملأت حجري برتقالاً، أقشر منه، وأقدمه للإخوة معي في السيارة بعد أن علانا الغبار، من وعثاء ما نمر به من طرق غير معبدة، وفي تلك الحالة أقبلت إلينا سيارة صغيرة (جيب) تحمل خمسة رجال مسلحين، فتجاوزتنا إلى السيارات الأخرى، ثم رجعت إلينا، فنزل أحد من فيها معلقًا على

صدره مسدسًا ويحمل بندقية، فوقف عند السيارة وقال: (وَيْن ابن جاسر؟) أجبت: حاضر. قال: (انزل انزل!! تعال سلم على الأمير!) فلما قربت من السيارة مَدَّ لي الرجل الذي بجوار سائقها يده - وكنت قد رفعت طرف حِجري الذي فيه البرتقال، ورأسي مكشوفة ووجهي مغبر - فقلت: لا مؤاخذة يا أمير، الأكل ليس عيبًا. فأجابني: امشوا امشوا الحقونا!! وعاد إلى السيارات الأخرى ودعاها للحاق به، فتركنا ما نحن فيه امتثالاً للأمر الذي لا نعرف ماهي أسبابه أو غايته، وكلما تأخرنا لئلا يشرقنا غبار سيارته، وقف وانتهرنا لكي نسرع، ثم كان الوصول إلى قرية (الحائط) المعروفة قديمًا باسم (فدك) وكانت كل قرى الحرة - وهي تقارب الأربعين - تابعة لها ملحقة بإمارة (حايل) بينما بلدة (خيبر) ملحقة بإمارة (المدينة المنورة).

وعند الوصول أُدْخِلْنا في منزل واسع (حوش) قد سُقِّفَ صدره، وكان الجوُّ حارًا، فأُجْلِسَنَا في المكان المسقف، وما شعرنا إلا وقد أحاط الجنود بنا من جميع جهات الحوش، وبقينا على تلك الحالة لا ندري ماذا سيفعل بنا، وصاحبنا كالثعلب، يدخل ثم يقف قليلاً أمامنا، ويرجع، ويستدعي أحد من في السيارات الأخرى يتحدث معه، حتى حان وقت صلاة الظهر والعصر جمعًا، فلما مَرَّ بنا قلت له: لا مؤاخذة أيها الأمير أتسمح لنا أن نصلي؟. فقال: لا بأس. وأُحْضِرَ لنا ماء الوضوء ونحن في مكاننا، وبعد أداء الصلاة عدنا إلى امكنتنا، وكنا نتوقع شرًا من سوء ما بدا لنا من صاحبنا، وبعد أن بدأت الشمس في الاصفرار وقف أمامنا وقال: (العِذِرْ (ورقِّق الراء) من الله، ثم منكم يالأخْوان، ترانا ما عرفناكم، والأيام هذي عندنا اوامر من حكومتنا بالحرص والتوثق من كل مسافر، والآن عرفناكم)، السيارات كلها وهي خمس تحمل لافتات (وزارة الإعلام)، ورفقاؤنا قد أخبروه بأننا مبتعثون من هذه الوزارة لزيارة الأمكنة والكتابة عنها. فقلت له: لا جزاك الله خيرًا، ولست أهل للعذر، فقد رأيت سياراتنا، ويظهر أنك جاهل وقد أخبرك الإخوة، والآن ماذا تريد منا؟ هل سمحت بأن نذهب؟ قال: عليَّ الطلاق بالثلاث ما تمشون حتى تغدُّون. حاولنا الذهاب ولكن كان للجوع أثره،

فأشار الإخوة في الانتظار، وبقينا إلى وقت غروب الشمس، بحيث أننا صلينا العشاء في (أَوْل) وهي قرية تحدثت عنها وعن المواضع الأخرى التي جرى ذكرها في هذه الرحلة في مَحَلِّها من (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي».

بلغنا مدينة (حايل) وكان الأمير فيها غائبًا، ونائبه ابننا الأستاذ ناصر بن الشيخ من أسرة كريمة، وقد درس في (معهد الرياض) حين كنت مشاركًا في الإشراف عليه، ومع أننا بحثنا عن مكان ننزله قبل الاتجاه إلى الإمارة، إلا أننا لم نجد، فاضطررنا لذلك؛ فوجدنا الابن الكريم الذي ذكرنا بمرورنا بهذه المدينة قبل ذلك مما سبق الحديث عنه.

وكان ممن قابلته في دار الضيافة الصديق الكريم الدكتور عبدالله بن يوسف الغنيم، وقد قام برحلة للدراسة، فهو من المختصين بعلم الجغرافية، وله في ذلك آثار معروفة، وقد سبق لي أن عرفته وكان طالبًا في القاهرة، وقبله عرفت أخاه الدكتور يعقوب، فكان الأنس به، وعندما أخبرنا الأستاذ ناصر بقصة أمير (الحائط) (السَّهْلي) قال: ينبغي عدم الاستغراب منه ومن أمثاله، وقد أدركت هذا حين كان يحدثنا ونحن على العشاء بأنه من المقربين لدى الأمير عبدالعزيز بن مساعد -رحمه الله- بحيث أنه إذا أراد أن يهين إنسانًا بطريقة ذكرها هذا، أمره بأن يفعلها، مما لا داعي لذكره، وإنما يدل على منزلة الرجل وجهله.

ومما تجب ملاحظته أن ما جرى من هذا الرجل كان مبعثه الحرص على قيام بما أسند إليه قيامًا تامًا، فهو لم يرد إلا الخير - فيما ظهر له من عمله، ولكن (كم مريد للخير لم يحالفه التوفيق). ومن المعروف أن أبناء البادية - على وجه العموم- لا يزال كثير منهم على الفطرة السليمة، من طيب القلب، والشهامة والكرم، والمعاملة الحسنة، وسلامة القلوب من الحقد والظغائن.

يضاف إلى هذا أن صاحبنا ينتمي إلى قبيلة كريمة الحسب والنسب، فهي من فروع بني عامر بن صعصعة من هوزان، من قيس عيلان بن مضر، ومضر هو الأب الثامن عشر للمصطفى - صلى الله عليه وسلم.

رِحْلَةٌ إلى بِلاد العُلا(*)

أعد المشرفون على (الندوة العالمية لدراسة تاريخ الجزيرة) لضيوفهم رحلة إلى مدينة الْعُلاَ، بحيثُ ركبوا الطائرة من الرياض صباح يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٩٧هـ (٢٧ نيسان ١٩٧٧م) إلى مطار المدينة، ومنه استقلوا الحافلات إلى العلا فقطعوا إليها مسافة تقارب ٣٥٠ كيلاً وكان النزول في إحدى المدارس وكان كل شيء من أمور الإقامة مرتَّبًا ومنظماً.

وكنت من بين أولئك الذين ذهبوا إلى العُلا، ولكنني لم أُكَلِّف نفسي عَنَاءَ الذهاب إلى الحِجْرِ حيث تقع الآثار التي كان من أهم دواعي الرحلة مشاهدتها، فقد سبق لي أن زُرْت العلا ثلاث مرات، وشاهدت تلك الآثار، وقرأت كثيراً مما كتب عنها، فاكتفيت من هذه الرحلة بأن دونت معلومات عن العلا وسكانها، وعن بعض الأماكن القريبة منها. وقد استقيت كثيراً من تلك المعلومات من وكيل الأمير الشيخ عبدالله بن نويصر، وأصله من بلدة الْحَرِيْق، ولكنه نشأ في هذه البلاد، وأقام فيها أكثر سني عمره حتى صار يُعَدُّ من أهلها، ومكنه عمله في الإمارة بأن عرف كثيراً من أحوالها، كما استفدت معلومات أخرى من بعض موظفي الإمارة وبعض رجال التعليم في هذه المنطقة.

مدينة العلا : تُعَدُّ قاعدة لعدد من القرى ومناهل البادية الواقعة بقربها، وقد ازدهرت البلدة في هذه الأيام ونمت نُمُوًّا سريعًا ودخلتها وسائل الحضارة الحديثة، وامتد عمرانها بامتداد الوادي الذي تقع فيه، من العُذَيْب شمالاً حتى قرية مُغَيْرَاءَ في الجنوب نحو ٢٠ كيلاً.

وادي القُرَى : والعلا قديمًا من أشهر قُرَى الوادي المعروف باسم (وادي القرى) وهذا الوادي يمتد من الشمال نحو الجنوب بما يقارب مئة كيل وله فروع كثيرة. فمن فروعه الغربية التي تنحدر من حرة عُوَيْرِض :

(*) مجلة "العرب" س ١٢ – ص ١٦١-..

١ – غارِبُ   ٢ – السُرَيّط (ويسمى طيب اسم)

٣ – حَوْضا .   ٤ – ثَرْبَة .

٥ – شَلاَل .   ٦ – عَشَار .

٧ – أُمُّ طُلَيْحة .   ٨ – دَنَن – وتدعى عكمة، وعكمة جبل .

٩ – مُرَاخ .   ١٠ – ساق .   ١١ – الخالص .

١٢ – صدر (سدر) .   ١٣ – الضبيعة .   ١٤ – أُمُّ هَشيم .

ومن فروعه الشرقية التي تفيض في وادي الحجر – أعلى وادي العُلا – :

١ – الأَقْرَع ويقابل فرع غارب .   ٢ – مُزَيْلقَة .   ٣ – الْقَلَيْبَة .

٤ – ضُوَيْن .   ٥ – أُم جِرْفَان .   ٦ – الرِّمَاحيّةُ .

٧ – حُمَيِّطُ .   ٨ – مَهَجُّ ظُفَيِّر بضم الظاء – مصغَّرًا –

٩ – مَهَجُّ ظَفِير بفتح الظاء .

١٠ – أُمُّ عويذر وتصب في المعتدل[١] هي وما بعدها .   ١١ – أُمُ عاذر .

١٢ – خَرْمُ الشَّيْرَةِ .   ١٣ – أُمُّ لحم .   ١٤ – تلعة الحماد .

١٥ – تلعة المذبحة .   ١٦ – الْمَحَاش .   ١٧ – رَمٌّ، من جبال الْمَجْدَر والعُقَيْف .

١٨ – مُرَيْخَة .   ١٩ – مَلَح يصب في طرف وادي العلا الغربي قرب مُغَيْرًا .

وقال لي أحد المدرسين : إن من فروع وادي العلا : العُذَيْب وقُراقر ودَنَن ومُرَاخ وساق والخالص، وصَدْر فيه قرية بهذا الاسم .

ويجتمع بوادي العلا بعد ذلك أودية من أشهرها وادي نخلة[٢] ووادي الجِزْل ووادي عَمُودان . وأشهر فروع وادي نخلة :

---

(١) المعتدل هو أعلى وادي العلا دون الحجر ودون العذيب .

(٢) وضع اسمه في الخريطة B ٤ – ٢ – I (الدخشان) ؟

١ – الحاطبة.　　٢ – الْغَرُّ – بفتح الغين.　　٣ – البرود.

٤ – عذاقة.　　٥ – أراك.　　٦ – الصُّمَيْمة.

٧ – واسط.　　٨ – القُلَيِّب.　　٩ – مَلَح – بفتح اللام –.

١٠ – الركاكنة.　　١١ – القطّار.　　١٢ – الصفا.

١٣ – الْحُوَيْض.　　١٤ – غَبيطين – مثنى غَبِيط.

وهذه الفروع تنحدر من الجبال الواقعة فيما بين العلا وخيبر.

أما فروع وادي الجزْل وهو من أعظم الأودية، تنحدر إليه سيول حرة عويرض المتجهة صوب الغرب فها هو أشهرها:

١ – أبو طينة (المَاوِيْن).　٢ – الضَّلْفَةُ (فيه هجرة لبني عطية).　٣ – النّقِيْبُ.

٤ – عِرْقَيْن (مثنى عرق).　٥ – الضُّرَيس – بضم الضاد.

٦ – رَبْثَا – بالراء فالباء وآخره ثاء مثلثة.　٧ – الفارِعة (تجمع الأودية الستة).

٨ – نُقَيْع – بضم النون وفتح القاف وآخره عين.

٩ – حماطة.　١٠ – ضَمْر – بالضاد المعجمة المفتوحة وإسكان الميم وآخره راء.

١١ – الرَّقبَة.　١٢ – الجيْفَة بكسر الجيم.　١٣ – أمُّ نُصَيْب.

١٤ – المُثَيْنيْ.　١٥ – نُعَاضَا.　١٦ – عَنْتَر.

١٧ – الرَّغّاي.　١٨ – أحَر – بفتح الألف والحاء المهملة وآخره راء.

١٩ – الأثلة.　٢٠ – عَوْرَشُ.　٢١ – ظَبْي.　٢٢ – البروك.

٢٣ – اللّحيانة.　٢٤ – جَيْلَة.

تجتمع هذه الأودية الثلاثة التي هي وادي القرى ووادي الجزْل ووادي نخلة ثم تلتقي بها أودية كثيرة منها وادي عمودان ووادي العِيص ووادي العين وسيول أودية خيبر ثم تأتيها سيول أودية المدينة فتكون كلها واديًا يتجه مُغَرّباً حتى يصب في البحر[١].

(١) قال في "وفاء الوفاء" – في ذكر مجتمع سيول المدينة: (ثم تنحدر هذه السيول، فتلقاها سيول الشعاب ==

قرى العلا ومواردها : والعلا مركز إمارة من إمارات المدينة المنورة، ومن أشهر القرى وموارد المياه التابعة لإمارة العلا : العين وأُمُّ زَرْبٍ والسّليلة، وقَعْرَةُ الدَّومة وهجرة ذُوَيْب (متان الْحَبّ) وحُرَيْمِلُ والأبْرق، والْحُفْرَةُ وكل هذه تقع جنوب العلا وأكثر سكانها الطوالعة من عَنَزَة.

ومن القرى والموارد التابعة لإمارة العلا في الجهة الجنوبية أيضًا : الجَديدة وسكانها الفريعات من بَلِيٍّ، والحريمات للزَّبْن، والضُّلَيْعة للوُحَشَةِ والْخَوالِيِّ والفُقَيْرُ للفريعات والرشود، والمحاسنة والقَعْرة للرموش، وعمودان لهم أيضًا. وكل هذه المواضع أهلها فروع من قبيلة بَلِيٍّ.

والزباير سكانها خليط من جُهَيْنَة وبليّ.

ومن القرى الواقعة في أعلى وادي العلا العُذَيْب والحِجْر وسكانهما الفُقراء من عَنَزَة.

ومُغَيْراء سكانها اليديان واحدهم أَيْدَا من عنزة أيضًا وهذه في أسفل الوادي.

ومن قرى العلا الواقعة في الشمال الْغَرْبِيِّ ثَرْبَةُ في طرف حَرّة عويرض وفي وادٍ بهذا الاسم وهو من روافد وادي العلا وسكان ثَربة المواهيب من بَلِيٍّ.

وَشَلاَل بفتح الشين المعجمة واللام مخففة بعدها ألف فلام للمناصير من قبيلة بَلِيٍّ.

وعَوْرَش وادٍ من فروع وادي الْجزل فيه قرية بهذا الاسم سكانها المواهيب من بَلِيٍّ.

ضَاع بالضاد المعجمة بعدها ألف وعين، سكانها المناصير من قبيلة بَلِيٍّ.

وجَيْلَة بالجيم والمثناة التحتية المسكنة بعدها لام وهاء قرية سكانها من بَلِيٍّ وغيرهم.

== من كنفيها، ثم يلقاها وادي ملل بذي خُشُب، وظلم والجنينة، ثم يلقاها وادي ذي أوان ودوافعه من الشرق، ويلقاها من الغرب بواط والخرار، ويلقاها من الشرق وادي الأئمة، ويلقاها وادي ترعة من القبلة، ثم يلتقي هو ووادي العيص من القبلة، ثم يلقاه واد يقال له حجر ووادي الجزل الذي به السقيا والرحبة في نخيل ذي المروة مغربًا، ثم يلقاه عمودان في أسفل المروة، ثم يلقاه واد يقال له سفيان حين يفضي إلى البحر عند جبل يقال له أراك، ثم يدفع في البحر من ثلاثة أودية يقال لها اليعسوب والنتيجة وحقيب. انتهى.

ونقل عن المطري أنها تفضي إلى البحر، إلى كرا من طريق مصر.

ومن القرى والمناهل الواقعة في الشمال الغربي من مدينة العلا : الفَرَعةُ بتحريك الراء، وأبو طِيْنَة والفارعة وأبو راكة والنُّشَيْفَة والنُّجَيْل بضم النون وفتح الجيم، وإنا - بكسر الألف - والبلاطة وبئر شُوَيمة، وتَفيْهَةُ بفتح التاء المثناة الفوقية وكسر الفاء بعدها ياء مثناة تحتية فهاء ثم هاء أيضاً وقُصَيْب والخُشَيْبَة بضم الخاء المعجمة، والوَرد بفتح الواو، وجَيْدة بفتح الجيم بعدها مثناة تحتية ساكنة فدال مهملة فهاء. والقُوَيْرة وكل هذه واقعة في وادي الجزل وعلى روافده، وسكانها من بَلِيٍّ.

هذه أشهر القرى والمناهل كما أملاها عليَّ وكيل الإمارة الشيخ عبدالله النويصر.

سكان العلا : يسكن مدينة العلا في العهد الحاضر عدد من الأسر منهم :

١ - الزُّحُوف انتقلوا من المابِيّات. ٢ - آل محمد. ٣ - آل حمد.

٤ - السلامة. ٥ - المحفوظ. ٦ - النافع.

٧ - الوهيبة. ٨ - آل عليٍّ. ٩ - القضاة.

١٠ - البدنة. ١١ - الأسَيْرَة. ١٢ - العوَّاد.

١٣ - القُروق ينتمون إلى بني عُذْرَة وهم من أقدم الأسر. ويسكنون الشُّقيق[١].

١٤ - آل بُدَير، انتقلوا من تَيْماءَ. ١٥ - التّامنة.

هذه الأسر كما أملاها عليَّ الأستاذ عبدالله عمر بُدَير وهناك أسر غيرها تنتسب إلى بني صخر، كآل عيد وآل مبارك وآل سُوَيْرِي، وآخرون ينتسبون إلى قبائل أخرى كقبيلة بلي وحرب وغيرهما. ويسكن في قرى العلا وأوديتها من القبائل فروع من عنزة ومن قبيلة بَلِيٍّ ومن جُهَينة ولكن هؤلاء قليل.

أما القبائل التي تسكن منطقة العُلا فمن أشهرها :

قبيلة بَلِيٍّ - بفتح الباء وكسر اللام وآخره ياء مثناة تحتيّة، واحدهم بَلَوِيٌّ.

وأظهرت لوكيل إمارة العلا رغبتي بأن أعرف فروع قبيلة بَلِيٍّ فقال : سأحضر الآن رجلاً خبيراً بها.

---

(١) الشقيق : إحدى محلات بلدة العلا القديمة وهي القسم الشمالي من المدينة.

ثم أمر أحد الحاضرين بأن يدعو إبراهيم على فَتُّوح، فلما حضر قال : هذا يملي عليك ما تريد. فسألته : هل هو بَلَوِيٌّ ؟ فقال : أنا من أهل الوجه، ولكنني أعرف القبيلة وأعرف جميع فروعها. ثم أملي عليَّ - ما نَصُّه بعد إصلاح بعض عباراته :

قبيلة بَلِيٍّ : فرعان كبيران هما : مَخْلَد - بفتح اللام مخففة وخِزَام : فمن مَخْلَد :

١ - المعاقلة الذين منهم الرِّفَادَات : واحدهم مُعَيْقلِيٌّ.

٢ - الْوُحَشَة : واحدهم وُحَيْشي. ٣ - الْعَرَدَات : واحدهم عُرادِيٌّ.

٤ - السُّحَمَةُ : واحدهم سُحَيْمِيٌّ. ٥ - الرُّمُوثُ : واحدهم رموثي.

٦ - الزَّبَّالَة : واحدهم زَبّالِي. ٧ - الهِلْبَانُ : واحدهم هِلْبَانِيٌّ.

٨ - الحُمْران واحدهم حُمْراني وهم غير الحُمَر، الذين واحدهم مَحْمَرِي، وهاؤلاء من بَلِيٍّ أيضًا ولكنه لم يذكر لي من أيِّ الفرعين هم. ٩ - الْبَرَكات.

ومن خِزَام :

١ - وَابِصَةُ : واحدهم وابِصيٌّ. ٢ - المواهيب : واحدهم مَيْهُوبِي.

٣ - الفواضِلَةُ : واحدهم فَاضِلِيٌّ. ٤ - الْمَطَارِفَة : واحدهم مَطْرَفِيٌّ.

٥ - الْمَقَابِلَةُ : واحدهم مُقْبِلِيٌّ.

الْوُحَشَةُ : أحد أفخاذ فرع مَخْلَد من بُطونهم :

١ - النّمارِيْن. ٢ - النُّعَيْرَاتُ.

الْعَردات، من مخلد من أفخاذهم : الهُشَيِّمات واحدهم هُشَيِّمي.

٢ - الْقُرُون : واحدهم قروني.

السُّحَمَةُ : من مَخْلَدٍ ومن أفخاذهم :

١ - المظْهَرُ واحدهم مَظْهَرِيٌّ. ٢ - الهُروف واحدهم هَرْفِي.

٣ – الرَّواحلَة واحدهم رُوَيْحلِي.　　٤ – الزَّبْنُ واحدهم زَبْنِي.

٥ – الْقُوَاعين واحدهم قُوَيْعانِي.　　٦ – السليمان.

الرُّمُوث ومن أفخاذهم :

١ – الرُّشُود واحدهم رُشُودِيٌّ.　　٢ – العَثَامِينُ واحدهم عُثْمَانِي.

٣ – الزُّوَنَةُ واحدهم زُوَيْن.　　٤ – الْهُرَمَةُ واحدهم هُرَيْم.

٥ – الْمَحاسنة واحدهم مُحَيْسنِي.

الزَّبَالَةُ من فرع مَخْلَد، ومن أفخاذهم :

١ – المشاعِلَةُ واحدهم مُشَيْعلِيٌّ.　　٢ – الصَّرابِطَةُ واحدهم صُرَيَبْطِيٌّ.

٣ – الْعَصَابِيْنُ واحدهم عَصْبَانِيٌّ.　　٤ – الجُذُوْلُ واحدهم جذْلِيٌّ.

٥ – الْبُوُيْنَاتُ واحدهم بُوَيْنِي.　　٦ – الْخَشْمان واحدهم خَشْمانِي.

٧ – الْعبَلَةُ واحدهم عُبَيْلِي.　　٨ – السُّمَيْرَاتُ واحدهم سُمَيْرِي.

٩ – الْقَرَاعِطَةُ واحدهم قُرْعُوطِيٌّ.

الْهِلْبَانُ من فرع مَخْلَد ومن أفخاذهم :

١ – الجِوابرةُ واحدهم جُوَيبري.　　٢ – الرَّبَادين واحدهم ربْدِي.

٣ – الْعَجَارِشَةُ واحدهم عُجَيْرِشِي.

البركات : ويشمل اسم البركات من فروع مَخْلد :

١ – الفريعات.　　٢ – المعاقلة.　　٣ – الوَحشة.

٤ – الرموث.　　٥ – الهلبان.　　٦ – الخوالي.

وقد تقدم ذكرهم، أي إن هذه الفروع يطلق عليهم اسم البركات.

ومن فروع خزام : وابصة وأفخاذهم :

١ – الخَضَرَة واحدهم خُضْرِي.　　٢ – القَواسِمة واحدهم قواسِمي.

٣ - الزروط واحدهم زَرْطي.　　　٤ - السبُوْت واحدهم سُبوتي.

ومن فروع خزام : المواهيب وأفخاذهم :

١ - المناصير واحدهم منصوري.

٢ - الشّوامَى بفتح الميم بعدها ألف مقصورة (أبو شامة).

٣ - الرُّحَيَّات واحدهم رُحَيَّاوِي.　　　٤ - السّراحين واحدهم سِرْحَانِي.

ومن فروع خزام : الفواضلة ومن أفخاذهم :

١ - الرَّقَاقصَة واحدهم رقَيْقِصي.　　　٢ - الذَّرَاعين واحدهم ذِرْعانِي.

٣ - الحميِّطات واحدهم حُمُيِّطي.

هكذا أملي عليَّ إبراهيم علي فَتُّوح فروع قبيلة بَلِي ويلاحظ وقوع تداخل في بعض الأفخاذ.

٢ - الْفُقَرَاء - من عَنَزَة، واحدهم فَقِير.

ذهبت مع أحد رجال التعليم إلى قرية العُذَيْب الواقعة في وادٍ بهذا الاسم، ويدعى أيضًا وادي الحشيش - أي العشب والرعي - شمالي العُلاَ، فقابلنا أمير القرية، وهو شيخ الفقراء، فأحسن الاستقبال، وقدم ما يقدم للضيف المتعجل، من قهوة وتمر ولبن.

وقرية العُذَيب هذه حديثة، عمرت سنة ١٣٤٥. على ما اطلعت عليه في كتاب موجه للشيخ عبدالله بن سليمان بن بلهيد - رحمه الله تعالى - من متعب بن صالح الفقير جاء فيه : (هاجرنا في وادي العُذَيب المعروف بوادي الحشيش، واعترض علينا بعض الناس حيث قالوا : أنتم في وادي العذاب، التابع لمداين صالح، فإنا نسترحمكم أن تامرونا بسكناه، أو تنهونا، نرحل عنه)، وتاريخ الكتاب ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥هـ. وقد علق عليه الأمير ابن مساعد بانه أذن له ينزل تلك الهجرة وطلب من الشيخ أن يعرفه بالحدود المحرمة. فكان جواب الشيخ : (الذي تحصّل لنا من كلام المؤرخين أن وادي الحِجْر الذي فيه ديار ثمود مقدار ثمانية عشر ميلاً، هو عبارةٌ عن

مسافة تسع ساعات بدبيب الأقدام، وسير الأثقال، فإن اعتبر الموضع المذكور من شمالي الحجر إلى الموضع، وكان خارجًا من هذه المسافة فلا بأس بسكناه، والاستقاء من مياهه)
ثم التوقيع : (رئيس القضاة : عبدالله بن بليهد).

وقد استوضحت من الشيخ الفقير صاحب العُذَيب عن فروع عشيرته، فأملى عليَّ ما نصه :

الفُقَرَاءُ : واحدهم فَقِير - على الاسم المعروف ضدّ الغنّي - فينقسمون إلى أقسام هي :

١ - آل مبارك. ٢ - الشُّفَقَةُ واحدهم شَفْقِي.

٣ - الجَمَعَات واحدهم جِمعْي - بكسر الجيم.

٤ - الحُجُوُر واحدهم حِجْري - بكسر الحاء.

٥ - الصُّقَرَةُ واحدهم صُقَيْري - مُصَغّراً - .

٦ - الخماعِلَةُ واحدهم خَمْعَلِيٌّ.

أفخاذ آل مبارك :

١ - المطلق.	٢ - الرُّحَيْل.	٣ - العصمان.
٤ - الدرعان.	٥ - الصالح.	

أفخاذ الشفقة :

١ - الحمدان. ٢ - الْجُرَوَة واحدهم جُرَيْوِي.

٣ - السواسية واحدهم سُوَيْسِي.

أفخاذ الحجور :

١ - ابن مقبول.	٢ - الحرصان.	٣ - القروم.
٤ - الشرايدة.	٥ - الْهَلاَبَى واحدهم هُلاَبِي.	٦ - الصُّهْبَان.

أفخاذ الخماعلة :

١ ـ الذّيَابَةُ واحدهم ذيابي. ٢ ـ الفُضَيْل واحدهم فُضَيْلِي.

٣ ـ الخِنْعَان واحدهم أُخَيْنع. ٤ ـ الحُشُور واحدهم حَشْرِي.

٥ ـ الجمعان. ٦ ـ الجديد.

٧ ـ الْحُرَيْبَاتُ واحدهم حُرَيْبِي.

ثم عدت في اليوم الثاني إلى دار الإمارة لمقابلة وكيل الأمير، لكي أستوضح عن فروع عنزة كالطوالعة والبِدْيَان الذين تقع منازلهم جنوب منطقة العلا فيما بينها وبين خيبر، وكذلك عن فروع جهينة التي تجاور قبيلة بَلِي من الناحية الجنوبية من منطقة العلا، ولكنني وجدت الرجلَ مشغولاً بتهيئة وسائل تجميل بلدته ابتهاجًا بعودة مليك البلاد المفَدَّى بعد شفائه مما ألم به من مرض، فلم أرد الاثقال عليه وانصرفت وكان السفر في ظهر ذلك اليوم.

التعليم في منطقة العلا : في مدينة العلا عشر مدارس : ثانوية واحدة ومتوسطة وخمس مدارس ابتدائية وثلاث مدارس لمحو الأمية.

وهناك مدارس في القرى وهي ثلاث عشرة مدرسة في الْعُذَيب وشلاَلَ ومُغَيراءَ وأبو زَرايب والْوَرْد والنُّشَيفة وأبو راكة والفارعة والجَديدة (جديدة مَنْقَرَةَ) والضُّلَيعة والسّلَيْلة.

وللبنات في مدينة العلا مدرسة ثانوية، ومعهد لإعداد المعلمات، ومدرسة متوسطة، ومدارس ابتدائية ثلاث، واثنتان لمحو الأمية.

آثار منطقة العلا : أهم الآثار في منطقة العلا هي الآثار الثمودية في وادي الْحِجْرِ أعلى وادي العلا وقد ذكره اللّه في القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ وقد ذكر اللّه أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، ولا تزال المواضع المنحوتة باقيةً، وقد تناول الدارسون هذه الآثار، وأُلِّفَتْ عَنْها المُؤَلّفات.

أما بلدة العلا فمن آثارها قلعةٌ في قمة جبل صغير تدعى قلعة أُمِّ ناصرٍ[1] تُطِلُّ على البلدة على القسم القديم منها. وبقرب هذا الجبل عين قديمة تسمى تِدْعِل.

وعلى مقربة من الجبل الذي فوقه القلعة مسجد البلدة القديم ويدعى مسجد الصخرة.

أما المسجد الجامع فيدعى مسجد العِظَام. ويرى بعض الباحثين أن هذا الجامع هو المسجد الذي ذكر السمهوديُّ مؤرخ المدينة في كتابه "وفاء ا لوفا" وها هو نص كلامه في تعداد المساجد النبوية من المدينة إلى تبوك : (الثالث عشر : بالْحِجْر، وذكر ابن زُبَالَةَ بدله : العُلاَ وكلاهما بوادي القرى. الرابع عشر بالصعيد صَعِيْدِ قُرْحٍ. الخامس عشر: بِوادي القرى. وقال الحافظ عبدالغني : في مسجد الصعيد – وهو اليوم مسجد وادي القرى. قلت : فهذا والذي قبله بوادي القرى أحدهما في سوقها والآخر في قرية بني عُذْرَةَ، لكن المَجْدُ غاير بين الثلاثة أخذاً بظاهر العبارة، ولأن في رواية أخرى لابن زُبَالة :صلى رسول الله – (ﷺ) في المسجد الذي بصعيد قرح، من الوادي، وتعلمنا مصلاهُ بأحْجَارٍ وعَظْمٍ، فهو الذي يُجَمِّعُ فيه أهلُ الوادي) انتهى كلام السمهودي.

ومن آثار العلا : الْخُرَيْبَةُ – خُرَيْبة العلا لا خُرَيبة الحِجْر – وهي بلدة دَارِسَةٌ فيها آثار كثيرة.

المابيّات : وعلى مقربة من العلا جنوبًا بنحو خمسة وثلاثين كيلاً تقع آثار بلدة دارسة، يطلق عليها الآن اسم الْمَابِيّات. ويفهم من نصوص المتقدمين أن اسمها الرّحَبَة.

قال السمهودي في "وفاء الوفا" : الرحَبَةُ كَرَقبةٍ بلاد عذرة قرب وادي القرى وسُقْيَا الْجِزْل وذكرها صاحب "المسالك والممالك" في توابع المدينة. انتهى.

---

(١) لا أدري على مَ عوَّل من قال بأن في العلا قلعة موسى بن نصير.

أما ياقوت فنقل عن نَصْر : الرحبة ناحيةٌ بين المدينة والشام، قريبة من وادي القرى انتهى. ويرد ذكر الرحبة هذه في وصف الطريق من وادي القرى إلى المروة كما في كتاب "الأعلاق النفيسة" لابن رستة و"البلدان" لليعقوبي.

وهذا الموضع يقع في اتساع من الوادي، ولعله أخذ اسمه من هذا.

ثم عُرفت الرحبة فيما بعد باسم مدينة صالح. قال ابن طولون : في كتاب "البرق السامي في تعداد منازل الحاج الشامي" قال ابن ناصر الدين في مسودة "توضيح المشتبه" : ومداين صالح التي بالقرب من العلا، في طريق الحاج من الشام، بلدٌ إسلاميٌّ، وصالح المنسوبة إليه من بني العباس بن عبدالمطلب، وفيها قبور عليها نصايب، تاريخها بعد الثلاث مئة. ذكره الحافظ أبو محمد القاسم بن البرزالي فيما وجدته بخطه. انتهى كلام ابن ناصر الدين. ويظهر أن كلمة (مداين) صوابها (مدينة) فقد ذكر ابراهيم بن شجاع في كتاب ألفه سنة ٦٢٣[١] وصف فيه الطريق من دمشق إلى مكة، بعد أن ذكر العُلا، وأنها المنزلة الثالثة والعشرون قال : الرابعة والعشرون : الحفاير : أرضُ رَمْلٍ وتلال وجبال، ووادٍ مُتَّسعٍ، يُسَمّي الدَّيْدَان، ومدينة صالح، بها بقايا بنيان، وبيوت وقلعة خرابٌ برأس تلٌّ عالي، وآبار نَبْعٍ طيبة، وعين ماء وفضاء وحفاير مطر. انتهى.

لمحة تاريخية عن وادي القرى : ووادي الْقُرَى هو وادي العُلا وقد تقدم ذكر فروعه وروافده، وقد يطلق اسم وادي القرى على ما حوله من المواضع كوادي الجِزْل، ويلاحظ أن المتأخرين من الرحالين ومؤلفي كتب المواضع اطلقوا اسم وادي القرى على أسفل أودية المدينة حيث تجتمع السُّيول، فتخصب الأرض وتكثر هناك القرى، على مسافة تقرب من مسيرة يومين غرب المدينة، أي فيما يعرف قديمًا باسم وادي ذي خُشُبٍ، ولهذا يحسن بالقارئ ملاحظة ذلك.

---

(١) "منازل الحجاز" لابن العطار مخطوط.

وادي القرى الوارد ذكره في كتب التاريخ والذي غزاه الرسول ﷺ هو وادي الْعُلاَ وكان أشهر سكانه قبيلة بني عُذْرَة ومن مواضع تلك القبيلة على ما في «معجم البلدان» وغيره :

١ – أديم، عند وادي القرى.

٢ – أضَاعِي ويعرف الآن باسم ضَاع ويقع في الشمال الغربي من العُلا في واد من فروع وادي الْجِزْل وفيه قَرية سكانها المناصير من قبيلة بَلِيٍّ.

٣ – الحاكَةُ : وتقع هذه شرق العلا على طريق حاج الشام ولها ذكر في رحلات الحج.

٤ – حدوداء.

٥ – ربب. وهذا الموضع والذي قبله لم أجد من يعرفهما.

٦ – الرقْعَةُ وهذه تقع جنوب العلا، في الطريق إلى المدينة، وقد ذكر علماء السِّير أن الرسول ﷺ مَرَّ بها، وأن له فيها مسجداً ذكره مؤرخو المدينة.

٧ – سُقْيَا الجِزْل، وهذه كانت من أشهر مدن هذه الناحية، ولها ذكر كثير في كتب المسالك ومعاجم الأمكنة، وتسمى أيضًا سُقْيَا يَزيد، وسُقْيَا بني أُمَيّة، ويظهر أنهم تملكوا فيها فنسبتْ إليهم للتفريق بيها وبين السُّقْيَا الواقعة بين مكة والمدينة والمعروفة الآن باسم أُمّ الْبِرك (جمع بِرْكة).

ومما جاء في كتب المتقدمين عن السقيا هذه قول البشاري[1] : إنها أحسن مدن هذه الناحية، والنخيل والبساتين مُتّصِلَةٌ من قُرْحٍ إليها، والجامع خارج البلد.

وقال ياقوت في "معجم البلدان" : (سُقْيَا الجِزْل موضع آخر مات فيه طُوَيْسٌ المخنث المُغَنّي. قال : يعقوب : سُقْيا الجِزْل من بلاد عُذْرَة قريب من وادي القرى). انتهى.

وقال السمهوديُّ في "وفاء الوفاء" : (والسقيا أيضًا موضع بوادي الجِزْل ببلاد

---

(١) "أحسن التقاسيم" ص ٧٤.

عُذْرَةَ، وأنه كان يلتقي بها من يريد المدينة على غير طريق الساحل مع من يصل من الشام انتهى. وللعلماء فيها كلام كثير.

والذي ظهر لي من كلامهم أنها تقع في موضع يعرف الآن باسم أم فُقُور، والفقور جمع فَقْر يقصد بها المواضع المحفورة لتجري فيها مياه العيون، وموضع أُمّ فُقُور في مُلْتَقَى وادي الْجِزْل بوادي المطْران، غرب قلعة زَمُرُّدٍ، إحدى محطات السكة الحديدية، في بَرَاح من الأرض، في الشمال من أُمِّ زَرْبٍ بمَيَل يسير إلى الغرب، على بعد نحو ٧٠ كيلاً من أم زرب. وعن العلا نحو ٥٠ كيلاً وتقع أُمُّ فُقُور بقرب (خط الطول . . /٣٨ْ وخط العرض ١٣َ / ٢٦ْ).

٨ – الفُقَيِّر، وقد ورد هذا الاسم في « معجم البلدان » وغيره مصحفًا القُفير بتقديم القاف وهذا خطأ. والفُقَيِّرُ لا يزال معروفًا ويقع غير بعيد من أُمِّ فُقُورٍ، وهو الآن قرية سكانها الفُريعات والرُّشُود – والمحاسنة من قبيلة بَلِيٍّ.

٩ – كتمان. ١٠ – مُحَجّر.

١١ – مياسر. ١٢ – مياه.

هذه المواضع الأربعة ذكرها المتقدمون في بلاد بني عُذْرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بني عُذْرة هاؤلاء اندمجوا في قبيلة بَلِيٍّ التي انتشرت في هذه الجهات، وفي مدينة العُلاَ من ينتسب إلى بني عُذْرَةَ، كما تقدم.

١٣ – وادي القُرى، ذكر المتقدمون أنه من بلاد بني عُذْرة.

ويظهر أن وادي القرى لخصوبة أرضه وكثرة مياهه، كثر سكانه، وبلغوا درجة من التحضُّر، بحيث أصبحوا خليطًا من مختلف الناس، فقد كان في عهد رسول الله ﷺ يسكنه اليهود، وقد غزاهم رسول الله فـفتح البلاد عنوةً وغنم أموالها، وأقام بوادي القرى أربعة أيام، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها. فلما بلغ يهود

تيماء استيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر وفدك (الحائط) ووادي الْقُرَى صالحوه على الجِزْية، وأقاموا في بلادهم، فلما كان عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه -، أخرج يهود خيبر وفدك (الحائط) ولم يخرج أهل تيماء ولا أهل وادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام.

وفي صدر الإسلام كان سكانُ وادي القرى أكثرهم من الطّالبيّيْنَ جاء في كتاب "الروض المعطار": وادي القرى من أعمال المدينة وهي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين وبها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب، وهم الغالبون عليها ويعرفون بالواديِين. انتهى.

ويظهر أن المقصود بهذه المدينة الرَّحبَة التي تقدم الكلام عليها.

أصل الغناء في الحجاز من وادي القرى: ذكر ياقوت وغيره أن عمر بن داود بن زاذان مولى عثمان بن عفان كان من وادي الْقُرَى وكان يعرف بعمر الوادي وكان مُغَنِّيًا وكان مهندسًا وكان في أيام الوليد بن يزيد، وهو أستاذ حكم الوادي المغني الذي ترجمه صاحب "الأغاني[1]" وذكر طرفًا من أخبار أستاذه عمر. وتقدم أن طويسًا المُغَنِّي مات في سُقْيَا الْجزْل.

شعرٌ في وادي القُرى: وبعد ألا يجدر أن يرتاح ذهن القارئ من جفاف البحث بأبيات من الشعر لها صلة بوادي القرى؟ قال جميل بن مَعْمَرٍ العذري:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بوادي القرى إنّي إذا لسعيد

وهل أرينْ جُمْلاً به وهي أيّم ... وما رثّ من حبل الوصال جديد

وقال أحمد بن حَجَلة في كتابه "منطق الطير":

أوادي القرى هذي القرى أين أهلها؟ ... وماؤهم فيها الّذي كان منصبًا؟

أظنّك لمّا أن أكلت لحومهم ... شربت عليها الماء من بعدهم شربًا

---

(١) ج ٦ ص ٦٢.

وقال :

رأيت قرى وادي القُرى في مسيرنا وبنيانها طوب ومن تحته حَجَرْ
ولم يبق فيها ساكن متحركًا وليس بها للماء عين ولا أثِرْ

وقال صلاح الدين الصفدي :

مررنا بوادي القرى ضحوة ودسنا به المهمهَ الأغبرا
فأمطرنا اللّه ذاك النّهار فكان قرانا بوادي القرى

انطباعات عن الرحلة : لا يستطيع المرء أن يعرف حقيقة أيٍّ إنسان ما لم تَقْوَ الصِّلَةُ به باختلاط أو مصاحَبة أو معاملة، فترة من الزمن، والمرافقة في الأسفار من أقوى أسباب المعرفة، ومن ثمرات هذه الرحلة الطيبة وإن كان وقتها قَصيرًا أنني ازددت معرفة ببعض الرفقاء.

لقد عرفت الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري منذ سنين، العالم الباحث المُتّزنَ، ولكنني عرفته في هذه الرحلة الرجل الطيّبَ الواسع البال، الذي قلَّ أن تُشاهده إلا مُبْتسمًا، ومع أنه كان عماد الرِّحلة إلا أنه كان لا يميز نفسه عن أيّ واحد ممن معه بأي أمر من الأمور. وعرفت كثيراً من الإخوة في هذه الرحلة، معرفة زادتَنْي تَعَلقًّاً بهم، ممن لا أرى ما يدعو لذكر أسمائهم، كما عرفت بعض الإخوة من أهل بلدة العلا ممن استفدت من معرفتهم ولقيت من تقديرهم ما يوجبَ عَليَّ شكرهم. ومما استفدته في هذهّ الرحلة معرفة موضعين من المواضع التي ورد ذكرها في خبر غزوة رسول الله ﷺ تَبُوك، ذكر المؤرخون أن فيهما مسجديَنْ نَبَوِيّيْنِ هما: ذُو الجِيْفَةِ بالجيم مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية ففاء مفتوحة فهاء.

والموضع الثاني حَوْضَا بالحاء المهملة بعدها واوٌ ساكنة فَضَادٌ معجمة. فألف مقصورة وقد ذكر المتقدمون هذين الموضعين على صور مختلفة في رسم اسميهما

توقع في الحيرة واكتفي بإيراد ما ذكره السمهودي في كتابه "وفاء الوفاء[1]" في ذكر مساجد تبوك، ومنه يتضح اضطراب أقوال المتقدمين في ضبط الاسمين المذكورين قال: التاسع بذي الحليفة. قاله ابن زبَالة وغيره أيضًا وهو غريب لم يذكره أصحاب البلدان.

العاشر : بذي الخيفة، لم أرَ من جمعه مع الذي قبله إلا المجد وقال : إنه بكسر الخاء المعجمة، وقيل بفتحها، وقيل : بجيم مكسورة وقيل بحاء مهملة مفتوحة. واقتصر في أسماء البقاع على كسر الجيم[2]. والذي في «تهذيب ابن هشام» ذكر هذا المسجد بدل الذي قبله، وعكس ابنُ زُبَالة.

الحادي عشر : بالشوشق قاله الحافظ عبدالغني عن الحاكم قال المجد : وكأنه تصحيف[3].

الثاني عشر : بصدر حَوْضَى بالحاء المهملة والضاد المعجمة، مقصور، كما وجد بخط ابن الفُرات. واقتصر عليه الْمَطَرِيُّ وقال المجد – مع ذكره لذلك في أسماء البقاع– : إنه بفتح الحاء والمد، موضع بين وادي القُرَى وتبوك قال : وهناك مسجده ﷺ انتهى. وهو مخالف لما ذكره هناك من المغايرة بين مسجد ذي الحليفة وبين مسجد صدر حَوْضَى في ذَنَب حَوْضَى، ومسجد آخر في ذي الحليفة من صدر حَوْضَى، والمغايرة هي التي في "تهذيب ابن هشام"[4] ولعل صدر حَوْضى هو المعبر عنه بِسَمنة في رواية ابن زبَالَة. فإنه – كما سيأتي – ماءٌ قرب وادي القُرى. وفي نسخة المجد في حكاية روايته : ومسجد بذنب حُوَيْضَى، بدل قوله : بسمنة.

هذا طرف من اختلاف المتقدمين في ضبط هذين الاسمين.

---

(١) ص: ١٠٣٠ الطبعة الثانية. (٢) يقصد بالمجد : مجد الدين صاحب "المغانم المطابة" و"القاموس" وغيرهما. ونص كلامه: الجيفة بالكسر وذو الجيفة موضع بين المدينة وتبوك، بنى النبي ﷺ عنده مسجدا في مسيره إلى تبوك.

(٣) يقصد تصحيف الشقة شقة بني عذرة وقد تكون تصحيف السقيا سقيا بني عذرة وهي سقيا الجزل التي تقدم ذكرها.

(٤) مراده "السيرة النبوية" التي ألفها محمد بن اسحاق، ثم هذبها عبدالملك بن هشام. مشهورة مطبوعة.

أما الاسم الأول فليس الحليفة بالحاء المهملة، ولا الخليفة بالخاء المعجمة ولا الحيفة ولكنه ذُو الجيْفَة بالجيم المكسورة وإسكان الياء المثناة التحتية، وفتح الفاء وآخره هاء، وينطق الآن بحذف (ذو) وهو وادٍ من فروع وادي الْجِزْل، ينحدر من حرة العُوَيْرِض مُتّجِهاً صوب المغرب، حتى يصب في وادي الْجِزْل، ويقع بالنسبة لِحَوْضَا في الشمال على مسافة تقارب ٢٠ كيلاً.

ويوجد في الْجِيفْة ثَمَايِلُ (أحساء) وقت الأمطار، والقادم من تبوك قد يَمُر بأعلاه.

أما حوضا فبالحاء المهملة بعدها واوٌ ساكنة فضاد معجمة، وآخره ألف مقصورة، وهو وادٍ صغير ينحدر من حَرَّة الْعُوَيْرِض أيضًا مُتّجهاً صوب الشّرْق، حتى يفيض في أعلى وادي الحِجْر الذي هو أعلى وادي العلا، وهو يفيض في هذا الوادي في الشمال الغربي منه. وأقرب منهل لهذا الوادي هو منهل ثَرْبَة، وتقع في الجنوب الغربي منه بنحو ١٥ كيلاً.

وحوضا هذا جاء عنه في « معجم البلدان » وعنه نقل الفيروز آبادي في "المغانم المطابة[١]" ما نصه : حوصاء – بالفتح والمدّ – : موضع بين وادي الْقُرى وتبوك، نزله رسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك، وهناك مسجد في مكان مصلاه، في ذنب حوصاء، ومسجد آخر في ذي الجيفة من صدر حوصاء. وقال ابن اسحاق : حوضا : بالضاد المعجمة والقصر، كذلك وجدته[٢] مضبوطًا بخط ابن الفرات وقال : وبني به مسجداً قاله الحازميُّ.

مدينة ذِي الْمَرْوَة : وقد استفدت من رحلتي هذه الاطمئنانَ بأن ما حددت به مدينة ذي المروة في كتابي "بلاد ينبع" كان صحيحًا فقد ذكرتُ أنها كانت تقوم في الموقع المعروف الآن باسم (أُمّ زرب) في ملتقى الأودية التي منها وادي الجزل، ذلك أنني عرفت أن المروة التي كانت تسمى بها تلك المدينة لا تزال معروفة باقية، وتقع بالنسبة لها غربًا

(١) ص ١٢٣.   (٢) القول للحازمي وهو في كتابه "البلدان". صدر عن (دار اليمامة) عام ١٤١٥هـ.

غير بعيد منها بينها وبين جبل يدعى الآن الظليعة (بقرب خط الطول ٢٢َ / ٣٨ْ وخط العرض: ٣٨َ / ٢٥ْ تقريبًا). والمروة تلك صخرة بيضاء منتصبة. ولكي يدرك القارئ أهمية مدينة ذي المروة يحسن إيراد طرف مما ورد عنها في كتب المتقدمين.

قال البكري[١]: وعنه نقل صاحب "الروض المعطار[٢]": (ذو المروة من أعمال المدينة قرى واسعة لجهينة). ومفهوم هذا أن اسم ذي المروة يشمل المدينة المذكورة وما حولها. وعدها المقدسي في كتاب "أحسن التقاسيم[٣]" من مدن خَيْبَرَ هي والحوراء.

وفي "معجم البلدان": (ذو المروة قرية بوادي القُرى، وقيل بين ذي خُشُبٍ ووادي القرى، نسبوا إليها أبا غسان محمد بن عبدالله بن محمد الْمَرْوِيَّ سمع بالبصرة الفضل ابن الحُباب، وروى عنه محمد بن عبدوس النسويُّ، سمع منه بذي المروة) انتهى.

وقال أيضًا: (ذو المروة يفضل تَمْرُهُ على سائر تمور الحجاز إلا الصَّيحاني بخيبر، والبرني العجوة بالمدينة) انتهى. وجاء في كتاب "وفاء الوفا" للسمهودي ما نصه: (ذو المروة على ثمانية بُرُدٍ من المدينة. وقال المجد: هي قرية بوادي القرى، وهو مأخوذ من قول ياقوت: ذو المروة قرية بوادي القرى، على ليلة من أعمال المدينة، ثم قال المجد: وقيل: بين ذي خُشُبٍ ووادي القرى.

قلت: كونها بين ذي خشب ووادي القرى المشهور المعروف، لكن أهل المدينة اليوم يسمون القرى التي بوادي ذي خشب: وادي القرى، فلعله مراد ياقوت.

وذكر الأسدي ما يقتضي أنَّ ذا المروة بعد وادي القرى بنحو ثلاث مراحل جهة المدينة. وروى ابن زبالة أن ا لنبي ﷺ نزل بذي المروة وصلّى بها الفجْرَ، ومكث لا يكلمهم حتى تَعَالَى النهارُ، ثم خرج حتى أتى المروة فأسند إليها ظَهْرَهُ مُلْصِقاً ثم دعا حتى ذَرَّ قرن الشمس شرقًا، يدعو، ويقول في آخر دعائه: "اللهم بارك فيها من بلادٍ،

---

(١) "معجم ما استعجم" ١٢١٨.

(٢) ص ٥٣١.

(٣) ص ٨٣.

واصرف عنهم الوباء، وأطعمهم من الحُسنَى، اللهم أسقهم الغيث، اللهم سلمهم من الحاج وسلم الحاج منهم" . وفي رواية أنه نزل بذي المروة فأتته جُهَيْنَةُ من السهل والجبل، يشكون إليه نزول الناس بهم، وقهر الناس لهم عند المياه. فدعا أقوامًا فأقطعهم وأشهد بعضهم على بعض بأن «قد أقطعتهم وأمرت أن لا يُضَامُوا ودعوت لكم، وأمرني حبيبي جبريل أن أعدكم حلفاء».

وقال أيضًا [١] : (وفي سنن أبي داود أن النبي ﷺ نزل في موضع المسجد تحت دَوْمَةٍ فأقام ثلاثًا، ثم خرج إلى تبوك وأن جُهَيْنَة لحقوه بالرَّحبَة، فقال لهم : "من أهل ذي المروة" ؟ قالوا : بنو رِفَاعَة من جُهينة. فقال : "قد أقطعتها لبني رفاعة" . فاقتسموها فمنهم من باع، ومنهم من أمسك فعمل) . ولما ذكر مساجد النبي ﷺ في طريق تبوك عد الثامن عشر بذي المروة وقال : (قال المطريُّ : وهي على ثمانية بُرُدٍ من المدينة كان بها عيون ومزارع وبساتين أثرها باقٍ إلى اليوم) . انتهى .

وأُضيف إلى ما تقدم أن آثار البلدة من أقنية وأُسُسِ بناءٍ وآثار زراعة لا تزال باقية .

قُرْحُ أين يقع ؟ قرح هذا بالضم ثم السكون وهو سوق وادي القرى يضاف إليه صَعيد قرح على ما ذكر ياقوت والفيروز آبادي والسمهودي، وكان من أسواق العرب في الجاهلية، وقيل : إنّ هلاك قوم عاد كان في هذه القرية[٢] ومن أوفى من وصفه من المتقدمين ممن اطلعت على كلامهم المقدسيُّ في كتاب "أحسن التقاسيم" الذي ألفه سنة ٣٧٥هـ قال : (وناحية قُرْح تسمّى وادي القرى، وليس بالحجاز اليوم بلدٌ أجَلَّ وأعْمَر وآهَلُ وأكثر تجارة وأموالاً وخيراتٍ - بعد مكة - من هذه، عليها حصن منيع، على قُرْنَتِه قَلْعَةٌ، قد أحدقت به القرى، والْتفّتْ به النخيل، ذو تمور رخيصة، وأخباز حسنة، ومياه غزيرة، ومنازل أنيقة، وأسواق حارَّة، عليه خندق، وثلاثة أبواب محددة، والجامع في الأزِقّةِ، في محرابِهِ عَظْمٌ، قالوا : هو الذي قال النبيُّ ﷺ : «لا تأكلني فأنا

---

(١) «وفاء الوفا» ص ١٠٣١ الطبعة الثانية .

(٢) "وفاء الوفاء" ص ١٢٨٨ .

مسموم». وهو بلد شاميٌّ مِصْرِيٌّ عِراقيٌّ حِجَازِيٌّ، غير أن ماءهم ثقيل، وتمرهم وسط، وحَمّامُهم خارج البلد. والغالب عليها اليهود) انتهى.

لم أستطع الاهتداء إلى موضع قرح ولكنني استنتج استنتاجًا من كلام المقدسي : أنه القسم الشمالي من مدينة العلا فقد ذكر أن حصن البلدة على قُرَنته قلعة. وكما يفهم من ذكر مسجد قرح المنسوب إلى النبي ﷺ أنه عُلِّم بِعَظْمٍ، وتقدم ذكر جامع العلا الكبير، وأنه يسمى مسجد العظام، وفي الطرف الغربي من البلدة القديمة قلعة على جبل. استنتج من كل هذا أن بلدة قرح جزء من العُلا شملها الآن اسم العلا، ويؤيد هذا ما أورده ابن جرير في تفسير سورة الأعراف عن ابن اسحاق – في الكلام على قوم ثمود : وكانت منازلهم الحِجْر إلى قُرْح وهو وادي القرى، وبين ذلك ثمانية عشر ميلاً. انتهى. ومثل هذا في تاريخه –أي ابن جرير–.

وهذا ينطبق على ما يعرف الآن باسم خريبة العلا، وهي الطرف الشمالي من البلدة وتبعد عن الحجر بنحو ٢٥ كيلاً وهو يقارب ١٨ ميلاً.

ولهذا فاسم العُلا شَمَل ما كان يعرف قديمًا باسم قُرْح، وكثيراً ما يحدث مثل هذا بحيث يسمى الموضع وما حوله باسم جزء منه فيطغى اسم ذلك الجزء على جميع الموضع ويُنْسَى ما عداه. وقد ظَنَّه الدكتور عبدالله آدم نصيف (المابيات) وبنى رسالته لنيل الدكتوراه على هذا الظن، وهو وهم، فالمابيات تبعد عن وادي الحجر أكثر من المسافة الذي ذكر ابن جرير، وهي ثمانية عشر ميلا.

وعلى ذكر بلدة العلا نجد وصفها في أول القرن السابع، قريبًا من وصف المقدسي لقرح، قال إبراهيم بن شجاع الحنفي في كتاب ألفه سنة ٦٢٣[١] : (العلا أرضُ رَمْلٍ أبيض، بين جبلين عاليين، ثم مضيق، ثم وادي، ونبات كثير، وعيون، ثم مدينة العلا وسط الوادي، نخل كثير، وتمر، والمدينة صغيرة، وبها قلعة صغيرة

---

(١) "منازل الحجاز" مخطوط.

على رأس جبل صغير، وعيون عذبة يزرع عليها، ولها أمير، ويودعون بها أمتعتهم).

ووصفها ابن فضل الله العمري في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" بأنها إحدى مدن الحجاز، ماءٌ جارٍ، ونخل وزرع، يضرب بمفازتها المثل، ليس بالمفازة ماء إلا بئر الأخيضر بوسطها، ثم حفاير الزمرد وشعب النعام. وقال صلاح الدين الصفدي في رحلته إلى الحج [1]:

لقد بعد العلا ونأى محلاً ... وطال، ونحن نسأل عن عريبه ؟
ويا عَجَبًا له يَزْدَادُ بُعْداً ... وقد قمنا إليه من جنيبه

وقال :

لما حججت وحجتي ... لم ترض ما بين الملا
أبصرت قدرى خاملاً ... لما دخلت إلى العلا

وقال :

خرجنا نحو طيبة من دمشق ... بأفئدة للقياها حرار
ولكن في العلا زدنا اشتياقًا ... كأنّ قلوبنا حشيت بنار
(وأبرح ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الديار من الديار)

الدِّيْدَانُ : أطلق كثير من علماء الآثار من المستشرقين هذا الاسم على منطقة العُلا، وكنت أظن أن الاسم إغريقيًا أو رومانيًا لم يعرفه علماء العرب، ولعلي أشرت إلى هذا في الكلمة التي القيتها في (الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة) في شهر جمادى الأولى سنة١٣٩٧هـ، فعقب طالب في قسم الآثار على كلمتي قائلاً : قد ذكرها صاحب "معجم البلدان" فشكرته ولم أرد البحث في الموضوع لأنني أعرف أن صاحب "معجم البلدان" قال: الدِّيْدَان مدينة حسنة، كانت في طريق البلقاء من ناحية الحجاز، خربت. انتهى.

---

(١) «الدرر الفرائد المنظمة» ص١٢٧٤ ط. (دار اليمامة).

وأعرف أن هذا الكلام لم يحدّد موضع هذه المدينة، وما أطول المسافة بين البلقاء والحجاز؟! وذكرت في كلمتي تلك قول إبراهيم بن شجاع الحنفي، وهو معاصر لياقوت، بأن الديدان وادٍ فيه مدينة وقد تقدم في الكلام عن الرَّحَبَة.

وفي أثناء الرحلة قابلني ذلك الطالب، ويظهر أنه من أهل العلا الحضر، فوجه إليَّ أسئلة فهمت منها أنه لا يقصد الاستفادة، وإنما يريد أن يظهر مقدرته العلمية، فحاولت إفهامه بأن كلام إبراهيم بن شجاع صَرِيْحٌ في إطلاق ذلك الاسم على أسفل وادي العلا بخلاف كلام ياقوت. والغريب في الأمر أن هذا الطالب يريد أن يقدم رسالة تتعلق بدراسة هذا الموضع نفسه لنيل درجة جامعية وما كان يعرف قول ابن شجاع فيه ولا ما جاء في كتب المتقدمين عن ابن شجاع، ولهذا حاول جاهداً أن يظهر أن قول ابن شجاع لا قيمة له، ولعله فعل هذا لأنه لم يسبق أن قرأه، قال : إنه قرأ عن آثار هذه المنطقة كثيراً، وصار يورد أقوالاً استقاها كلها من كتاب المستشرق موزل عن "شمال الحجاز" ولم يذكر اسم الكتاب، وأخذ يعدد أسماء مؤلفات لم يرها، فأفهمته بمصدر أقواله وبأن بعض ما ذكر ليس صحيحًا، ولما لم أر الفتى في موقف المستفيد ورأيته كما قيل : (زَبّبَ قَبْل أنْ يُحَصْرِمَ) انصرفت عنه.

أذكر هذا والأسى يغمرني من حالة كثير من شبابنا الذين عندما ينال أحدهم طرفًا يسيراً من العلم يتوهم أنه بلغ الغاية.

وقد أُلِّفَ عن مدينة العُلاَ - أخيراً - بعض المؤلفات ولكنني لم أطلع عليها، كما نقد أحد الباحثين رسالة الدكتور عبدالله آدم نصيف - التي لم تُعَرَّبْ بعد - فاكتفيت بالإشارة المتقدمة عن إطالة الموضوع.

الفقراء من (عنزة) وأفخاذهم

تقدم الكلام عن قبيلة (الفقراء) الساكنين في (العلا) وبعد نشره في «العرب» بعث الأخ شالح بن محمد بكلمة في الموضوع، نشرت في جزء رجب وشعبان سنة ١٣٩٨هـ من المجلة.

ويظهر أن كلمة الأخ شالح لم تفهم على وجهها الصحيح ولهذا كثر التعليق عليها، وكان من بين الكتابات التي وردت إلى المجلة :

١- ملخص رسالة الشيخ كاتب بن علي الفقير: لقد اطلعت على مجلة «العرب» الصادرة بالعدد (ج١ و٢ س١٣) رجب / شعبان سنة ١٣٩٨هـ - فقرأت مقالاً من أحد القراء الكرام حول قبيلة الخماعلة وصلتها بقبيلة الفقراء من عنزة الساكنين (مدائن صالح) و(الحِجْر) و(العُذَيْب)، وما جاء فيه من أن الفقراء ينقسمون إلى خمسة أقسام رئيسة لا ستة أقسام على ما سبق نشره في المجلة:

١- الشفقة. ٢- الجمعات. ٣- المغاصيب. ٤- الزوارعة. ٥- الحجور.

وقد تحدث عن الخماعلة وعدم ارتباطهم بالفقراء.

وبصفتي أعرف فخوذ هذه القبيلة معرفة تامة أحب أن أوضح ثلاثة جوانب :

الجانب الأول: أن كلمة الفقير تطلق على فخذ المبارك فقط رأس قبيلة المنابهة - في الماضي والحاضر، ولا يلقب بـ (الفقير) إلا من كان من فخذ المبارك.

الجانب الثاني: صحة الفخوذ ثمانية وليست خمسة وهي :

١- فخذ المبارك الذي يرأس قبيلة المنابهة.

٢- الشفقة. ٣- الجمعات. ٤- الزوارعة.

٥- المغاصيب. ٦- المصاليخ. ٧- الحجور. ٨- الصقرة.

وصحة فخوذ الخماعلة هي:

١- الشهاب. ٢- الذيابة. ٣- الفضيل. ٤- اليزيد.

وتتصل هذه القبيلة بقبيلة الفقراء في جدهم (مُنَبِّه) ويطلق على هذه القبيلة (المنابهة) وشيخ الشمل في الماضي والحاضر هو (الفقير) هذا ما جرى إيضاحه.

٢- رسالة الشيخ فارس بن حاكم بن شهاب الفقير: اطلعنا على الرسالة المنشورة في مجلة «العرب» ج١ و٢ س١٣ رجب / شعبان سنة١٣٩٨هـ بعنوان (الخماعلة وصلتهم بالفقراء) وصاحب الرسالة شالح بن محمد، وقد لفت نظرنا ما كتبه المذكور عن تلك القبيلة وللإيضاح ونفيًا للالتباس نبين لفضيلتكم بهذه الرسالة راجين نشرها استجابة لرغبة مشايخ قبيلة المنابهة وأعيانهم.

أولاً : أن ما سمي بقبيلة الفقراء هي قبيلة (المنابهة) من عنزة المكونة من الأفخاذ التالية:

(أ) المبارك: مشايخ قبيلة المنابهة المكونة من الأفخاذ التالية.

(ب) الحسنة. - (جـ) الجمعات - (د) الزوارعة. - (هـ) المغاصيب.- (و) الحجور. - (ز) الحسنة. - (حـ) المصاليخ. - (ط) الخماعلة. - (ك) الصقرة.

أما لقب الفقير فهذا يخص المبارك مشايخ قبيلة المنابهة فقط، وأما الأفخاذ من فقرة (ب) وحتى فقرة (و) (فلقبهم الفقيري) نسبة إلى شيخهم الفقير (فخذ المبارك).

ثانيًا : الخماعلة سابقًا رئيسهم (الشن) فخذ (الشنون) تحت لواء الفقير. وعلى عهد حكومتنا الرشيدة - أعزها الله - رئيسهم صياح بن نابت.

ثالثًا : جميع أفخاذ هذه القبيلة رئيسها الفقير (فخذ المبارك) أما في الشمال فرئيسها ابن ملحم.

رابعًا : إن الأخ صاحب الرسالة ليس لديه الدراية أو المعلومات التاريخية عن تلك القبيلة.

خامسًا : اقترح على فضيلتكم الرجوع إلى الشيخ صياح بن رحيل الفقير والشيخ هجر بن سلطان بن دوشان والشيخ كريم بن جبل والشيخ دالش بن حمدان أبو قرينات والشيخ حامد بن حمير ليؤكدوا لفضيلتكم المعلومات الصحيحة عن القبيلة.

٣- رسالة الشيخ عبدالهادي بن التيهي الفقير: يسرني أن أبعث هذه الرسالة وأن أعرفكم أولاً عن نفسي أنا عبدالهادي التيهي الفقير العنزي من الفقراء فخذ المبارك الساكنين في مدائن صالح: الحِجْر والعُذَيْب الذين ورد ذكرهم في مجلة «العرب» بعددها الصادر ج١و٢ س١٣ رجب / شعبان سنة ١٣٩٨هـ وفيها بعض الأخطاء بالنسبة للخماعلة وصلتهم بالفقراء.

أولاً: اسم الفقراء ليس أصلاً بل أطلق على شيخ القبيلة الجد الأول لآل مبارك الذين هم شيوخ الشَّمْل من قديم الزمان حتى هذا التاريخ وهو الجد صالح بن حمدان الذي كان فيه (زار) وأطلق عليه اسم (الفقير) وقيل: (عرب الفقير) حتى أطلق على بعض هذه القبيلة اسم الفقراء أما الاسم الجامع لهذه القبيلة فهو المنابهة وإليكم أسماء أفخاذ هذه القبيلة.

١- الحسنة وينقسمون إلى عدة افخاذ ساكنين بالشمال (سورية).

٢- عقب راشد وينقسمون إلى الأسماء التالية:

(أ) الشفقة الذي منهم شيوخ الشمل (المبارك).

(ب) الجمعات وينقسمون إلى عدة أفخاذ.

(جـ) المغاصيب وينقسمون إلى عدة أقسام.

(د) الزوارعة وينقسمون إلى عدة أقسام.

٣- المصاليخ وينقسمون إلى عدة افخاذ.

٤- الصقرة وينقسمون إلى عدة افخاذ.

٥- الخماعلة وينقسمون إلى عدة أقسام.

٦- الحجور وينقسمون إلى عدة اقسام.

أما شيوخ المشايخ في نجد في الحجر، مدائن صالح والعذيب فهو الشيخ دبشي الفقير لعموم هذه القبيلة وفي الشمال (سوريا) الشيخ ثامر بن طرار الملحم.

أما صلتهم ببعضهم فهم المنابهة جدهم منبه، وهم تحت لواء واحد من قديم الزمان وبلادهم مدائن صالح والعذيب ووادي خَيبر.

في أرض الكنانة

أول رحلة إلى القاهرة (*) : [أعيد القول بأن القارئ لا يجد فيما أكتبه عن الرحلات سوى أفكار ضحلة، لا تضيف جديداً إلى معلوماته، وقد تصور له بعض أحاسيس الكاتب ونظراته الخاصة، في مرحلة من مراحل عمره قبل أكثر من نصف قرن من الزمان] .

لقد أحببت القاهرة منذ أول وهلة رأيتها، فهي أول مدينة شاهدت كل ما فيها متغيراً عما ألفته من مناظر الصحراء التي ألفت الحياة فيها، ومن حياة ما فيها من مدن وقرى، لها أنماط في كثير من أحوالها، شملها التغير عن حياة الصحراء وبدأت مرحلة جديدة في جميع أساليب الحياة، إن القاهرة تبدو لي من حيث العمران من أجمل ما شاهدته عينا إنسان ثم هي ذات مياه جارية، ومرابع تزدان بالخضرة والاتساع، بحيث لا يحدها البصر، ثم هذا النهر العظيم الذي يخترقها وتطل على جوانبه بأبنيتها الشامخة .

وفضلاً عن كل ذلك فقد كانت موطن العلم والعلماء، ومهوى أفئدة المثقفين من أبناء الأمة العربية في كل مكان .

كانت أول زيارة لها في سنة ١٣٥٨هـ سافرت إليها بحراً في إحدى بواخر (شركة البوستة الخديوية للملاحة) وكانت لتلك الشركة باخرتان (الطائف) و(تالودي) تترددان بين السويس وجدة في كل أسبوع .

وكانت الرحلة في الباخرة (الطائف)، والرفيق فيها أحد الإخوة المبعوثين من (مطبعة أم القرى) للتمرن على أمور الطباعة، ويدعى (محمد سلطان) وأتذكر أنني رأيته قبل خمسة عشر عامًا يعمل موظفًا في عمل كتابي لا صلة له بالطباعة في (جامعة الملك عبدالعزيز) بمدينة جدة، وكان الركوب في الدرجة الثانية .

وقد وقفت بنا الباخرة في ميناء ينبع، ثم في ميناء الوجه، ثم في ميناء الطور في

---

(١) « العرب » – س١٦ ص٤٨١ .

موضع يدعى (الشيخ أبو زنيمة) ثم في السويس، والرحلة لم تزد على ثلاثة أيام.

ولا أزال أذكر أنني عند نزولي من الباخرة تقدمت إليَّ سيدة مصرية كانت من ركابها فقالت لي: إن معي حاجة صغيرة، أريد منك أن تساعدني في حملها، حتى نخرج من دائرة الرسوم (الجمرك) فقالت: هاتيها فأخرجت من ثوبها قطّة صغيرة، كانت ربطتها بحبل في رقبتها وربطت الحبل في ذراعها، ففككت الحبل، وأرجعته لها وأخذت القطة وكانت بحجم الكف الصغير، فوضعتها في جيب ثوبي، وحملت حقيبتي بيدي، وعند مروري بالموظف الذي يقوم بتفتيش الحقائب، وكنت لابسًا عباءة متينة (مشلح شمال) إذ الجو كان باردًا فرفع رأسه يسألني: هل معك شيء؟ فأشرت إلى الحقيبة ولما انحنيت لفتحها يظهر أنني ضغطت على القطيطة فتأوهت بشدة وماءت: (ناو ... ناو!) فالتفت الرجل إليَّ قائلاً: (إيه ياشيخ العرب في بطنك قطط)؟! فادخلت يدي في جيبي وأخرجت القطة وقلت: لا والله ليس في بطني ولكن في جـيـبي، وهاهي، وتلك صاحبتها، وأشرت إلى السيدة التي كانت ترقبني عند باب الخروج. فأخذها وقال: لا يسوغ إدخال الحيوانات إلا بعد عرضها على (الطب البيطري).

كنت قدمت القاهرة لطلب العلم، ولم تبعث المعارف في تلك السنة سواي، ولها بعثة في القاهرة عدد أفرادها اثنان وستون طالبًا وكان مراقب البعثات في ذلك العهد السيد ولي الدين أسعد، من أول بعثة قدمت القاهرة هو والسيد أحمد العربي ومحمد نايل دويدار – في سنة ١٣٤٧هـ وكلهم من أهل المدينة.

وكنت ألبس فوق رأسي عقالاً مُقَصَّبًا، وفي قدمي حذاء نجدي مكشوف، حفاظًا على الزيّ العربي، وبقيت ملازمًا لهذا اللباس حتى قرر دخولي كلية الآداب، فأخبرني المراقب بضرورة تغييره بلباس مماثل للباس جميع الطلاب، وهو الزي الأفرنجي، وفوق الرأس الطربوش.

وعند باب (الجمرك) أبصرت رجلاً واقفًا بَدَأَني بقوله: مرحبًا ياشيخ العرب!

فقلت له: هل بعثك السيد ولي الدين مراقب البعثة لاستقبالي؟ قال: نعم أين متاعك؟ قلت هذه الحقيبة الصغيرة وهذه اللفافة، وهي كيس فيه أشياء صغيرة هيأتها للاستعمال، وللحرص على حفظها. فقال أعطني الكيس، واحمل الحقيبة. فقلت: أين القطار الذي يوصل للقاهرة؟ فأشار إلى مقهى قريب منا، وقال: تعالَ: اجلس هنا في المقهى وسأحضر القطار، وأوصى رجلاً واقفًا بأن يقدم لي ما أطلب حتى يحضر. فمضى من الوقت نحو ساعة، وطالبني الرجل بثمن ما قدم لي مما احتجته من ماء وشاهي. وكان كل ما معي من نقود -وهي بحمد الله قليلة- وأكثرها في الكيس وبعضها في الحقيبة، فقلت: حتى يعود صاحبي الذي ذهب لإحضار القطار، فضحك وقال: أتعرفه؟ إنه لص، ولن يرجع، والقطار له محطة لا يتعدَّاها، فاركب إحدى السيارات الواقفة واذهب إليها.

وكان مقر البعثة في (الحلمية الجديدة) بقرب مسجد كان يتلو فيه القرآن في ذلك العهد الشيخ محمد رفعت -رحمه الله- على مقربة من (درب الجماميز) الذي تنتشر فيه المكتبات ذلك الزمان.

من عادة القادم إلى القاهرة تلك الأيام من خارج مصر، الحضور في صبيحة اليوم الثاني من قدومه إلى أقرب مركز صحي للمكان الذي نزل فيه، لإجراء الكشف الطبي، فذهبت في الصباح أنا وصاحبي محمد سلطان مع بواب دار البعثة إلى المركز الصحي، وبعد جلوسنا برهة من الزمن وقف أمامنا رجل وقال: (من فيكم شنب الدين ومَنْ هو دقن الدين)؟! كنت قد تركت شعيرات لحيتي تنمو، فظننت الرجل يسخر بي فصرخت في وجهه: (أتهزأ بلحيتي)! فما كان من صاحبي إلا أن هبَّ واقفًا وقال: أنا محمد سلطان شنب الدين، فتراجعت قائلاً: لا مؤاخذة مادام صاحبي شنب الدين فسمّني (دقن الدين) وانتهى الأمر بابتسامة من الجميع.

كنت أحمل كتابًا من مدير المعارف السيد محمد طاهر الدباغ لمراقب البعثات، لكي يسعى لإدخالي إحدى كليات الأزهر أو (دار العلوم) وما كنت راغبًا في

دخول واحدة منها، ولكن المعارف وقد اطلعت على نتيجة دراستي القديمة وأنني متخرج في (قسم التخصص في القضاء) في (المعهد السعودي) أوضحَتْ لي أنه لا يمكن ابتعاثي إلا لدخول إحدى الكليات المذكورة فوافقت، غير أنني بعد وصولي إلى القاهرة أوضحت للمراقب رغبتي في دخول كلية الآداب في الجامعة المصرية، فأوضح لي أنه لا يسمح للطلاب السعوديين بدخولها، لما أثير حولها حين كان الدكتور طه حسين عميداً لها، مما دعا إلى نقله منها مع أمور أخرى، وتعيين الدكتور محمد شفيق غربال مكانه، ولكنني صممت على دخول تلك الكلية، ورفضت ما عداها، فأبرق للسيد طاهر، فأجابه بأن أدخل أي كلية أرغب وأُقبل فيها.

وفي صباح يوم من الأيام ذهبت معه إلى كلية الآداب فقابلنا عميدها الأستاذ محمد شفيق غربال فقال: إنني حديث العهد بالعمل، ويحسن استشارة الدكتور طه حسين في مسألة القبول وها هو عنوانه ورقم هاتفه.

وبعد الاتصال به حدد الزيارة الساعة الرابعة مساء، وكان الاجتماع به في الوقت المحدد في منزله، وكان في (الزمالك) ولما أوضح له السيد ولي الدين رغبتي في دخول كلية الآداب سأل: كم عدد أعضاء البعثة السعودية فأجاب ٦٢، فقال: اثنان وستون لا يدخل كلية الآداب سوى واحد؟ فبدت من السيد هفوة إذ قال: وذلك بغير رغبتنا، لأننا نريد طلاب علم في الدين واللغة. سألني طه حسين عما قرأته من كتب الأدب القديم والحديث، فسردت عليه أسماء ما حضرني ومنها مؤلفات الرافعي ومن بينها كتاب «تحت راية القرآن» فابتسم ووجه الكلام إلى المراقب: من السهل جداً قبول الأخ. ثم أخرج بطاقته وقدمها للسيد قائلاً: يحسن أن تتصلوا بالأستاذ إبراهيم مصطفى في شارع المساحة رقم (٧) ورقم هاتفه كذا وكذا، وأن تقدموا له هذه البطاقة وأنا سأتصل به لأكلمه في الموضوع.

كان الأستاذ إبراهيم مصطفى، قد زار الحجاز وشاهد آثار الطائف، واحتفي به، وزار المعهد وعرف اتجاه الدراسة فيه، وهو من بيت (الفقيه) ابن عم للشيخ محمد

عبدالظاهر أبو السمح إمام الحرم المكي في ذلك الحين، فتوقعت منه من حسن الاستقبال خلاف ماوقع. وامتدت الصلة به حتى أصبحت من زملائه عضواً في (مجمع اللغة العربية).

ذهبت مع المراقب صبيحة اليوم الثاني إلى كلية الآداب لمقابلة الأستاذ إبراهيم مصطفى، وكان مدرسًا فيها وهو صاحب كتاب «احياء النحو» فقد حدد الزيارة في ذلك الوقت في الكلية لا في بيته، فما كان -رحمه الله- عند الاستقبال بلطف العميد ولا الدكتور طه حسين، كان أن بدأ في الكلام عن صعوبة الانتساب إلى كلية الآداب، وأنه لابد لمن رغب ذلك أن يكون على جانب كبير من معرفة علم النحو بحيث يكون درس «ألفية ابن مالك» وشروحها لابن عقيل وابن هشام وغيرهما واسترسل في كلام مثبط لهمتي، فمال المراقب إلى ماقال، ولكنني قلت: إنني مستعد للاختبار، فوجدها فرصة يتخلص بها منا فقال: إذن تحضر بعد أسبوع صباحًا في هذا المكان لامتحانك في النحو والأدب والتاريخ ثم قدم لي ورقة مطبوعة فيها جملة المواد العامة في العلوم المذكورة.

لا أدري كيف جزت ذلك الامتحان بنجاح، وإنما الذي أدريه أنني بعد أيام من ابتداء الدراسة قدمت بعثة كويتية، هي أول بعثة قدمت إلى مصر للدراسة، فقال لي أحد الإخوان: لنذهب لزيارة هؤلاء الإخوة، وكانوا قد أنزلوا في رواق من الأروقة المخصصة لطلبة العلم في الأزهر، على أساس دخولهم فيما يلائمهم من كلياته، وفي أثناء الزيارة قلت لأحدهم ويدعى (يوسف مشاري): لماذا لا يدخل أحد منكم في كلية الآداب؟! فأبدى خوفه من عدم القبول فيها، ولكنني قلت له: إنهم سيختبرونك اختباراً سهلاً وأنا واثق من أنك ستجتاز ذلك الاختبار، فدعني أذهب معك إلى الأستاذ أحمد أمين وكان هو رئيس اللجنة التي تولت اختباري ولقد أجاب الأخ بالموافقة ثم اجتاز الاختبار بنجاح.

ليس كل طلاب البعثة في بيت واحد ففيهم طلاب متزوجون يسكنون مع أهلهم، وآخرون لهم أقارب سكنوا عندهم، وفي دار البعثة طلاب يدرسون على حسابهم أذكر من بينهم إسماعيل ابن الشيخ عبدالله كاظم مدير البريد العام، وحسن ابن الشيخ محمد سرور الصبان.

ومن طلاب البعثة في ذلك العهد الإخوة عبدالله عبدالجبار وأحمد بن علي آل مبارك، وأحمد جمال عباس، وعبدالله الخيال، وإبراهيم السويل، وعبدالله الملحوق، وأحمد عبدالحميد الخطيب، وأخوه فؤاد، وسَمِيح أحمد، وسليمان بن محمد السليمان التركي وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.

وكانت الأمور في الدار على درجة حسنة من التنظيم، من حيث النظافة والعناية بالأكل، وكان الإشراف على العمل فيها يناط كل يوم بأحد الطلاب، وكان الطالب يخير بين أن يأكل في الدار ثلاث وجبات، وبين أن يُدفع له عنها سبعة قروش ونصف قرش، ويأكل كما يريد، فكنت أنا وبعض الإخوة نأخذ القروش فنصرف جزءاً منها في الأكل، ونوفر كل يوم نحو ثلاثة قروش.

مع أنني لم أرغب في العودة إلى القاهرة لإكمال الدراسة في كلية الآداب، حين قررت إدارة المعارف في عهد السيد طاهر الدباغ، وفضَّلْتُ العمل، إلاَّ أنني كنت أُحِسُّ برغبة قوية لتكرار زيارتها، مع قصر الوقت الذي أمضيته فيها، بحيث لا يزيد على ستة أشهر، لقد استهواني أكثر ما استهواني فيها أنَّ المرء فيها لا يحس أنه غريب لكثرة ما يشاهده مما يغمره بالبهجة والسرور، فهذه (دار الكتب) ليست داراً لجمع أكبر كمية من المؤلفات، وتسهيل الاستفادة منها فَحَسْبُ، بل إنها تُعَدُّ ملتقى لجميع المثقفين من العلماء والأدباء وغيرهم، الوافدين إلى هذه البلاد، ممن يرتاد الدار من مختلف الأقطار، وها هو الأزهر، ومكتبته الحافلة بالمخطوطات وها هي كبريات دور النشر والمكتبات العامة والخاصة، وها هي الحدائق الجميلة، وغير ذلك مما يصدق عليه قول الشاعر :

بـلادٌ بهـا ما يمـلأ العين بهجةً ويُسْلـي عـن الأوطان كل غريب

كنت في السنوات الماضية أغتنم فرصة فراغي، فلا تمر بي سنة لم أذهب إلى مصر، حتى أصبحت آخر الوقت أذهب مع الأهل فنصطاف في الاسكندرية.

وما كانت الأمور تلك الأيام معقدة، من حيث الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها، فللقادم أن يحضر معه ماشاء وسيجد كل تسهيل، وله عند سفره أن يجد مثل ذلك، بعد أن يقيم ما شاء. وأن يجد أثناء إقامته جميع ما يحتاجه موفوراً من متطلبات راحته، فالمعاملات الاقتصادية - تلك الأزمان بين مختلف البلدان - ليست على مثل ما هي عليه الآن من التعقيد، والحالة الاقتصادية تسير على نظام حرٍّ.

كان مما زرت أثناء إقامتي في القاهرة إحدى السنوات (مجمع اللغة العربية) فقابلت الدكتور منصور فهمي الأمين العام، وعنده بعض الأعضاء، وكانوا يتذاكرون فيما ورد في كتب اللغة من لهجات القبائل، فهممت أن أخرج ولكن الدكتور قال لي: لا مانع من بقائك هنا حتى تشرب القرفة، وترغب في الخروج، ولا مانع من اشتراكك معنا في البحث. فأنست بهم، وعند توقفهم عن الكلام كان مما قلت: حبذا لو أن هذا المجمع الموقر ندب من يختاره من المتخصصين بدراسة اللهجات، للذهاب إلى البلاد العربية. فأغلب بوادي نجد لكل قبيلة من فوارق اللهجات ما تختلف به عن القبيلة الأخرى، يضاف إلى هذا أن سكان سروات الحجاز من الطائف جنوبًا حتى التوغل في أقصى بلاد اليمن يتكلمون بلهجة عربية سليمة، لم تداخلها العجمة، وإن لم يتقيدوا بقواعد الإعراب، فسكان تلك السروات، وكذا اليمن، ووسط الجزيرة لم يتأثروا بعد بتغير اللغة التي كانوا يتوارثونها من قرون عديدة.

ولعل من أثر استحسان ذلك الرأي، أن أبدى الدكتور منصور فهمي استعداد المجمع لتحقيقه بعد عرضه على المجلس، وأن وجه إلي كتابًا وأنا في الرياض، بأن المجمع قرر تعييني عضواً مراسلاً فيه. فكنت أتلقى كل عام الدعوة لحضور الدورة السنوية لمؤتمر المجمع، التي يدعى إليها جميع الأعضاء، من عرب وغيرهم، وما كنت أهتم كثيراً في

الحضور وبعد فترة كنت في القاهرة فتلقيت من المجمع كتاباً بأنه قرر تعييني عضواً عاملاً فيه عن (السعودية) وأنني مرشح لذلك، ويرغب المجمع مني تقديم ترجمة عن حياتي ودراستي، ومؤلفاتي، وكان احمد عطار مقيماً في القاهرة، وكثيراً ما كان يزورني، فاطلع على الكتاب، وعلى جوابي للمجمع بعدم رغبتي بما عرض علي، مع استعدادي للمشاركة في أي عمل استطيعه يريد المجمع ان أشارك فيه، فما كان من العطار إلا أن تقدم للمجمع طالباً أن يعين عضواً عن (السعودية) فهو من علماء مكة المكرمة – إلى آخر ما ذكر، مما طبعه في كراس أثنى فيه على نفسه ما شاء، وذكر مؤلفاته، ونال مني بأنني بدوي جاهل، ودار على جميع الأعضاء العاملين، ووزع عليهم مجموعة من مؤلفاته والكتب التي طبعت على نفقة الشربتلي وقد نشر أحد الإخوة في صحفنا[١] أنه زار الدكتور طه حسين تلك الأيام، فدخل العطار يحمل لفافة تضم كتباً، وبعد فترة، جعل يُسَارّ الدكتور، فرفع صوته وقال – على مسمع من الحاضرين–: يا أحمد عضوية المجمع لا تنال بمثل أساليبك، لقد تم انتخاب العضو –وهو فلان– وانتهى الأمر.

كان انتخاب العضو العامل في المجمع يجري من قبل الأعضاء العاملين، وهم أربعة وعشرون، وبعد عرض اسمي المرشحين الاثنين قرر سبعة عشر منهم انتخابي، واثنان هما الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، ورمزي جرجس خبير اللغة القبطية انتخبا العطار، وخمسة أعضاء لم ينتخبوا أحداً. وكان من السبعة عشر طه حسين، ومنصور فهمي والعقاد، والزيات وعبدالوهاب عزام[٢].

واذكر أنني كنت في إحدى المرات متجهاً مع عزام لدخول مكان الاجتماع، فقابلنا العقاد قائلاً: مرحباً بأديبي السعودية فقلت: لم أعهد الأستاذ العقاد ممن يلقي القول على عواهنه –كما يقال– فكيف وصفني بأديب السعودية – فقال:

---

(١) نشرت هذا في أحد أعداد جريدة البلاد وكان العطار في الرياض فلما اطلع عليه ثار وغضب ولكنه لم يستطع إنكاره لأن ما حدث في المجمع مسجل في محاضره.

(٢) كان الدكتور عبدالوهاب عزام يعدُّ سعودياً، فهو مدير (جامعة الرياض) وصلة آل عزام بآل فيصل بن عبدالعزيز معروفة.

لقد عرفتك بما قرأت من كتاباتك في «مجلة المجمع العلمي العربي» بدمشق وغيرها، قبل أن تصبح عضواً في المجمع.

وقد تحدثت بتفصيل عن استقبالي في المجمع[1]. ومن الغريب أن العضو الذي شغلت كرسيه بعد وفاته هو الأستاذ عبدالمنعم خلاَّف وهو من أجلة العلماء في علمه وفي خلقه، وقد عرفته، وكنت حين أكون في القاهرة أحرص على الاستماع على محاضراته القيمة المؤثرة الأسبوعية التي كان يلقيها في (دار الحكمة) في شارع القصر العيني، كما كنت أواظب على صلاة الجمعة في مسجد ولي العهد الأمير محمد علي داخل قصره في المنيل، للاستماع لخطبة إمامه الشيخ محمود شلتوت، فلقد كان من أبلغ الخطباء، وهو الذي أصبح فيما بعد شيخاً للجامع الأزهر.

داومت على الاتصال بالمجمع، بحضور دوراته السنوية، باستثناء الفترة التي حدث فيها خلاف بين الملك سعود والرئيس عبدالناصر - رحمهما الله - وتعدى ذلك إلى تدخل الإذاعات والصحافة في الأمر بصورة سيئة، فانقطع مجيئي إلى القاهرة، ولعل الصحيفة التي أنشأتها وكنت أتولى تحريرها الوحيدة التي لم تسر في التيار.

وكنت أشارك أثناء حضوري جلسات المجمع بما يتصل بالمباحث اللغوية، وخاصة حين تعرض الموادُّ التي ستضاف إلى «المعجم الكبير» الذي شرع المجمع بتاليفه، وكنت أجد من رغبة المعنيين به، ولا سيما رئيس المجمع طه حسين من الاستحسان لما أبديه من ملاحظات حوله حافزاً قويًّا للاستمرار، وبعد تولي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور الرئاسة بعد وفاة طه حسين ووفاة كثير من الأعضاء القدماء، بدأ الضعف في المجمع شاملاً، ومع ذلك داومت في كل دورة أحضرها أن أبدي ما ألاحظه، على ما يعرض، وكان الوقت المحدد لعرض المواد لا يتسع لدراسة القليل من تلك المواد، التي تقع في الغالب في نحو أربع مئة صفحة فأكثر، وراغبو التعليق يقاربون الأربعين كل صفحة تحوي أكثر من خمس عشرة مادة، والوقت لا يزيد على ساعة، فكنت أطلب بعثها

(١) مجلة «العرب» السنة السادسة ص٤٨١ وما بعدها، المخصص لحديث عن المجمع.

إليّ، وأعد ملاحظاتي عليها مكتوبة، واكتفي بتقديمها للجنة التي تتولى صياغة المواد. غير أنه يفوتها الكثير من تلك الملاحظات، مما لا داعي لتفصيل أسبابه، وقد أشرت إلى بعضها في بحث مفرد مطبوع[1].

لم أرِدْ من كل ما تقدم سوى إيضاح جانب مما وجدته في هذه البلاد الكريمة من تقدير كان من أسباب تعلقي بها، ولم أقصد إبراز نفسي، فأنا أدرك أنني لم أبلغ ما بلغه أولئك العلماء الذين أصبحت زميلاً لهم في (مجمع الخالدين)، وإنما الأمر كما قيل:

ولكن البلاد إذا اقْشَعَرَّت وصَوَّحَ نَبْتُها رُعِيَ الهَشِيمُ

وفي (دار الكتب): كنت أمضي جُلَّ أوقات فراغي في التردد عليها صباحًا منذ افتتاحها، وأكون من آخر الخارجين منها، وأذكر إحدى المرات أنني انهمكت في المطالعة والنقل، وكان على مقربة مني إنسان كان مثلي، فانتهى الوقت، فجاء إليَّ الموظف الذي يرجع الكتب إلى مكانها طالبًا الكتاب الذي معي، مع أن أمام جاري من الكتب ما هو مستمر بمطالعتها، فقلت للموظف: -مشيراً إليه- هاهي الكتب أمامه فقال: هذا المستشرق (باول كراوس) الأستاذ في (كلية الآداب). فقلت: هو عالم كبير، وأنا لا أزال بحاجة إلى التعلم، فأنا أحق بالمراعاة، وكان لطيفًا فقال: لن آخذ الكتاب منك حتى يقوم. فأحس بانتهاء الوقت، فقدم ما أمامه من كتب.

وفي الدار قسم يتولى تصحيح منشوراتها من كتب التفسير والتاريخ والأدب، فيه عدد من مشاهير العلماء، منهم الشيخ إبراهيم اطفيش[2]، وهو عالم جزائري، إباضي المذهب، وعلى جانب كبير من الأخلاق الحميدة، وهو ممن يصحح تجارب طبع كتاب «تفسير القرطبي» ورئيس القسم ويدعى (القسم الأدبي) الأستاذ محمد أحمد العدوي، ثم خلفه بعد وفاته الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، وممن عرفت في القسم الأستاذ محمد عبدالجواد الأصمعي والأستاذ لطفي السيد -ليس العالم الفيلسوف بل

(١) كتاب «ملاحظات على المعجم الكبير» للدكتور إبراهيم السامرائي وحمد الجاسر.

(٢) كان ممثلاً لدولة إمامة عُمان لدى جامعة الدول العربية توفي رحمه الله - عام ١٣٨٥ بالقاهرة انظر ترجمته «الاعلام» ومجلة «العرب» س٢٤ ص٤٠٥ و٤٠٦.

سمي له- يعنى بتصحح كتاب «قاموس أسماء البلاد المصرية» وله صلة بالقبائل العربية، فقد ألف كتابًا في نسب إحداها، وله أبحاث تاريخية نشر بعضها في مجلة «الرسالة» وكان قد شرع في عمل فهرس لجريدة «الأهرام»، ولكثرة ترددي على هذا إذ بواسطة أحدهم يحضر لي ما أطلبه من المؤلفات المخطوطة بسرعة، وقد أكلُ إلى أحدهم نسخ ما أحتاج إلى نسخه، إذ التصوير في ذلك العهد ليس متيسرًا، ومما نسخ لي كتاب «مختصر جمهرة النسب» لياقوت بخطه سنة ٦١٦ . وكتاب «المستبصر» لابن المجاور ولإطلاعي على هذا الكتاب خبر طريف كان من أسباب معرفتي الشيخ إبراهيم أطفيش، فقد اطلعت على اسم الكتاب ووصفه في الفهرس، فطلبته من قسم المخطوطات، وكان مديره إذ ذاك شيخًا أزهريًا يدعى محمد إبراهيم فقال: هذا الكتاب معار للقسم الأدبي. فقلت: أحب أن أنظر فيه وهو عند المستعير. وكان فؤاد السيد عمارة – الذي أصبح بعد فترة من الزمن مديرًا للمخطوطات – فتىً صغير السن، يعمل لدى الشيخ محمد إبراهيم بالأجر اليومي، في كتابة بطاقات أسماء الكتب، وكان حسن الكتابة، فقال: اذهب يافؤاد إلى الشيخ إبراهيم فالكتاب عنده ليطلع عليه هذا الأخ أمامه. فقال فؤاد للشيخ إبراهيم: هذا الأخ حجازي يريد الاطلاع على كتاب «المستبصر» أمامك. فسألني الشيخ: من أي بلد في الحجاز، فقلت: أنا من نجد. فقال: مرحبًا تفضل اجلس وقال لخادم بقربه: أحضر للشيخ ما يطلب فاعتذرت ولكنه قال: لابد من إكرامك بإحضار ماتريد. فقلت: قهوة، ولتكن مُرَّة. فقال وهو يبتسم: اذهب وائت بقهوة حلوة – برغم هذا الشيخ النجدي، الرسول ﷺ يحب الحلواء والعسل، وأنت تقول: ائت بها مُرَّة؟. تجرعتها كما اختار الشيخ، وقبلها تجرعت لقب (الشيخ النجدي) وقدم لي الكتاب، فتصفحته، فوقع نظري في آخره على كلام سَيِّئٍ عن الإباضية، فقلت للشيخ: ما رأيك في هذا الكتاب؟ قال: حسن لأنه يحوي معلومات عن الحجاز واليمن، فأريته الصفحة التي نال فيها من الإباضية، فما كان منه إلا أن ضرب به الأرض، وقال: له لدي أكثر من شهر، وفيه هذا الكلام الخبيث، ثم ارجع الكتاب، فأبديت لأحد موظفي القسم رغبتي في نسخه، فاستعاره فنسخ لي.

قويت صلتي بموظفي هذا القسم، وخاصة الشيخ إبراهيم، واذكر أنني اشتريت مخطوطة من «شرح الإشارات» بخط الشيخ محمد عبده، من صاحب مكتبة يدعى محمد حجاج، وما كان يعرف أنها بخط الشيخ، إذ ورد فيها الاسم محمد عبده النصري، ولم يدرك أن النسبة إلى ميت نصر. وهي قرية منها الشيخ، فرأيت الاحتفاظ بصورة منها في (دار الكتب) ولما عرضتها على إبراهيم أطفيش لهذه الغاية قال: يجب أن تبقى في الدار، تأتي من الصحراء فتستولي على نفائس مخطوطاتنا. فقلت: إذن لن أقدمها للدار لتصويرها. فأظهر لي الموافقة، وتعهد بإرجاعها لي ففعل، فقدمتها مع مجموعة من الكتب المخطوطة والمصورة للشيخ محمد بن إبراهيم لما افتتحت المكتبة السعودية هدية لها، ولكنها لم توضع في الفهرس، ولما سألت ناظر المكتبة في ذلك الوقت قال: إن الشيخ أمر بعدم وضعها مع الكتب، ولا أدري أين هي. وكنت اشتريت كتابًا مخطوطًا من تركة الكتبي محمد منير عبده أغا الدمشقي في أوله نقص، بخط مغربي في تاريخ المغرب، وذكر القبائل العربية التي هاجرت إليه، فعرضته على الشيخ إبراهيم أطفيش لعله يعرف مؤلفه، فطلب إبقاءه لديه ليطالعه، ثم أبى أن يرجعه إليّ ولم يفدني عنه بأي شيء، ومع ذلك لم تتأثر الصلة التي بيننا، وكان بعد ذلك ممثلاً لسلطنة مسقط لدى الجامعة العربية، فكان إذا مرَّ بمدينة الرياض في طريقه إلى عُمَان، يكرمني بالزيارة.

وكثر ترددي على الدار، فقويت صلتي ببعض من لي بهم صلة كمدير المخطوطات فؤاد السيد، ورئيس القسم الأدبي محمد أبو الفضل، وغيرهما ممن كان له صلة بهما من غير موظفي الدار كالشيخ محمود محمد شاكر وأخويه أحمد وعلي، وأحمد صقر، وغيرهم، وكنت اجتمعت بأحمد صقر قبل ذلك، ففي إحدى زياراتي للدار، أتى إليَّ شابٌّ وأنا مشغول بمطالعة كتاب، فقال: هل أنت فلان؟ لقد أرشدني إليك ذلك الرجل وأشار إلى رجل قريب منا، كان ممن عرفته في القاهرة، وهو الأستاذ عبدالعزيز مزروع الأزهري، أديب مؤلف له كتاب عن بني تميم مطبوع - فقلت: نعم. قال: إنني والأستاذ عبدالسلام هارون

نريد تحقيق كتاب «الجليس الصالح» للمعافى بن زكريا النهرواني، وقد أخبرني حسام الدين القدسي أنك معني بالكتاب، وكان القدسي وهو دمشقي الأصل إلا أنه فتح مكتبة في (باب الخلق) في القاهرة، وقام بنشر عدد من الكتب القيمة، فقلَّ من يهتم بشؤون ما ينشر حديثًا من الكتب من لا يزور (مكتبة القدسي)، وكنت ممن يكثر التردد عليها، لشراء جل منشوراتها، والاستعانة بصاحبها للحصول على ما أرغب في اقتنائه من منشورات غيره، وكان الشيخ محمد زاهد الكوثري من أعلم من عرفت بمحتويات مكتبات اصطنبول، فكنت ألتقي به عنده، فسألته عن كتاب المعافى «الجليس الصالح» فقال: إنه يقع في مئة مجلس، ويوجد كاملاً في احدى مكتبات اصطنبول، سماها وأنسيتها، وكنت قد اطلعت على جزء من الكتاب في خمسة وعشرين مجلسًا في (مكتبة الحرم المكي) فأعجبت بموضوعه، وبأسلوب مؤلفه مع تقدم سنه وقت التأليف إذ ذكر أنه في عشر التسعين، فنقلت وصف النسخة، وجمعت معلومات تتعلق بالمؤلف وبما استفدته من الكوثري عنه. فلما سألني ذلك الشاب أخبرته بما أعرف عن الكتاب، فرغب الاطلاع عليه، فوعدته بأنني في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان سأحضر ما كتبت، فلما حضر سلمته ذلك، ولم أر ما يدعو لإعادته، مادام الكتاب سينشر، وزاد التعارف والاتصال بيني وبين سيد صقر، وأهدى إليَّ بعد ذلك بعض ما قام بتحقيقه، ككتاب «مقاتل الطالبيين» وغيره. وآخر العهد به حين اتجه إلى الاهتمام بتحقيق بعض كتب الحديث، وأصبح معدوداً من المشايخ، واشتغل في التدريس فترة في مكة المكرمة، وقد توفي -رحمه الله- منذ عشر سنوات، وكتب الدكتور محمود الطناحي ترجمة له لم تنشر.

في دار الكتب: قوي التعارف بيني وبين أستاذين من كبار العاملين فيها، وأوسعهم اطلاعًا على محتوياتها من الكتب، وأكثرهم عناية واهتمامًا بنوادر المخطوطات القديمة، هما محمد أبو الفضل وفؤاد السيد، الأول رئيس القسم الأدبي، والثاني مدير فرع المخطوطات، وكان من أوائل من عمل في ترتيب فهارسها، فكنت أمضي الوقت الذي أزور فيه الدار بالجلوس عند أحدهما للاطلاع على ما أرغب الاطلاع عليه، والمساعدة

بالحصول على نسخة من بعض النوادر، تصويرًا، أو نسخًا، وقلَّ من يأتي إلى دار الكتب ولا يتصل بهما من علماء الأقطار العربية أو المستشرقين ممن له اتجاه واهتمام بكتب التراث، وبعد انصرافهما من العمل نذهب معًا لبعض المتنزهات أو الأمكنة، أو الفندق الذي أسكنه للاستراحة فترة من الوقت، وكثيرًا ما يتم التعارف بيني وبين بعض زائريهما من الأدباء والباحثين، من الإخوة من المصريين وغيرهم، ومتى احتجت إلى اقتناء صورة أي مخطوط في الدار أو في معهد المخطوطات، كتبت – بعد عودتي – إلى الأستاذ فؤاد فبذل وسعه لحصولي على مصورة منه، وكان –رحمه الله– يفضي إليَّ ببعض ما يحتاج إليه مما لا يسهل الحصول عليه في القاهرة، من أدوات المنزل الحديثة أو غيرها، فأحضر ذلك معي، وقد سقطت الكلفة بيني وبين الأخوين أبي الفضل وفؤاد، حتى أصبحنا كالإخوة، حتى فرق القدر بيننا بانتقالهما إلى الدار الآخرة.

في معهد المخطوطات: كان من أبرز العاملين فيه وأقدمهم الأستاذ محمد رشاد عبدالمطلب، ويتولى إدارة المعهد غيره، ولكنه يرأس من يرسلهم المعهد للبلاد التي تعنى مكتباتها بجميع المخطوطات، في تركيا والهند وغيرهما، لتصوير نفائسها، فاستفاد خبرة وسعة واطلاع. وكان ذا صلة بمن يقدم القاهرة من العلماء والمثقفين، بصفة عامة، ولا يَضِنُّ بمساعدتهم في حدود اختصاصه، وهو ذو سماحة، وحسن استقبال، مما أوجد له مكانة في نفوس زائري المعهد، وكنت احتاج إلى بعض المخطوطات التي يسهل الحصول عليها، فيساعدني في ذلك، إلا أنه في بعض الأحيان قد يجد من مدير المعهد، أو تمر به بعض الأحوال التي تخلف الظن به[1]. وقد توفي رحمه الله وعفا عنه في عام ١٣٩٤[2].

وقد تولى إدارة المعهد الدكتور صلاح الدين المنجد – الذي أصبح سعوديًّا – تولاها فترة من الزمن، حتى نحي عنه أثناء عمل الدكتور طه حسين برئاسة الإدارة الثقافية في الجامعة العربية، وهو الذي عينه، وتعاقب على إدارة المعهد عدد من الموظفين، حتى قرر

---

(١) انظر مثالاً لذلك في «مجلة المجمع العلمي العربي» بدمشق المجلد ٢٨ العدد ٣ ص٣٩٦–٤٠٢ رسالة عرام مقدمة «نوادر المخطوطات» شوال ١٣٧٢هـ والعدد ٤ ص٥٩٢ – ٥٩٩ في محرم ١٣٧٣هـ.

(٢) انظر ترجمته «الأعلام» ٣/ ٢١ ط٦.

نقله للكويت فاسندت إدارته إلى الدكتور خالد جمعة، ثم أعيد إلى القاهرة، وقد بدأ الضعف والعبث بما يضم من صور بعض المخطوطات قبل نقله إلى الكويت.

ولقد تمكنت من الحصول على عدد من صور نوادر المخطوطات، من المعهد في أول عهده، ومنه وهو في الكويت، ثم في الآونة الأخيرة بدأ النشاط يبرز بإعداد صوانات متقنة (دواليب) لحفظ الأشرطة (الأفلام) التي كانت غير مصانة في السابق، وبإعادة تصوير مجلته، التي كانت تعنى أبلغ عناية بوصف المخطوطات، وبكل ما يتصل بها، كما عادت المجلة للصدور، ونشر المعهد قليلاً من الكتب، ويؤمل أن يجد من عناية المسؤولين في الإدارة الثقافية ما يمكنه من أداء مهمته التي أُنْشِئَ من أجلها.

إن المرء المعني بأي جانب من الجوانب الثقافية، ممن تَتَسنَّى له الإقامة في القاهرة، ويتجه لتغذية ذلك الجانب سيجد من الوسائل ما يحقق رغبته، فها هي المكتبات العامة والخاصة، وها هي الصحف على اختلاف اتجاهاتها واهدافها من مجلات وجرائد يومية كالمقتطف والهلال والرسالة والثقافة، والمصور والأهرام والجهاد، والبلاغ وغيرها، وها هي النوادي التي لا يقتصر نشاطها على العناية الجسيمة، بل تعنى أيضًا بالتربية العقلية بما يلقى فيها من محاضرات، وما يقام من مناظرات فيها، وها هي أمكنة اللهو والتسلية لروادها وطالبيها، ومع ذلك فطالبوا الإخلاد إلى الراحة والهدوء في أمكنة مريحة ها هي الحدائق المنتشرة في جوانب المدينة، وعلى ضفاف النيل.

ثم إن أي إنسان يأتي إلى هذه البلاد الطيبة لا يحس بأنه غريب بما يجد من حسن معاملة من يتصل به، ولن يعدم –مع ذلك– من الاجتماع ببعض أهل بلده ممن يهوى الاجتماع به منهم، فقلَّ أن تخلو القاهرة من مستوطن وزائر من أية بقعة من بقاع العالم، ولهذا فكثير من العرب من مختلف أقطارهم من استوطنها واستقر فيها، ومنهم من يقضي فيها الصيف، فضلاً عن عدد غير قليل من الطلاب العرب في مدارسها وكلياتها في الأزهر والجامعة، وممن عرفتهم من أولئك الطلاب غير من ذكرت فيما تقدمَ يعقوب، ثم اخوه عبدالله ابنا يوسف الغنيم من الكويت، وابراهيم شبوُّح، من

تونس، وعدد من اليمنيين منهم محمد أنعم غالب، وغيرهم، ممن اكملوا الدراسة، وعاد إلى وطنه.

لما سبق إيضاح جوانب منه من أحوال القاهرة، ولأمور أخرى يدركها من زارها ذلك العهد من حيث توفر جميع وسائل الراحة والاستقرار فيها، ومن أهمها - بالنسبة لي ولأمثالي - تسهيل وسائل تصدير ما يحتاج المرء لتصديره مما يريد اقتناءه من الكتب، للاستفادة منه، فلم توضع إذ ذاك القيود والحواجز للحيولة دون ذلك، مع تسهيل المعاملات في مطار القاهرة، في أمتعة القادم أو المسافر - لتلك الأمور رغبت الاستقرار في هذه المدينة، واتخاذها وطنًا ثانيًا أقضي فيه من الوقت ما أتمكن من قضائه، فكان أن استأجرت منزلاً (شقّة) في بناية حديثة، استأجر فيها عدد من السعوديين، منهم يوسف ياسين، وعبدالعزيز السالم، وصهره حسين برادة، والأجرة مناسبة (٣٢) جنيهًا في الشهر، وقمت بتأثيث ذلك المنزل الواسع، وهيأت فيه بعض ما احتاج إليه من الكتب.

سبق أن أمضيت الصيف مع الأهل في القاهرة قبل ذلك، وفي الاسكندرية، وبعد تهيئة ذلك المنزل، كنا نسكنه في الصيف، وعندما أتي إلى القاهرة منفرداً إلى هذا العهد، بعد أن تغيرت أكثر الأحوال[١] في مصر بصفة عامة، مما لا داعي للحديث عنه. ومع ذلك فما كان لما حدث أي تأثير بما أشعر به لهذه البلاد الكريمة من محبة وتقدير، فلا أزال في كل عام - مع تأثر صحتي - أسافر إليها، لحضور دورة مؤتمر المجمع السنوية، ولكنني لا أسارع في العودة حين انتهاء الدورة، بل أبقى فترة من الوقت، آنس بالاجتماع ببعض من عرفت من الأحبة، وأزور ما اعتدت التردد عليه للاستفادة والاستزادة من المعرفة، كدار الكتب، ومكتبة الأزهر، ومعهد المخطوطات، وأقضي فترة من الوقت في المشي في حديقة الأرمان، وحديقة الفسطاط، والحديقة الدولية، وقد أحظى بزيارة بعض زملائي في المجمع ومن إخواني العرب ممن استفيد بالاجتماع بهم،

---

(١) لبقائي فيه بعد مضايفة غيري من أبناء البلاد حتى اخرجوا من منازلهم أثناء الخلاف بين الملك سعود والرئيس عبدالناصر - رحمهما الله- خبر طريف.

ومعرفة أحوال بلادهم، وخاصة ما يتعلق بالنواحي الثقافية، وأحِسُّ فراغًا في نفسي في العام الذي لا أزور فيه تلك البلاد، التي لها الفضل مع غيرها من البلاد العربية في نشر العلم والمعرفة فيها، بما هيأته ويسرته للراغبين في بلادها بدخول مدارسها ومعاهدها وجامعتها، وبما تمد به تلك البلاد من بعثات علمية، تندب للقيام بالتدريس في مدارسها، وما تنشره من مختلف المطبوعات من كتب وصحف، وغير ذلك من الوسائل التي كان لها أبلغ الأثر في انتشار الثقافة في كثير من أقطار العالم.

في مدينة الاسكندرية: أمضيت الصيف -مع أهلي- في هذه المدينة، سنوات، وفي صيف عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) قررت الإدارة الثقافية في (جامعة الدول العربية) إقامة الدورة الثانية للمؤتمر الثقافي فيها، فاشتركتْ فيه وفود من جميع وزارات التعليم من البلاد العربية، سوى بلادنا، فرغبت حضوره وقد أقيم في مبنى كلية الآداب في جامعة الاسكندرية، ورأسه الدكتور طه حسين، وكان وزيراً للثقافة، وفي اليوم الأول عقد اجتماع قبل جلسة الافتتاح لتوزيع البرنامج وشارات المؤتمر على المدعوين، فتولى دعوتهم الدكتور مختار الوكيل، من كبار موظفي الإدارة الثقافية. وكانت الطريقة المتبعة في دعوة الوفود أن تكون مرتبة على الحروف الهجائية بأسماء دولهم، ولكن الوكيل وقد سار على هذا إلا عندما دعاني آخر المشاركين بعد اليمن، فوقفت وقالت: أنا أحتج على طريقة دعوتك، فأنا سعودي كما هو مسجل لديك واسم حكومتي في حرف السين قبل كثير ممن دعوت، ولهذا فلن أقبل ما تقدم لي. فقال أحد إخواننا: تأتي إلى بلادنا وتحتج على تصرفنا؟! فقلت: ليست بلادك وحدك، وهذه البقعة التي نحن فيها للمؤتمر حتى ينتهي. وقمت خارجًا عازمًا على عدم الحضور، فما شعرت إلا بالشيخ عبدالرحمن البسام سفير بلادنا -ولم أعلم بحضوره- يلحق بي ويلومني على تصرفي، وكنت منفعلاً، فقلت له: إذا حضرت عندك في السفارة فالقي عليَّ درسًا بحسن السلوك. فتركني ومضى، وقبل خروجي من مقر المؤتمر لحق بي رئيس

المشرفين على تنظيمه، ورغب أن أعود، فالوكيل أدرك خطأه وسيعلن هذا أمام الاجتماع غَداً فكان مما قال - بعد إظهار أسفه لما حدث منه من خطإ - إن فلانًا مصيب، وسأسير على ذلك في المستقبل، وتقدم مني معتذراً وقدم لي البرنامج.

وعلمت في اليوم الثاني بأن الدكتور عبدالوهاب عزام - وكان إذ ذاك سفيراً لمصر في بلادنا - سيلقي محاضرة عن تحديد سوق عكاظ، وقد سبق أن نشرت مقالاً في الموضوع ١٣٦٣هـ نشرت خلاصته، كما تلقيت كتاباً من الشيخ إبراهيم السليمان بن عقيل رئيس ديوان النيابة العامة بعد ذلك بأن الدكتور عبدالوهاب سيقوم برحلة إلى جهة الطائف للبحث عن موقع عكاظ، ويرى سمو الأمير - يعني فيصلاً - أن تكون مرافقًا له - فأبرقت له بأن صحتي لا تمكنني من السفر، وقبل إلقاء المحاضرة اجتمعت بالدكتور عزام في مقر اجتماع المؤتمر، في إحدى غرفه، ومعه الأستاذ محمد حسن الزيات وأحمد أمين ومحمد خلف الله أحمد، فلما عرفني قال: لقد حرصت على أن نذهب للمكان معًا فاعتذرتَ وقلت: لا أدري عما تقصد بتحديدك موقع السوق فالاختلاف في تحديده معروف، ولكن الذي أكاد أجزم به أنه الموقع الفلاني وحددته بإيجاز، وقلت: ومن حسن الحظ حضور الأستاذ الزيات الذي بعثت إليه بحثًا مفصلاً في هذا، لنشره في مجلة «الرسالة». فقال الزيات: البحث عندي ولم ينشر، فطلبه منه عزام فأردتُ الخروج فقال لي: ليس هذا المكان خاصًا بنا، ولكننا اعتدنا الانفراد بالجلوس فيه، والتحدث، ولك أن تبقى لتشاركنا الحديث، وأن تحضر متى شئت، فكنت إذا حضرت قبل بدء المحاضرات أمُرُّ فأجتمع بهم وبآخرين معهم، حتى يحين موعد افتتاح الجلسة، كل أيام المؤتمر. ولقد كان الدكتور عبدالوهاب عزام منصفًا وكريمًا، فقد أطراني أول المحاضرة، ثم نشر البحث معها في كتيّب صدر عن دار المعارف باسم «موقع سوق عكاظ».

أهم ما يستفاد من حضور المؤتمرات ليس فيما تحويه قراراتها من توصيات قلَّ أن تنفذ. ولكن فيما يتم فيها التعارف، حيث يتلاقى عدد من العلماء والمثقفين من بلاد وجنسيات في الغالب مختلفة - للتباحث في موضوع واحد وكثيرون من

بينهم لا ينحصر اختصاصهم فيما اجتمعوا من أجله، بل هم متنوعو الثقافات والأفكار، وبالتلاقي يتم التعارف الذي يعد ثمرة ذلك الاجتماع.

وأكثر من حضر المؤتمر كانوا من الأدباء والعلماء، وليسوا من ذوي الاختصاص في الثقافة التي يُعْنَى بها شؤون التعليم - وحدها، وكان من المناسبات الطيبة اجتماعي بالدكتور عزام ومن معه، حيث واليت الالتقاء بهم، وكان ينضم إليهم آخرون كمحمد توفيق دياب، ومحمد شفيق غربال، فتم لي التعارف بنخبة طيبة من مشاهير علماء مصر ممن أصبحت زميلاً لهم في مجمع اللغة العربية.

والتقيت مع الوفد العراقي - بالأخ عبدالله القصبي، وهو من أهل نجد، ممن قسى عليهم الزمن فانتقلوا إلى (الزبير)، وهذه حالة أكثر سكانه، الذين عادوا إلى وطنهم الأم منذ النصف الثاني من القرن الماضي - وكان القصبي إذ ذاك شاباً طُلعةً، فكان كثيراً ما يطلب التعليق على بعض ما يسمع من المحاضرات. كما التقيت بآخرين.

وقد عقدت الدورة الثالثة للمؤتمر العربي الثقافي في جدة، ورأسها الدكتور طه حسين أيضاً.

مع الإخوة في السودان

بين الخرطوم وأم درمان(*): يظهر أن المرء كلما تقدمت به السن ازدادت شهوة الكلام عنده، فهكذا أُحِسُّ الآن، إحساساً دفعني إلى أن أتحدث عما شاهدته أثناء أيام قليلة، أمضيتها في بلاد إخوة أحبة، أردت أن يكون حديثي عنهم على سجيته، لا مبالغة فيه ولا تكلف.

وحديث كهذا لن يجد القارئ فيه جديداً، وخير له أن لا يمضي في قراءته إلى أبعد من هذا، إذا تطلع إلى الاستفادة الزائدة على إراحة الفكر بكلام لا يعدو ما ألفه أو ملَّ من سماعه في كثير من المجالس.

أما أنا فأجد راحة في نفسي حينما أذكر أولئك الإخوة، وأتحدث عما شاهدت في بلادهم، وكنت أود أن أتحف القارئ بما هو طريف ومفيد عن تلك البلاد الطيبة غير أن الأيام القليلة التي قضيتها فيها لم تمنحني أكثر مما قدمته في هذا الحديث.

في صباح يوم الثلاثاء ٢٣/١٢/١٣٩٦هـ (١٤/١٢/١٩٧٦م) ذهبت إلى (القنصلية السودانية) في القاهرة للحصول على سمة دخول في جواز سفري لزيارة تلك البلاد، وكنت أتوقع قلة المسافرين إليها، ففوجئت بأن وجدت في مدخل دار القنصلية، وفي غرفة موظفي الجوازات من الناس ما حملني على التفكير في العدول عما عزمت عليه، غير أنني لَمَّا ملت إلى أقرب موظف تمكنت من الوصول إليه فأبديت له رغبتي في السفر، واستوضحته عن طريقة الحصول على سمة الدخول، أجلسني على كرسيه وقام فأتاني بورقتين (استمارتين) أرشدني إلى الإجابة عما كتب فيهما من الأسئلة، فأردت أن أقوم عن مكانه، ولكنه عزم عليَّ بالبقاء حتى أملأ فراغ الورقتين.

لم يكن هذا الموظف يعرفني، ولا يعرف من أي بلاد أنا، فكان عمله حافزاً لي على الاستمرار بما فكرت فيه من السفر، ووجدت من لطفه وحسن استقباله ما

(*) مجلة «العرب» - س١١ - ص٤٨١.

قوى رغبتي في زيارة بلاده، ولكنني بعد الانتهاء من الكتابة وقفت حائرًا، ولم أشأ أن أثقل عليه، فقمت من كرسيه، ووقفت بحيث يراني والورقتان وجواز السفر في يدي، لا أدري لمن أتقدم إليه بها، إذ في الحجرة أربع مناضد، ومن جلس بجوانبها من الموظفين مشغولون بأعمالهم، والناس يزدحمون حولهم، فما كان من صاحبي إلا أن أشار لي إلى أحدهم قائلاً: قدم له الأوراق وصورتين للمسافر. فتخللت المزدحمين حتى وضعت الجواز وما معه فوق منضدته، ووقفت أرقبه من بعيد، فلما نظر في الجواز وما فيه سمعته يقول: (فين الطوابع)؟ ووضعه على طرف المنضدة، فأخذته ورجعت إلى صاحبي مستوضحًا عن مكان بيعها ومقدار ثمنها. فقال: (أنت من أي بلد؟) فلما أخبرته قال: لا حاجة للطوابع، ولما رأى الجواز أشار إلى حجرة أخرى قائلاً: قدم الجواز للموظف الجالس أمام الباب. ولكن ذلك الموظف أرجع إليَّ الصورتين والورقتين وقال: ائْتِ بورقة من سفارتكم تحدد فيها المدة التي ستقضيها في السودان والغاية من السفر وهي تكفي. وكان ذلك.

ثم بكرت يوم الأربعاء (٢٤/١٢/١٣٩٦هـ- ١٥/١٢/١٩٧٦م) إلى مكتب (الخطوط السودانية) ولم أجد موظفيه أقل لطفًا ممن وجدته في (القنصلية) فدفعت ثمن التذكرة ثمانين جنيهًا مصريًا للذهاب والإياب، على أن أقيم في السودان مدة لا تقل عن ١٥يومًا، إذ الثمن بالكامل للتذكرة نحو ١٢٠جنيهًا مصريًا، ودفعت ثمنًا للتذكرة من النقد الأجنبي مئتي دولار وخمسة جنيهات استرلينية، بالسعر الرسمي في أحد المصارف المصرية. استوضحت أحد موظفي الخطوط عن الفنادق هناك، بعد أن حددت السفر ليلة الخميس، فكتب لي أسماء بعض الفنادق المتوسطة، وقال: لو كان سفرك متأخرًا مدة كافية للإبراق وتلقي الجواب، لحجزنا لك في أحدها، ولكنك لا تجد ازدحامًا إلا في الفنادق السياحية وهي فنادق الدرجة الأولى.

ذهبت إلى المطار الساعة الثانية عشرة لثلاً وبقيت ساعتين ونصفًا حيث تأخر موعد إقلاع الطائرة نحو نصف ساعة. غير أن سهولة أمور الاستعداد للسفر من قبل

موظفي الخطوط السودانية –أو هكذا تصورتها– كانت مبعثًا للراحة، وللتقليل من أثر الانتظار في المطار.

أقلعت الطائرة الساعة الثانية والنصف صباح يوم الخميس، فاسترخيت في الكرسي فغلبني النوم، ولم استيقظ الا وصوت قائد الطائرة يعلن الوصول إلى مطار الخرطوم قائلاً: (والحر في الخرطوم ليس كالحر في القاهرة إنه أقل، فدرجة الحرارة هنا ٢٤ بينما في القاهرة ١٢ نعم ١٢فقط). يقول هذا مازحًا !!

المعاملة داخل المطار كانت سهلة، وإن كان موظف الجمرك طلب مني فتح حقيبتي، فلم ير فيها ما يرغبه في إطالة النظر إلى ما تحوي. فقلت له ضاحكًا: لقد طوفت في كثير من مطارات القارات الثلاث أوربة وامريكا الشمالية وافريقية، فلم يُكَلِّفْ أحد من موظفي الجمارك هناك نفسه عناء النظر إلى ما في داخلها سواك. فاعتذر اعتذارًا مهذبًا رقيقًا.

وفي سيارة أجرة ركبتها من المطار طفت بأربعة فنادق من الدرجة المتوسطة فما دونها، فلم أجد فيها سكنًا، بعد توطين النفس على الرضا بأي سكن كان.

وبإرشاد من أحد من يعرفهم سائق السيارة ذهبنا إلى مكان يدعى (فندق السواحِلي) وفيه كان النزول، في غرفة واسعة في الدور الرابع ذات سريرين، لها نوافذ، اكتفيت بنظرة واحدة من خلال أحدها متمنيًا سد تلك النوافذ. لا بأس فأمور الحياة بل الحياة كلها – كما نقول في نجد – (عِبِر) بكسر العين والباء أي طريق عبور، لا موطن استقرار، وهذا الفندق خير من كثير من فنادق سكنتها في بلادنا وفي غيرها، والأجرة لا تزيد عن ٥٠ ريالاً، وأهله كرماء فقد تناولت فيه طعام الإفطار (فكوك الريق) خبزًا وبيضًا وجبنًا وشرابًا حلوًا، ثم ثنيت بشرب الشاهي، وكل هذا داخل في الأجرة، يضاف إلى ذلك وقوع الفندق في وسط المدينة، بجوار الساحة التي تلتقي فيها الطرق المتجهة بالسيارات إلى مختلف

النواحي، وفي (الحي العربي) أو ما يسمى (السوق العربي) وبجوار سوق الخضر والفواكه، وما اشد سروري حينما خرجت بعد تناول الإفطار، فاجتزت الساحة الواسعة إلى مكان جذبني إليه ما شاهدته من كثرة الناس حوله، فوجدته سوقًا طويلاً مسقفًا، ومقسمًا إلى مصاطب وحجر صغيرة، مملوءة بمختلف الخضر وأنواع الفواكه، وعدت إلى الفندق بعد أن ملأت يدي بأربع حبات من الفاكهة المعروفة باسم (كريب فروت)[1] أعجبني حسن لونها، وكبر حجمها إنها تقرب من حجم القرع الصغير الذي ندعوه في نجد (الرُّقَيْبِي) وهو اليقطين، إلا أنها صفراء اللون تشوب صفرتها حمرة، ولم أَنْسَ أن أدس في جيبي أربع حبات من صغار البرتقال، وكل ذلك لم يكلفني سوى ٤٥ قرشًا - أي ما يزيد على الدولار قليلاً - والبرتقال هنا طعمه حلو، أشبه بطعم الليمون الحلو إلا أنه أكثر حلاوة، وأنواع الخضر كثيرة ومتوفرة. أما الفاكهة باستثناء الموز والبرتقال و(الكريب فروت) فقليلة، ولكنها موجودة، وأرخص ما شاهدته في هذا السوق اللحم فـ(الْكَيْلُ)[2] الواحد بخمسين قرشًا فما دون والسمك كثير ورخيص.

وأسرعت الذهاب إلى القنصلية لتسجيل الجواز، وتلك عادتي حينما أحل أيَّةَ مدينة فيها سفارة لبلادي، إنَّ سيارات الأجرة - أو أكثرها - تسير بدون عدادات، ولهذا يحسن الاتفاق مع صاحب السيارة على مقدار الأجرة.

وجدت بين موظفي القنصلية أحد أبنائي الذين يعرفونني، وكان من بلدة ظبا، تلك البلدة التي توليت قضاءها سنة ١٣٥٧هـ. وقد عينت في القضاء أنا والشيخ محمد الحركان والشيخ ضياء الدين رجب والشيخ ناصر الوهيبي - رحمهم الله - في سنة واحدة وفي جهة واحدة شمال المملكة، وبمرتب متماثل كان ستين ريالاً

---

(١) يقترح صديقنا الدكتور الطيب أن تسمى (الترونج) بزيادة الواو على اسم (الترنج) فهي من فصيلته.

(٢) بفتح الكاف تعريب (كيلو غرام) على ما اقترح الشيخ أحمد رضا في مقدمة « متن اللغة » و(كيلو متر) بكسر اللام (كِيل) على وزن ميل، فالكَيْلُ - بالفتح - للموزونات، والكِيْلُ -بالكسر- للمسافات.

أول الأمر، وزاد إلى أن بلغ ١٢٠ ريالاً، ولذلك قصة ليس هذا موضع ذكرها.

وبعد تسجيل الجواز بعث معي من أرشدني إلى السفارة، وأوصلني إلى أحد موظفيها وهو أيضًا ممن عرفتهم، إنه الأستاذ عبدالله عالم، وكان يعمل مع الشيخ عبدالله الملحوق في القسم الصحفي في السفارة في بيروت، وقابلت في مكتبه الأستاذ محمد الفهيد، ممن عمل في السفارة في بغداد زمنا، وهو ابن عم أستاذي وصديقي الشيخ عبدالله بن مطلق الفهيد، - رحمه الله - والشيخ عبدالله هو والد سفيرنا في عُمان - بضم العين - الشيخ محمد المطلق، وأخوه الشيخ عبدالرحمن كان من موظفي الشعبة السياسية في عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وعمل معي بعد ذلك فترة من الزمن حينما كنت أصدر جريدة «اليمامة» في الرياض، وهو أكبر سنًّا من أخيه.

أما سفيرنا الشيخ عرب سعيد هاشم فما أحسن استقباله، وما أكرم خلقه!! دخلت عليه بعد أن أخبرني الأخ محمد الفهيد أنه علم بي، وقد وجدت عنده الشيخ عوض الله صالح، مفتي السودان، وكان مهذب الخلق لين العريكة، بشوشًا فكهًا عالمًا واسع الاطلاع، تجاذبنا أطراف الأحاديث برهة من الوقت، وكان مما سألته عنه: على أي مذهب يعتمد الافتاء في هذه البلاد؟. فقال -ما معناه - نحن لا نتقيد بأي مذهب من المذاهب، بل نراعي منها ما كان أرفق بالناس، وأقرب إلى الدليل، وأقوى بمراعاة المصلحة العامة، ولا نتقيد بمذهب دون آخر. فذكرني بقوله هذا حادثة جرت في عهد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- فحصل فيها اختلاف بين قاضي المدينة، وبين رئاسة القضاة بمكة، فأحيلت إلى الملك عبدالعزيز. كان قاضي المدينة الشيخ البرزنجي -رحمه الله- قد حكم بجواز استئجار أرض فيها نخل مثمر، بأجرة معلومة، وكان شافعي المذهب، والحنابلة لا يجيزون ذلك، فلما عرض الحكم على رئاسة القضاة نقضته، وأوضحت أدلة النقض، وأمرت بإعادة المحاكمة. ولكن القاضي أصر على رأيه، وأبدى من الأدلة على ذلك:

١- جواز ذلك في مذهب الإمام الشافعي، وصاحب الدعوى من أتباع هذا المذهب.

٢- القول بالجواز يتمشى مع حاجة الناس في هذا الزمان وفي المدينة حيث تكثر القضايا المماثلة لتلك الدعوى، والتي صدرت فيها أحكام كثيرة.

٣- ومما اورد من الأدلة ما جاء في كتاب « شرح المنتهى » المطبوع في هامش كتاب « كشاف القناع عن متن الاقناع » وهما من أشهر كتب مذهب الإمام أحمد بن حنبل فقد جاء في ذلك الكتاب في طبعته الأولى - طبعة الشيخ مقبل الذكير، ما نصه (وتصح إجارة أرض وشجر فيها) ولكن صواب الجملة: (ولا تصح إجارة أرض وشجر فيها) فسقطت (لا) خطأ من الطبع وآخر الجملة يدل على سقوطها وهو (لما في ذلك من الغرر). ولما اطلعت رئاسة القضاة على ما أبداه القاضي مما يؤيد به حكمه السابق كتبت إليه موضحة الخطأ المطبعي في « شرح المنتهى » ومؤيدة رأيها في نقض الحكم، وضرورة إعادة المحاكمة، غير أن القاضي طلب إحالة الموضوع إلى جهة أخرى تنظر في الخلاف بينه وبين رئاسة القضاة، فكان أن بلغت القضية الملك عبدالعزيز، فبعث بها إلى الشيخ محمد بن إبراهيم رئيس العلماء في ذلك العهد، فأيد الشيخ رأي رئاسة القضاة لأنه مطابق لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهو مذهب الدولة. ولكن الملك عبدالعزيز - رحمه الله - لما عُرِضَ عليه ملخص كل الآراء المتعلقة بالقضية كان مما كتب به إلى نائبه في الحجاز ابنه فيصل -رحمه الله- (إليكم جواب الشيخ محمد بن إبراهيم وهو يؤيد رأي رئاسة القضاة والذي نراه أنه ما دام الحكم أسهل على الناس، وأنه موافق لرأي إمام من أئمة المسلمين فيجب العمل به وترك التشديد) وأمر بأن يبعث هذا إلى جميع المحاكم للعمل به، فكان ذلك.

لم يكن الشيخ المفتي على استعداد لمواصلة الاستماع، فذهنه مشغول بما حضر من أجله، ولكنه لم يجد مندوحة من الإصغاء حتى يتجه نحوه السفير. ذكرت وأنا أتحدث مع سماحة المفتي قول أحد الإخوان عن الأستاذ الشيخ محمد أحمد

نعمان: لا يستطيع أذكى الناس أن يميز بين جد الشيخ نعمان وبين هزله. والشيخ عوض الله كثيراً ما يمزح الجد بالهزل بدرجة تجعل التمييز بينهما صعباً.

ساعة علم السفير الشيخ عرب بالفندق الذي سكنت فيه اتصل هاتفيًا بـ(فندق السودان) وأمر بحجز مكان لي، ولم يدع لي -أكرمه الله- فرصة المراجعة لكي أبقى في مكاني، بل أضفى عليَّ من بره وعطفه ما ألجم فمي عن الكلام، وغمرني بالخجل، حتى لم أستطع أن أوفيه جانبًا مما يجب شكره، فبقيت لا أحير جوابًا. وكان مما قال: إنني أتمنى أن تسنح الفرصة لكي أقوم بجزء مما يجب لأحد أساتذتي، فاجبر بخاطري، ولاتدع هذه الفرصة تفوتني -قال ذلك بتأثر بالغ-.

لقد عرفت الشيخ عربًا أحد طلاب (المعهد السعودي) بمكة حينما كنت أُدَرِّسُ فيه، وعرفت والده تاجر أقمشة في مدخل سوق سويقة من سوق باب الزيادة، وكان من خيرة التجار، وأحسنهم معاملة، وأكثرهم مواظبة على أداء الصلوات في الحرم الشريف، وكان يلبس لباس أهل الشام طربوشًا فوق الرأس، وزبوناً (قمبازاً) مخططًا، وفوقه حزام غليظ، فقد كان ممن زاده الله بسطة في الجسم، وقد توفي رحمه الله منذ ثلاث سنوات أي سنة ١٣٩٣هـ.

يوم الجمعة (٢٦/١٢/١٣٩٦ - ١٧/١٢/١٩٧٦م) وكان الخروج من الفندق في الصباح الساعة السادسة وكان الجو معتدلاً لا حرَّ ولا قر، والفندق يقع على شاطئ النيل الأزرق، في شارع يدعى (شارع النيل) وهو أجمل شارع في مدينة الخرطوم، يزدان جانباه بالأشجار الباسقة الكبيرة من شجر الجميز واللبخ[1] وغيرهما،

---

(١) من الأشجار التي تكثر في الحدائق هنا: شجر المر - بضم الميم وتشديد الراء، ويداوي الجمالون بورقه الدبرة التي تصيب ظهر البعير من أثر الرحل - واللالوب، وثمره يؤكل، وتصلح الكراسي باغصانه، وشجر القرظ، وهو شجر كبير يرتفع طويلاً، ويعظم ساقه حتى يتسع عن التقاء يدي الرجل، وتصنع من خشبه أسرة الجلوس (الواسعة) التي تسمى هنا (العنجريب) وهو غير القرظ المعروف في جبال السراة عندنا. أما شجر الجميز فهو ضخم ذو ورق أشبه بورق التين،إذا قطع افرز ماء كالحليب، وثمره يحتُّ صغيراً ولا يؤكل.

وقد شُجِّر هذا الشارع، وأصلح قبل عهد الاستقلال. وتنتشر القصور الجميلة على ضفته المقابلة للنيل. كقصر رئاسة الجمهورية، وقصور وزارات المالية والشباب والداخلية والخارجية ووزارة الحكم المحلي الشعبي،ومتحف السودان القومي، ودار الصداقة وهي بناء حديث فخم، بنته حكومة الصين الشعبية، وفيه (صالة) للاجتماعات العامة، يقال بأنها تتسع لأكبر عدد من الناس في هذه المدينة، كما يقع عليه بعض الفنادق، ومن أحدثها فندق هلتن، ولم ينته عمرانه بعد، تقوم ببنائه حكومة الكويت. وتقع قصور الوزارات الأخرى خلف القصر الجمهوري على مقربة منه، وكثير منها محكم البناء مما أنشئ قبل عهد الاستقلال أيضًا، وتلب بها الأسواق التجارية من الخلف ومنها (السوق الأفرنجي) أو (شارع الجمهورية) وهو أعظم سوق تجاري في الخرطوم، ثم أسواق أخرى ليست منظمة مثلها ومنها سوق تدعى (السوق العربي) وفي الخرطوم أسواق الخضر والفاكهة واللحوم ومواقف السيارات العامة التي تتجه إلى مختلف أنحاء القطر.

خرجت من الفندق، وقد خشيت أن يتأثر صدري برطوبة النيل، وأنا حديث عهد بسعال أقعدني في الفراش أيامًا في القاهرة، ولا تزال آثارهُ باقية، فانحرفت عن ذلك الشارع متجهًا صوب وسط المدينة حتى بلغت أحد مواقف السيارات، فسألت أحد الواقفين: إلى أين تتجه؟ فقال: إلى أم درمان. ثم علمت منه أن المسافة إليها تقطع في أقل من عشر دقائق، وأن الأجرة خمسة قروش، فكان أن ركبت مع الراكبين في أحد السيارات، وكان الاتجاه صوب شارع النيل، وعند انتهائه في جهة يدعونها (المَقْرَن) حيث يقترن النيلان الأبيض والأزرق، وكان العبور على جسر بانتهائه تبدأ مدينة أم درمان – ورأيتهم هناك يكتبونها (أمدرمان) وفي أول المدينة يبدو بناء ضخم سامق البناء لم يكمل بعد، يدعى قصر الشباب تقوم حكومة كوريا الشمالية بتشييده، وبعده على يمين المتجه إلى داخل المدينة مبنى مجلس الشعب يبنى حديثًا، ثم مكان مستطيل غير مسقف، في قبلته قبة مرتفعة مخمسة أي خمس قباب، أرفعها الوسطى

محكمة البناء، تدعى قبة المهدي وعلى[1] مقربة منها بيت الخليفة وهو متحف، أما المكان المستطيل الواسع فقد أعد لإقامة حفلات عيد المولد حيث تنصب الخيام، وتقام الحلقات لأصحاب الطرق، وفي جانب منه يقام الآن بناء مرتفع يدعى (صرح الأبطال) ليكون رمزاً لبعض الوقائع التي جرت في أيام المهدي وما بعده (في آخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر).

وعلى مقربة من هذا تقع دار البلدية، وبعدها تتفرع أسواق المدينة الكثيرة من شارع واسع مستطيل، تزدحم فيه السيارات، أما الفروع فضيقة -في الغالب- وما يعرض فيها مختلف، فهذا سوق للخضر والفاكهة، وآخر لصناعة الأحذية، وآخر للصياغة، وهلم جَرًّا.

والعمران الحديث منتشر في المدينة، وأكثر بيوتها القديمة كانت مبنية من الطين واللبن أو الطوب والجص والحجر، والشوارع يكثر فيها التراب، وإن كان بعضها مبلطًا، وتتسرب فيها المياه، وتقل النظافة، ومثل ذلك يقال في الخرطوم باستثناء قلب البلدة حيث يقع القصر الجمهوري وما حوله.

وتكثر الحدائق في هاتَيْنِ المدينتين، وخاصة مدينة الخرطوم، حيث لا توجد دار من الدور الكبيرة أو قصر بدون حديقة واسعة، ولا سيما ما كان منها على مقربة من النيل. وهناك حدائق عامة ولكن مما يضايق الجالس فيها كثرة نوع من البعوض يسمونه (نِمتِّي)، يتهافت ويتساقط على الجالس بكثرة، وخاصة أثناء النهار، فإذا لم يقفل المرء فمه وعينيه وأنفه لم يعدم متسللاً بسرعة وبخفة في أحد هذه المنافذ، وكيف يتسنى إغلاقها كلها؟! ومن رحمة الله أنه لا يلسع، ويقال إنه لا ينقل شيئًا من الجراثيم، وأنه لا يتكاثر إلا عندما تبدأ مياه النيل بالانحسار، حيث تبرز بعض

---

(١) وجاء في كتاب «السودان عبر القرون» ص٤٠١ - للدكتور مكي شبيكة ما نصه: (وكان المهدي أقام زريبة كبيرة لتكون مسجداً جامعًا، فبناه الخليفة بالطوب الأحمر، وهو باق بحاله إلى الآن، ولاستحالة سقفه بنيت المظلات في داخله لتقي المصلين حر الهاجرة، وكان على عظم اتساعه يضيق بالمصلين، إذ يتحتم على الأنصار حضور الصلوات الخمس في المسجد الجامع، ولا مسجد سواه في المدينة.

المستنقعات التي تتسرب إليها المياه الآسنة من المنازل. ولكن ألا يمكن القضاء على هذا البعوض؟! لا أعتقد أن من السهل ذلك، فلقد ذكرت عند مشاهدته أنني قبل ثلاث سنوات مررت ببلاد خيبر، فلما كنت على مقربة من النخيل وكان الوقت ظهراً هاجمني أنا ومن معي البعوض مما اضطرنا إلى البعد عن البلدة، مع أن الحكومة أنشأت هناك مركزاً لمكافحة الحمى (الملاريا) بالقضاء على البعوض، وفرت له مختلف الوسائل. بل ما ظن القارئ بمدينة من كبريات المدن الامريكية وهي (هيوستن) في ولاية (تكساس) إن المرء لا يعدم في بعض الأحيان أن يتسلل إليه ضيف خفيف الروح أثناء النوم، فيداعبه في القفز فوق وجهه، أو مَرَاقِ جسمه، من النوع المعروف باسم (الصراصير) ولا تقل بأن هذا في بعض الأمكنة التي لا تتوافر فيها النظافة، بل ثق بأن وسائل القضاء على هذه الحشرات لم تُجْدِ، لكثرة المياه.

يقولون في السودان: (العاصمة المثلثة) ويقصدون الخرطوم وأم درمان[1] ثم الخرطوم بحري -كذا ينطقون- والخرطوم البحري يفصلها النيل الأزرق عن الخرطوم، وعن أم درمان النيل الأبيض (بعد اجتماع النيلين)، فكل مدينة تنفصل عن الأخرى بفرع من فروع النيل، ويتوسط بين الثلاث جزيرة واسعة، تكونت في ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، وأحاط بها فرع من فروع النيل الأزرق، تدعى (جزيرة توتي) وهي خصبة التربة لكونها تكونت من (الطمي) الطين الذي يجرفه النيل حتى تجمع، فكانت هذه الجزيرة، وكانت الخضر التي تجلب في هذه البلاد منها، إلا أن الزراعة فيها ضعفت الآن، وليست كبيرة، فالمرء يشاهد أطرافها، ومن على ضفاف شارع النيل من سكان الخرطوم تبدو أمامهم غير بعيدة، والمراكب الصغيرة (العبَّارات) تقطع النهر بينها وبين الخرطوم، وفيها سكان قليلون من قبيلة سودانية تدعى المحس - بفتح الميم وإسكان الحاء بعدها سين، وقد تنطق صاداً.

(١) يقول الدكتور عبدالله الطيب - حينما سألته عن اصل هذا الاسم: (من الشائع أن امرأة كانت عملت كوخًا في مكان المدينة قبل إنشائها، وكانت تبيع شرابًا يدعى (المريسة) وتدعى تلك المرأة (أم عبدالرحمن) وكثير ممن ينطق هذا الاسم يسهلون حروف الحلق، ومن هنا نشأ هذا الاسم (أم درمان).

ومدينة أم درمان – على ما قيل لي – كانت أكثر سكانًا من الخرطوم، وأكبر، إلا أن مدينة الخرطوم أجمل مباني وأحدث وأكثر، فكل وزارات الدولة تقع فيها ولهذا بدأت تبتلع سكان المدن الأخرى، أما الخرطوم بحري – كما يسمونه – فهو متسع الشوارع، ولكن مبانيه قليلة بالنسبة للمدينتين الأخريين، وقد أضافوه إلى البحر لكونه في الجهة البحرية الموالية للبحر الأحمر، وهو بلدة صناعية حيث أكثر المصانع تقع فيها. ويفصلها عن جزيرة توتي فرع من النيل الأزرق، وعن الخرطوم النيل الأزرق نفسه.

تقل المطاعم والمقاعي باستثناء ما كان شعبيًّا، ولهذا فكثيراً ما ترى فنادق الدرجة الأولى مزدحمة لتناول الطعام، أو الشراب، لا من الأجانب وحدهم، بل من ذوي السعة من أهل هذه البلاد.

ويزور هذه البلاد كثير من السياح من مختلف أقطار المعمورة.

وأعدل الأوقات – في السودان – في أول فصل الشتاء، حيث يكون الجو معتدلاً، وإن كانت الرياح قد تهب فتثير قليلاً من الغبار، ولهذا لا يستغرب المرء حينما يتناول بعض الأطعمة فيحس بهسهسة يسيرة تحت أضراسه، وتكاد السنة لا تزيد عن فصلين، فصل معتدل وهو أطول فصول السنة، وفصل شديد الحر، حيث يشتد هبوب الرياح فتذرو التراب الناعم، الذي قَلَّ أن تحول الحواجز مهما تنوعت دون دخوله المنازل، وذلك في فصل الصيف – بالنسبة للبلاد الأخرى – أي في شهر مايو ويونيو ويوليو.

وقد يحدث أن يتغير الجو فجأة، فيكون أول النهار معتدلاً فلا يلبث أن يكفهر، فتشتد العواصف، وتتلبد السماء بالغيوم فتنخفض درجة الحرارة، وقد يحدث العكس، ومهما يكن فاشتداد البرد لا يتجاوز شهرين على ما قيل لي.

يوم السبت (٢٧ / ١٢ / ١٣٩٦–١٨ / ١٢ / ١٩٧٦م) لم أخرج من الفندق إلا بعد تناول طعام الإفطار، ولم أسر كثيرًا، فقد أحسست بفتور عام في الجسم، لم أعرف سببه، ودخلت في (حديقة الحيوان) وكانت تجاور الفندق، بل هو – فيما يظهر مقتطع منها هو وفندق آخر يجاوره يدعى (جراند اوتيل) وتنظيم الحديقة

بحاجة إلى عناية أكثر، وقد وقفت عند جمل ذي سنامين، جسمه أصغر من جسم الجمل في بلادنا، بل هو أقرب إلى أن يكون مماثلاً لجسم الحِقّ واللّقِي[1] أي بطول البقرة، وبره طويل، يكسو غالب جسمه، ومنظره يوحي بالكآبة، حيث يبدو وكأنه حزين، قليل الحركة، ينظر بعينين فاترتين، ويتناول العلف المطروح تحته بضعف وعدم رغبة، والجمل ذو السنامين يستعمل للركوب، فقد رأيت رجالاً تهيأوا لركوب ذلك النوع من الجمال، ورأيت واحداً منها في متحف (قصر الخليفة) في أم درمان، ومما أثار في نفسي الرهبة حيوان الخرتيت الثور (وحيد القرن) وهو (الكركدن) فقد رأيت اثنين من هذا الحيوان، ضخمي الجثة، قريبي الشبه بالفيل، لونهما أبيض، وعندما وقفت بجوار حظيرة أحدهما جرى نحوي مسرعًا، يهز جسمه، ويمد رقبته، ويحاول أن يدخل رأسه ذي القرن المؤلل من تحت سياج الحظيرة نحوي، فأسرعت الانصراف عنه إلى جاره وهو الفيل، الذي كان أكرم منه استقبالاً، فقد سار إليَّ من أقصى الحظيرة بهدوء، واكتفى بمد خرطومه، فقد اعتاد من زواره تقديم ما يتناول به، لم أسر في كل نواحي الحديقة، فقد مررت فيها بمحل صغير تباع فيه الصحف وبعض المطبوعات الأخرى، فوقفت عنده، وسألت صاحبه: هل لديك جريدة اليوم؟ وأنا أقصد الجريدة التي صدرت هذا اليوم - فقال: هي جريدة «الأيام» ولكنها لا تصدر هذا اليوم، والذي صدر جريدة «القوات المسلحة» فأخذتها وصرت انظر الصحف المعروضة فإذا أكثرها صحف مصرية فقلت: لماذا لا يوجد عندك سوى الصحف المصرية؟ فسألني: وأي الصحف تريد؟ فقلت: الصحف السعودية -مثلاً- فقال: عندي منها مجلة «الشرقية» فاستغربت قوله لأنني لا أعرف شيئًا عن هذه المجلة، ولكنه ناولني عدداً منها، فنقدته الثمن مسرعًا وهو ثلاثون قرشًا، وشغلت بتصفحها عن وقوفي بوجه صاحب المحل، بحيث أحول بينه وبين من يريد الاتصال به، حتى أشار إلى كرسي من كراسي الحديقة لكي أجلس فوقه.

---

(١) الحِقُّ - بكسر الحاء ابن الناقة، بعد فصله، واللّقِي حين يبلغ السنة الثالثة.

كان غلاف المجلة تزدان صفحته الأولى بصورة فتاة ساحرة النظرات، عصبت رأسها بغترة بيضاء[1] مهدبة (بوال) دلعاء الصدر[2]، قد أسندت رأسها بيدها، وفي أعلى الغلاف اسم المجلة (ELLE) وتحت هذه الكلمة (الشرقية) ثم (ديسمبر كانون أول ١٩٧٦ - العدد التاسع والعشرون) . وتحت صورة الفتاة : (الغد . . . في السعودية، ونسيت أني امرأة، أزياء قادمة من الشرق) .

أما الصفحة الأخيرة فمنظر داخل منزل أنيق، يزخر بالتحف، كتب تحته (كونداس - الرياض) ولم أتبين صحة هذه الكتابة لرداءة الخط بل لمخالفته للقاعدة المألوفه إلا بعد أن أمعنت النظر بكتابته بالحروف اللاتينية في أعلى الصفحة تقرأ (كنداس انترناشونال) .

وسأعفي القارئ من السير معي في تصفح هذا الجزء الذي تبلغ صفحاته المئة، بعد أن أشير إلى الافتتاحية التي بعنوان (عيد التضحية والفداء) بتوقيع (سميرة محمد خاشقجي)[3] متوجة بصورتها، وفي أعلى الصفحة : (الحياة جميلة حين نحياها، ومؤلمة حين لا نحياها)!! ويقابل هذه الصفحة، في ورقة على الغلاف إعلان عن الخطوط السعودية، يحوي مصوراً (خريطة) يوضح الخطوط الداخلية والمدن، ولكنها كالمصور الآخر الموضح لسير الخطوط الخارجية والمدن التي تبلغها - كلها مكتوبة بحروف لا تينية - ثم تحت عنوان بارز : المملكة العربية السعودية : كيف تفكر في الغد؟ ومما جاء في التمهيد لهذا العنوان : (سافرت بعثة من أسرة الشرقية من المحررين والمحررات والمصورين ذهبت ترصد مؤشرات التقدم الحضاري في أرض الحرمين) . حقًّا إن في هذا الجزء صوراً بلغت أرفع مستوى من حيث الإتقان، لفتيات يتصفحن كتبًا داخل حديقة، ولرجال يحملون أشياء شبيهة بالسلالم كأنهم يمارسون نوعًا من الرياضة الجسمية، ثم لإحدى آلات تصفية الزيت، ولا شَيْءَ غير ذلك مما يفهم القارئ أنه ذو صلة بذلك العنوان، أو بعمل المحررين والمحررات والمصورين الذين ذهبوا لرصد مؤشرات

---

(١) الفترة غطاء من أغطية الرأس في بلادنا ولعل أصل الكلمة (غدرة) بالدال لكونها تستر غدائر الشعر وتغطيها .

(٢) الدلعاء مؤنث الأدلع وهو من ترك صدره بارزاً، ولم يزر إزاره .

(٣) توفيت عام ١٤٠٦ في القاهرة وانظر ترجمتها في كتاب «معجم المطبوعات العربية» ص٦٢٧ - نشر (دار اليمامة) .

التقدم الحضاري في أرض الحرمين غير أن هذا ليس كل ما في المجلة عن بلادنا، فهذه صفحة تزدان أعمدتها الأربعة بصور (صناع التطور في المملكة) وبنماذج من كلماتهم الخالدة، وها هو ناصر الدين النشاشبي يكتب عن الخطة بعنوان (يحكي لي وزير التخطيط) في خمس صفحات، لا ينقصها سوى نصف صفحة يحوي إعلاناً عن كتاب ألفه بعنوان « لا رمل ولا جمل »! فصفحتان تزدانان بصورة الكعبة المطهرة، وصورة أحد أبواب الحرم الشريف، وبجانب من مخيم الحجاج فوق أرض أحد المشاعر المقدسة، ولعلها أرض عرفات والعنوان (إلى عرفات الله ياخير زائر) فمقال مصور بعنوان (تعالي معي إلى أبْهَا حيث يحلم النجم أن يمس يديها) في أربع صفحات، فحديث عن (التدريب الصحي الذي تقوم به إدارة التعليم) وآخر عن (أول كلية للتمريض) افتتحت هذا العام في المملكة، فصفحتان مصورتان بعنوان (الأمل.. من أجل الذين حرموا نعمة السمع والكلام) وقبلهما تحدث حسن عواد المدير الإداري لأعمال (الكمبيوتر) كيف بدأت الاستفادة من هذه الآلات العجيبة في المملكة منذ سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م- كما تحدثت المذيعة وفاء بكر يونس عن مهنتها. ويأتي أطرف عنوان وأظرفه: (مضيفات الدنيا يتعلمن الابتسامة على الطريقة السعودية) صفحتان مصورتان عن (مدرسة المضيفات التابعة للشركة السعودية للطيران).

وللفن نصيبه في هذه المجلة كاملاً غير منقوص، ويتمثل جانب من ذلك النصيب في هذه الفنانة السيدة سهير محمد خاشقجي الواقفة أمام مرسمها، تجري اللمسات الأخيرة على رسم سيدة شرقية تحت عنوان: (فتاة تعشق الطبيعة والطفولة والبراءة) ذي رسوم معبرة. ولرجال الدولة مجالهم في هذه المجلة، فها هو الدكتور عبدالوهاب عطار -وكيل وزارة العمل والشؤون الاجتماعية آنذاك- يختم أجوبته لما وجهت المجلة إليه من أسئلة اختارت عنوانها: (المرأة السعودية قيمة مضافة للعمل الاجتماعي بقوله: إن المستقبل القريب سوف يشهد تطوراً ملحوظًا حول مزيد من تأكيد دور المرأة السعودية في مجال العمل الاجتماعي بصفة عامة، وفي التنمية الاجتماعية بصفة خاصة، بما يتفق مع تعاليم ديننا السمحة).

لن أتَغَلْغَلَ داخل المجلة أكثر مما فعلت، وحسبي أني أبرزت جل ما فيها متعلقًا ببلادنا، إن لم يكن كله، وقد استغرق من صفحاتها نحو الثلث أو ينقص قليلاً، وما عدا ذلك فتحليق في عوالم أخرى، وأجواء بعيدة عنا. ونسيت أن أذكر أنها (مجلة نسائية سعودية) و(صاحبتها ورئيسة تحريرها سميرة محمد خاشقجي) وأنها (تصدر شهريًا عن الشركة الشرقية العالمية ش.م) وأن لها مستشارين منهم في الرياض (المستشار غالب أبو الفرج) وفي مصر (إحسان عبدالقدوس وناصر الدين النشاشيبي ولها مكاتب (مكتب القاهرة...) و(مكتب الرياض، عمارة الجبس الأهلية) و(مكتب بيروت).. و(مكتب باريس..) ولا يتسع المجال لذكر أسماء مديري المجلة ومحرريها، وليس فيها إشارة إلى مكان طبعها، ولكن إتقانه واناقة صوره مما يوحي بأنها تطبع في باريس حيث يوجد أكبر عدد من موظفيها: (جميع محرري وكتاب إل) ولا ادري ما (إل) هذه التي رأيتها بحروفها اللاتينية تعلو اسم المجلة، وقال لي أبو الوليد: إنها كانت تطبع في بيروت.

بعد أن أشبعت نهمي من المطالعة، وهي لذة حرمت منها فترة غير قصيرة من الزمن، خرجت من حديقة الحيوان، واتجهت إلى (متحف السودان القومي) وهو قريب من الحديقة، وتتولى إدارته (مصلحة الآثار) في (وزارة الإعلام)، وقد كتب في نصب أمام القسم الداخلي منه ما نصه: (متحف السودان القومي: افتتح هذا المتحف اللواء أركان حرب جعفر محمد النميري، رئيس مجلس قيادة الثورة والوزراء في يوم ٢٧ مايو ١٩٧١م الموافق ٣ ربيع الثاني ١٣٩١هـ بمناسبة الذكرى الثانية لثورة مايو المجيدة) وهناك متحف آخر تابع لجامعة الخرطوم لم أعلم به إلا ليلة السفر، ولهذا لم أزره، ويظهر أنه أهم من هذا، لأنه أقيم في عهد ما قبل الاستقلال، وأبرز ما يحويه هذا المتحف الذي زرته من الآثار معابد وتماثيل فرعونية، وآثار نبوية مسيحية، أما الآثار الاسلامية فقليلة جداً، لفت نظري منها شاهدا قبرين من الحجارة كتب فوقهما بالخط الكوفي الجميل بعد الاسم التاريخ محدداً، كتب عليهما انهما من آثار (الفونج) وهؤلاء هم الذي ازالوا دولة النوبة المسيحية، ونشروا الإسلام في بلاد النوبة وما حولها من السودان، في أول

القرن السادس عشر الميلادي، و(الفونج) على ما جاء في كتاب «السودان عبر القرون» ص٤٢ تأليف الدكتور مكي شبيكة أستاذ التاريخ بجامعة الخرطوم: (هم كبقية سكان السودان الأوسط الشمالي يرجعون بأصولهم إلى العرب، وإلى بني أمية بالذات، والمصادر العربية تذكر أن بعضاً من أمراء بني أمية هربوا من مصر إلى بلاد النوبة والبجة عندما خر صريعًا في مصر مروان بن محمد آخر خليفة لهم، وكانت سياسة بني العباس ترمي إلى إبادة البيت الأموي) ويحدد الدكتور شبيكة ابتداء أمرهم في أول القرن الحادي عشر الميلادي وهذا لا يتفق مع تاريخ شاهدي القبر منتصف القرن الخامس الهجري، أول القرن الحادي عشر الميلادي وسأورد نص ما قرأته فيهما بعد هذا.

ويجرني الحديث عن أصل هذه القبيلة –أو الدولة– التي كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في ربوع السودان إلى الإشارة إلى أن كثيراً من فروع القبائل العربية هاجرت إلى شمال السودان، إلى بلاد النوبة والبجة، ثم توغلت داخل السودان، من قبل ظهور الإسلام، ثم في صدره، ثم بعد ذلك.

والقول بأن هجرة القبائل العربية كانت من طريق برزخ السويس وإن كان صحيحًا بالنسبة للقبائل التي استوطنت مصر وجنوبه من الصعيد وما حوله، غير أن التوغل إلى الداخل واجتياز الصحراء القاحلة بين جنوب الصعيد وشمال بلاد النوبة ليس سهلاً، وأيسر منه اجتياز البحر الأحمر، وكانت الصلات قوية بين سكان شاطئه الشرقي حيث موطن القبائل العربية، والغربي حيث بلاد الحبش والبجة والنوبة منذ ظهور الإسلام، كما حدث إبَّان الهجرة إلى الحبشة، بل ليس هناك ما يمنع من أن تكون الصلات قبل ذلك وقد ذكر عرام بن الاصبغ السلمي – وهو من أهل القرن الثالث الهجري – أن سكان جزيرة قراف الواقعة بجوار ميناء الجار – الميناء القديم للمدينة المنورة – من البجة[1] – والبجة هم سكان الساحل الغربي من البحر الأحمر (بحر القلزم) وكانوا يشتغلون بالملاحة فيه وصلاتهم قوية بكل موانئه.

ويلاحظ أن جل الآثار التي يحويها المتحف نقلت من شمال السودان.

---

(١) ورد في النسخ المطبوعة من هذه الرسالة (التجار) وكذا في بعض الكتب التي نقلت عنها، وقد أوضحت خطأ هذا.

أظهرت استغرابي لقلة الآثار الإسلامية في هذا المتحف لأحد العاملين فيه، فقال لي : إن الآثار الاسلامية في (متحف قصر الخليفة) في أم درمان .

لم أغادر الفندق في المساء، فشارعه يزدحم بالسيارات، ونوره ليس قويًّا، فأحسست بشيء من الوحشة والضيق، ونور الغرفة ضعيف لا يمكنني من مطالعة الصحف، بل لا أرغب المطالعة حفاظًا على بصري. فجلست جوار شيخ يعرض عند باب الفندق بعض المصنوعات والتحف كجلود الفهود والحيات - ويسمونها الأصلة بفتح الألف والصاد واللام - وهم يقصدون الصِّلاَل - واحدها صِلٌّ بكسر الصاد وتشديد اللام، - وهو نوع ضخم من الحيات، ويظهر أن الشيخ برم بي وبحديثي بعد أن تكاثر حوله الباحثون عن بضاعته، فذهبت إلى مكان غير بعيد من الباب، قد هيئ لجلوس سكان الفندق، فجلست على أحد الكراسي، فلم أشعر إلا بأحد الإخوان السودانيين يقف بجواري مسلمًا عليَّ، فإذا هو الأخ الذي أوصلني أول مرة إلى بلدة أم درمان، ويدعى عبدالله الإمام، وهو على جانب من التهذيب ودماثة الخلق، وقد شدا في الأدب العربي فحفظ قدراً من الشعر القديم، وكنت أظهرت له رغبتي بإستئجار سائق سيارة يذهب معي إلى الرياض، فأحضر معه رجلاً كان أثنى عليه، وبعد تجاذب أطراف الأحاديث وتناول القهوة، قام الرجلان بدون أن يحصل اتفاق بيننا، فقد طلب أجراً رأيته كبيراً. فقلت لعبدالله : ما رأيكما في الذهاب لتناول العشاء في أحد المطاعم التي تعرفانها؟ فاعتذر صاحبه، ووافق عبدالله بعد أن يذهب لقضاء بعض أعماله ثم يعود إليَّ حوالي الساعة الثامنة. وكنت بحاجة إلى من آنس الحديث معه، وسرعان ما أنست بلقاء الأخ الأستاذ محمد الفهيد، فقد أتى إليّ ومعه الأخوان عثمان الصالح الفريح وعلي الحمد أبا الخيل، وعثمان من موظفي جامعة الرياض، ويقدم أطروحة لنيل درجة (الدكتوراه) عن الشاعر أبي الحسن التهامي، فقد نال إجازة (الماجستير) ببحث عن هذا الشاعر، فواصل دراسته عنه، وكان اجتمع في لندن بالدكتور عبدالله الطيب الذي كان عميداً لكلية الآداب في جامعة الخرطوم، فرغبهُ بأن تكون دراسته في هذه الكلية، والأخ علي مدير مكتب الملحق العسكري في السودان .

وسألت الأستاذ الفريح عن الدكتور عبدالله الطيب، وقلت له: بلغني أنه في الرياض. فقال: ذهب إلى الرياض وقتًا قصيرًا ثم عاد، وكان عميداً لكلية الآداب في جامعة الخرطوم، ولما أنشئت جامعة (جوبا) – قاعدة جنوب السودان – عين مديراً لها، غير أنه الآن استقال، وهو موجود في الخرطوم. والدكتور الطيب من زملائي في (مجمع اللغة العربية) في القاهرة. فقد عرفته أثناء انعقاد مؤتمر المجمع السنوي منذ بضع سنوات.

لقد استمرت هجرة القبائل من الجزيرة العربية إلى افريقية وكان من ابرزها هجرة بني هلال وبني سليم إلى مصر، ثم إلى شمال افريقية، وقبل ذلك كان يحدث أن احد فروع القبائل تقسو في وجهه الحياة، فلا يجد ملجأ سوى اجتياز هذا البحر إلى هذه الأرض الفسيحة التي طالما سمع من أخبار من سبقه إليها من بني جلدته ما يقوي الحوافز في نفسه للاتجاه صوبها.

ولا أطيل بذكر ما جاء في كتب التاريخ من أخبار تموج القبائل العربية بين جزيرتهم وبين القارة الافريقية، واجتياز بعضهم البحر، بل اكتفي بايراد خبر أقصد من ايراده الترويح عن القارئ وإطرافه.

سألت الأستاذ عونًا الشريف قاسم وزير الأوقاف والشؤون الدينية في السودان هل الرئيس جعفر محمد النميري، من قبيلة بني نمير[1] وإذا كان كذلك فهو – وإن كان

---

(١) كنت اتجول صباح يوم الأربعاء في مدينة أم درمان فدخلت سوقًا يدعى سوق الخراطين – وهم الذين يصنعون التحف الدقيقة الصنع من التماثيل الصغيرة من الخشب ومن العظام – فجلست في دكان يعرض فيه بعض التحف التي تصنع في السودان، وبينما كنت اتحدث مع صاحبه أبصرت مكتوبًا على الدكان المجاور (محمد النميري) فسألت: هل هذا من أسرة النميري فقال لي من كنت اجلس عنده: نعم إنه عمه –أخو أبيه– والنميري من جزيرة بقرب دنقلة تدعى لبب –بلام بعدها بائان – وتدعى جزيرة الاشراف. وكلمة الاشراف عند متقدمي العلماء يقصد بها ذوي الحسب والنسب من أي قبيلة من قبائل العرب، ومن هنا سمى البلاذري كتابه « معاليم الاشراف » و« انساب الاشراف » وهو يقصد مشاهير العرب كلهم من جميع القبائل، وتخصيص اطلاق كلمة (الاشراف) على من ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما– وكلمة (السادة) على من ينتسب إلى أخيه الحسين لم يكن معروفًا عند علماء النسب المتقدمين.

أخونا في الدين – إلا أن القرابة تزداد قوة فيصبح ابن عمنا ومنا لحمًا ودمًا كما هو منا قلبًا وروحًا، فقال الوزير ما معناه –مازحًا– : لكم أن تسألوه عن هذا والرئيس قبيلته من شمال السودان في جهات دنقلة، وهناك جزيرة تدعى (واد نمير) أي جزيرة بني نمير، إذ كلمة (واد) يقصد بها (ولد) – والقبائل العربية معروفة في تلك الجهات . ثم ذكرت ما اورده المؤرخون من أن الاخيضر العلوي لما استولى على اليمامة في منتصف القرن الثالث الهجري كان شديد البطش بالقبائل المناوئة له، بل كان مستبداً ظالمًا، مما اضطر بعض القبائل إلى الهجرة، وممن هاجر إلى افريقية واجتاز البحر طوائف من بني حنيفة من ربيعة، ومن بني نمير من هوازن فاستقروا في أرض المعادن، بقرب ضفة البحر الغربية مما يلي السودان . ولقد اخبر الأستاذ الشيخ عرب الرئيس النميري بحديثي مع الأستاذ الشريف . فقال : لا أدري ولكننا من الأشراف .

يوم الأحد (٢٨ / ١٢ / ١٣٩٦هـ – ١٩ / ١٢ / ١٩٧٦م) بكرت في الذهاب إلى أم درمان لزيارة متحفها، فخرجت قبل الإفطار، ولم أجد في البلدة من المطاعم ما يرغبني بدخوله، فاكتفيت بشراء حبة من فاكهة (جريب فروت) مصصت ماءها وكان مُزًّا، ويظهر أن تناول هذا النوع من الفاكهة يلين الطبيعة ولهذا فهو يقدم مع طعام الإفطار في الفنادق الكبيرة لا في بلاد السودان وحدها بل في كثير من البلاد الأخرى، والإكثار منه يسبب الإسهال، وهذا ما حدث لي هذا اليوم .

لم أجد عناء للوصول إلى (متحف بيت الخليفة) فقبة الإمام المهدي المخمسة الشكل من أبرز معالم المدينة، والمتحف بجوارها – فلما بلغتها وجدت بناء حديثًا لم يُكْمَل بعد، كتب في مدخله على لوحة كبيرة (مشروع بناء متحف بيت الخليفة) وتتولى العمل – على ما في تلك اللوحات – شركة إيطالية . فسألت شابًا كان داخل ذلك المبنى عن المتحف، فخرج بي حتى تجاوزنا المكان، وسار بي حتى أوقفني بجوار القصر الذي تقع القبة داخله عند باب دار صغيرة قد بنيت جدرانها المحيطة بها بالطين بناء غير محكم، بل يوشك أن يتداعى السور للسقوط، وأشار

إلى لوحة معلقة عند مدخل هذه الدار قائلاً: هذا بيت الخليفة، فأردت أن أؤانسه بالحديث فسألته عن اسمه فقال: حمد، وساعود إلى عملي. فشكرته وأخرجت من جيبي ما أردت أن أدسه في يده فقال: لا لا! وعاد مسرعًا. ولم يجب سؤالي حول استعمال هذا الاسم في هذه البلاد، وهم ينطقونه بفتح الحاء والميم، كما ينطق في بلاد نجد، وازداد من استغرابي عندما وقفت اقرأ ما كتب عن إنشاء هذا البيت فإذا الذي بناه اسمه حمد عبدالنور سنة ١٨٨٧م لم أجد في هذا المتحف ما كنت أتطلع إليه من آثار إسلامية قديمة، إذْ كان كل ما فيه من عهد المهدي وما بعده إلى عهد الاحتلال البريطاني من سنة ١٢٩٠هـ (١٨٨٠م) إلى سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م تقريبًا). أسلحة قديمة من مدافع وبنادق وغيرها، وألبسة من دروع وخوذ، وأمتعة وأواني وأشياء مختلفة، مما يستعمله الانسان في تلك الأيام، ومما لا يزال كثيراً منه مستعملاً حتى الآن، ومن ذلك نسخ من القرآن الكريم مطبوعة ومخطوطة، وكتب أوراد وأدعية، ورسائل مخطوطة كان المهدي يوجهها إلى بعض اتباعه، وصورة العلم، وقد كتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله إلا الله، محمد رسول الله، محمد المهدي خليفة رسول الله).

ويظهر أن ما فيه من آثار سينقل إلى المكان الذي يبنى حديثًا، فالبيت – وإن كان داخله جيد البناء بالآجر (الطوب) والبلاط، إلا أن أرض حجره وممراته قد تأثرت بكثرة المشي، وقد شاهدت فيه فتاتين شقراوين تتابعان مشاهدة بعض الآثار المنزلية بدقة واهتمام قدمنا من (اسكندنافيا) للتمتع بدفء هذه البلاد.

لم اكن أطمع أن أشاهد آثاراً عربية قديمة، فتوغل العروبة في هذه البلاد ليس قديمًا، والقبائل التي دخلتها في عصور متقدمة كانت تعيش عيشة البداوة.

وليس من المستبعد وجود آثار عربية في شمال السودان، لم يكشف عنها بعد، فشاهدا القبر اللذان رأيتهما في المتحف يدلان على أن الكتابة العربية في القرن

الخامس الهجري قد انتشرت في تلك الجهات، كما انتشرت الثقافة الإسلامية، كما يفهم من جمال الكتابة وأسلوبها، وإيراد الآيات القرآنية، وهما على ما كتب بجوار أحدهما من (مينارتي) وهذه على ما قيل لي: جزيرة فيها سكان، قاعدتها مدينة حلفا، التي نقل أهلها بعد انشاء خزان سد اسوان، وها هو نص ما كتب فوق أحد الحجرين: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾ هذا قبر محمد بن محمود بن أحمد بن الوليد يوم الاثنين لنصف من شعبان سنة خمسين وأربع مئة) والكتابة مهملة من الاعجام، بارزة في حجر أسود صلد، بالخط الكوفي الجميل.

وفوق الحجر الثاني مما استطعت قراءته، ووضعت نقطًا مكان ما لم استطع أن اقرأه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ اللهم صلي على محمد النبي وآله... إبراهيم بن اسحاق بن عيسى توفي... الاثنين إحدى وعشرين من ذو القعدة سنة خمسة وخمسين وأربع مئة...) وهذه الكتابة على حجر هش فيما يظهر، وهو الذي كتب بجواره ما نصه: (شاهد قبر رجل يدعى ابراهيم بن اسحاق، الذي توفي عام ٤٥٥ من مينارتي).

أجهدني المشي فخرجت من المتحف، ورجعت إلى السوق، ومررت بمكتبة دخلتها فإذا ما فيها من الكتب قليل، ولا أحد حولها، فأظهرت لرجل كان واقفًا ببابها استغرابي من خلو كثير من رفوفها من الكتب، مع ضخامة الاسم المكتوب فوق بابها (مكتبة افريقيا) فقال: وهل تركت لنا بيروت شيئًا من الكتب؟! فاستزدته إيضاحًا فقال: نحن نطبع كتبنا في بيروت، ونحضر ما نحتاج من المطبوعات الأخرى من تلك البلاد، فأصابنا من نكبة بيروت نصيبنا!. ثم رأيت من بين الكتب المعروضة كتاب « دوحة الوزراء » في تاريخ بغداد، فأردت أن أفهم شيئًا عن ثقافة هذا الرجل فقلت: وما للسودان ولبغداد؟ فقال بسرعة وانفعال: كيف؟!

بغداد عاصمة الإسلام مال السودان ومالها؟! نحن عرب مسلمون، ثم استرسل في حديثه، غير أنني قطعته عليه بقولي: اسمح لي أنا لم اقرأ شيئًا عن تاريخ السودان، فهل لديك ما يفيدني في هذا الموضوع؟! فقال: أخبرني باسمك وأين تنزل. وسأبعث لك كتابًا يفيدك هدية مني، فطلبت منه أن يكتب لي اسم الكتاب الذي ينصحني بقراءته فكتب: «السودان عبر القرون» للدكتور مكي شبيكة، وكتاب «شيخة العبد الأب»، فطلبت أن يضيف إلى هذا اسمه هو فكتب: يونس محمد الحسن – مكتبة افريقيا – أم درمان، ولما عرف أنني من مدينة الرياض قال: اختي تقيم الآن هناك مع زوجها. ثم ادركه تجهم وغضب شديد، لما قلت: ليتني أجد سيدة سودانية تذهب إلى الرياض للإشراف على تربية حفيدتي من ابنتي الموظفة في جامعة الرياض.

فقال بصرامة وشدة: نحن عرب لا نجيز لنسائنا العمل عند غير محارمهن، كالحال في.. والحبشة، وأنصحك بعدم إظهار هذا في هذه البلاد، فانسللت خارجًا من عنده بغاية الخجل.

يوم الاثنين (٢٩/١٢/١٣٩٦هـ – ٢٠/١٢/١٩٧٦م) مضى أول النهار في التنقل بين مكتب الخطوط الجوية السودانية في شارع الجمهورية، وبين مكتبات تقع بجوار مسجد فاروق[١]، فقد فكرت في الذهاب إلى مدينة (جوبا) ولكن أحد الإخوان نصحني بعدم ذلك، فهي تبعد عن الخرطوم أكثر من ساعتين في

(١) مسجد فاروق من أكبر المساجد في الخرطوم، وهو أحكمها بناءًا، ذو شكل هندسي رائع، يقع وسط المدينة في ساحة واسعة، وأمامه سوق بني ليصرف ريعه على هذا المسجد، فيه دكاكين كثيرة. وقد حضرت صلاة الجمعة فيه، فحضرت مبكرًا وجلست في الصف الثالث، لكي أتمكن من سماع الخطبة. فلما حضر الإمام سمعت أول سورة طه بقراءة مرتلة مجودة، ويظهر أن القراءة مسجلة، وأن الإمام فتح آلة التسجيل، فالقارئ مصري، والإمام من هذه البلاد. لم أفهم شيئًا من الخطبة فآلة التسجيل أثناء الخطبة مشوشة، وقليل السمع يختلط عليه ما ينبعث منها من تشويش وأزيز بصوت الإمام. وفي الخرطوم جوامع غير هذا الجامع الذي أنشاه الملك فاروق ملك مصر، ولكن هذا الجامع أقربها إلى قلب المدينة.

الطائرة، وقد لا يجد المرء فيها سكنًا مريحًا، في البلدة فنادق ولكن يحتاج المرء إلى أن يختار ما يلائمه، ومثل هذا لا يتيسر بدون حجز مقدم.

كانت الكتب المطبوعة يرد أكثرها من بيروت، والمؤلفات السودانية يفضل أصحابها الطباعة في لبنان وكان من جراء حرب لبنان المدمرة ضعف هذا الجانب الثقافي، مع وجود مطابع صغيرة في هذه البلاد، ومن انشطها عملاً (مطبعة جامعة الخرطوم) التي تقوم بنشر كثير من مؤلفات أساتذة الجامعة، وطباعتها جيدة.

وقد علمت من مدير (الدار السودانية للنشر) الأستاذ عبدالرحيم مكاوي أن الأمير محمد الفيصل سينشئ مطبعة في الخرطوم، وله في هذه البلاد مشروع زراعي ناجح، على ما ذكر لي أحد الإخوان، وهناك مطابع تقوم بطبع الصحف وبعض الكتب.

ويصدر في الخرطوم الآن صحيفتان يوميتان هما «الأيام» و«الصحافة»، وصحيفة أسبوعية هي «القوات المسلحة» أما المجلات الشهرية أو الدورية فليس صدورها منتظمًا.

في دار السفارة: أراد أبو الوليد الشيخ عرب سعيد هاشم المبالغة في إكرامي – أكرمه الله وادام له الخير والتوفيق– فقال لي أول يوم سعدت بمقابلته: إنه سيدعو الإخوان من موظفي السفارة وغيرهم لتناول طعام الغداء، ولكي يتم التعارف، وكنت متخوفًا أن يكون كعادته – جزلاً فلا تقتصر الدعوة على من توقعت حضورهم من أبناء بلادنا، فحاولت الاعتذار فلم أقدر إزاء إصراره، ووعده بأن الدعوة لن تشمل إلا من أرغب الاجتماع به. غير أنني فوجئت بعد أن حضرت في الوقت المحدد بعد ظهر هذا اليوم بامتلاء بهو دار السفارة الواسع بالمدعوين، ومن بينهم مفتي السودان ووزير الشؤون الدينية الأستاذ عون الشريف قاسم وآخرون لا تحضرني أسماؤهم من وجهاء القوم في هذه البلاد، بالإضافة إلى عدد من السفراء العرب كسفير العراق وسفير قطر وسفير الكويت وغيرهم.

تناول القوم أطراف الأحاديث في مختلف الموضوعات، وكان أبو الوليد بارعًا بإدارة دفتها نحو ما يرتاح ضيفه لسماعه، بلباقة، فاتجهت أحاديث القريبين مني

إلى الخوض في موضوعات ثقافية بحتة، فقد ذكر الشخ محمد البلهان سفير الكويت، أنه لما زار اليمن منذ عهد غير بعيد، كان مما شاهد خزانة كتب في أحد المساجد، تحوي نفائس من المخطوطات، فاقترح أن تصور تلك المخطوطات، خوفًا من أن يتسرب العبث إليها، غير أن اقتراحه هذا أثار ثائرة المشرفين على تلك الخزانة، فقابلوه بالرفض، وتطرق حديث السفير الكويتي إلى انتقال تراثنا الثقافي إلى متاحف الغرب وخزائن كتبه، مبديًا أسفه لذلك، غير أنني أوضحت أن الغربيين أعرف منا بصيانة ذلك التراث، ولا يعوزهم الحرص، ولا تنقصهم الرغبة في المحافظة عليه، وأوردت خبرين يتعلقان بهذا الأمر هما:

١- قبل نحو تسعين عامًا سافر الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني إلى أوربة ومعه نحو ثمان مئة كتاب مخطوط، باعها على إحدى المكتبات في مدينة ليدن في (هولندا) فوصلت إلى مكتبة جامعتها، فتصدَّى أحد أساتذتها إلى وضع فهرس مفصل لتلك الكتب طبع فانتشر، وأصبح في ميسور كل باحث الإطلاع عليه، والاستفادة من تلك المخطوطات، الموجودة الآن في المكتبة المذكورة، ولو لم تصل إلى أيدي أولئك الغربيين لكانت كغيرها من المخطوطات التي أقل ما توصف به عدم القدرة على الاستفادة منها إذا كانت باقية.

٢- كنت زرت المدينة سنة ١٣٥٤هـ فأكثرت التردد على (مكتب شيخ الإسلام عارف حكمة) وكان مما طالعته من مخطوطاتها أحد أجزاء كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للمحسن التنوخي، وبعد ذلك بعام وقع في يدي جزء مطبوع من ذلك الكتاب، حققه (مرجليوث) وطبعه (المجمع العلمي العربي بدمشق) فأتيت المدينة، ولما زرت المكتبة المذكورة طلبت النسخة التي كنت اطلعت عليها من أجزاء ذلك الكتاب، فكان جواب المشرف على المكتبة بعد أن أظهر لي أن تباطؤه كان للبحث عن الكتاب وكان الشيخ إبراهيم حمدي الخربوطي -رحمه الله- أمين المكتبة كان جوابه: (هذا من الكتب التي أخذها فخري) !! فترحمت على الشيخ

أمين بن حسن الحلواني الذي وضع جزءاً من تراثنا في أيد صانته ولم تبخل بالاستفادة منه على من يريدها[1].

وكثير من مخطوطات مكتبات مكة والمدينة تسربت إلى الهند، ومن آخر أخبارها المحزنة أن سلطان حيدر آباد - وكان من أسخى الناس وأحرصهم على شراء المخطوطات وكان لبعض علماء المدينة صلة به.

ولما فتحت الصناديق التي تضم نفائس من تلك المخطوطات، وجدت الأرضة قد أتت على كل ما في داخلها، وذلك بعد وفاته.

بل إن بلداً عربيًا نعدُّه كلنا القمة في التنظيم، والقدرة في المحافظة على التراث، حدثني أحد علمائه أنه فقد من إحدى خزائن كتبه الشهيرة نحو ألف كتاب منذ زمن غير بعيد.

ومع كل ذلك فإن تصوير المخطوطات خير وسيلة لصيانتها، فإذا فقدت أصولها بقي لها بديل مصور.

ولقد استراب إخواننا في اليمن من البعثتين المصريتين اللتين قامتا بتصوير بعض مخطوطات بلادهم في العهد الملكي ثم في العهد الجمهوري، ولكن لا ينكر أحد أن قسمًا كبيراً مما صورته البعثتان أصبح في مأمن من التلف، وفي الإمكان الاستفادة منه، ولو بصورة محدودة.

ثم انتقل الحديث إلى السياسة فذكر الشيخ البلهان أن مجلة « العربي » نشرت ملخص بحث كتبه (أبا إيبان) يدور حول فكرة استحالة صمود تكتل إسلامي صموداً يخشى منه اليهود، وبنى هذه الفكرة على دراسة تاريخية شاملة. وقد أدلى الأستاذ عون الشريف وسفير الكويت والعراق بآرائهما في خطإ نظرة ذلك اليهودي.

---

(١) نشرت كلمة عن هذا في جريدة «المدينة»، بعد أن حذف رئيس تحريرها في ذلك الوقت ما أراد منها وانظر عنه كتاب «معجم المطبوعات العربية» التمهيد و ص٤٣٢.

فعلق أحد الحاضرين بقوله: يتضح خطأ هذه النظرة حقًّا متى وجد التكتل الإسلامي الذي يوقع الرعب في قلوب الأعداء، ولن يوجد هذا حتى تصفو القلوب وتزول جميع الضغائن والأحقاد من النفوس، ويصبح المسلمون في جميع أنحاء المعمورة كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولن يكون ذلك إلا بصلاح الرؤساء والقادة، ومن بيدهم الحل والعقد، وكما قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وكانت مائدة الطعام قد أعدت، فتقدم المدعوون إليها، ثم كان الانصراف بعد أن نال كل إنسان من لطف الداعي الكريم وكرمه نصيبه وافيًا غير منقوص.

كنت سألت عن الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب وهو أحد زملائي في (مجمع اللغة العربية) في القاهرة حين وصلت الخرطوم - فقيل لي: إنه في الرياض يحاضر في إحدى جامعاتها، ولكنني علمت من الأستاذ عثمان الفريح أنه موجود هنا، فلما عدت إلى الفندق وجدته قد اتصل به يسأل عني، ثم زارني الأستاذ الفريح ومعه رسالة منه جاء فيها: (ومن حقك عليَّ أن أسعى إليك، ولكن بيمناي جرح إثر (عملية) فألزمني ذلك الدار... وسأحاول الاتصال بالهاتف وهو مما لا يستجيب الأحيان الكثيرة) ثم دعوة للأنس والغداء يوم الأربعاء، مع بعض الإخوان الذين قال عنهم الدكتور الطيب: من إخوانك وأحبائك الذين يسعدهم اللقاء بك. وقد تحدثت معه -هاتفيًا- فحاولت الاعتذار عن الاستجابة لدعوته الكريمة، وأنني سأزوره بعد مغرب هذا اليوم، ولكنه ألح، وقال بأن الأمر لا يعدو أن يكون اجتماعًا محصوراً بعدد قليل من الأصدقاء من أساتذة قسم اللغة العربية في كلية الآداب، ولن يكون في الأمر أي تكلف.

ذهبت بعد مغرب هذا اليوم مع الأخ الأستاذ الفريح لزيارة الأستاذ الطيب، وكان يسكن في إحدى ضواحي الخرطوم، بل في محلة من محلاتها تدعى (البري) ولولا أنهم هناك ينطقون الكلمة بضم الباء لقلت: إنها منسوبة إلى البر

-بفتح الباء- لانشراحها، وسعة شوارعها، وحداثة إنشائها، وأكثر بيوتها دارات (فلل) ذات حدائق حسنة، متباعد بعضها عن بعض، وقد علمت من الأستاذ الفريح، أن منازل الضاحية من أملاك جامعة الخرطوم.

شاهدت كلبًا في مدخل الحديقة اكتفى بالقيام ثم بالمشي على مقربة منا، فذكرت قول حسان بن ثابت في بني جفنة ملوك الشام:

يغشون حتى لا تهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

ولكن الأستاذ الطيب يسأل سؤال اللطف، ويحتفي بزائره، وهكذا كان.

وقد ذكرت ساعة دخولي المجلس، ومشاهدتي لعدد من الإخوان، وما منهم إلا وفي يده كتاب، وشيخهم الطيب قد فتح أمامه كتابين شغله النظر فيهما عن استقبال زائريه - ذكرت الأستاذ محمود محمد شاكر[١]، أثناء اجتماعه بأصدقائه ومحبيه ليلة كل جمعة، منذ أكثر من عشر سنوات، حيث يمضي الهزيع الأول من الليل في البحث والمراجعة والاطلاع على أحدث ما نشر من الكتب، ومعرفة أهم ما أثير من قضايا الفكر والأدب، فرعى الله تلك الليالي، ولن أقول كما قال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

فأستاذنا أبو فهر لا يزال هو هو قوة ونشاطًا، وداره العامرة لا تزال مقصداً لطلاب العلم والفضل، وخزانة كتبه التي تزخر بالنادر النفيس من الكتب مطبوعة ومصورة يرتادها الباحثون لا من مصر وحدها بل من مختلف أقطار المعمورة، ممن يجد في علم صاحبها وكرم نفسه خير عون له على بلوغ غايته.

كان الأستاذ الطيب ومن تضم ندوته قد أحاطوا بأبي العلاء المعري، ممثلاً بينهم في «رسالة الغفران» بتحقيق بنت الشاطئ[٢]، ولكنهم لا يجدون في هذا التحقيق ما يدنيهم من شيخهم المعري. ويمكنهم من استكناه كل أفكاره، وفتح المستغلق

(١) توفي -رحمه الله - في شهر ربيع الثاني عام ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).

(٢) هي الدكتورة عائشة عبدالرحمن توفيت -رحمها الله- في شعبان ١٤١٩هـ.

من آرائه، لا يجدون ذلك دائماً فيستعينون ببعض تلاميذه أمثال الخطيب التبريزي شارح «الحماسة» وكانوا مصغين لحديثه عن ترجمة شاعر حسبت السيدة بنت الشاطئ أن المعري عناه، فوهمت وأوهمت. ولكن الزائر شغلهم أو شغلوا به، فأوسعوه ترحيباً وحسن استقبال، حتى اطمأن به المجلس، فعادوا لبعض ما هم فيه. أحسست أنا بين أولئك الإخوة خلال تلك الفترة القصيرة من الزمن أنني أتحدث إلى أناس عايشتهم زمناً طويلاً حتى زالت الكلفة بيني وبينهم، وأصبحوا من قلبي بمنزلة من القرب والأنس بهم تُسَامي منزلة أحب الناس إلي، وأقواهم صلة بي.

هذا أخ يقول: بأنه زارني مع الصديق الأستاذ الدكتور إحسان عباس، فعرفني. وهذا آخر يحدثني عن مقال نشر في مجلة «العرب» عن مخطوطات (مكتبة شيخ الإسلام) في المدينة، ويخص بالذكر نسخة من شرح السيرافي لكتاب سيبويه، وهذا يريد أن يعرف أين يقع وادي تَثْلِيث. وهكذا مضت الساعات كأنها لحظات.

يوم الثلاثاء (٣٠/١٢/١٣٩٦هـ - ٢١/١٢/١٩٧٦م) كنت أحسست بزكام أول الليل فتثاقلت في الصباح عن الخروج من الفندق، وفتحت نافذة الحجرة التي أسكنها وجلست أتصفح مجلات قدمها لي أحد الإخوان في السفارة، ولكن الضوء الضعيف - بالنسبة لبصري - لم يمكنني من الاستمرار في المطالعة، فبقيت متململاً، ولما أَطْلَلْتُ من النافذة رأيت حديقة واسعة بجوار الفندق، والأطفال يمرحون بين أشجارها، والناس بين جالس على أحد الكراسي، ونائم فوق الحشيش، وماش في الممرات، وداخل في الحديقة، وخارج منها، فتناولت كتاباً كنت قد استعرته من الأستاذ الكريم أبي الوليد، حين كرم فأطلعني على مكتبته، وترك لي اختيار ما أريد منها، فاكتفيت بكتاب «في منزل الوحي» للدكتور محمد حسين هيكل.

إن أبا الوليد -أكرمه الله- يذكرني بنبله وكرمه بأبي سليمان الشيخ محمد بن حمد الشبيلي الذي كتبت كلمة بعد زيارتي لمدينة البصرة قلت فيها ما معناه: إن البلدة التي أزورها وأنا كاره لزيارتها أو البلدة التي لا أرغب زيارتها هي البلدة التي يقيم فيها أبو

سليمان، فالرجل - والحديث عن كرمه وسخائه من فضول القول - يغدق على المرء بفضله بحيث لا يستطيع مقابلة قليل ذلك الفضل بكل ما يقدر عليه من طرق التعبير له بجزء من الشكر عن اليسير من إفضاله، فيصاب الإنسان بالخجل حيث يحس بالعجز والقصور.

في سنة ١٣٨١هـ دعت حكومة باكستان وفداً من الصحفيين من بلادنا - فأخبرني المدير العام للإذاعة والصحافة في ذلك العهد الشيخ عبدالله بلخير بأن فيصلاً -رحمه الله- أمر بأن أكون في ذلك الوفد - وقد أراد أن يبرق لسفير بلادنا حين حددنا موعد السفر، وكان الشيخ الشبيلي، فرجوته أن لا يفعل، فالوصول إلى كراتشي سيكون ليلاً قرب طلوع الفجر، ولا داعي لأن يتكلف السفير فيحضر إلى المطار في ذلك الوقت، وأنا واثق بأنه إن علم فسيحضر.

وبينما الطائرة تحلق في مطار كراتشي، قبل طلوع الفجر، والجو مقمر، إذا بي ألمح أبا سليمان داخل المطار. فقلت للإخوان: انظروا فهذا الرجل الذي طلبت عدم الإبراق إليه! لم يستقبل الوفد أحد من قبل وزارة الإعلام الباكستانية التي دعته، لوصوله آخر الليل، ولم يبرق مدير الإذاعة والصحافة للنشر، ولكن الشيخ الشبيلي قل أن يقدم أحد من أبناء البلاد البلدة التي هو فيها دون أن يعلم به، بل قد يعلم بوقت قدومه قبل أن يصل، ولا تسل عما فعل من حسن الاستقبال، وإقامة الحفلات العديدة إكرامًا للوفد، مما أقصر الحديث منه على الإشارة إلى مناسبة ذكره.

بعد تناول طعام الغداء ظهر اليوم الذي سافر الوفد في مسائه - في بيت أبي سليمان الشبيلي قام بنا إلى المكتبة للجلوس لشرب القهوة، فتناول كل واحد من الأخوين كتابًا يطالعه والشيخ يسأله: هل قرأت هذا الكتاب؟ خذه معك تسلٍّ بقراءته في الطائرة - أما أنا فقد اكتفيت بأن نظرت إلى كتاب يقع في عدد من المجلدات تبلغ أربعة عشر، وضعت في أحد جوانب المكتبة. فسألت الشيخ: أي كتاب هذا؟ قال: «تفسير القرآن الكريم» لابن جرير، الطبعة الجديدة تحقيق أحمد ومحمود شاكر، فقلت: أنا لم أكن أعرف أنه صدر منه سوى التسعة الأجزاء الأول. فقال: عندي نسخة

أخرى وهذه سأبعثها إلى الفندق. فأخبرته أنني لا أحتاج إليها لأنني سأعود عن طريق مصر وأكمل نسختي، ولكنني لم أشعر بعد عودتي من مصر إلى الرياض إلاَّ والشيخ محمد بن صالح وكيل وزارة الدفاع في ذلك العهد - يكلمني بالهاتف قائلاً: أرسل معي الشيخ محمد الحمد الشبيلي لك صندوقًا سأبعثه إليك الآن. ولما فتحت ذلك الصندوق إذا هو يحوي المجلدات التي رأيتها من «تفسير ابن جرير»:

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

تأبطت الكتاب الذي اخترته من مكتبة أبي الوليد، ودخلت في الحديقة من باب صغير قريب من باب الفندق، ولم أشعر بأنها جزء من حديقة الحيوان إلا بعد أن أبصرت -عند مدخلها حينما أردت الخروج- رجلاً أمامه أوراق يناول منها بعض من يدخل الحديقة، فلما استوضحت منه عن الغاية من هذه الأوراق قال: ها هنا - وأشار إلى مبنى عند مدخل الحديقة - دائرة حكومية، وهذه الأوراق تحوي إذنًا بالدخول على رئيس هذه الدائرة، بعد معرفة الغاية من الزيارة، ومعرفة الزائر. فقلت: ظننتها حديقة عامة. فقال: نعم هي عامة، وهي حديقة الحيوان، وباب الدخول إليها غير هذا، ولكن لا بأس إذا أردت التجول فيها فارجع، وكنت قد ارتحت بالجلوس في الظلال على أحد الكراسي، وسئمت من المطالعة، وأحسست أنني بحاجة إلى تناول دواء يخفف عني حدة الزكام، فذهبت إلى السوق حيث أخذت الدواء من أقرب صيدلية.

والصيدليات في الخرطوم كثيرة، وقل أن تخلو صيدلية من صيدلي مجاز في مهنته، وقد يصف لك أحسن الأدوية لمعالجة الأمراض اليسيرة كالسعال والزكام، وتنظيف الجروح، وأثمان الأدوية -وإن كانت محددة- إلا أنها مرتفعة بالنسبة لما هي عليه في المملكة.

ومعروف أن أكثر ما يرد إلى السودان من البلاد الخارجية يتكلف من أجور النقل أكثر من البلاد التي لها موانئ قريبة من تلك البلاد. ويرد إلى السودان كثير من البضائع في المملكة، حتى الذهب، فقد جلست عند أحد الصاغة، ولما أبديت

استحساني لدقة صناعة بعض الحلي قال لي: هذه مصنوعة في جدة، ونحن هنا نجلب كثيراً من الحلي منها.

في بيت أبي فهيد: ينسب إلى أحد القدماء: كن معوانًا على المروؤة والكرم، فإذا رغب أحد أن يكرمك فكن عوناً له بالاستجابة لدعوته لتنمي هذا الخلق النبيل. ومع أنني لم أكن من المتصفين دائمًا بهذه الصفة، إلا أن اسلوب الأخ الكريم الأستاذ محمد الفهيد في دعوته حملني - بكل سهولة وسرعة - على أن أكون منهم. وحسنًا فعلت. لقد غمرني الشعور ساعة دخلت البيت بأنني أحد من ألفه وعاش فيه، فلا احتشام ولا تلكف، إنني بين أبنائي وإخواني.

لقد عبرت - في كلمة لي نشرت في «العرب» -عن مبلغ سروري حينما زرت الجزائر، فعلمت أن موظفي التعليم وغيرهم من أبناء البلاد المقيمين هناك يمضون العطلة الأسبوعية مجتمعين، حيث يخرجون إلى غابة معروفة هناك بأهلهم وأولادهم، وقد هيأوا جميع أمورهم، فيبقون يومًا كاملاً تتولى النساء العمل بالتناوب بينهن، ويمضي الأولاد وقتهم فيما ألفوه من أنواع الرياضة، والآباء في مطالعة الصحف أو الكتب، أو التسلي ببعض الأعمال، وبمثل هذا يزداد التعارف، وتقوى صلات الإخاء والمحبة، ويسود التعاون بين الجميع، ولا أدري هل لا يزال هذا الأمر على ما هو عليه الآن بالنسبة للإخوة في الجزائر، وأرجو أن يستمر، ولم أتمكن حينما زرت الجزائر منذ بضع سنوات أثناء انعقاد (مؤتمر الأدباء العرب العاشر) من الاتصال بأحد من الإخوان فقد اختير للوفود أماكن للسكن وللاجتماع في ضواحي مدينة الجزائر، بعيدة عنها بعشرات الأميال.

حين كاد أن يتملئ بيت أبي فهيد بالإخوان وليس بينهم غريب ذكرت حالة الإخوة في الجزائر، فقال لي أبو فهيد: وهكذا نحن في الخرطوم، فكلنا نجتمع يوم العطلة رجالاً ونساءاً وأولاداً فنذهب إلى (النادي السوري) وهو ناد على حالة تامة من حسن التنظيم، وقد هيئت فيه وسائل الراحة والتسلية، وهو خاص بالمشتركين،

ولهذا فنحن في هذه البلاد أسرة واحدة، على أقوى ما يكون من التواصل والمحبة، من أبي الوليد إلى أصغر طفل من أطفالنا.

جرى ذكر رجل منحرف الفكر والعقيدة، يقوم بنشر آراء حول القرآن الكريم، وحول أصول الدين الإسلامي عامة، يدعى محمود طه، وأن في العامة من انخدع بأفكاره، مع أن العلماءَ قد أفتوا بكفره، ولكن انتشار آرائه يزداد قوة، حيث يجد الوسائل التي تروج تلك الأفكار في هذه البلاد، ومن أقواها الجهل، ثم قيام أعداء الإسلام بالسعي للنيل منه بمختلف الطرق، ومنها مؤازرة مثل ذلك الداعية، مع خلو الجو ممن يتصدى لإيضاح حقيقة الإسلام ونشر تعاليمه بأساليب تتلاءم مع حالة الناس، وروح العصر.

وذكر أبو الوليد: أنه حينما كان يعمل سفيراً لبلادنا لدى إحدى الحكومات الأفريقية، في مدينة نسيت اسمها، وكان في هذه المدينة بعض المنتسبين إلى العلم ممن بعث لنشر الدعوة، قال أبو الوليد: فلم أشعر يومًا من الأيام إلا بأحدهم يخبرني بوقوع خلاف بين هؤلاء الدعاة وبين أناس ممن يقومون ببعض الوظائف الدينية من أهل هذه المدينة، وممن ينظر إليه أهلها نظرة إجلال وتقدير.

ولم هذا الخلاف وما سببه؟ إن أولئك الذي نيطت بهم وظيفة الدعوة والإرشاد، أمروا أحد الأئمة - وهو ممن ينتسب إلى الإمام مالك - بقبض اليدين وعدم إسدالهما في الصلاة، فأبى واستعان بإخوانه من أهل البلدة، فقوي الخلاف واشتد، والسبب جهل الدعاة بوسائل الدعوة، وتعصب الآخرين لما يعتقدونه حقًّا.

وخلص أبو الوليد إلى القول بأن الداعية لا يكفي أن يكون عالمًا صالحًا، بل يجب أن يكون ذا معرفة تامة بالأساليب التي تُهَيِّئُ له قبول ما يدعو إليه مع معرفته بأحوال الناس، وبداءته بالأهم قبل المهم، والتساهل في الأمور اليسيرة حتى يتمكن من إزالة ما هو أكبر منها. وتشعبت الأحاديث وتنوعت فهذا الأخ سليمان سلامة مدير مكتب الخطوط السعودية يتحدث عن الأدباء وأساليب الأداء، كالأساتذة أبي تراب الظاهري وأحمد

محمد جمال، مثنيًا، بل مبالغًا في الثناء، ولا ينسى أن يضيف إلى الأدباء الأستاذ السيد إسحاق عزوز، وحينما علقت على هذا قائلاً: لقد عرفت السيد، رجل تعليم وتربية لا أديبًا ولا كاتبًا ذا أسلوب متميز. أجاب الأخ سليمان: إنه لا ينشر ما يكتب.

وأيد أحد الإخوة هذا الرأي مضيفًا بأنه -أي السيد- منذ أن وقعت له حادثة بالسيارة في طريق المدينة أصبح في شبه عزلة، فتمنى له الجميع الشفاء.

وبعد أن تناول كل واحد من المدعوين نصيبه من طعام (السليق) اللذيذ وما معه كان الانصراف بعد أن ذهب شطر الليل.

رعاك الله يا أبا فهيد فقد جعلت تلك الليلة لا تنسى بلطفك، وبدعوتك جميع الأحبة - إنها ليلة الأربعاء، أولى ليالي السنة الجديدة سنة ١٣٩٧-[١].

يوم الأربعاء : - أول العام الهجري ١٣٩٧هـ - وهم في هذه البلاد يحتفلون به، فقد زينوا شوارع المدينة، بتقوية إنارتها بتعليق ثريات الكهرباء فيها وفي مداخل قصور الحكومة، ورفعوا الأعلام فوقها.

وقررت وزارة الشؤون الدينية الاحتفال في هذا اليوم بإقامة مسابقة بين حفظة القرآن الكريم، وقد سارت على هذا منذ ثلاث سنوات، فكان احتفالها هذا اليوم هو (المهرجان الرابع للقرآن الكريم).

كان الأستاذ عون الشريف قاسم - وزير الشؤون الدينية- دعاني لحضور ذلك الاحتفال، وأخبر أبا الوليد بذلك فحبذ الاستجابة لتلك الدعوة.

والأستاذ عون الشريف يحس من يراه أول مره بانجذاب روحي نحوه، كأنه يعرفه معرفة قديمة، فهو طيب النفس مهذب الخلق، ذو روح مرحة، وقد تخرج في (جامعة الخرطوم) سنة ١٩٥٧م من كلية الآداب، ونال درجة (الدكتوراه) في الفلسفة من جامعة (أدنبرة) بعد نيل إجازتي (الماجستير) و(البكالوريوس) في الآداب من

---

(١) لقد توفي -رحمه الله- بعد سنوات قليلة من هذا الحديث.

(جامعة لندن) وحاضر في هذه الجامعة في عامي ١٩٦٠و١٩٦١م، وتولى إدارة شعبة الترجمة في كلية الآداب في (جامعة الخرطوم) وقام برئاسة تحرير مجلة « الدراسات السودانية » في تلك الجامعة. وله دراسات وأبحاث ومؤلفات باللغتين العربية والانجليزية ومنها باللغة العربية: « دبلوماسية محمد ﷺ » و « في معركة التراث » و« الدين في حياتنا » و« التراث الروحي والبعث القومي » و« دراسات في العامية » و« موسوعة الثقافة الإسلامية » و« قاموس اللهجة العامية في السودان » وهذا من أهم مؤلفاته - في رأيي- يقع في مجلد تربو صفحاته على ٨٥٠ - و « من قضايا البعث الحضاري » و« إسلاميات » و« شعراء البصرة في العصر الأموي » وقد أتحفني بمجموعة هذه الكتب.

لم أعجب لإسناد منصب الوزارة لهذا العالم الفاضل في هذه البلاد التي لم تبلغ من التحضر والتقدم ما بلغته البلاد المتحضرة التي تحل علماءها أرفع المنازل، ولكن الذي يدعو إلى العجب أن يتصدى عالم من مدينة الخرطوم لتأليف كتاب عن « شعراء البصرة في العصر الأموي » « يُعَدُّ من أوفى الدراسات وأعمقها، ألا يجد هذا الباحث في أحوال مدينته وبلاده ما يشبع نهمه في البحث، ويشغله عن عبور المسافات الشاسعة إلى مدينة البصرة قبل مئات السنين؟!

إن الصلة الروحية لا تعرف الحدود والقيود، وما فائدة العلم إذا لم يُقَوِّ تلك الصلة، ويزيل أسباب التباعد والفرقة بين أبناء الأمة مهما تباعدت ديارهم، وهذا ما أُحِسُّ به حينما اجتمع بأحد مثقفي هذه البلاد.

اشتد عليَّ الزكام صباح هذا اليوم، فلم أخرج من الفندق، ووجدت في مطالعة بعض مؤلفات الأستاذ عون الشريف ما دفعني إلى الإخلاد للراحة، حتى أتى إليَّ الأخ الكريم الدكتور عثمان الفريح لكي نذهب لتناول الغداء في بيت الزميل الفاضل الدكتور عبدالله الطيب.

وَفَى الدكتور الطيب بما وعد، والوفاء من طباعه الأصيلة، فلم يكن متكلفًا،

فالمدعون أكثرهم -إن لم يكن كلهم - على مشرب واحد، روحًا وفكرًا.

فهذا الأستاذ عزالدين الأمين، رئيس شعبة اللغة العربية بجامعة الخرطوم، وهذا الدكتور محمد عبده غانم أستاذ في تلك الجامعة وهو من اليمن، وهذا الدكتور محمد علي الريح هاشم من أساتذة قسم اللغة أيضًا، وهذا السيد عبدالرحيم مكاوي صاحب الدار السودانية للنشر.

والطعام صنعته يَدَا صَنَاعٍ ماهرة هي زوجة أستاذنا الدكتور الطيب الفاضلة، التي تُعْنَى بدراسة التراث الشعبي في السودان، وتقوم برسم لوحات فنية عنه، أفضلت عليَّ بأربع منها، وهي إنجليزية الأصل إلا أنها تتكلم العربية.

قدم لي الدكتور الطيب أحدث ما صدر له من الدواوين، فرأيت وصف الحسان استأثر بقسم كبير منه. فقلت له: ألا تخاف من ربة البيت، حين تقول كيت وكيت؟! فقهقه ضاحكًا. وقال: لا! وإن قرأت هذا!.

أسرعت العودة إلى الفندق فقد اشتد بي الزكام فضايقني بعد أن تعرضت للهواء، وبعد أن دسست جسمي بين الفراش والغطاء، وأحسست بقليل من الراحة أزعجني أزيز الهاتف، فأبعدت السماعة عن مكانها، ولم أخاطب المتكلم، ثم أخذني النوم حتى كانت الساعة السادسة فإذا بأبي الوليد يأتي إلي لكي نذهب إلى حفل (مهرجان القرآن الكريم) الذي سيحضرهُ الرئيس النميري، فاعتذرت وبقيت في الفندق حتى صباح الخميس.

يوم الخميس (٢محرم سنة ١٣٩٧هـ) كنت عزمت على السفر صباح يوم الجمعة، فكان علي أن أذهب إلى (السفارة) لأودع أبا الوليد، ولأكرر له الشكر على كرم الضيافة، بل على ما غمرني به من لطفه، ولأسلم على من هناك من الإخوان.

وجدت الأخ الدكتور عثمان الفريح هناك، وكان مر بالفندق بعد أن بكرت في الخروج منه، ولم يعلم بأنني قد عزمت على السفر، وكنت أُسَوِّفُ وأُعلل حين

يبدي لي رغبته بأن يدعو بعض الإخوان لنجتمع في بيته، ففاجأته بعدم استطاعتي الاستجابة لدعوته الكريمة لانشغالي في هذا اليوم، وحاجتي إلى النوم مبكرًا ليلاً، لسعال ألم بي مع اشتداد الزكام، وينبغي أن أستيقظ مبكرًا حتى أتمكن من الوصول إلى المطار الساعة السادسة صباحًا.

في مكتبة جامعة الخرطوم: بعد أن ودعت الإخوة في السفارة ذهبت مع الدكتور الفريح لزيارة مكتبة جامعة الخرطوم، فوجدنا مديرها وحده في أحد أبهاء المطالعة، إذا المكتبة مغلقة في هذا اليوم، فكان استقبالاً حسنًا، وحديثًا حول الكتب والمكتبات، ومدير المكتبة هو الأستاذ عبدالرحمن النصري، قال للدكتور الفريح: أعرف فلانا، وقد اجتمعت به في الرياض، حين قدم من بيروت لحضور (المؤتمر الببليوجرافي للكتاب العربي).

يقول الأستاذ النصري: المخطوطات في المكتبة قليلة، وجلها من مكتبة الدكتور الماحي التيجاني التي أهداها إلى المكتبة وهي نحو ألفي مخطوط، لم تُفَهْرَسْ بعد، وجلها مما نسخ حديثًا.

وكان الدكتور التيجاني من أساتذة جامعة الخرطوم، وهو طبيب نفساني، ومن مؤلفاته المطبوعة «المدخل إلى تاريخ علم الطب عند العرب» وكان جمَّاعًا للكتب، وقد أوصى بضم مكتبته إلى هذه المكتبة، كما ضمت إليها حديثًا مكتبة الشنقيطي أحد علماء هذه البلاد.

كان الوقت أضيق من أن نتمكن من مطالعة شيء من الكتب. وبعد شكر الأستاذ المدير كان التعريج على السوق ثم الذهاب إلى الفندق.

والمواصلات في الخرطوم متسيرة، فالحافلات تسير في جميع شوارع المدينة، وتتصل بما بقربها من القرى، وسيارات الأجرة لم أر أكثر منها في أي بلاد أخرى، والأجرة بحسب الاتفاق مع سائق السيارة، والجشع هو هو في النفوس في كل بلاد،

فأولئك الذين تحدد الأجرة في سياراتهم بواسطة العدادات لا يكتفون بها في أرقى بلاد العالم بل يطلبون - تصريحًا أو تلميحًا - الزيادة، ومن تحدد أجرة سياراتهم قوانين بلادهم يتذرعون بأوهى الأسباب لعدم التقيد بها.

وفي المطار كان تفتيش الأمتعة، ولكنه كان سهلاً، وتولت تفتيش حقائب الأمتعة فتاة متلفعة بمرطها من هامتها حتى قدمها، خافتة الصوت، مهذبة الكلام.

والفتاة السودانية تشارك الفتى في كثير من الأعمال وهي تلبس فوق ملابس المرأة المعتادة وشاحًا ضافيًا، وغالبًا ما كان شفافًا، وقد يبدو من جسمها ما يبدو من المرأة الهندية التي تلبس (الساري) أو العراقية التي تلبس العباءة، والمرأة هي المرأة في كل زمان ومكان.

لا أبالغ إذا قلت بأنني مدة إقامتي في هذه البلاد الكريمة، لم أحس بأي أمر أعده غريبًا، فالأخلاق والعادات والمظاهر واللغة هي ما اعتدت سماعه وألفته في المملكة، ولا غرابة في ذلك، فإخواننا هنا يمتون بصلات قوية إلى أصول عربية، وإن كان هذا القطر كغيره من الأقطار الأخرى، أو كما قال الأستاذ الطيب صالح[1]: نحن أصلاً هجناء، عرب على نوبة على زنج، والسودان من المجتمعات التي فيها خليط سلمي بين الأعراق، وحتى العرب من أين أتوا والأفارقة من أين أتوا، كل هؤلاء في النهاية يعودون إلى أصل واحد، ومسألة الأعراق فكرة أوربية. كذا قال الأستاذ الطيب، وهو يتفق مع العقيدة الدينية الإسلامية، والعقيدة والأهداف والغايات توحد بين مختلف الأقطار، التي تعتنق فكرة دينية واحدة هي الإسلام، وترتبط بينها بأقوى الروابط وهي اللغة العربية، وهي في هذه البلاد كما وصفها الأستاذ الطيب بقوله: لم نتعلمها من أحد إنها لغتنا، ولنا علماء كبار فيها.

إلى القاهرة: وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الجمعة (٣/١/١٣٩٧هـ) وأنا أتناول حقيبتي للخروج من الفندق، إذا بالأخ الأستاذ عثمان الفريح قد أتى

---

(١) مجلة «الوسط» عدد ٣٤٥ في ١٦/٥/١٤١٩هـ (٧/٩/١٩٩٨م).

ليوصلني بسيارته إلى المطار، ولم يُجْدِ معه إلحاحي عليه بأن لا يأتي إليَّ في ذلك الوقت المبكر. وقد أدرك أن السعال قد اشتد بي، فاقترح أن نمر بإحدى الصيدليات لنأخذ منها دواء يخففه، ثم وصلنا المطار - وهو قريب من البلد - قبل الموعد المحدد، وكان الساعة السادسة، وإقلاع الطائرة الساعة الثامنة فودعت الأخ الكريم وشكرته، وهذا جهد المقل.

كان الجو صحواً، والريح ساكنة، وطيران الطائرة رَهْواً لا اهتزاز معه، وقائدها يحدث الركاب، فيخبرهم - بواسطة مكبر الصوت - ببعض الأمكنة التي تمر الطائرة فوقها.

ومع أن الوصول إلى مطار القاهرة كان في الساعة العاشرة والربع صباحًا إلا أنني لم أصل إلى منزلي في شارع مراحق بن عامر -في الجيزة- إلا الساعة الثانية بعد الظهر، ولكنها على كل حال كانت رحلة مريحة، أشق ما قاسيته خلالها عناد سائق السيارة التي ركبتها من المطار إلى منزلي حيث لم يكتف بمضاعفة الأجرة، فأمطرني بوابل من الشتائم، وصب بعضها على غيري بدون جناية أو ذنب، ولكنني عملت بقول الأحنف بن قيس: (طَأْطِئْ لها رأسك تَمُرَّ) وهكذا كان، والله المستعان.

في بلاد الشام

والمقصود بكلمة (الشام) هنا المعنى اللغوي الجغرافي المدون عند العرب، كما هو محدَّد في المؤلفات اللغوية والجغرافية من حدود الحجاز الشمالية، إلى أقصى الشمال حيث تنتهي حدود سورية، فهو يشمل ما يعرف الآن بفلسطين والأردن ولبنان وسورية التي كان تقسيمها من آثار الاستعمار الأجنبي.

لقد زرت هذه البلاد عدة زيارات ولكنني سأكتفي هنا بعرض لمحات موجزة عن بعضها ومنه ما سبق أن نشرته في مجلة «العرب».

كان أول ما زرت من هذه الأقطار هو بلاد سورية دمشق وما حولها، وبعدها تكررت زيارتي إلى لبنان، ولكوني أقمت في هذه البلاد الأخيرة فترة من الزمن رأيت التحدث عنها أولاً.

لبنان

من أُولَى رحلاتي إلى هذه البلاد –وليست الأُولَى– بل سبقتها غيرها، أذكر أنني توجهت إليها يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ، وكنت بعد أن عزمت عن الرحلة أتيت مطار الرياض لمعرفة وقت قيام الطائرة إلى مدينة بيروت، ولتسجيل اسمي مع المسافرين، فقال لي الموظف بعد كتابة اسمي: تحضر هنا الساعة الواحدة من صباح غد، فحضرت في الوقت المحدد، ولكنني علمت من ذلك الموظف أن إجراء معاملة السفر بعد نصف ساعة، فمضى النصف ومعه ثلاثة أضعاف من الوقت، بدون أن يعتريني السأم والملل من الانتظار، فقد كان معي في المطار نخبة طيبة من الإخوان الذين حضر بعضهم لوداعي، وبعضهم جاء ليسافر إلى جهة أخرى، فاتخذنا من مقهى المطار ندوة أدبية، تناولنا خلالها من أحاديث الأدب ما جعل الوقت يمضي دون أن نشعر بطوله، فالأديب الشاعر عبدالله بن عبدالعزيز بن ادريس – المفتش في إدارة المعاهد الدينية – يفيض علينا من أحاديثه الشيقة عن بعض المؤلفات التاريخية، أو

بمعنى أوضح – عن تاريخ نجد، لابن لعبون وعن موضوع هذا الكتاب، وعن النسخة الخطية التي اطلع عليها منه، وغير ذلك من الأحاديث الأدبية، والأديب منصور الدخيل – المفتش في تلك المعاهد[1] – يحدثنا عن (مكتبة المجمعة) التي تم بناء دارها بناء جيداً، وعن آمال أدباء المجمعة وطلاب العلم فيها وشبانها في جمع الكتب لتلك المكتبة، وترتيبها، وعن المخطوطات والكتب التي تحويها مكتبة الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري –رحمه الله– التي وقفها على طلبة العلم، والتي ستتخذ نواة طيبة لتلك المكتبة[2]، ويتخلل هذا أحاديث منوعة عن الكتب التي ألفت في تاريخ نجد، وعن الأدب والأدباء والصحافة، وعن أسباب احتجاب «اليمامة» في الأسابيع الماضية، والسيد عبدالرحمن السيد – محاسب شركة الطباعة والنشر الوطنية – يلقي دلوه في الدلاء ببعض التعليقات التي تأتي – على حد تعبير أهل نجد (صادرة ساندة) إلا أنها مع ذلك لا تخلو من نكتة تروح النفس، وتبعث الضحك. وهكذا مضى الوقت سريعًا فبلغت الساعة الرابعة منتهاها، فبدأ الاستعداد للسفر بنداء وجه إلى المسافرين إلى بيروت، دون أن أشعر –ولا أدري عن غيري– بشيء من الملل، لولا أنني احتجت إلى مكان لأتوضأ فيه، فذهبت يمنة ويسرة وجست خلال المطار من جميع نواحيه، ولم أتورع عن محاولة فتح الأبواب التي رأيتها مغلقة، ظنًّا مني أن بينها المكان المعد للوضوء، ولكنني لم أجده، ولما اشتدت بي الحاجة أفضيت إلى أحد الإخوان بما أريد، وقلت له: الظاهر أن لابد من الانتظار ساعة أو أكثر حتى نذهب إلى الطائرة وهناك مكان للوضوء. فقال: وهل انت تبحث عن هذا؟ تعال أرشدك إليه فذهبت معه إلى أحد الأبواب التي حاولت فتحها فوجدتها مغلقة. وهكذا اضطررت إلى الانتظار حتى أصل إلى الطائرة، بعد أن علمت بأن ذلك المكان مخصص لموظفي المطار.

---

(١) توفي –رحمه الله–.

(٢) مع الأسف لم يتم هذا وبقيت عند الشيخ حتى توفي، ثم عند ابنه عبدالرحمن، الذي توفي ١٤١٩هـ، وهي الآن عند حفيد الشيخ المهندس الأستاذ مساعد بن عبدالرحمن بن الشيخ عبدالله – عضو مجلس الشورى.

وفي الساعة الخامسة وخمس دقائق حلقت بنا الطائرة في سماء الرياض، متجهة إلى الظهران، وكنت بعد أن أخذت مقعدي منها سمعت مناديًا يدعوني باسمي، فالتفت إلى مصدر الصوت فرأيت العلامة الجليل الدكتور عبدالوهاب عزام مدير جامعة الملك سعود، يدعوني إلى الجلوس بجواره، فلما وصلت إليه وجدت فوق المقعد المجاور له متاعًا من أمتعة السفر، فقلت: يظهر أن هذا المقعد محجوز فقال: لا أنا وضعت هذا فوقه لكيلا يجلس فيه إلا من أرغب جلوسه جواري، وقد رأيتك فرغبتُ أن نتجاور. فأبديت ارتياحي وسروري من هذا التجاور وشكرته على لطفه وجميل فضله. ثم أخذنا أطراف الأحاديث بيننا عن أسماء المواضع التي نطير فوقها، وعن قصور المعجمات اللغوية والجغرافية عن استيعاب كثير من المسميات، وكان مما أوردته في هذا الباب (الظهران) الموضع الذي يستخرج منه الزيت، هذا اسمه القديم، ولكن أصحاب معجمات الأمكنة ومن أشهرهم ياقوت الحموي صاحب «معجم البلدان» -لم يذكروا هذا الموضع بعينه، ولكنهم ذكروا موضعًا آخر، هو جبل في غرب القصيم مجاور لهجرة (الفوّارة) أما هذا الموضع الواقع في شرقي البلاد فقد ورد ذكره في شعر ابن مقرب الأحسائي - وهو من شعراء القرن السابع الهجري توفي على رأس الثلاثين والست مئة على وجه التقريب - قال يصف استبداد رؤساء البدو واستيلاءهم على تلك النواحي:

أخذوا (الحساء) من الكثيب إلى محاد ... يث (العيون) إلى نقا (حلوان)

و(الخط) من (صفواء) حازوها فما ... أبقوا بها شبرا إلى (الظهران)

ومنازل العظماء منكم أصبحت ... دورا لهم تكرى بلا أثمان

واللهِ لو نَهْرٌ جرَى بدمائكم ... وشربته غيظا لما أرواني!!

وذكرت كلمة (هتيم) الاسم الذي يطلق على قبيلة وضيعة. والكتب القديمة من قواميس اللغة وكتب الأنساب -التي بين ايدينا- لا تمدنا بما نحتاج إلى معرفته

عن هذه القبيلة، بل لا تذكر حتى اسمها، وإن ذكرت قبيلة تدعى بهذا الاسم من بني ظفر من الأوس، مع أن شعراء القرن السابع الهجري كالمِشَدّ[1]، وابن مقرب ذكراها، ومن شعر ابن مقرب :

فان (هتيما) لوحت مال طيٍّءٍ (هتيمٌ) فلا يغررك طيف خيال

سترجع فيما عودت من حميرها وتحريق إشنان، وخصف نعال

وهكذا انجرت بنا الأحاديث إلى ذكر مشاهدات الدكتور عبدالوهاب في (الكويت) وذهابه إلى (كاظمة) وكتاباته عن مشاهداته في بلاد العرب، واقتراحه على (مجمع اللغة العربية) بمصر بأن يكون من بين أعضائه العاملين علماء من جميع أقطار البلاد العربية، للمشاركة في وضع المعجمات اللغوية العامة، وتحدثنا عن جمع الشاعر لموضعين في شعره مع تباعدها . كقول البُوصِيري :

أم هبت الريح من تلقاء (كاظمة) وأومض البرق في الظلماء من (إضم)

فكاظمة في شرق بلاد العرب، و(إضم) بقرب المدينة، في غربها وبين الموضعين مسافات طويلة. وكان مما عللت به هذا أن الشعراء المحدثين كانوا يقلدون القدامى في ذكر الأطلال فيرون هؤلاء يذكرون في أشعارهم مواضع يتشوقون إليها، وهم يعرفونها، فَيُحاكِيهم المتأخرون من الشعراء في إظهار لواعج الشوق والحنين إلى تلك المواضع مع جهلهم بمواقعها، فوقع منهم الخلط بين المواضع المتباعدة التي لا يعرفون منها الا اسماءها .

ولقد قطعنا المسافة بين الرياض وبين الظهران في ساعة وعشر دقائق، وكأن هذا الزمن عندي ربع الساعة، بما أضفاه علامتنا الكبير الدكتور عبدالوهاب عزام على

---

(١) هو علي بن عمر بن قزل (٦٠٢ / ٦٥٦هـ) تركستاني عاش في مصر فترة لأنه ولد فيه، وهو شاعر من أمراء التركمان، وكان مَشَدًّا للديوان في دمشق، والمشد من الوظائف التي يتولاها بعض كتبة الديوان المقربين من الوزير، وله ترجمة في كثير من المؤلفات، ويقوم الأستاذ عباس هاني الجراخ بتحقيق ديوانه، إعداداً لنشره في بغداد، أما ابن المقرب فقد ألفت فيه مؤلفات منها «علي بن المقرب العيوني حياته وشعره» تأليف الدكتور علي بن عبدالعزيز الخضيري وهو مطبوع.

تلك الأحاديث العذبة من أدبه الجم الغزير، وملحه الطريفة، وآرائه السديدة الصائبة. وبما أفاضه من بحر علمه وتحقيقه.

بلغنا الظهران الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة، فنزل الدكتور عبدالوهاب، لكي يقيم فيه ليلة ثم يواصل سفره إلى (باكستان) لحضور (الندوة الإسلامية) التي ستقام في (جامعة لاهور) في هذا الأسبوع، ونزلت لتوديعه، وللاستراحه في المقهى حتى ينزل ركاب الظهران، ويركب المسافرون إلى الشام، فلما خرجت من الطائرة شاهدت الصديق الأخ الأستاذ الشيخ عبدالعزيز المنصور التركي قادمًا ليستقبل الدكتور عبدالوهاب ووجه يطفح بالبشر والابتسام، مقبلاً إليَّ هاشًّا باشًّا مرحبًا، ويدعوني إلى الركوب في سيارته، فأخبرته بأنني سأواصل السفر إلى الشام، ولا استطيع الذهاب معه خوفًا من قيام الطائرة قبل عودتي. فذهب الدكتور إلى فندق المطار.

وكانت مفاجأة سارة حينما دخل عليَّ في مكتب المطار الأخ الأستاذ أحمد محمد جمال -أحد أعضاء مجلس الشورى وأحد صاحبي جريدة «حراء» فجلست قليلاً معه، وتحدثنا حديثًا قصيراً علمت منه أن (المياه عادت إلى مجاريها) بالنسبة إلى عمله في الجريدة، وأنه مسافر لحضور (الندوة الإسلامية) في (لاهور) وفي هذه الأثناء دخل علينا الأستاذ عبدالعزيز التركي، وكنا بحاجة إلى من يرشد الأستاذ أحمد إلى الفندق ويحمل معه متاعه إليه، فكان الأستاذ أبو خالد السباق إلى ذلك، حياه الله وبياه من سباق إلى الفضل، وحفي بَرٍّ بالإخوان.

يلاحظ الإنسان في هذا المطار أن أكثر اللافتات قد كتبت باللغة الانجليزية فالمقهى قد كتب على مدخله CAFE وأسماء شركات الطيران جميعها، حتى وكالة الخطوط العربية السعودية التي يقوم بها محل القصيبي، قد كتبت اللافتات الموضوعة أمام المراجعين بتلك اللغة، ولا أثر للغة العربية فيها. ولا يشك أحد في أن أبا خليفة معالي الشيخ عبدالرحمن القصيبي يبذل كل وسعه في سبيل إعزاز لغته وإحلالها المحل السامي بين لغات العالم، فإذا رجونا منه أن يعير الأمر لفتةً

خاصة من لفتاته الكريمة، فإننا نعلق الأمل على خير من يرجى منه تحقيقه بعد الله سبحانه. ولن نضع هذا الأمر في غير موضعه إذا ما رجونا المشرفين على هذا المطار، ومامنهم إلا العربي القح الغيور على لغته، المحافظ على صيانتها، من سمو وزير الدفاع والطيران فمن دونه من موظفي الطيران، إذا ما رجوناهم اتخاذ كل وسيلة تحول دون الاستهانة باللغة الرسمية للدولة، بل اللغة الكريمة التي نزل بها القرآن الكريم، فأصبحت المحافظة على صيانتها من أولى ما يجب أن يعنى به المسلمين.

نزل من ركاب الطائرة المسافرون إلى الظهران، ونزل الآخرون للاستراحة، ريثما تأخذ الطائرة أهبتها وحاجتها من الوقود، ويجري تسجيل الجوازات في المطار، وتنتهي الأمور المتعلقة بالمسافرين من الظهران عليها. وقد مضى من الوقت خلال ذلك قرابة ساعتين، وفي الساعة السابعة والربع، استقلت بركابها الذين يبلغون العشرين، وكانوا قبل وصول الظهران يربون على الستين، وكانت من ذوات أربع المحركات، وكان الهواء رهواً، والجو صافيًا من الغيوم، وهذا ما جعل أكثر الركاب يخلدون إلى الهدوء في مقاعدهم ويستسلم بعضهم للنوم الذي لم يوقظهم منه إلا مضيف الطائرة يقدم لكل واحد منهم طعام الغداء.

سارت الطائرة محاذية للساحل الغربي من البحر ما يقرب من ساعتين، ثم انحرفت إلى اليسار، متجهة صوب الشمال الغربي، مسرعة في طيرانها، مترنحة قليلاً حينما تحاذي قزع السحاب المتفرقة، لا يبصر المسافر تحته سوى أرض جرداء، وخط أسود يمتد مع بصر الناظر طول الطريق، منذ أن يخلف البحر وراءه حتى يصل إلى أطراف الشام ذلك هو طريق السيارات المحاذي لخط الأنابيب.

وفي الساعة العاشرة شاهدنا على ذلك الخط بلدة قد انتشرت بيوتها في سهل فسيح من الأرض، فسألنا المضيف عنها فقال: إنها (عرعر). وبعد ساعة شاهدنا بلدة أخرى، بعد أن صرنا لا نبصر طريق السيارات، ولما سألناه عن اسمها قال: إنها

بلدة في الشام، ولا يعرف اسمها، ولكن المسافة بينها وبين دمشق لا تستغرق أكثر من ساعة قطعنا الصحراء التي لا يقف دون امتداد البصر فيها حائل، فلا جبال ولا أشجار فيها، ولا غير ذلك مما يستلفت النظر، إذا ما استثنينا بعض الأكام المرتفعة أو مجاري الأودية، ومنخفضات الأرض التي تجتمع فيها السيول، وقت نزول الغيث، ولقد كان نصيب هذه المسافات الشاسعة التي قطعناها من الظهران حتى قاربنا حدود الشام من المطر ضعيفا. في مرأى العين، حيث تبدو غبراء مجدية قاحلة.

فوق المروج الخضر: بعد أن خلفنا البلدة التي قيل لنا: إنها أول قرى الشام شاهدنا الأرض تحتنا قد تغيرت، فمن حرات تَلَفَّع أديمها بالسواد الحالك، إلى جبال تتخللها أودية ضيقة المجاري، إلى فجوات من الأرض وسهول ممتدة مخضرة، قد انتشرت فيها القرى، وظهرت آثار الزراعة والحرث، إلى منبسط من الأرض فسيح يمتد امتداد البصر، قد تجلبب بجلباب أخضر من الزروع والأشجار، قد انتشرت فوقه القرى والمساكن، التي تلقى أشعة شمس الأصيل على مبانيها المختلفة الألوان أشعتها فتعكسها للرائي في أبهى منظر، تنساب فيه الجداول، وتجري بين مروجه الأنهار، فتبدو بيضاء كخيوط اللُّجَيْن الناصعة البياض، ها هي غوطة (دمشق)، وها هي مدينة دمشق العظيمة قد انتشرت في هذا السهل الفسيح، وامتدت إلى سفوح الجبال المحيطة به من الشمال، وها هو الجامع الأموي تتعالى مناراته ممتدةً سامقة في السماء. وها هو المطار، مرت هذه المرئيات أمام أعيننا سريعة، بعد أن أحدثت في نفسي فيضًا من الذكريات والأخيلة الجميلة التي لم يقطعها سوى تنبيه المضيف بِرَبْطِ حزام المقعد، استعداداً للنزول في مطار دمشق، وكانت الساعة شارفت الثانية عشرة. فلما فتح باب الطائرة أحسسنا بتغير الجو باشتداد البرد، فالفصل شتاء، والوقت ليلاً، وبلاد الشام معروفة بشدة بردها، ولهذا فقد فضل الركاب البقاء في الطائرة ولم ينزل منها سوى من انتهت رحلتهم، ولم يطل البقاء ففي خلال ربع ساعة استأنفنا الرحلة فارتفعت بنا الطائرة متجهة صوب الغرب إلى لبنان، فوق سلسلة من الجبال المرتفعة المكللة بالثلوج التي

تضفي عليها منظراً بديعاً ساحراً، وتبدو قرى لبنان منتشرة في سفوح الجبال وفي أعطافها وضفافها، ثم بدت لنا مدينة (بيروت) بأضوائها، ممتدة على ساحل البحر. الذي خيم عليه الليل فجعله يبدو أسود رهيب المنظر.

في مطار بيروت : قطعنا المسافة بين دمشق وبيروت في نصف ساعة، وبقينا في (مطار لبنان الدولي) ربع ساعة لتسجيل جوازات السفر، ولتفتيش امتعتنا، تفتيشاً بلغ من السهولة واليسر ما دفعنا إلى أن نتمنى أن نجد مثله في كل مكان، فقد كان الموظف الذي وكل إليه هذا الأمر عندما يريد أن ينظر في حقيبة المسافر يطلع على جواز سفره، فمن المسافرين من يأمره بفتح حقيبته، ومنهم من يكتفي بالاطلاع على جواز السفر، ثم يلصق على حقيبته ورقة الإذن بإخراجها، وكنت من هؤلاء فاندفعت مسرعًا إلى الباب للخروج، فلما بلغته وجدت عدداً من المستقبلين الذين حضروا للاحتفاء بالقادمين والترحيب بهم، بل لتلقي ما يحملون من كتب يبعثها التجار في الرياض إلى وكلائهم ومحلاتهم في بيروت، وكنت قد حملت شيئًا منها، وبينما كنت مشتغلاً بإخراجه من الحقيبة التي أحملها بيدي إذا برجل يهوى على الحقيبة الأخرى، مسرعًا بحملها والذهاب بها إلى إحدى سيارات الأجرة، فتبعته عجلا وركبت معه في سيارته، فلما بلغنا المدينة سألني عن الفندق الذي أرغب النزول فيه فأخبرته به، ولكنه قال: إنه يعرف فندقًا أحسن منه – واسترسل يعدد مزايا هذا الفندق فقلت له: يكفيني من كل ما ذكرت، النظافة وقلة الأجرة، وما دمت قد تطوعت (أو تطفلت) فحملت حقيبتي في سيارتك، دون أن أطلب إليك ذلك، فأنا سأنقاد لك حتى النهاية، وسرنا –أو سارت بنا السيارة – حتى توغلنا داخل المدينة، فلما بلغنا ناحية تعرف بـ (باب ادريس) وانحدرنا إلى الشارع العام، عرج بسيارته ذات اليسار، داخل بناء ضخم جديد، ثم وقف وقال: هذا هو الفندق فإذا لافتة مكتوب فيها (فندق عمر الخيام) فقلت له: اليست هذه البناية للمصرف التجاري السعودي؟ فقال: نعم، وهذا الفندق لم يفتح إلا في هذه الأيام، وأرجو أن ترتاح فيه.

الخيام في بيروت(*) : والخيام هذا ليس الشاعر الفارسي عمر بن إبراهيم النيسابوري المتوفى سنة ٥١٥ هـ صاحب «الرباعيات» التي عَرَّبَهَا البستاني ومحمد السباعي وأبو شادي وأحمد رامي وأحمد الصافي النجفي وأحمد حامد الصراف والتي تدور فلسفته فيها حول معنى هذا البيت من ترجمة رامي لها :

غد بظهر الغيب واليوم لي وكم يخيب الظن بالمقبل

إن الخيام الذي أعني هو فندق عمر الخيام الذي اتخذت من إحدى غرفه سكنًا في بيروت في بناية المصرف الأهلي السعودي.

هنا في هذه المدينة شيئان لا تعوزهما الكثرة : الفنادق وسيارات الأجرة، والغريب الذي لا يعرف أحوال هذه البلاد قد يقع في كثير من المآزق من جرائهما. عندما يخرج المسافر من المطار سرعان ما يتخطفه سائقو سيارات الأجرة، لإيصاله إلى المدينة، والمسافة تقارب الميلين، والأجرة المقررة من قبل مصلحة السياحة لا تتجاوز خمس ليرات للسيارة، ولكن قل من يقبل أقل من ضعفها وخاصة ممن يبدو عليه مظهر الغِنَى، أو من تنفج حقائبه، ويفوح من بين أردانه عبير النعمة والثراء!

والطريقة التي يلجأ عباد الله الضعفاء مثلي في هذه الحال، أنني بعد أن أصل إلى الفندق الذي أريد سكناه، وأتفق مع صاحبه على المكان، أكِلُ دفع الأجرة إلى صاحب الفندق بعد أن آمره بعدم تجاوز المقرر (التعريفة).

وبهذا أسلم من لجاج طويل، لا يرى سائقو السيارات في هذه المدينة فيه شيئًا من الغضاضة أو الخروج عن حد اللياقة، ما دام سيعود بزيادة في الأجرة مهما قلت، بل بضحكة عريضة.

والأمر الثاني : الفنادق، وهي على ثلاث درجات من حيث الأجور، وتختلف في الأمور الأخرى، ففنادق الدرجة الأولى لا تقل أجرة السكن وحده عن خمس

(*) «اليمامة» العدد ١٠٧ الأحد ٦ رجب سنة ١٣٧٧هـ (٢٧ يناير ١٩٥٨م).

وعشرين ليرة لبنانية للغرفة الواحدة، ونصفها للدرجة الثانية، وسبع ليرات التي دونها، وليس المهم معرفة الأجرة، وإنما اختيار الفندق الذي يتلاءم مع رغبة الانسان من حيث النظافة وحسن السمعة، وهذا مما لا يتحقق إلا لمن كان ذا معرفة وخبرة قديمة أو لمن حجز له المنزل وفق رغبته من قبل عارف به.

شطحت بالقارئ - أو شط بي الذهن - من حديث عمر الخيام، إلى الحديث عن الفنادق وسيارات الأجرة. لقد اتخذ أصحاب الفنادق والمطاعم من اسم هذا العالم الذي برز في كثير من ضروب المعرفة في عهده (القرن الخامس وأول السادس) من هندسة وكيمياء، وفلك وفلسفة - اتخذ هؤلاء من اسمه وسيلة لجلب الرزق لهم فصاروا يطلقونه على فنادقهم ومطاعمهم، ففي (العشّار) في البصرة حينما أعوز الأستاذان عبدالعزيز التركي وعبدالكريم بن جهيمان وأنا العثور على فندق حسن، قيل لنا: فندق الخيام، وفي القاهرة وبغداد وفي الاسكندرية وفي حلب وفي بيروت تزدان جدران الفنادق والمطاعم باسم هذا العالم الذي عفى الزمن على جميع محاسنه، ولم يبرز من صفاته سوى جانب ضعيف، هو إلى الهزل وحياة المجون والترف أقرب، بل هو بسيرة المجانين والخلعاء ألصق وأجدر من هذا العالم الذي تدل آثاره في علم الفلك وفي الجبر والكيمياء أنه من العقول الكبيرة، الذين لا تستحوذ عليهم الملذات، ولا تستولي على أفكارهم الصغائر. وهذا ما حدا بكثير من الباحثين إلى القول بأن هذه الرباعيات المنسوبة إليه ليست كلها له، وأن كثيراً منها قيل في عهد متأخر عن عهد الخيام.

هذا عن الخيام الشاعر الفيلسوف، أما عن الخيام الفندق الذي أسكنه فهو من خير فنادق الدرجة الثانية في هذه المدينة في جميع أموره، وخير الأمور الوسط، ولو كنت ممن اعتاد تسلق الجبال أو النخيل، لما طلبت بفندق (لوكاندة أمريكا الكبرى) قرب ساحة الشهداء بديلا، لنظافته ولمناسبة أجرة السكن فيه، غير أن الصعود في درجه يدفعني إلى أن أقطع ذلك الدرج في مرحلتين، وذلك ما لا أود أن أتصف به وأنا لم أتجاوز العقد الخامس من عمري.

مكتبة الجامعة الأمريكية : توجد في الإنسان ميول ورغبات لا يستطيع التخلي عنها، منها ما يعود عليه بالنفع، أو يدرأ عنه ضررا، ومنها ما يكون عديم النفع، إلا أن الدوافع النفسية التي قد يعجز المرء عن تعليلها تدفعه إلى ملازمة تلك (الهواية) . وأكبر لذة نفسية أدركها هي حينما أشاهد الكتب بين يدي، أختار منها ما أميل إلى مطالعته، وتجدني من شدة نهمي في المطالعة أود أن ألتهم كل كتاب يقع عليه نظري، فأطرح هذا قبل أن أكمل مطالعته، وآخذ هذا رغبة شديدة في المطالعة، ليتها تقف عند حد مطالعة الكتب التي لا تجهد مطالعتها فكري، ولا تضر بصري . إنها تتجاوز ذلك إلى مطالعة المخطوطات القديمة، والمصورات غير الواضحة، وكلما قدم عهد المخطوط، ودثرت حروفه، اشتدت تلك الرغبة، كأنني أبحث في العصور الخالية عن سر دفين لا أجده إلا في هذه المخطوطات البالية .

استيقظت صبيحة السبت (١٣٧٧/٦/٧هـ) مبكرًا الساعة الخامسة بالتوقيت الزوالي، وسكان بيروت لا يصحون قبل الساعة التاسعة، وأعني بهم أصحاب المحلات التجارية، وإذن فأمامي أربع ساعات سأقطع ساعتين منها في التأهب للخروج وقراءة بعض الصحف، والساعتان الباقيتان تمكنانني من زيارة مكتبة الجامعة الأمريكية، ومطالعة أحد المخطوطات أو المطبوعات النادرة فيها وزيارتها كفيلة بأن تسرق مني ما استطلته من وقت ومثله معه بدون أن أشعر .

قطعت المسافة بين الفندق وبين المكتبة في عشرين دقيقة سيرًا على القدم، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة، ولكنني رأيت الباب مغلقًا، فاعتراني شَيْءٌ من الأسف وانقباض النفس، غير أنني وجدت في التمتع بمشاهدة مباني الجامعة الجميلة، وحدائقها ذات الأشجار الباسقة، والإبداع في التنسيق والتنظيم، وفي منظر البحر الممتد، والذي تمتد ساحة الجامعة على شاطئه فوق ربوة الأرض تقارب الميل طولا، وجدت في تلك المناظر التي بلغت حد الروعة والجمال ما سرَّى عن نفسي ما ألم بها، بل كاد ذلك أن ينسيني الغاية التي أتيت لها إلى هذا المكان . ثم التفت صوب المكتبة

فرأيت الطلاب والطالبات يفدون إليها زرات ووحدانا فعلمت بأنها مفتوحة.

تقع المكتبة داخل بناء الجامعة الأمريكية، في وسط ذلك البناء، في دار مفردة تتكون من ثلاث طبقات محكمة البناء، تقع غرف المطالعة الكبيرة في الدور الأرضي وهو شكل سرداب في جوف الأرض، مقسم إلى أبهاء واسعة، وموظفو المكتبة وفهارسِها في الدور الثاني، وفي الثالث مخازن الكتب، وقد أفردت الكتب العربية المطبوعة في مخزن خاص، وهي قليلة بالنسبة للكتب الأخرى.

أسرعت إلى صوان الفهارس - وقد كتبت في بطاقات صغيرة، ورتبت على حروف المعجم، بأسماء الكتب وأسماء المؤلفين، بأسمائها العربية، أما الأرقام واصطلاحات ترتيبها فباللغة الانجليزية - فنقلت أسماء ثلاثة من الكتب وأتيت إلى فتاة عُهِد إليها بتسلم البطاقات ودفعها إلى من يحضر الكتب المطلوبة، فقدمت لها البطاقات الثلاث، فتحدثت مع فتى يشتغل معها في عملها، ثم سألتني: هل أنا من طلاب الجامعة؟ فأجَبْتُها بالنفي، فقالت: هل معك (إثبات شخصية) تبقيها هنا وتأخذ الكتب إلى غرفة المطالعة؟ فقلت: لا. فذهب الفتى وغاب برهة من الوقت ثم دعاني للدخول عنده، وصعد بي إلى مخزن الكتب العربية، وقد وضعت في جوانبه مقاعد مريحة، ووضع أمام كل كرسي منضدة كبيرة، أُضِيْءَ ما حولها بالنور القوي، ثم أشار إلى أحد المقاعد وقال: ضع عباءتك فوق الكرسي، وها هي جميع الكتب العربية أمامك كل كتب فن على حدة، هذا قسم التاريخ، وهذه كتب الأدب وهذه كتب اللغة... ولك أن تبقى هنا إلى الساعة الواحدة والنصف.

ما كنت أتصور أنني سأتمكن في يوم ما أن أشبع نهمي من إلقاء نظرة على مجموعة من الكتب تقارب عشرين ألف مجلد، وأن أنتقل بين صواناتها ورفوفها باحثًا منقبًا برهة من الوقت بحيث أتخيل بأنني قد ملكتها!

أصبحت من المترددين على هذه المكتبة، غير أنني في المرات الأخرى كنت أرغب في مطالعة بعض الكتب الخطية - وهي قليلة في هذه المكتبة - وقد وضعت تحت

إشراف مدير المكتبة المعاون السيد جبران بخعازي[1]، فكان لا يضن علي بما طلبت منها، بل كان يقابلني بلطف وبشاشة، ويسرع في تحقيق طلبي، وكان مما اطلعت عليه كتابان مخطوطان جلبا من صنعاء، وأَوْهَمَ بائعهما أنهما الجزآن الثالث والتاسع من «الإكليل» للهمداني، ولكنني بعد مطالعتهما تبينت أنهما ليسا من أجزاء «الإكليل»، فأحدهما ويدعى «وصايا الملوك» وليس بذي قيمة تاريخية أو أدبية، فقد كتب بلغة ركيكة الأسلوب، ويتضمن كثيراً من الأخبار الخرافية التي يحتوي كتاب «التجان في ملوك حمير» المطبوع في الهند عليها، وقد طبع كتاب «وصايا الملوك» في بغداد، قام بطبعه أحد أدباء نجد الأستاذ سليمان الدخيل والكتاب الثاني يدعى «الفاصل في فضائل قحطان» وقد كتب عليه بأنه الجزء الثالث من «الإكليل»، وهذا غير صحيح، ففي هذا الكتاب نقول عن ابن دريد وعن صاحب «الأغاني» وهما بعد الهمداني. ولتضليل بائعي الكتب حديث طويل ليس هذا محله.

تضم مكتبة الجامعة ما يقارب مئة وعشرين ألف مجلد. وتقع مجموعة الكتب العربية –وجلها من المراجع المهمة– في عشرين ألف مجلد، وفيها من الكتب الإفرنجية ما يزيد على الستين ألفا، وفيها مجموعة قيمة من الصحف والمجلات الدورية تقارب العشرين ألفا. ويتولى إدارة المكتبة امريكي، ويساعده الأستاذ جبران بخعازي.

أما دار المكتبة فقد تبرع ببنائها وفراشها ورثة أحد اللبنانيين الذين هاجروا إلى البرازيل، فأراد هؤلاء الورثة تخليد اسم مورثهم ويدعى (نعمت يافث) فبذلوا مبلغًا من المال يقارب الـ ٧٠٠ ألف ليرة لبنانية، ولهذا تحمل المكتبة اسم (المكتبة التذكارية لنعمت يافث) منقوشًا فوق بابها.

حول لبنان: ليست تلك الرحلة أُولَى رحلاتي ولا الأخيرة إلى هذه البلاد الكريمة التي قَلّ أن يزورها إنسان إلاّ وينازعه الشوق، وتحدوه الرغبة لتكرار الزيارة، واغتنام ما يستطيع من الوقت للإقامة فيها، لما تتمتع به أجواؤها من اعتدال في جميع فصول السنة في جهاتها المأهولة من الشمال والجنوب والوسط والشرق.

---

(١) في مجلة «العرب» س١ ص٤٤٧ مقال له عن هذه المكتبة.

يضاف إلى هذا جمال طبيعتها، وأهم من كل ذلك ما يتصف به أهلها من الوداعة واللطف، وأُلْفَة القادم إليهم، وحسن استقبال الراغب في الإقامة في بلادهم، وتهيئة ما يحتاجه من سكن وغيره، وسهولة ما يتطلب من الإجْراءات الإدارية بشأن الإقامة، مع ارتباط تلك البلاد بغيرها من جميع أقطار العالم، ارتباطًا هَيَّأ لها أن تكون مقصداً، بل ملاذاً وملجأً لكل محتاج إلى الاستقرار والاطمئنان والأمان، فهي تتمتع من كل ذلك بأوفر نصيب، والمقيم فيها لا يُحِسُّ أَيَّةَ مضايقة بسبب عقيدته أو أفكاره، ثم في صحافتها، وفي وسائل الإعلام فيها من الحرية التامة المطلقة، ما نشأ عنه ازدهار الثقافة فيها، وقوة حركة النشر والتأليف، وكثرة آلات الطباعة، وتعدد المراكز الثقافية، ومعاهد الدراسة على اختلاف مراحلها، في الوقت الذي بدأ في بعض البلاد العربية التي كانت تُعَدُّ في الصَّدارة بعضُ الانكماش والضعف، تبعًا لتغير نظم الحياة فيها من سياسية واقتصادية وثقافية أيضًا.

كنت في تلك الأثناء ممن اضطرته الظروف للاستقرار بها فترة من الزمن، فكانت تلك الفترة من أحفل أيام حياتي بالعمل والحركة والنشاط، بحيث أنشأت (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) وقُمتُ بتحقيق عدد من المؤلفات، وبتأليف كتب أخرى نشرت تلك الفترة.

كما أصدرت مجلة «العرب» سنة١٣٨٦هـ التي لا تزال مستمرة في الصدور، مع ما اعتراها أثناء سيرها من اضطراب بسبب تَنَقُّل طبعها بين بيروت ومصر والرياض، غير أنها لا تزال صامدة مستمرة، بحيث صدر منها إلى هذا العام ١٤١٩هـ ثلاثة وثلاثون مجلداً.

ولما أنشأت مجلة «العرب» كانت وسيلة اتصال بكثير من العلماء والباحثين في مختلف الأقطار، ممن يكاتبها أو يزور مكتبها.

ولعل من أجل هؤلاء ممن قويت صلتي به في تلك الأيام الأستاذ الجليل الدكتور علي جواد الطاهر (١٣٤٠ / ١٤١٧هـ) من مدينة (الحِلَّة) إحدى مدن بلاد الرافدين، وهو من خيرة علماء العصر خُلُقًا، وأوسعهم علمًا، وأنشطهم عملاً واتجاهًا في نشر ثقافة أمته، تدريسًا وتأليفًا، ومحاضرات وأبحاثًا تنشر في مختلف الصحف.

ولقد حظيت به مدينة الرياض نحو خمس سنوات، أستاذاً في (كلية الآداب) في أولى جامعات المملكة، فكان له من الأثر النافع المثمر من التوجيه والتعليم ما برز أثره لدى كثير من مشاهير أدباء البلاد، ممن لا يتسع المجال لذكرهم، وفي مؤلفه الفَذّ في موضوعه، الشامل في غايته «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» إذ هو ليس في الواقع معجماً فحسب، بل دراسة شاملة لتاريخ وسير الثقافة العامة في هذه البلاد، منذ بواكير النهضة الحديثة أول القرن الرابع عشر الهجري حتى قرب انتهائه، مع رسم خطط واضحة لمواصلة تلك المسيرة على نهج قويم، تحقق الغايات منها، مما كان من أبلغ ما يوضح ما لهذا العالم الجليل من بالغ الأثر في هذا المجال. مما أبان عما يتحَلَّى به من تقدير وحب وإخلاص لهذه البلاد.

لم أحظ بمعرفته حق المعرفة حين كان مقيماً في الرياض، فقد كان اجتماعي به لِمَاماً، مع ما يحوكه حوله أحد حساده ولا أقول أعداءه، فالرجل أسْمَى بعقله وبحسن أخلاقه من أن يعادي أحداً - مما كان حائلاً دون قوة الاتصال به للاستفادة من علمه وفضله.

لقد حُرِمت البلاد من جهد هذا العالم، بسبب وشاية حاسد حاقد، وصفه بما هو بريءٌ منه فكان أن فُصِل من الجامعة، ولكنه بعد أن عاد إلى بلاده لم ينس لهذه البلاد حَقَّها، وما ينبغي أن يقوم به كل عالم عربي مخلص نحوها، فواصل دراساته وكتاباته عما يتعلق بثقافتها.

ولما زارني في (بيروت) بعد ذلك، وكنت أصدر المجلة، قدم لي بعض مواد ذلك «المعجم» فوجدت فيه مادة دسمة فريدة في موضوعها، مما كان يلتهمه القراء قراءة واستفادة وتعليقاً، وظَلَّ يواصل امدادهم بتلك الأبحاث، وبغيرها من المباحث القوية الرصينة.

ومقام الحديث عن الأستاذ الطاهر أرحب من هذا المجال[1].

---

(١) يحسن الرجوع إلى «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» نشر دار اليمامة سنة ١٤١٨هـ في أربعة أجزاء.

ومن فضلاء من عرفتهم إذ ذاك أستاذنا الباحث المحقق الدكتور إبراهيم السامرائي، الذي طوحت به ظروف الحياة وقسوتها، متغربًا عن بلاده متنقلاً في كثير من الأقطار العربية، غير متمكن من الاستقرار، مع ما يتصف به من علم وفضل وخلق، ولكن تلك حالة أمثاله من العلماء منذ أقدم العصور، يلاقون من نكبات الدهر وشدائده ما يزيدهم قوة لمواصلة سيرهم النافع، وكان أولى المقالات التي أتحف بها مجلة «العرب» بحث ممتع عن كتاب «الأمكنة والمياه والجبال» للزمخشري نشر في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ (ايلول ١٩٦٧م) – ص١١٤٠–١١٤٤–. واستمر وفقه الله ورعاه يواصل إمداد قرائها بأبحاثه الرصينة الممتعة حتى بعد أن قُضي عليه بالتشرد من بلاده إلى الأردن ثم إلى اليمن ثم إلى الأردن مرة أخرى.

وممن عرفته من أدباء العراق الأستاذ البحاثة المحقق هلال ناجي، فقد كان يبعث إلى المجلة بعض أبحاثه المتعلقة بنقد ما ينشر حديثًا من المؤلفات، فكان من أوائل ما كتب (نقد فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس) نشر بتاريخ ربيع الثاني ١٣٩٠هـ (حزيران ١٩٧٠م) – س٤ ص٩١٧ / ٩٢٣ واتبعه بملاحظات حول «ديوان أبي الهندي» صنعة عبدالله الجبوري، نشر بتاريخ ربيع الثاني ١٣٩١هـ (حزيران١٩٧١م) – س٥ ص٩٥٧ / ٩٦٠– ونقد (لديوان ديك الجن) تحقيق الأستاذين عبدالمعين الملوحي ومحيي الدين درويش، نشر في جمادى الأولى ١٣٩١هـ (تموز ١٩٧١م) من السنة نفسها – ص١٠٥٦ / ١٠٦٢– و(تعريف بديوان الشاعر كشاجم) الذي حققته السيدة خيرية محمد محفوظ من فُضْلَيَات الباحثات العراقيات، نشر في ربيع الثاني ١٣٩٢هـ (حزيران ١٩٧٢م) – س٦ ص٨٢٣ / ٨٢٨ – وبعد هذا بحث عن كتاب «قطب السرور في أوصاف ...» والكتاب نشره المجمع العلمي العربي بدمشق، وأوضح في هذه الدراسة نقص تلك المنشورة وما فيها من أوهام، وأضاف إلى ذلك ما اطلع عليه في إحدى المخطوطات بما يكمل الكتاب، إلاّ أن البحث المتعلق بموضوع الكتاب ليس مما لا تتسع صدور

كثير من القراء لقراءته فحسب بل قد يكون في نشره ما يعرقل سير المجلة –إن لم يوقفها– ويبدو أنه – وفقه الله – لم يرق له الاعتذار الذي بعثت إليه عن عدم نشر بحثه، ولهذا توقف عن امداد «العرب» بشيء من أبحاثه إلى عهد قريب حيث اتحف قراءها ببحث عن ابن زريق سينشر هذا العام.

لقد كان انتقالي إلى هذه البلاد الطيبة على غير رغبة، إلا أنني حمدتُّ العُقْبَى بعد أن أحسست بالاستقرار النفسي فيها، فاتجهت بعد ذلك للعمل، فيما كنت بدأت به، اتجهت بهمة واندفاع أقوى مما كنت عليه، لتوفر مختلف الوسائل التي تَهَيَّأَتْ لي بعد شعوري بالاطمئنان والراحة، ومكثت على ذلك نحواً من خمسة عشر عامًا من آخر شهر رمضان عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) حتى أثار الأعداء والحاقدون الفتنة بين أهل هذه البلاد التي كانت على خير ما يتمتع به أهل بلاد أخرى من التآلف والمحبة والأُخوَّة، فأشعلوا أوار الفتنة والعداوة حتى بلغ الأمر إثارة الحرب بينهم، حتى قضوا على ماساد بين أولئك الإخوة من حب وصفاء، وتآلف، وتعاون على ما فيه خير بلادهم من الاستقرار والأمن، فخَربوا البلاد. وشردوا أهلها بعد قتل كثير منهم، وأوقعوا بها من البلاء والشقاء ما يعصر القلوب بالألم، فكان أن اضطررت للهرب منها، بعد أن صُلِيْتُ بحرارة تلك الفتنة، ففقدت أعز ما أملك، ولكنني حين أستعيد ذكريات الحادثة المؤلمة، وما نال الآلاف المؤلفة من السكان الوادعين، المطمئنين على حين غفلة من أمرهم من شواظها، وما حلَّ بهم من ويلاتها ومصائبها، ينتابني الأسى، وأُحِسُّ من اللوعة والحزن لِمَا حدث لأولئك من قتل وتشريد، حتى أكاد أنسى به ما أصابني، إذ بينهم من أصدقائي، وممن قويت الصلة بيني وبينه، صلة القلوب قبل الأعمال، ومن سعدتُّ بمعرفتهم كثيرون، بل أن تأثري بما حل بهذه البلاد الكريمة من تلك الكارثة عام وشامل.

لست من منكري الجميل، فللبلاد وأهلها من الفضل عليَّ مالا أنساه ما حييت، وما يعجزني مقابلة قليله بما أستطيع من تقدير.

لقد كانت لبنان من أقوى مراكز الإشعاع الفكري في العالم العربي، فضلاً عما كان لمتقدمي علمائها من جهود بارزة، في خدمة اللغة العربية، بما ألفوا من معجماتها، ثم إنها هي قد أصبحت ملتقى للتيارات الفكرية المختلفة، لما تتمتع به من استقرار، وما تتصف به نظمها الاجتماعية من سعة ومرونة، وما عليه أهلها من أخلاق فاضلة، عن طبع وسجية، ورغبة في الوافدين إليها، فكانت مقصداً لكثير من رجال العلم والمعرفة من جميع أقطار العالم.

لقد استفدت أثناء إقامتي فيها من صلتي بعدد من مثقفي العرب من اللبنانيين، ومن المستقرين فيها من غير أهلها، أو القادمين إليها في بعض الأوقات، من العلماء والأدباء، ممن قويت صلتي بهم، ومَنْ لا يتسع المجال للحديث عنهم، بل اكتفي بلمحات موجزة.

لقد كان من أوائل من عرفت في هذه البلاد أسرة (آل نويهض) الذين منهم الأستاذ عجاج بن يوسف بن نويهض، وهو مؤرخ سياسي له شهرة تاريخية توفي سنة ١٤٠٢هـ عن نحو ثمانين عاماً، وكان مما أصدر مجلة سماها «العرب» وعرب كتاب «حاضر العالم الإسلامي» وله مؤلفات أخرى كثيرة.

ومن هذه الأسرة على نويهض الذي نشر كتاب «الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار» وغيره من أفاضل هذه الأسرة الذين زرتهم مراراً في بلدتهم (المتن) فأعجبت بما يتصفون به من كرم الأخلاق العربية الأصيلة، وأثناء الحوادث اتصلوا بي فعرضوا علي الانتقال عندهم، ولكنني لم أكُن أتوقع أن الحوادث تبلغ ما بلغت، حتى بقيت محصوراً في منزلي أياماً.

وعرفت من العلماء، فؤاد أفرام البستاني، المشرف على تأليف «دائرة المعارف» وقسطنطين زريق، وجبرائيل جبور، وجبران بخعازي، مساعد مدير مكتبة الجامعة الأمريكية، الذي يسر لي الاطلاع على ما أردت الاطلاع عليه من مخطوطات هذه المكتبة، ونبيه أمين فارس.

وممن كان من أساتذة الجامعة الأمريكية ممن عرفت نخبة من خيرة العلماء المعنيين بالعلوم العربية كالتاريخ والأدب والآثار، ممن استفدت بالاتصال بهم، وازدادت معرفتي بهم، ومنهم أستاذنا الجليل الدكتور إحسان عباس، والدكتور محمد يوسف نجم، والدكتور محمود الغول -رحمه الله-، والدكتورة وداد القاضي تلميذة الدكتور إحسان، وآخرين غيرهم.

وعرفت من الصحفيين عدداً من أشهرهم سعيد فريحة، ورياض طه، وجبران غسان ثويني صاحب «جريدة النهار» وكانت من أبرز الجرائد اليومية إذ ذاك.

وكان ممن شاركني في العمل أستاذ جليل من لبنان من (طرابلس) هو محمد أديب غالب الذي عمل في مكتبي فترة، وكان من خير من عرفت أدبًا وعلمًا وخُلُقًا، وقد نشرت (دار اليمامة) من آثاره كتاب «من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي» كما نشرت «العرب» له بعض الأبحاث، وقد توفي -رحمه الله-.

ولارتباط عملي بالطباعة كان من أوائل من عرفت، وطبعت عنده مجلة «العرب» ألبرت ريحاني أخو نجيب الريحاني الكاتب المعروف، ومنصف المتني الذي تولى طبع «العرب» وغيرها مما تنشره (دار اليمامة) أكثر من عشر سنوات، وقام بعمله خير قيام، بحيث لا أذكر أنني لاحظت ما يؤخذ على عمله، بل عندما أُبدي أَيَّة ملاحظة يسارع إلى إعادة العمل كاملاً، موضحًا أنه يريد أن يقدم عملاً على خير ما يرام، لا بالنسبة لي، بل بصفة عامة، ولهذا يرفض أن أدفع له شيئًا مقابل الإعادة.

وممن قويت صلتي بهم أثناء إقامتي في هذه البلاد الأستاذ خير الدين الزركلي، فقد أمر الملك فيصل -رحمه الله- بمنحه إجازة من (وزارة الخارجية) ليتفرغ من عمله سفيراً، لتأليف كتاب عن تاريخ الملك عبدالعزيز -رحمه الله- فاستقر في بيروت، وكان يملك مكتبة حافلة بمختلف المؤلفات التي جمعها، منذ استقر في القاهرة في أوائل عشر الخمسين من القرن الماضي، إلى أن انتقل إلى بيروت فانتقى ما اختار من تلك المكتبة، ونقله إلى البلد الذي استقر فيه، فكان يكرمني بالزيارة، ويدعوني،

وكثيراً ما تباحثنا لا فيما هو مشتغل بتأليفه فحسب، بل في مباحث متنوعة عامة، وكثيراً ما يزوره بعض مشاهير العلماء من الشام أو العراق أو غيرهما من مختلف البلاد ممن كنت أسر بمعرفتهم كأكرم زعيتر، وظافر القاسمي، وأحمد عبيد وغيرهم.

وممن قويت صلتي به من المثقفين الأستاذ قدري قلعجي، وهو سوري الأصل، ولكنه استقر في بيروت، وعمل في الصحافة، ثم في التأليف، وأسس له داراً للنشر، وكان على جانب عظيم من حسن الخلق، وسعة المعرفة، قَلّ من يزور هذه البلاد، ولا يكون ذا صلة به، وخاصة من الطبقة المثقفة، ومن المعنيين بالدراسة والبحث، وله مؤلفات عديدة، ومُعَرَّبات، منها ما يتصل بتاريخ الخليج والجزيرة بصفة عامة.

وممن عرفت بواسطته أحمد الشيباني كان ذا نشاط في تأليف بعض الكتب المتعلقة بالتراجم لبعض مشاهير ذلك العهد، ثم آخر العهد به حين عين مستشاراً في ديوان سمو ولي العهد في الرياض، وكان ذا نشاط بما يكتب وينشر في الصحف، وقد استقر أخيراً في جدة، حتى توفي قبل أربع سنوات.

ولصلتي ببعض من تقدم ذكرهم وكنت قد اتخذت مكتباً في (بناية العازارية) في وسط البلد كان يزروني فيه بعض أولئك وغيرهم.

وممن زارني من المستشرقين (كريستوفر تل Christopher Toll) فقد سبق أن نشرت وصفًا لمخطوطة كتاب «الجوهرتين» للهمداني، اطلعت على مصورتها في دار الكتب المصرية، والأصل كان في (جامعة أبسالا) في السويد نشرت ذلك في (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق) في شهر المحرم سنة ١٣٧١هـ (١٩٥١م)[١].

وفي سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) قام (كريستوفر تل) بدراسة المخطوطة الموجود أصلها في (جامعة أبسالا) وتقدم بدراسته تلك إلى تلك الجامعة، فنال شهادة (الدكتوراه) ونقل أصل الكتاب إلى لغته السويدية، وكتب الأصل العربي بخط يده واضعًا مقابل كل

---

(١) المجلد الـ ٢٦ - ص٥٣٣-٥٤٤-.

صفحة ترجمتها، فنشرت الجامعة دراسته تلك[1]. وكان على درجة رفيعة من سمو الخلق، إذ أشار إلى ما كتبته في وصف الكتاب، ثم بعث إليَّ (المجمع العلمي بدمشق) مطبوعته فكتبت ملاحظات عليها نشرت في مجلته[2]، فاطلع عليها، وعندما مر ببيروت أكرمني بالزيارة، مظهراً سروره بملاحظاتي، ثم توثقت الصلة بيننا حيث كرر الزيارة، وكان يتحفني ببعض ما ينشر عن الهمداني، ويكاتبني في كثير من المناسبات.

وممن زارني أيضاً من المستشرقين عالم انجليزي أُنْسِيْت اسمه، كان يشرف على توجيه أحد أبنائنا سليمان الغنام في الدراسة، حيث كان في إحدى الجامعات الإنجليزية، فاتصل بي سليمان مستوضحاً عن مخطوطة في دار الكتب عن « تاريخ مكة والمدينة » فأوضحت له أنها جزء من كتاب[3]، ونصحته بأن تكون دراسته عن مخطوطة « تاريخ المدينة » لابن شبة، ووصفت له المخطوطة، فما شعرت في صبيحة يوم إلاَّ بأستاذه الانجليزي ومعه أحد الإخوة، فتم التعارف ورغب مني أن أقدم له صورة من تلك المخطوطة، لأنه نصح تلميذه بدراستها، فكان ذلك مما أبدى ارتياحه وسروره، بحيث لم يسافر من بيروت حتى مَرَّ بي مُودِّعًا وزارني آخرون لا داعي للاسترسال بذكرهم.

وفي إحدى أيام زيارتي لسفارة بلادنا قابلت رجلاً يبدي موظفو السفارة اهتمامًا به، فعرفني به أحدهم قائلاً هذا الدكتور الشُّرَيقي، وقد التجأ من (سورية) فمنح جوازاً سياسيًا، فعرف الرجل مكتبي وكرر لي الزيارة مراراً، ولكن ظهر لي من مبالغاته ما دفعني للاسترابة منه، إذ يقدم نفسه باسم (الدكتور.... الشريقي) عضو المجامع العلمية في أوروبا) وظلَّ ينشر في صحفنا مقالات يهاجم فيها حاكم أحد الأقطار العربية هجومًا سيئًا، وكان ذا دعاوى عريضة طويلة، وأذكر في إحدى المرات حين زرت

---

(١) كانت الحلقة الأولى من سلسلة منشوراتها التي بعنوان

(ACTA UNIVERSITATIS UPSALIENSIS Studia Semitica upsaliensia -1-)

(٢) المجلد الرابع والأربعين ص٥٥٤ – ٦٥٨.

(٣) هي الجزء الثالث من كتاب « البحر العميق في الحج والعمرة إلى بيت الله العتيق » لابن الضياء الحنفي، والكتاب كاملاً في مكتبة الحرم المكي.

الأستاذ عبدالمحسن المنقور، وكان ملحقًا ثقافيًا في لبنان، وفي مجلسه زوار آخرون، ومنهم الشيخ عبدالله القصيمي، فشغل الحاضرون بالاستماع لحديث الدكتور الشريقي عن رحلاته في أوربة للدعاية لحكومتنا إلى أن قال: (ولأول مرة هُتف في جامعة إحدى المدن الألمانية باسم الملك فيصل عند إلقاء محاضرتي عنه) فرد عليه القصيمي قائلاً: رفقًا بعقول المستمعين أيها الدكتور العظيم!! فما كان منه إلاّ أن انسل وخرج.

سألت عن الصلة التي دعت لاحتضانه والاحتفاء به، وكان الأستاذ فهد المارك إذ ذاك في بيروت، فقيل لي: أنه التجأ إلى السفارة في أنقرة، فلما مَرّ بي سألته عنه فقال: كنت قائمًا بأعمال السفارة بعد نقل السفير حسين فطاني، وقبل تعيين السفير سمير الشهابي، فما شعرت في صبيحة يوم من الأيام إلاّ بالدكتور الشريقي يدخل عليَّ ويقول: أنا ملتجيءٌ بسفارة صاحب الجلالة هارب من دمشق، لأن الحكومة السورية تريد القبض عليَّ، فما كان من الأخ فهد إلاّ أن أرسل برقية للملك سعود -رحمه الله- بأنه في هذا الصباح التجأ إلى سفارة جلالتكم الدكتور الشريقي لأنه مطارد من بعض الحكومات للدفاع عن حكومتنا، فكان الجواب: منحه جوازاً وتوجيهه إلى الرياض.

لم يتصل الأستاذ فهد بالسفير في دمشق، وهو إذ ذاك عبدالرحمن الحُميدي ليستوضح منه عن الرجل، ولكنه انخدع بما أظهر له عن نفسه من مكانة علمية، وكان يسمع برجل يدعي الشريقي من الساسة الأردنيين المشهورين في عهد إمارة الأمير عبدالله بن الحسين فتوهم الصلة بين الرجلين.

حظي الشُّريقي بتقدير بارز في بلادنا وصارت الصحف تتسابق بنشر مقالاته التي يتحدث في أكثرها عن نفسه، ويرفق بها صوراً تمثله، وقد أحاط به أناس كثيرون وهو يحاضر في إحدى الجامعات الأوربية، وكان ممن زارني الأستاذ عبدالله قُدامة من أدباء (دمشق) فجرى الحديث عن هذا الشريقي فقال: هذا رجل أَفَّاق مجهول الأصل، كان رُبِّي في ملجأ في (اللاذقية) وبعد أن شبَّ أتى إلى (دمشق) فعمل عندي فترة، ثم وُظِّف في وزارة الزراعة، فكان يوزع على المزارعين منشورات تتعلق

بالنيل من الإسلام، ففصل وغاب فترة، ثم بعد ذلك عمل في مكتب (جامعة الدول العربية) في مصر وقتًا قصيرًا، فَقُقِدَ أثناء ذلك ملفٌّ يحوي معلومات مهمة، وهو الآن كما تعرف، وليس من بيت الشريقي، بل لا يعرف أصله.

حدث بعد هذا أن زار بيروت الأمير مساعد بن عبدالرحمن فاتصل بي، وأخبرني بأن الأمير فيصلاً أحال إليه كتاب عن الإسلام، تأليف الدكتور الشريقي، وأمره أن أشاركه في قراءته وكتابة تقرير عنه إن كان صالحًا للنشر، فأوضحت للأمير مساعد ما أعرف عن أمر الرجل، وأخبرته بأنه ليس موثوقًا ولا معروفًا، وكان قبل ذلك قد جمع مما ينشر في الصحف عن الحرب في اليمن بين الجمهوريين وبين الإمام البدر، في وقت لم تعترف فيه حكومتنا بالجمهوريين، بل كانت تساند الإمام البدر، فجمع ما يتعلق بمساندة البدر وأخباره، ما تقدم به للطبع إلى إحدى المطابع، وكانت مطبعة (المتني) التي كانت لي بها صلة، ومعرفة قوية بصاحبها مُنْصِف، فطلب أن يطبع من هذا الكتاب من قبيل التجربة مئة نسخة، لكي يقرر بعد ذلك الكمية المراد طبعها، وأمر صاحب المطبعة بأن يبعث منها نسخًا إلى وزارة الإعلام والخارجية اللبنانيتين، وإلى سفارة الجمهورية اليمنية، التي سارعت للاحتجاج على طبع الكتاب، لما فيه من النيل من الجمهوريين، فكان أن أمرت وزارة الخارجية اللبنانية بمصادرته، فلم يوجد منه سوى النسخ التي طبعت على أساس التجربة، فما كان من مؤلفه إلاّ أن أبرق لفيصل – رحمه الله – بأنني ألفت كتابًا للدفاع عن الحكومة، وتأييد الإمام البدر، وبعد طبعه صادرته الحكومة اللبنانية، وطلب تعويضاً عن ذلك، فأمر السفارة في بيروت بأن تدفع له، فلما سأله الأخ عبدالعزيز المبارك عن عدد النسخ المصادرة زعمها آلافًا، فقال عبدالعزيز: كيف نعرف أنها بهذا القدر؟ فانتهره بشدة قائلاً: أنا أعرف أنك ناصري تدافع عن الناصريين، وأخيراً دُفع له من التعويض ما طلب.

بعد حديث الأمير مساعد معي عن الرجل، لم أعد أعرف شيئًا عنه، ولا أدري

كيف شط القلم بالحديث عن رجل لا يستحق الذكر.

وفي لبنان عدد من النجديين من تجار وغيرهم سوى موظفي السفارة ومكتب الملحق الثقافي فالسفارة يتولاها إذ ذاك الشيخ سعود بن عبدالعزيز بن دغيثر، ويعمل فيها الأساتذة عبدالرحمن الشبيلي، وعبدالعزيز المبارك، ورشاد نويلاتي وغيرهم، ومكتب الملحق الثقافي فيه الأستاذ عبدالمحسن بن حمد المنقور، وصالح بن عبدالرحمن الحيدر، وعبدالله بن عبدالعزيز بن حسين وآخرون، وكل هؤلاء توثقت الصلة بيني وبينهم.

ومن التجار المقيمين في بيروت صالح الصالح من الرياض، ومحمد الزّبْن، ومحمد بن علي العريفي.

ومن غير التجار الأستاذ عبدالله الطريقي[1]، وكانت صلتي به قديمة، فقد كان من أفراد البعثة العلمية إلى القاهرة سنة ١٣٤٦هـ، هو وعدد من أبناء البلاد، منهم عبدالله وعبدالعزيز ابنا إبراهيم بن محمد بن معمر - رئيس الديوان الملكي إذ ذاك- وإبراهيم ويوسف ابنا يعقوب الهاجري، من كبار من تولى بعض الأعمال الجمركية في أول عهد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- ومُهَنَّا المُعَيْبد من الأحساء، وغانم بن عبدالله الغانم من عنيزة، ومن المدينة أستاذنا السيد أحمد بن محمد العربي، وحمزة نايل دويدار وآخرون، فألغيت البعثة سنة ١٣٤٨هـ فعاد أكثر أفرادها إلى المملكة إلاَّ من استطاع مواصلة دراسته، وكان الطريقي ذا نشاط قوي، ورغبة متميزة في مواصلة دراسته، بحيث كان التلميذ الثاني في نيل الشهادة الابتدائية في مصر في احدى السنوات، مما جعل وزارة التعليم تقدره وتضمه إلى فرقة الكشافة، التي سافرت للبلاد الأوربية للاشتراك في بعض أعمال الكشف في فترة من الفترات.

وفي سنة ١٣٤٩هـ قدم مكة فاتصل بالشيخ عبدالله المحمد الحمدان المعروف بـ (أبو عليوي) وهو رجل من خير من عرفتُ خُلقًا ومروءة وشهامة، ومحبة لمساعدة المحتاجين، وعمه الشيخ عبدالله السليمان الحمدان وزير المالية، فرغب منه التوسط

(١) توفي - رحمه الله - في ٧/٥/١٤١٨هـ (٨/٩/١٩٩٧م)، وانظر عنه مجلة «العرب» س٣٣ ص٣٢٩ و٤٤٦.

لدى الوزير ليقابله، ويبدو أنه لم يجد فرصة تمكنه من ذلك، فسأله الشيخ عبدالله المحمد عن الغاية من اتصاله بالوزير، فأوضح له أنه يرغب العودة لمصر لمواصلة دراسته، وهو بحاجة إلى من يساعده، فما كان منه إلاَّ أن أعد له جواز سفر، وهيأ له إركابًا في إحدى السيارات إلى جدة، وفي الباخرة في الدرجة الثانية إلى السويس ومنحه مئة جنيه ذهبًا، وكان لهذا المبلغ إذ ذاك قيمته، فعاد إلى مصر وواصل دراسته، حتى تم ضمه بواسطة الشيخ إبراهيم بن محمد بن معمر إلى العثات سنة ١٣٥٨هـ، فأكمل دراسته في القاهرة، ثم سافر إلى أمريكا، وواصل الدراسة متخصصًا في شؤون البترول، وعاد في عشر السبعين من القرن الماضي، فعين مفتشًا في شركة أرامكو في الظهران، وكان قد تزوج فتاة أمريكية أحضرها معه، فحملت منه بابنه صخر، الذي ولد في «الدمام» وقد استشارني في تسميته، فاقترحت أن يسميه صخرًا، وهو اسم عربي قديم، ثم إن له ارتباطًا بعمل الطريقي نفسه، إذ اسم (بترول) مركب من كلمتين (بتر) وتدل على الصخر و(ول) هو الزيت، ثم تقلب في الوظائف وكان إذ ذاك في عنفوان شبابه. ذا تطلع واندفاع، وتأثر بما شاهده في البلاد التي عاش فيها في مصر، ثم أمريكا، من تَقَدُّمٍ في جميع مظاهر الحياة العامة بحيث كان ذا تأثر شديد، لما عليه بلاده، وأذكر أنه قدم لي مقالاً إذ ذاك – بعد أن استقررت في الرياض، وبدأت في إصدار صحيفة «اليمامة» طلب نشره، دون التصريح باسمه بل الاكتفاء بتوقيع (أبو صخر) إلا أنني بعد تخفيف بعض عباراته، نشرته موقعًا باسمه الصريح، بعنوان (إلى أين نحن مسوقون؟!)[1] ومع ذلك كان له من الأثر بالنسبة لي ما دفع الملك سعود –رحمه الله– حين علم أنني سافرت إلى مصر. بأمر يتعلق بإنشاء أولى مطبعة في الرياض، وذلك في شهر شوال سنة ١٣٧٤هـ – إلا أن أبرق للسفارة بترحيلي إلى الرياض، وكان القائم بالعمل الأستاذ جواد زِكْرِيْ، خيرًا فاضلاً، فاتصل بي وأخبرني بأمر

---

(١) نشر في ص٣٠ من الجزء الثاني عشر من السنة الأولى بتاريخ ذي القعدة ١٣٧٣هـ.

الملك، وبأنه سيبرق بعدم معرفة محل إقامتي، وينصحني بعدم زيارة السفارة والبقاء فترة من الوقت بمصر حتى تخف حِدَّةُ تأثر الملك.. فلم أعد إلى الرياض إلا بعد مضي شهرين، وكنت أطبع «اليمامة» قبل إنشاء المطابع - في بيروت.

ثم عين وزيراً للبترول، ولا أزال أذكر له يداً أسداها إليَّ أعجز عن شكرها، ففي أثناء الخلاف بين سعود وعبدالناصر اشتدت الحملة الصحفية المناصرة لكل واحد منهما، فانساقت صحف بلادنا إلى ما اندفعت إليه الصحف الأخرى من الإسفاف في المهاترات والسباب، وكنت أصدر جريدة (اليمامة) وكان المشرف على الإذاعة والصحافة والنشر عبدالله عمر بلخير[1]، وهو في الوقت نفسه مستشار للملك سعود، فكان يبعث إلى الصحف بمقالات لمهاجمة عبدالناصر، ويرغّب في نشرها باسم الصحيفة، إلاَّ أنني امتنعت عن هذا إلاَّ بأن تنشر باسم الإدارة العامة للصحافة والنشر، وأوضحت أن لبلادنا في العالم الإسلامي مقامها المتميز، فهي تُعَدُّ قمة هذا العالم وقُدْوته والوجهة التي إليها يقصد، في ترسم العمل بالتعاليم الدينية الإسلامية والآداب الكريمة، ولهذا لا يسوغ لنا أن ننزلق إلى ما انزلق إليه الآخرون، ولم أنشر في (اليمامة) كلمة يؤخذ عليَّ في نشرها، مع أنني أحمل لحكومتي ولبلادي من الوفاء والحب والتقدير والطاعة والإخلاص والنصح التام، مالا يحمله كثيرون من المنساقين في ذلك الاتجاه، وأدرك حالة الملك سعود -رحمه الله- وما أحيط به من بطانة لو سلم منها لما آلت الأحوال في البلاد إلى ما آلت إليه، فهو يحمل لبلاده من الرغبة في أن تبلغ جميع أحوالها خير ما بلغته أسمى البلاد تقدما، وإصلاحاً.

كان الملك مسافراً لعلاج عينيه في (أسبانيا) وفيصل خارج البلاد، فكان يوسف ياسين رئيس الشعبة السياسية يقوم ببعث التقارير للملك عن سير الأمور،

---

(١) ولد في سنة ١٣٣٣هـ بحضرموت وفي عام ١٣٤٥هـ قدم أبوه إلى مكة فدرس في مدارسها وتخرج من مدرسة الفلاح سنة ١٣٥٣هـ وابتعث إلى بيروت فدرس في (الجامعة الأمريكية) - «وحي الصحراء» ص٢٦٩ ط٢٠.

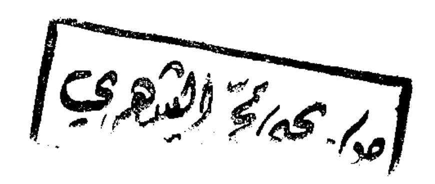
وكان الأمير طلال قد حدث الخلاف بينه وبين أخيه الملك سعود، فقدم إلى لبنان، فبعث إليه الأستاذ عبدالعزيز بن إبراهيم بن معمر صورة أحد التقارير، وكان عبدالعزيز سفيراً في سويسرا، وقد زار الملك في (أسبانيا) فاطَّلَع على أحد تقارير يوسف، فبعث صورة منه إلى الأمير طلال، وكانت لي صلة تعارف قديمة به، فأطلعني عليه لأنه تعرض لذكر (اليمامة) بما معناه بأن الصحف جميعها سائرة على ما يرام سوى جريدة (اليمامة) وبعد أن نال منها ومن صاحبها قال: ينبغي أن يُتخذ من الاجراءات ما يوقف صاحبها عند حَدّه لتسير الجريدة على النهج التي ترضاه الحكومة، فأمر الملك سعود -رحمه الله- بمصادرة «اليمامة» وبإدخالي السجن وتأديبي في الرياض فترة ثم حجز إقامتي في قريتي (البرود).

وكنت قبيل هذا قد سافرت إلى بيروت في أول شهر رمضان ١٣٨١هـ بموافقة فيصل -رئيس الوزراء- لإحضار عمال للمطابع التي أنشأتها، وكان الطريقي وزيراً للبترول، فعرض أمر الملك على مجلس الوزراء فأقره، فبعث إليَّ برقية من البحرين مضمونها: عدم قدومي وأن الأمر بالنسبة لي سيء، ثم بعد ذلك بلغني الخبر الذي صدر بحقي فقررت البقاء في بيروت، وحدث بعد فترة للأستاذ الطريقي ما دعا إلى تنحيته من الوزارة وانتقاله إلى بيروت، وإنشاء مكتب فيه، للاستشارات المتعلقة بالبترول، ولإصدار مجلة تهدف إلى أن بترول العرب للعرب، وقد حاول ما استطاع تَحقيق هذا الهدف منذ أن كان وزيراً. فوفق في كثير من المسائل المتعلقة بالاتفاق مع بعض الشركات المستغلة، واستمر على هذا النهج فيما ينتشر في مجلته، وما يبديه من آراء فكان أن أصبحت صلتي به قوية أثناء إقامته في هذه البلاد.

أُرَاني توسعت في موضوع الحديث عمن اتصلت بهم أثناء إقامتي في لبنان، وهو من السعة بحيث يتطلب تأليفًا شاملاً كنت اتجهت لجمع مواده، فأتت الحوادث على ما كان تحت يدي من ذلك، ولا أزال أُمَنِّي النفس بفعل ما اتجهت

لفعله، مما أراه احدى الوسائل التي أعبر بها عما أحمل لتلك البلاد من وفاء وتقدير، ولكن من أنَا والحديث عن لبنان؟! إن كل من عرف تلك البلاد وعاش فيها قبل نكبتها تلك يدرك ما تتصف به، بل تتميز به على غيرها من البلاد، لا من حيث جمال الطبيعة واعتدال الجو، ولا بما عرف عن أهلها من كرم ولطف، وحسن استقبال للغريب، ولا من توفر جميع وسائل الراحة لمن رغب الإقامة فيها، بل لعل أهم من كل ذلك ما بلغته من مستوى رفيع في السمو الفكري، بحيث أصبحت من أقوى المراكز العلمية لنشر الثقافة العربية في أرحب مجالاتها، وعلى تنوع فروعها، وما يتمتع به العلماء والباحثون وغيرهم من المقيمين فيها من إفساح المجال لهم بأوسع ما يتطلبون دون حدود أو قيود. في نشر آرائهم وأفكارهم من مؤلفات وأبحاث، ومحاضرات في محافل علمية، من جامعات وغيرها، وهم مع كل ذلك في غاية الطمأنينة مهما كانت تلك الآراء، ومهما طرقت من جوانب الحياة من سياسة واعتقاد، وغيرهما. في وقت قلَّ أن يجد المفكر الحر في تفكيره بين الأقطار العربية ما يطمئن للاستقرار فيه. رعى الله لبنان، ورعى تلك الفترة التي كانت بالنسبة لي من اهنإ حياتي، وأسعدها، وأحفلها بالعمل الدؤوب المثمر:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام!



في سوريـة

الصلات بين سكان الجزيرة غربها ووسطها وشرقها، وبين بلاد الشام خاصة ما يعرف الآن باسم سورية، كانت ممتدة وقديمة من أقدم الأزمان، فلئن وَجَدَتْ بعض قبائل غرب المملكة كجهينة وحرب وغيرهما منافذ إلى بلاد النيل من مصر والسودان فإن القبائل في شمال الجزيرة كعنزة وجدت مثل ذلك بل أرحب منه في بلاد الشام، بحيث استقرت فروع كثيرة من تلك القبائل لا تزال أصولها مستقرة في الجزيرة، وفي شرق الجزيرة كانت للسكان من القبائل العربية في أرياف العراق المتصلة ببلاد نجد المكان الرحب للاستقرار والبقاء.

ولا يخص هذا التنقل بين الأقطار العربية القبائل المتنقلة بل يشمل سكان المدن، فللصلات التجارية وللتقارب بين نجد والشام، ولاتحاد الأصول والاتفاق في الاتجاهات والغايات لكل ذلك أثره في تقوية مختلف الصلات، فضلاً عن الصلة الروحية التي هي أساس كل صلة.

لقد كان المذهب الحنبلي في دمشق وما حولها هو المذهب السائد القوي المنتشر الذي برز فيه عدد من العلماء في سورية كآل تيمية وآل قُدامة وغيرهم، فلا غرو والحالة هذه من أن تقوى الصلة العلمية بهذه البلاد من الحنابلة الذين يعد مذهبهم أقوى المذاهب النجدية، بحيث قَلّ أن يوجد فقيه نجدي لم يفد إلى الشام، ولم يستفد من علمائها، فلا عجب والحالة هذه أن تستقر أسر متحضرة كثيرة في المدن السورية، ولا عجب أن يُحِسَّ المرء المتنقل بين بلاد نجد وبلاد الشام أنه يعيش في بلاد واحدة لا تختلف عادات أهلها، ولا طباعهم ولا اتجاهاتهم عما ألفه في بلاده، ولهذا تجد من أمثال العامة في نجد: (الشام شامك إذا قَلّ حشّامك) أي إذا أحسست جفوة من بلادك فستجد في بلاد الشام ما ترتاح إليه.

تلك من الأمور التي لا تحتاج إلى الاسترسال في الحديث، والمناسبة مقتصرة على ذكر جانب يتعلق بكاتب هذه الأسطر خاصة.

لقد أحببت دمشق من أول زيارة قمت بها إليها، وكانت في شهر شوال عام ١٣٦٨هـ ثم تابعت الزيارات بحيث قل أن تمر بي سنة في خلال آخر القرن الماضي لم أزر فيها بلاد الشام.

لقد قدمت من بغداد التي أمضيت فيها شهر رمضان من تلك السنة، ثم كثر ترددي على دمشق ولا سيما حين كنت مقيمًا في لبنان، إذ أمضى في غالب الأسابيع ثلاثة أيام هي الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد أمضيها في دمشق، ولقد قويت صلتي بمثقفي هذه المدينة الكريمة من رجال العلم والأدب، ووجدت في (دار الكتب الظاهرية) من حيث تسهيل ما رغبت الاطلاع عليه من مخطوطاتها ما جعلني أمضي فيها كثيراً من وقتي حين أقدم دمشق، وفوق ذلك ما وجدته وأحسست به من رعاية وحسن استقبال من الإخوة الذين عرفتهم.

ولقد كان من أول ما زرت (المجمع العلمي العربي) لأنني كنت قدمت بغداد للبحث عن أصل مخطوطة[1]، فلم أجد سوى مخطوطات حديثة، فنصحني بعض الإخوة بالذهاب إلى دمشق ووصف لي ما في (دار الكتب الظاهرية) من نوادر، فلعلي أجد من بينها أصلاً لذلك الكتاب، غير أنني لما قدمت هذه المدينة الطيبة صرفني ما وجدته من علمائها وأدبائها من رعاية، وما أدركته مما يتصفون به من علم غزير إلى صرف النظر عن الغاية التي قدمت البلاد من أجلها، نظرة أخرى، فأنا وإن لم أكن أدركت بغيتي إلاَّ أنني استفدت ما هو أجل وأعمق أثرًا فيما أستفيد به من علم ومعرفة.

كثر ترددي على المجمع، وفي إحدى المرات قابلت رئيسه الأستاذ محمد كرد علي والأستاذ خليل مردم أمينه العام، والشيخ عبدالقادر المغربي وغيرهم من العاملين فيه، فوجدت احتفاء وحسن استقبال، وكانت زيارتي في أحد أيام الاجتماع، ولم أشعر بذلك، وجرى الحديث بينهم عن المعرّي، وكان المجمع قد أقام مهرجانًا حافلاً دعى إليه

---

(١) هي مخطوطة كتاب « بلاد العرب » الذي قمت بنشره فيما بعد.

العلماء من مختلف البلاد، ونشر عدداً من المؤلفات المتعلقة به إحياءاً لذكراه، وكنت أثناء وجودي في بغداد اطلعت على أحد مؤلفاته وهو « شرحه لشعر ابن أبي حصينة » فشاركت في الحديث في السؤال عن هذا الشرح، فقال أحد الحاضرين: لقد قام المجمع بطبع كثير من الكتب المتعلقة بترجمة المعري، ولم يذكر أحد من مترجميه اسم هذا الشرح بين مؤلفاته، فطلبت احضار كتاب ابن العديم عن المعري، وكان من مطبوعات المجمع، فإذا فيه نص صريح بأنه شرح شعر ابن أبي حصينة، وزدت على ذلك بأنني اطلعت على نسخة من هذا الشرح في مكتبة الأب أنستاس الكرملي التي ضمت بعد وفاته إلى (مكتبة الآثار في بغداد) فطلب مني الأستاذ محمد كرد علي أن أكتب وصفًا لتلك المخطوطة لنشره في مجلة المجمع، فقدمت ما استطعت تقديمه لنشره في المجلة، وبعد فترة صدر الكتاب بتحقيق الدكتور محمد أسعد طلس، نشره المجمع بعد العثور على مخطوطة أخرى في (مكتبة دير الاسكوريال بأسبانيا)، ولعل هذا من الأسباب التي هيأت لي الانضمام إلى عضوية ذلك المجمع مراسلاً[1].

وظل المجمع يراسلني ويكرمني ببعث مطبوعاته إليَّ، ومنها مجلته التي تُعَدُّ من أحفل المجلات بالأبحاث المتعلقة بالثقافة العربية بصفة عامة، ككتب التاريخ ووصف المخطوطات وغير ذلك، وقد نشرت لي بعض الأبحاث.

وممن كانت لي به صلة ومعرفة قبل زيارة دمشق الأستاذ الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار وكان مديراً للمعهد في مكة، حين كنت أحد طلابه في أول عام ١٣٤٩هـ، ثم تولى إدارة (دار التوحيد في الطائف) أول ما أنشئت، وله -رحمه الله- صلة ببلادنا قوية قديمة، إذ كان سلفي العقيدة الإصلاحية مناصراً لدعاتها، وناشراً لها، وله مؤلفات وأبحاث في ذلك، وكان ذا عناية خاصة بكل ما يتعلق بشيخ الإسلام ابن تيمية، وألف

---

(١) أشار الأستاذ أحمد علي أسد الله في مذكراته إلى أن الشيخ عبدالله المزروع كتب إليه بأنني رشحت لذلك من الشيخ محمد بهجة البيطار، والأمر بخلاف ما ذكر، وقد كان الشيخ عبدالله كثير التسرع دون تَثَبُّتٍ -عفا الله عنه وغفر له-.

كتابًا في ترجمته يعد من أوفى ما كتب عنه، وكان عند زيارتي لدمشق يسكن في (محلة الميدان) فزرته، ودعاني مرارًا إلى منزله، وإلى بعض المتنزهات خارج دمشق في الربوة مع عدد من الفضلاء، في إحدى المرات أذكر من أولئك الشيخ عبدالله القلقيلي قاضي مدينة (قلقيلية) في فلسطين، وكان يواصلني بالكتابة ويَبعْث إليَّ بعض مؤلفاته.

وأثناء زيارتي للقاهرة عام ١٣٧٨هـ وكانت لي بالشيخ محمود شاكر صلة قوية، فعرفت ممن يتردد عليه الأستاذ أحمد راتب النفاخ -رحمهما الله- وكان إذ ذاك يُعْنَى بتحقيق « ديوان ابن الدمينة » فجرى التعارف بيننا، وحضرت يومًا من الأيام وهو والأستاذ محمود يقرآن بعض تجارب الطبع من ذلك الديوان، فمر ذكر (الفِزْر) من رهط ابن الدمينة، فنبهته إلى أن صواب الكلمة هنا (الهزر) بالهاء، أما (الفزر) فهو لقب بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وأرشدته للمصدر، فذكرني غفر الله له فيما ألحقه بالديوان من استدراكات[1]، فكنت حينما أقدم من بيروت، واستقر في الفندق، وغالبًا يكون ذلك ليلاً، أسارع لزيارته فأجد من سروره وحسن استقباله، ومن المشاركة فيما يجري بينه وبين طلابه، إذ كان أستاذًا في جامعة دمشق، ما أستلذه وأرتاح إليه وأستفيد منه، وكان إذ ذاك له صلة بالعلامة الجليل الدكتور شاكر الفحام، الذي كان وزيرًا للتعليم العالي، أو إحدى الوزارات العلمية الأخرى، فكان يتصل به بالهاتف، فيزدان المجلس بحضوره، والأستاذ أحمد راتب في أخلاقه وفي علمه وفي حسن معاملته وتعمقه في المعرفة يعد غريبًا بين أهل زمنه، وكان يرتاد مجلسه كثير من ذوي الفضل والعلم والأدب ممن تعرفت ببعضهم كسهيل زكار وغيره.

ولقد عرفت في مدينة دمشق عددًا من أجلة المعنيين بتحقيق التراث كالدكتور عزة حسن والدكتور شكري فيصل والأستاذ عمر رضا كحالة كما عرفت الشيخ ناصر الدين الألباني بكثرة ترددي على (دار الكتب الظاهرية) إذ كان يُعَدُّ من

---

(١) ص٢٦٧.

أحلاسها، وقد كتب كثيراً من فهارسها، ونقَّب عن نوادر مخطوطاتها، وفي الوقت نفسه كان يعمل في إصلاح الساعات، له دكان صغير قرب باب الجامع الأموي، وكان بينه وبين الأستاذ زهير الشاويش صلة قوية، إذ كان الأستاذ زهير يُعْنَى بنشر مؤلفات الشيخ وغيرها، وامتدت تلك الصلة حتى دخلت فيها مشكلات (المادة) التي كثيراً ما تغير الأحوال وسبحان من لم يتغير.

أما الأستاذ زهير فقد انتقل إلى بيروت، واستمر (المكتب الإسلامي) وهو صاحبه بنشر المؤلفات القيمة مما يعهد به إليه بعض حكام (قَطر) وغيرهم، وكانت صلتي به على خير ما يرام إلى يومنا هذا، بحيث أكرمني منذ عهد قريب بمخطوطة من كتاب «بلاد العرب» للغدة الأصفهاني، وهي حديثة الخط، ولم يذكر مصدرها، ولكنني وأنا أفكر في إعادة نشر الكتاب أرى ضرورة الاعتماد عليها كغيرها من المخطوطات التي ذكرتها في مقدمة نشري لكتاب «بلاد العرب»[1].

والكلام عن دمشق وما تتصف به من حيث نشر الثقافة العربية الإسلامية وعن من فيها من ذوي العلم والفضل والأدب أوسع وأرفع من أن أوفي القليل اليسير بما يليق به من وصف، ومن أنا ومحاولة مثل هذا؟! مدينة يحلق بأمير الشعراء الخيال فيراها الدوحة السامقة التي انبعثت منها تيارات الحضارة الإسلامية فعمت الأندلس وامتدت إلى بلاد الرافدين، وغيرهما إذ يقول :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولازهت ببني العباس بغدانُ

ويصف أحد العلماء «تاريخ دمشق» لابن عساكر، الحافل بمناقب من حل هذه المدينة الكريمة بقوله: إنه تاريخ الإسلام ليس تاريخ دمشق فحسب، إذن فمن أنا لكي أحاول التحدث عن هذه المدينة الطيبة حديثًا مقنعًا وافيًا؟

لقد زرت مدنًا أخرى كثيرة منها حِمْص وحَمَاة، وحَلَب واللاذقية وغيرها،

---

(١) ص ٥١.

واجتمعت بعدد من أدبائها، وزرت بعض المكتبات العامة، كما زرت المَعَرَّة، بلدة الشاعر أبي العلاء المعري، وتجولت في كثير من الأنحاء السورية، فلم يتغير إحساسي خلال ذلك منذ أن عرفت هذه البلاد الكريمة التي أوفاها المؤرخون والكاتبون قديمًا وحديثًا بما هي جديرة به من وصف وإبراز محاسن.

أيام في بلاد الأردن

لم تكن الرحلة التي أتحدث عنها الآن أول رحلة إلى تلك البلاد، بل خامسة تلك الرحلات، وقد أتحدث عن بعضها في مناسبة أخرى.

واستجابة لدعوة كريمة من الإخوة القائمين على شؤون (المؤتمر الثالث لتارخ بلاد الشام) في (الجامعة الأردنية في مدينة عَمَّان) كان السفر من الرياض في صباح يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ (١٥/٤/١٩٨٠م) في الساعة التاسعة والنصف، واستغرقت مدة الطيران ساعتين ونصفًا، إذ كان الوصول الساعة الثانية عشرة بتوقيت الرياض (الحادية عشرة بتوقيت عمَّان).

جعلت نصب عيني في هذه الرحلة أن أقابل أي أمر يعترضني بعدم الاكتراث، وأن لا أتأثَّر ولا اهتم بشيء من الأمور التي قد تؤثر في النفس. وفي مطار الرياض أخرجت القلم لملء بطاقة جواز السفر، فأزلت غطاءه، ثم أعدته في جيبي بدون غطاءٍ، وكان مداده سائلاً فلم أشعر وأنا جالس في مكتب مدير المطار إلا بأحد الإخوة يشير إلى آثار المداد التي انتشرت فوق صدري. فأخرجت القلم وقلت للإخوة الجالسين مازحًا: لا بأس، ليعرف من رآني أنني أحسن الكتابة، وحمدت الله على أن أم محمد لم تر ما وقع لما اختارته لي من الثياب.

مع انني استفدت فيما يبدو لي- مالديها من العتاب في المرة الأولى التي لم يمض لها سوى يوم واحد، من حيث رغبتها بأن ألبس ما اختارت لي، فخالفتها، وسافرت على ما علي من ثياب، ولم يقنعها قول أبي الفتح البُستي :

وفي الطائرة كنت آخر من دخلها وآخر من خرج منها، وكان الجلوس بين أَخَوَيْنِ ملأ ما بين كراسيها بأمتعتهما بحيث سلمت الحقيبة الصغيرة التي أحملها للمضيفة التي أرشدتني إلى هذا المكان، وقعدت القرفصاء فوق الكرسي الذي لم يبق لي منه سوى وسطه، فقد أحيط جانبيه بذراعين عبلتين، من جسمين وهبهما الله من البسطة ما جعلني أبدو بينهما كفروج بين أبويه!!!

استرخيت في مكاني فغلبني النعاس، حتى كرم أحدهما بإيقاظي بعد أن وضع طبق الطعام أمامي، غير أنني لم استطع مغالبة النوم حتى أيقظني النداء للهبوط في مطار عمان، بعد أن رفع الطعام ولم أطعمه!

ها هي الطائرة تحاول اختراق طبقات المزن المتراكم، وها هي الأرض تزدان ببقع خضر، تتخللها مياه جارية تعكس أشعة الشمس حين تبدو من خلال السحاب صفاءها، لقد جاد هذه البلاد الغيث فهذه آثاره بدت واضحة بعد أن قربنا من الأرض، فالتلاع جارية، والغدران منتشرة، والمطر لا يزال يتساقط رذاذا.

وعلى سلم الطائرة لم أَتَوَقَّ ما أصابني منه. وذكرت الحديث الشريف: «إنه حديث عهد بربه» ولكنني غفلت عن الاختلاف العظيم بين جو البلاد التي قدمت منها، وجو هذه البلاد التي حللت فيها. إن فرق الحرارة بين البلدتين في هذا اليوم عشرون درجة، فهي هنا أربع درجات مئوية، بينما في الرياض نحو ٢٥.

وفي داخل الجمرك تناولت حقيبة ملابسي، حامداً الله على أنني خففتها مما اكرمتني به أم محمد من ملابس ثقيلة، ووقفت في وسط صف طويل، فلم أشعر إلا وأنا آخر الصف، بحيث لَفَتُّ نظر موظف الجمرك الذي استفهم عن وقوفي فأجبته (حتى يصلني الدور) فخجل من نفسه -فيما يظهر- وقال لسيدة كانت قد وضعت حقيبتها أمامه: (هذا قبلك)! ولقد صدق فلقد كنت قبل كثيرين غيرها! ورفض أن ينظر حقيبتها قائلاً لي (معك شيء للجمرك)؟ فكان الجواب: ملابسي وأوراقي

الخاصة، فأشار لي بالخروج، وخارج الباب - والرذاذ المشوب بالثلج يتساقط - تناول الحقيبة رجل يقاربني في السن قائلاً: (تكسي)! فقلت: نعم!! فأخذ يعدو يميناً وشمالاً إلى غير قصد، فاضطرني المطر إلى دخول (صالة المستقبلين) وجعلت أرمقه من بُعد، فلما فقدني رجع إلى الباب الذي خرجت منه، ووضع الحقيبة على مقربة منه ووقف تحت السقف، فأسرعت لأخذها بعد أن ازدان ظهرها ببقع ناصعة البياض من الثلج. ولما حاول أخذها مني قلت له: إلى أين؟ فخجل. واعتذر عن وجود (تاكسي) ولكنه طلب أجره عما فعل! وبقيت في (الصالة) حتى أبصرت شرطيًّا قريبًا مني فطلبت منه إرشادي إلى سيارة أجرة، وما أسرع من حضور رجل تناول الحقيبة ووضعها في سيارة كانت واقفة أمام باب (الصالة) وسار ينهب الأرض نهبا والمطر يهطل بغزارة، مشوباً بالثلج وكنت بجواره، قال: الأخ من تونس - قالها بصيغة التقرير لا الاستفهام - فأجبت: كيف عرفت؟ فقال: من لهجتك، أنا أعرف الناس من لهجاتهم. ياليتني مثلك! هذا ما أجبته به فأضاف: والأخ مسافر لدمشق متى؟ لا أدري يا أخي لكنني أحب البقاء في هذه البلاد الطيبة حتى أستريح من تعب الرحلة. صحيح صحيح!! أنا من الخليل ولي سنين ما زرت أهلي، (الملاعين) ما يمنعوننا ولكنهم (يبهذلوننا) وقت الزيارة! الله يكون في عونكم! أقبلنا على المدينة فقلت: أريد النزول في فندق تختاره لي!! ذكرت - وأنا أقول هذا - ما حدث لي قبل عشرين عامًا حين مررت ببلدة معان، وسكنت في مكان يدعى فندقًا، بِتُّ فيه كل الليل جالسًا في السطح، أجرد كما خرجت من بطن أمي، بعد أن افترس جسمي البق، ولم أجد مخرجًا من ذلك المكان لأن بابه قد أغلق لئلا يهرب سكانه. صار يسرد لي أسماء الفنادق، فاكتفيت بأن طلبت منه أن يختار أجَدَّها وأنظفها، وعند باب (فندق امباسادور) وقف وأمرني بالبقاء في السيارة حتى يعود إليَّ، فلما عاد فتح لي الباب وحمل معي الحقيبة، ولدى موظف الاستقبال وضعها وطلب أجرة حددها بأربعة دنانير، فاستوضحت من الموظف هل هي حقه، فسكت وأجاب صاحبي: هي الأجرة المحددة، وقد علمت فيما بعد أنه لم يتقاض أكثر من النصف

زيادة على ما يستحقه. وبعد ملء بطاقة الاستقبال بما تملأ به عادة سألني الموظف: من أي بلدة في تونس؟! مع أنه نقل ما كتب من جواز سفري!!

كان السكن مريحًا، فكل شيء شاهدته في الغرفة نظيف، وكان الطعام حسنًا، وإن لم أتناول منه إلا يسيراً، ويظهر أن تغير الجو فجأة أثر في صحتي فقد أحسست بصداع شديد، وبآلام في الجسم، فتناولت بعض الأدوية، وأخلدت للراحة حتى قاربت السادسة صباحًا. وقد حاولت فتح المرناة (التلفزيون) أثناء الليل فلم أحسن ذلك، فاكتفيت بسماع كلام لا أفهم معناه مع عدم رؤية المتكلم حتى غلبني النعاس.

(جاك يامهنا ما تَمَنَّى)[1]! ما أوسع هذا الفضاء القريب من الفندق وما أجمله!! لقد كسا أرضه العشب الأخضر، واخترقته الطرق المعبدة، الخالية في هذا الوقت من مرور السيارات. وها هي الساعة قد شارفت السادسة، ونور الصباح قد انتشر في كل مكان، والسماء قد حجبتها غلالة بيضاء رقيقة من الغيم، ومع أن لفع وجهي برد الهواء حين فتحت باب الفندق الخارجي كاد أن يثني عزمي عن الخروج لشدته، إلا أنني أسرعت في المشي، وأدخلت يديَّ في جَيْبَيْ معطفي، وسرت في أول منعطف يدع الفندق يمينه، وغالبت لفح الهواء القارس، وكان شمالاً شديد البرودة، مما دفعني إلى الانحراف عنه يسيرا، والسير في منعرجات توصل إلى دارات حديثة البناء، فأبصرت فوق أحدها كتابة ظننتها اسم فندق، فرفعت رأسي لمحاولة قراءتها وأنا متجه نحوها، حتى كدت أدخل بابها لولا أن صوتًا أجشَّ غليظًا: (وين يازلمه!!) صرف نظري عما شغلت به، بل صرفت كل حواسي، إنه شرطي يحمل (رشاشًا) قد أمسكه بيمينه، وهو محفوفز متوثب، ولعله توقع مني صيداً ساقه الله إليه! (هذا فندق نفرتيتي؟!) وكنت قرأت هذا الاسم في مدخل المنعطف: لا يازلمة هذي السفارة الليبية. يا أخي أنا ساكن في ذلك الفندق امباسادور، ومن عادتي المشي في مثل هذا الوقت. ولا أعرف هنا إلا الفندق، والعتب على النظر!! أنت سوري، وين هويتك؟ لا يا أخي أنا سعودي وهويتي وجواز سفري في الفندق. توكل على الله، وامش من هنا! وسار معي خطوات

---

(١) مثل نجدي يضربُ لمن يجد ما هو بحاجة إليه، بدون توقع وجوده.

حتى أبعدت (عن الداب وشجرته)[1]!!

من طباعي أنني طُلَعَةٌ - كثير التطلع إلى ما يلفت النظر - وكثيراً ما استهواني ما أشاهده من العناوين، إذا كانت كتابتها جميلة، أو فيها شيء من الغرابة، وأذكر أنني صبيحة أول ليلة بتها في مدينة القاهرة في عام ١٣٥٨هـ حين بعثت للدراسة، رأيت على مقربة من دار البعثة، وكانت في حي (الحلمية الجديدة) دكانًا كتب فوق بابه (حانوتي الحلمية) ولم أكُنْ أعرف معنى هذه الكلمة، إذا الحانوت هو الدكان، فأطلت الوقوف أمامه، حتى خرج منه رجل من أقبح من رأيته من الناس خلقة، وكانت أول ساعة خرجت فيها من المنزل، وقد لبست أجمل مالدي من الملابس، عقالا (مقصبًا) فوق (الشماغ) وعباءة وبر، وحذاء (نجديًا) وثوبًا جديداً. فلما أبصرني الرجل كانت أول كلمة سمعتها منه: (يافتاح يارزاق ياكريم). أهلاً بشيخ العرب!! ثم صار ينادي: يابو حنفي يابو حنفي فأجابه صوت أجش ممزوج بسعال متواصل: حاضر حاضر!! فخرج رجل شبه عريان، قد استرخى بطنه حتى كاد يبلغ قريبًا من ركبتيه. فقال صاحبي الأول: أهو زبون بس لِسَّه ماشي على رجوله. وقال الثاني: خدمة ياشيخ العرب. مستعدين؟! - ومط الياء حتى صارت ياءين - داخلتني الريبة من منظرهما ومن كلامهما، فأسرعت الانصراف، وعدت إلى المنزل.

ولما حدثت الأخ إبراهيم السويل - رحمه الله - بخبري معهما استغرق في الضحك، ثم قال مازحًا الحمد لله على السلامة!!

اتخذت في سيري وجهة أخرى حتى تجاوزت الفندق منحدراً من طريق واسع معبد، وشاهدت أمامي رجلاً بدينا قصيراً قد أقبل نحوي يعدو، فوقفت حتى تجاوزني وأوشك أن يبلغ الفندق ثم رجع، فلما حاذاني تجاوزته في العدو، ولكنه سبقني، فأتبعته بصري حتى شاهدته داخلاً إحدى الدارات القريبة، ثم رأيته يدور في حوشها، فدفعني الفضول إلى دخول الحوش، ولكن كلمة (مرحبا) نبهتني إلى رجل مسلح واقف في مكان مخصص له خارج الدارة فقلت: أهلاً بالأخ ظننت هذا المكان من الأندية الرياضية، لأنني رأيت الرجل يركض داخله! كان صاحبي هذه المرة

---

(١) مثل نجدي يقصد منه التحذير من قرب ما يحاذر منه.

شاباً مشرق الوجه فقال: هذه السفارة الصينية، ومن عادة الصينين في الصباح كثرة الجري، وأنا شفتك تجري مثله، وأنت ما تعودت مثلهم، والطريق هذا ممر للسيارات وهو خطر. فشكرته بعد أن رحب بي كثيراً حين عرف بلادي، وأشار إلى تل واسع بقرب الفندق، لكي اتجه نحوه، ولكنني لم أكد أخرج من الطريق الممهد حتى غاصت قدمي إلى منتصف الساقين في أرض وَحْلة، قد ارتوت من المطر، فاضطررت إلى خلع حذائي، وإزالة بعض ما علق بهما من الطين بالحصا والعشب، وحملهما والعودة إلى الفندق حافياً، ولكنني كنت أتمتع بقسط كبير من الراحة والنشاط، والابتهاج. وقديماً وصفت الأردن بأنها أرض غمقة فقد أورد الأزهري في كتاب «تهذيب اللغة»[1] ما نصه: (وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح: إن الأردن أرض غمقة، وأن الجابية أرض نزهة، فاظهر بمن معك من المسلمين إليها. قال الأزهري: النزهة البعيدة من الريف والغمقة: القريبة من المياه والخضر والنزوز، وإذا كانت كذلك قاربت الأوبئة أما الآن فقد تغيرت حالة هذه البلاد، فأصبحت الآن أرضا نزهة ليست غمقة. وجوها في فصل الربيع من أجمل الأجواء وألطفها.

إلى مقر السفارة: وهي عادة اتبعتها في جميع أسفاري، حين أقدم بلداً فيه سفارة لبلادنا أبادر بزيارتها، ففيها قد أجد من الإخوة من أعرفه فيطلعني على ما جد من أخبار، وقد أطلع عليها، وأهم من هذا وذاك أسجل جواز السفر، وهذا أمر يتساهل فيه بعض من يسافرون إلى خارج البلاد، ممن لم يفكر بما يترتب على فقدان جواز سفره من مشقة.

ها هي السفارة، وها هو الشرطي عندما رآني متجهاً نحو الباب يعترضني سائلاً عما أريد: أنا سعودي وأرغب زيارة أي موظف هنا، ولكنه يسألني عمن أعرف! يا أخي أعرف السفير الشيخ إبراهيم بن سلطان. وإذا كانت زيارته غير ممكنة فها هو جواز سفري أريد تسجيله. فأجاب: السفير غير موجود، وتسجيل الجوازات في القنصلية، ووصف موقعها لسائق سيارة الأجرة التي أتيت فيها. وكان الشرطي الواقف عند بابها أكرم من صاحبه، فلم يعترضني في الدخول، ولكنني بعد أن صعدت سلماً ليس طويلاً ومع ذلك أتعبني صعوده، وبلغت الباب إذا بصوت أجش يصاحبه وقع أقدام من

---

(١) ج١٦ ص١٥٣.

رجل يحمل بيديه الثنتين خرطوماً يثج منه ماء بقوة، كان يسقي به ما في الحديقة من أشجار، ويغسل السلم وما حوله: وين رايح؟ فرفعت جواز سفري بيدي وأنا ألهث من أثر الصعود، ومن أثر البرد الذي أصابني بالأمس. انزل انزل!! من الباب الخلفي فقلت: يا أخي دعني أدخل عند أحد الإخوان لأستريح. ممنوع ممنوع! فأطل عليه الشرطي ويظهر أنه أشار إليه ليسمح له بالدخول. ولكنه زاد في لجاجته: ما أحد يدخل! مع الباب الثاني! مع الباب الثاني! ومن ذلك الباب - بعد استدارة طويلة وفي مبنى منفصل عن هذا المبنى - دخلت، فإذا حوش واسع امتدت فيه صفوف ثلاثة طويلة، وعدد قليل من رجال ونساء يظهر أنهم فضلوا الجلوس، إن لم يكونوا سئموا من الوقوف. ذكرني ما رأيت ما شاهدته في السفارة الإنجليزية في القاهرة، كان المراجعون للحصول على سمة دخول أكثر بكثير مما شاهدته، ولكن الواحد منهم يقدم جواز سفره وما معه من أوراق، ويُهَيِّئ ما تلزم تهيئته من كتابة الايضاحات المطلوبة منه في أوراق مخصصة لذلك، ثم يناول كل ذلك لأحد الموظفين، فيقدم له ورقة صغيرة فيها رقم جوازه، وتحديد الوقت الذي يحضر فيه إلى السفارة لاستعادته، تحديداً دقيقاً، باليوم والساعة والدقيقة، فإذا حضر أخذ مجلسه في صالة واسعة قد صفت فيها الكراسي التي يتسع الجلوس عليها لكل المراجعين في ذلك الوقت، وسرعان ما يسمع صوت النداء بذكر الرقم الذي يحمله، إذا أتى في الوقت المحدد له. ولقد حدثت الأخ محمد بن غيث مدير جوازات الرياض بهذا، وتمنيت أن أرى في بلادنا مثل تلك الطريقة التي تحفظ للمرء كرامته، وتيسر إنجاز أمره، وتحول دون إرباك الموظفين، واشغالهم عن أعمالهم بكثرة المراجعين، فوعد خيراً وقال: إن المبنى الجديد لإدارة الجوازات روعي فيه أن يكون على أحدث نظام، وأطلعني على نموذج مصغر له، وشرح لي طريقة الحصول على سمات الخروج للأجانب ولغيرهم. ولكنه لم يستطع أن يصف لي مدى استجابة كل مراجع للتقيُّد بالأنظمة وتقبل وسائل تطبيقها!

أبصرت حجرة في جانب الحوش كتب على بابها (الاستعلامات) فزاحمت بعض داخليها، ورميت بجسدي على أقرب كرسي. فقد أحسست بقليل من التعب،

وانتابني سعال متواصل، وبعد استراحة قصيرة، قربت من شاب رحمته من كثرة إشغال الهاتف له واشتغاله به، وقدمت له جواز سفري مبديًا رغبتي بتسجيله. فقال: لا داعي لتسجيله. فقلت وإذا ضاع مني؟ فتحدث بالهاتف حديثًا فهمت منه أن طلب أحدًا يبعث معه الجواز إلى مكان آخر. ولم أستطل الوقت فأنا بحاجة إلى الاستراحة. فلم أشعر إلا بأحد الإخوة يوجه إلي هذا السؤال: هم أخذوا منك تعهدا في الحدود بأنك تسجل هذا الجواز؟! فاستفزني غضبًا وتناولت منه الجواز، وقلت للأخ الجالس على المكتب: أرجو أن تسجل الرقم والتاريخ والاسم عندك في ورقة إذا كان هذا ممكنًا ويظهر أنه أراد مني إخلاء الكرسي ففعل، وناولني الجواز، فانصرفت!

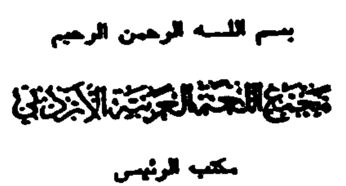
في مكتب الملحق الثقافي : والأستاذ إبراهيم بن عبدالله بن عمار الملحق الثقافي في هذه البلاد بيني وبينه من الصلة ما يوجب زيارته، ولحسن الحظ فصاحب السيارة يعرف مكتبه في جبل الحسين، دوار فراس، إنه يعرف كل موضع أسأله عنه، فهو خبير بشوارع عمَّان و(دواراتها) الأول والثاني. والسابع وهلم جرا، وله سبع عشرة سنة في عمله.

ها هو جبل الحسين وها هي وزارة التجارة والصناعة. وهذا سمو الأمير محمد خارج منها. تلك سيارته السوداء! منذ يومين مررت مع الطريق مسرعًا، لأسبق سيارة مرت بجانبي، فلما تجاوزتها إذا هي سيارة جلالة الملك. نعم! جلالة الملك وحده في سيارته. تركني مررت. إنه متواضع متواضع مع كل أحد! يا أخي أخشى أن نكون تجاوزنا مكتب الملحق الثقافي! لا! لا! ولكننا أخذنا طريقًا آخر، علشان أفرجك على مباني الوزارات ثم ها هو قصر حلالة الملك. انظر! انظر!. ما شاء الله! يا أخي لنترك مشاهدة بقية الوزارات والقصور ليوم آخر، ولنذهب إلى مكتب الملحق! صحيح صحيح! وأنا ما (فكيت الريق) تجلس عنده، تشرب القهوة والشاهي وتنبسط وأنا... تفضل إنزل! ولم يشعر الابن إبراهيم وقد أخفى وجهه بين أوراق يقرأ ما فيها إلا بتحية الواقف أمامه تصرفه فجأه عما هو فيه.

وبعد كرم الاستقبال، والاتصال بالخطوط السعودية لتحديد سفري يوم الخميس (٩/٦/١٤٠٠ - ٢٤/٤/١٩٨٠م) وزيارة الأخ الأستاذ عبدالحميد مالكي مدير

الخطوط، فقد عرفت الرجل في الرياض وفي بيروت معرفة رأيت من حق الوفاء لها أن لا أمر ببلدة فيها ثم لا أراه. ولقد عرفت جده الشيخ جمال مالكي في آخر حياته وكان من أجلة العلماء، وله مؤلفات معروفة في النحو وغيره، وله ابن هو الأستاذ عبدالغني تزاملنا في الدراسة في (المعهد السعودي) بمكة، وهو عم الأستاذ عبدالحميد. كان الأستاذ عبدالحميد بعث برجل يأتي له بتذكرة السفر التي باسمي، فذهبت معه، ثم عدت لمكتبة الملحق الثقافي الأستاذ إبراهيم الذي أبى كرمه حين أبديت له رغبتي في زيارة (مجمع اللغة العربية في الأردن) إلا أن نذهب معًا.

كنت تلقيت قبل سفري من الرياض من الأستاذ الجليل الدكتور عبدالكريم خليفة رئيس هذا المجمع كتابًا هذه صورته.





المملكة الأردنية الهاشمية

ص.ب (١٣٢٦٨) ـ عمان

الرقم: م ل ع/ ١/ ٤٠٩
التاريخ: ٦/ جمادى الاولى / ١٤٠٠هـ.
الموافق: ٢٢ / آذار / ١٩٨٠ م.

سيادة الاخ والزميل الاستاذ حمد الجاسر المحترم

يسرني أن أبلغكم أن مجلس مجمع اللغة العربية الاردني في اجتماعه السابع والاربعين، بتاريخ ٢٩/ربيع الثاني / ١٤٠٠هـ. الموافق ١٦/ آذار / ١٩٨٠ م.

قد قرر تعيينكم عضوا مؤازرا فيه، تقديرا لفضلكم وخدمتكم الجليلة للغة العربية العزيزة.

وانني اذ أهنئكم بهذا التعيين، لأرحب بكم زميلا كريما في مجمعكم الاردني.

متمنيا لكم التوفيق والسعادة.

حفظكم الله

نسخة الى الملف الشخصي

رئيس المجمع

الدكتور عبد الكريم خليفة

فكان علي أن أزور هذا المجمع لأعبر بما أستطيع التعبير عنه من الشكر والاعتراف بالفضل لهؤلاء الإخوة، الذين بلغ بهم حسن الظن بي إلى اضافة اسمي إلى أسماء أجلة العلماء في الشام ومصر والعراق.

وفي (المجمع) كان الاستقبال الحسن من الأستاذ عبدالحميد علي الفلاَح من أمناء المجتمع، ومن الأستاذ عبدالرحمن بشناق أحد أعضائه، وكان الرئيس الدكتور عبدالكريم في (الجامعة) فهو رئيس (قسم اللغة العربية) فيها. وبعد لأْي استطعت التخلص من الابن الكريم ابراهيم، ولم أخبره باسم الفندق الذي أسكنه، ولكنني وعدته بأن أتصل به في خلال أربع وعشرين ساعة.

كان مما قرأت في الجريدة التي وجدتها صباح اليوم في غرفتي وهي «الرأي» خبران وقفت عندهما طويلاً أحدهما نبأ وفاة الفيلسوف الوجودي المعروف جان بول سارتر - يوم الثلاثاء ٢٩ / ٥ / ١٤٠٠هـ - ١٥ / ٤ / ١٩٨٠م، عن ٧٤ سنة، بعد صراع مرير مع الشيخوخة والمرض، على ما جاء في نبأ وفاته، وبصرف النظر عما أحيطت به آراؤه ونظرته إلى الحياة من غموض فإنه بدون شك من أفذاذ الكتاب الذين برزوا في هذا العصر. أو كما رثاه رئيس الجمهورية الفرنسية ديستان: (كان شعاعاً من أشعة الفكر في عصرنا فخبا). والموت - وإن كان غاية كل حي - إلا أن لذِكْرِه مرارة في النفس تعصف بها حتى تكاد تصاب بالذهول.

وتصدرت تلك الجريدة - كلمات تتضمن تهنئة الأميرة بسمة بنت الملك طلال بن عبدالله بن الحسين بزواجها. وهذا هو الخبر الثاني، وإن كان بصورة إعلانات تجارية، وإن كان خبر الزواج أيًّا كان من الأخبار التي لا يوبه لها. إلا أن زواج أميرة تنتسب إلى الأسرة النبوية الكريمة برجل عرف بِعِصاميته لا بأصالة نسبه من الأمور التي يجب أن تستفاد منها العبرة.

لن استرسل في الحديث عن الكفاءة في الزواج، فمن ذا الذي يجهل الأثر الشريف: «إذا أتاكم من ترضونه دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

ولخبر هذا الزواج ارتباط وثيق بحادثة جرت في أول عشر الثلاثين من القرن الماضي، فقد قدم من الحجاز إلى بلدة ثرمداء في نجد رجل ينتمي إلى الأسرة الهاشمية الكريمة، يدعى سعد الشريف، قدم في أول القرن، فتزوج من تلك البلدة امرأة من أسرة آل مُجَيْوِل، فولدت له ابنة ثم عاد الرجل إلى الحجاز، وفارق زوجته وابنته، فلما بلغت البنت مبلغ النساء تزوجها رجل كريم النسب من العناقر أمراء بلدة ثرمداء يدعى عبدالمحسن بن محمد العنقري وقد تولى إمارة البلدة بعد استيلاء الملك عبدالعزيز عليها، فما كان من أحد أعداء هذا الرجل إلا أن أوصل خبر زواجه بابنة الشريف إلى شريف مكة في ذلك العهد عون الرفيق، فأخذته النخوة الجاهلية، وأمر بمنع حجاج الوشم من العودة إلى بلادهم حتى يؤتى بتلك السيدة الهاشمية وتفصل من زوجها قسرا، تُنزع منها ابنتها الطفلة التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها فأرغمت المرأة على ذلك وأخرجت من بيتها وحجزت في بيت آخر وحدها حتى تم تجهيزها وإعادتها إلى والدها في الحجاز، على أسوإ حالة من القهر والإذلال.

إن وجه العبرة في الخبرين تتجلى حين يتضح الفرق بين ما حدث في ذلك الزمان وما يحدث الآن، وتبرز العبرة أكثر وضوحًا حين يشعر المرء بأن تيار الحياة أقوى من أن يوقف في مجراه، ومن الخير كل الخير السير على قواعد الشريعة السمحة، التي وضعت للكفاءة في الزواج أسسًا ثابتة تصون الكرامة للإنسان وتحول بينه وبين طغيان العواطف. التي تميز بين الناس بمميزات لا يقرها عقل ولا دين. «إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي».

عندما قابلت الأستاذ إبراهيم العمار صباح يوم الخميس (٢/٦/١٤٠٠هـ - ١٧/٤/١٩٨٠م) بادرني قائلاً: عرفنا الفندق الذي أنت نازل فيه، إنه (فندق تايكي) وقد أخبرني الأخ عبدالحميد به فأظهرت التصديق، فلقد ذكرني بقصة جحا التي تروى أنه كان يضع في رقبته خيطًا أبيض، ويضع في رقبة أخيه خيطا

أسود، لأنهما ينامان في مكان واحد، ويخشَى جحا أن لا يفرق بين نفسه وأخيه، فعمدت أمهما في إحدى الليالي إلى نزع ما في رقبة أحدهما وتعليقها في رقبة الثاني، فلما أصبح جحا ورأى الخيط الأسود في رقبته، التفت إلى أخيه قائلاً: يا أخي أنت أنا، وأنا أنت؟؟. وإن لم يبلغ بي الأمر إلى هذا الحد من الشك بحيث أتصور أنني النازل في (فندق تايكي) ولحسن الحظ أنه لا يوجد في الفندق صباح اليوم من يدعى (حمد الجاسر) على ما أفاد موظف الاستقبال فيه، عندما اتصل به الأستاذ إبراهيم. ولكن في المساء أتصل الأستاذ ركس بن زائد العُـزَيْزي بالفندق الذي أسكنه، وقد أخبرته به، وعرف رقم الغرفة، فعرف عامل الهاتف باسمي وذكر له البلد ورقم الغرفة، ولكنه وصله بإنسان آخر حادثه محادثة طويلة، وأخبره بأنه في انتظاره، وذكر له رقم غرفته، فظن أنني انتقلت من غرفتي التي عرفها، وتوهم تغير صوتي من أثر الزكام، ولكنه فوجِئَ عندما طرق باب الغرفة بشاب يفتح له ثم يرحب به، ويقدم له نفسه الدكتور حميدان بن عبدالله الحميدان موفداً من جامعة الرياض للاشتراك في (ندوة اقتصادية) تقام هذه الأيام في عَمَّان؟ وقابلني الأستاذ العزيزي بعد ذلك ضاحكًا: لقد غيرت كل شيء. الغرفة والاسم واللقب وأصبحت في ريعان الشباب: فأجبته بقول كُثَيِّر: ومن ذا الذي ياعز لا يتغير.

وكلمة موجزة عن الأستاذ العزيزي - بضم العين - فهو عربي من قبيلة العزيزات، التي تنتمي إلى شيبان، ولا أريد التوسع في الحديث عن شيبان هؤلاء وعن صلة القبيلة بسدانة العزَّى، فقد بلغت في دراسة أصول الانساب العربية القديمة إلى نهاية ارتضيتها لنفسي ولا يرضى بها كل من يعني بدراسة هذا الجانب من التاريخ العربي القديم.

عرفت الأستاذ ركس بن زائد العزيزي أول ما عرفته بطريق تحقيقات الأستاذ أنستاس ماري الكرملي، فقد نشر شيئًا مما كتب الأستاذ العُزيزي في ملحقات كتاب «النميات» أو «علم النقود» وكتاب «الإكليل» الجزء الثامن للهمداني، فاستهواني

ما قرأته من كتاباته لصلتها القوية بالتراث العربي الذي لم يسجل بعد من تاريخ العرب، وخاصة ما يتعلق بالشعر العامي والعادات والتقاليد في العصور الأخيرة.

ثم اجتمعت به أثناء انعقاد (المؤتمر الحادي عشر للأدباء العرب) في الجزائر، وأفضل باتحافي بكتاب ألفه بعنوان «قاموس العادات الأردنية» في ثلاثة أجزاء، ومع استمتاعي واستفادتي من هذا الكتاب ومحاولتي إرجاع كثير من تلك العادات إلى جذورها التاريخية في قلب جزيرة العرب، إلا أن الكتاب استعير مني ثم لم يرجع وما علقته كان في هوامش ذلك الكتاب.

ثم لما قدمت عمان هذه الأيام، ورأيت اسم الأستاذ العزيزي بين أسماء أعضاء (مجمع اللغة العربية الأردني) المؤازرين، أبهجني هذا، فاتصلت به، فأفضل بزيارتي، وأمضيناها سويعات غبنا عن عالمنا في جو أبعد ما يكون عنه، وقد أدركت أنه من الأفذاذ في سعة الاطلاع على عادات أبناء البادية ومختلف أحوالهم، وكتابه «فريسة أبي ماضي – أول دراسة علمية للشعر في البادية» على إيجازه ينم عن عمق فهم للموضوع الذي طرقه، وخاصة في هذه البلاد – وقد طبع سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م – وموضوعه – مع طرافته – كان ذا عناية لدى المعنيين بدراسة الشعر الحديث، فقد أثبت فيه أن الشاعر المعروف ايليا أبا ماضي أغار على قصيدة لشاعر بدوي يدعى علي الرميثي من الفدعان من عنزة فصاغ معانيها بقصيدته المعروفة:

يا أخي لا تشح بوجهك عني ما أنا فحمة، ولا انت فرقد

وكان والد الشاعر ايليا من رواة قصيدة الرميثي.

وللأستاذ العزيزي مؤلفات وأبحاث كثيرة منها «المنهل في تاريخ الأدب العربي» في أربعة أجزاء «أسرار نكبة البرامكة» و«وسوم القبائل» و«جوف الصحراء» و«أزاهير الزهراء» وغيرها.

وهو – بالإضافة إلى صلته بمجمع اللغة، ورابطة الكتاب الأردنيين، ممثل الرابطة الدولية لحقوق الإنسان، وفي هذه الأيام عين –بأمر ملكي– عضوا في (المجلس

الاستشاري) الذي حل محل (المجلس النيابي) في الأردن عند تعذر اجراء انتخابات في الضفة الغربية بعد حرب سنة ١٩٦٨م.

والعزيزي ذو اعتزاز بعروبته مظهراً وخلقًا وفكرًا.

وعودة للحديث عن التغير والتغيير.

لقد حاولت ذلك قبل عشر سنوات، حين قيل لي إن في (رومانيا) طبيبة تدعى (أنا أصلان) تعيد الشباب بدواء اخترعته (H3) فمكثت أتردد عليها أسبوعين تجرب عليَّ مختلف الأدوية حتى وثقت من ملاءمة ذلك الدواء لجسمي، فتزودت منه بما استعملته نصف عام، غرزاً في اللحم، وبلعًا في الفم، فلعل تأثير ذلك الدواء تأخر إلى وقته المناسب. إنها قالت لي أول ما رأتني : لقد أدركتك الشيخوخة قبل أوانها، فعسى أن يكون سر دوائها لا يؤثر في المرء حتى يدرك الشيخوخة في وقتها؟

أخبرني ملحقنا الثقافي بأن رئيس (مجمع اللغة العربية الأردني) اتصل به سائلاً عني، فكان الذهاب إلى المجمع ومقابلة رئيسه الأستاذ الجليل الدكتور عبدالكريم خليفة، وكان حديثًا طويلاً حول المجمع، وما يبذله القائمون بشؤونه في سبيل اللغة، من معالجة أسباب ضعفها، وتعريب المصطلحات الأعجمية المستعملة في الدوائر والمؤسسات الرسمية، وتعريب التعليم العلمي في الجامعات.

ومع حداثة إنشاء هذا المجمع (بدأ عمله في شوال ١٣٩٦هـ - تشرين أول سنة ١٩٧٦م) إلا أن لدى الإخوة العاملين فيه - ولا سيما رئيسه الجليل - من الرغبة القوية والنشاط، والغيرة على اللغة والحفاظ على كرامتها ما يفعم القلب سرورا، ويملأ النفس أملا طيبا.

لقد كان الإخوة - منذ أن بدأ المجمع بنشر مطبوعاته - يكرمونني ببعثها إليَّ، في خلال السنوات الماضية، ولكنها ترسل إلى جدة، وكذا كان يفعل الإخوة في (المجمع العلمي الهندي) في (عليكرة) في الهند الذي أفضلوا عليَّ بوضع اسمي بين أسماء

أعضائه المراسلين منذ إنشائه، ولكنني لم أعلم بهذا حتى قدم لي أحد أولئك الإخوة الجزء الأول من مجلة المجمع، وكتاباً من الأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد، أمين ذلك المجمع، فيه عتب محمود لعدم إجابتي على ما كتبوا به إليَّ، وأَحْبِبْ بعتاب الإخوة إلى النفس:

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقي العتاب

لقد كان عنواني - على ما هو منشور في الجزء الأول من مجلة (المجمع العلمي الهندي) في السعودية جدة؟ ولهذا فليس غريباً أن يبتلع بحرها ما يبعث إليها، باسمي من مطبوعات وكتب.

لم أر في المجمع الأستاذ عيسى الناعوري، وهو أمينه العام ومن أعضائه، ولكن الرئيس الدكتور عبدالكريم خليفة أخبرني بأنه أصيب بنوبة قلبية (جلطة) وهو في المستشفى وقد لا يسمح بزيارته الآن.

لقد عرفت الأستاذ الناعوري أول ما أصدرت «اليمامة» مجلة في عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) وكان يتحف قراءها بسلسلة من المقالات الأدبية عن شعراء معاصرين، وكنت كل مرة أزور عمان أحرص على مقابلته فأجد من لطف خلاله وكرمهما ما جعلني أرى أن من عدم الوفاء أن أغادر هذه البلاد قبل رؤيته.

وفي داخل (مدينة الحسين الطبية) اتصلت به بالهاتف عن طريق مكتب المدير وبواسطة فتاة[1] تعمل في ذلك المكتب وتعرف، الأستاذ الناعوري - ومن الذي يجهله في هذه البلاد؟ - كنت علمت من الدكتور عبدالكريم خليفة بأنه سيخرج من المستشفى يوم الأحد، ولكنني صدمت حين قيل لي: إن الطبيب لا يسمح لأحد بزيارته، وبعد وساطة من تلك الفتاة اتصلت به فعبرت له عن سروري حين علمت بأنه سيخرج قريباً من المستشفى، فقال: كان ذلك مقرراً، وحدث ما لم يكن في الحسبان، فقد قرر الأطباء إجراء (عملية) في الشرايين للقلب.. حاولت

---

(١) من بيت الأفغاني، ووالدها محمود كان مشهوراً في هذه البلاد، وقد حج في إحدى السنوات فأكرمه الملك فيصل بدعوته لحضور غسل الكعبة، وأهداه قطعة من كسوتها، دعتني تلك الآنسة لأراها معلقة في البيت فاعتذرت!!

ما استطعت أن أطمئنه وأن أحول بينه وبين الاسترسال في الكلام، فكان آخر ما قال لي: أريد أن أراك! وكررها، وقد كررت له الوعد بذلك، وعدت من المستشفى منقبض النفس، ولكنني أعللها بأن أرى من إشراقة وجه الأستاذ الناعوري وتهلله وسماحة نفسه ما رأيته منه حين أكرمني بدعوته إلى منزله. وعرفني بأسرته فرداً فرداً قبل خمسة عشر عاماً، وأفضل عليَّ في ما أفضل بمجموعة من مؤلفاته.

لقد عرفت أن سكنى وفود (المؤتمر التاريخي) في (فندق تايكي) وهذا لا يبعد عن الفندق الذي أقيم فيه أكثر من ميلين - على ما ذكر لي سائق السيارة الذي أشار إلى جهته - وفي صباح الجمعة (٣/٦/١٤٠٠هـ) خرجت الساعة الخامسة والنصف، وسرت وجهة ذلك الفندق، وفضلت سلوك الطرق المتعرجة التي تبعد بي عن الأمكنة المأهولة، وتمكنني من السير كما أريد، غير متعرض لفضول بعض المارة، ويظهر أن ما أحسست به من جمال منظر التلال المكسوة بمختلف النبات، استهواني حتى لم أشعر بمضيٍّ الوقت، ولم أحس بالتعب من كثرة المشي، وهذه المنطقة التي أسير فيها تدعى (الشميساني) وهي من أحدث أحياء عمان، وأنزهها، وأجملها منظراً وخاصة في هذا الفصل، فصل الربيع، وبعد هطول الأمطار الغزيرة.

لتكن العودة إلى الفندق، فقد قاربت الساعة الثامنة. ولكن أين يقع؟ لأشرف من هذا التل لعلي أبصره أو أرى الشارع المار به. ما هذا؟ بناء حديث قد الصقت به لافتة كبيرة تحمل كلمات ترحيب بوفود المؤتمر، إنه (فندق تايكي)[1] ولم يتوان موظف الاستقبال عن تحقيق رغبتي في إطلاعي على أسماء الوفود، حين علمت منه أن جميع المدعوين قد هيئت لهم غرف هنا. ومن بين من عرفت الدكتور عبدالله العثيمين من جامعة الرياض والدكتور عبدالله الشبل من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والدكتور عبدالفتاح أبو علية من جامعة الإمام محمد بن سعود.

---

(١) يقول الإخوة المشرفون عل هذا الفندق أن (تايكي) اسم ربة الحظ عند اليونان في عصرها الوثني حينما كانت تعبد ارباباً متفرقين، وانها ابنة أعظمهم زفس (زيوس) ويعتقدون من خرافاتهم أنها كانت تحرس مدينة عمان، وقد عثر على رأس تمثالها في جبل قلعة عمان عند تنسيق حديقة المتحف المقام هناك سنة ١٩٧٥م، وهو مما يعرض فيه من الآثار.

وكان الاجتماع بأولئك الإخوة وبغيرهم في الساعة العاشرة، حيث ألح الأخ الكريم الدكتور محمد عدنان البخيت، رئيس اللجنة المشرفة على تنظيم أعمال المؤتمر، بل أفضل، باختيار غرفة لي في هذا الفندق، وحسنا فعل !

فلقد سعدت بالالتقاء بكثير من العلماء الذين دعوا لحضور هذا المؤتمر، من بين المدعوين الذين بلغوا مئة وأربعين، منهم واحد وأربعون من الأردن وفلسطين، وخمسة من تونس، واثنان من الجزائر، وستة من المملكة العربية السعودية من بينهم الدكتور اسماعيل ياغي من جامعة الإمام محمد بن سعود، والمحامي سمير شما من جدة، واثنان من السودان، وتسعة من سورية، وأربعة من العراق، ومن جامعة قطر واحد، وستة من الكويت ممن يعملون فيه، ومن بيروت نحو تسعة عشر من الجامعة الأمريكية ومن المعهد الألماني للابحاث الشرقية، ومن مستشرقي كندا خمسة، ومثلهم من بلاد الانجليز، وثلاثة من فرنسا ومثلهم من هولندا، وعالم واحد من ماليزيا، ومن البلاد التركية خمسة، ومن الولايات المتحدة الأمريكية سبعة، وخمسة من المانيا الغربية.

ومن بين اولئك عدد غير قليل من السيدات العالمات منهن الدكتورة سهيلة الريماوي والدكتورة زاهية قدورة والدكتورة ليلا[1] صباغ، والدكتورة خيرية قاسمية، والدكتور وداد القاضي.

وقدم للمؤتمر قبل انعقاده من البحوث مئة وسبعة، بلغات مختلفة، لخصت وطبعت في كتاب تجاوز مئتي صفحة، وهو تلخيص وصفه أمين سر اللجنة التحضيرية للمؤتمر الدكتور محمد عدنان البخيت بأنه لا يسد مسد الأوراق الأصلية، ولكنه مقدمة ومفتاح لها. وهناك بحوث تأخر وصولها فلم تلخص.

---

(١) القاعدة المشهورة (ليلى) ولكن القواعد وسيلة لا غاية، وسيلة لتقويم النطق وكتابة الاسم بالألف اقرب لضبط النطق به صحيحا سيرا على قاعدة (كتابة الكلمة كما تنطق).

وهذه هي المرة الثالثة التي عقد فيها المؤتمر المتعلق بتاريخ بلاد الشام، فقد عقد أول مرة في الأردن في شهري ربيع سنة ١٣٩٤هـ (نيسان ١٩٧٤م) وتناول المؤتمرون تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الميلادي إلى القرن السابع عشر، في أبحاث ضمها كتاب نشرته (الجامعة الأردنية) قبل ست سنوات أي سنة انعقاده.

وقامت جامعة دمشق بالدعوة لعقد المؤتمر فيها في عام ١٩٧٨م، فتم ذلك ولم تنشر الأبحاث بعد. وقد خصصت هذه الدورة من دورات (المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) لبلاد فلسطين بصفة عامة، تاريخًا وجغرافية، وآثاراً واجتماعًا، ورأسها ولي العهد الأردني الحسن بن طلال[1]، وتولت القيام بتنظيم أمورها جامعة الأردن وجامعة اليرموك وجامعة دمشق، وافتتحت يوم السبت رابع جمادى الآخرة سنة ١٤٠٠هـ (١٩ نيسان ١٩٨٠م) واستمرت إلى يوم الخميس - أسبوعًا أعقبته زيارة بعض الأماكن الأثرية، لمن رغب ذلك.

وكان بهو فندق (تايكي) صباح كل يوم من أيام المؤتمر أشبه ما يكون بمنتدى أدبي علمي، يشاهد المرء فيه العلماء الوافدين حلقًا حلقًا، قد انهمكوا في مختلف الأحاديث البعيدة كل البعد عما يحيط بهم من أحداث العالم، وشغلوا بما أتوا لأجله مما يرتبط بالحياة الفكرية، ويقوي أواصر التعارف والتآخي بين مفكري الأمة العربية وعلمائها وأدابها.

افتتاح المؤتمر : وفي صباح اليوم السبت (٤/٦/١٤٠٠هـ ١٩/٤/١٩٨٠م) كان اجتماع المدعوين للمؤتمر في بهو الفندق الذي يقيمون فيه للتأهب للذهاب إلى (الجامعة الأردنية) حيث تعقد الاجتماعات. وكان البرنامج المفصل لأعمال المؤتمر قد أعد وقدم لكل واحد منهم، وفي ثلاث حافلات اتجهوا إلى الجامعة، وفي إحدى قاعاتها كان الانتظار نحو ساعة حتى بلغت الساعة الحادية عشرة، موعد افتتاح المؤتمر من قبل مليك البلاد، الحسين بن طلال الذي قدمه رئيس الجامعة الدكتور ناصر الدين الأسد بعد أن ألقى كلمة ضافية عن دورتي المؤتمر الماضيتين،

---

(١) وقد نُحي عن ولاية العهد في ٨/١٠/١٤١٩هـ وعين الملك حسين ابنه الأمير عبدالله مكانه ثم ملكًا.

وتمنى التوفيق للدورة الحاضرة ورحب بالحاضرين، بعد شكر المليك وولي عهده.

يؤخذ المرء حين يستمع للملك حسين خطيبًا، بحسن أدائه وفصاحة نطقه، ولقد حاولت أن أسمع لحنا منه في كلمة واحدة، أو وقوفًا قبل إكمال جملة فلم أستطع، مع طول الخطاب وشموله موضوعات مختلفة[1].

وبعد انتهاء ذلك الخطاب كانت العودة إلى القاعة الأولى، حيث استقبل المليك الوفود فرداً فرداً، بتقديم الدكتور الأسد، ثم الانتقال إلى مكان آخر لتناول طعام الغداء.

وفي الساعة الخامسة كان الالتقاء بالأمير الحسن ولي العهد ورئيس المؤتمر، ثم بدء عمل لجان المؤتمر الأربع، حيث قسمت البحوث أربعة أقسام بحسب موضوعاتها، ووزعت على أيام المؤتمر من حيث تحديد زمن القاء ما قرر إلقاؤه منها. واستمر العمل في ذلك صباحًا من الساعة التاسعة إلى الواحدة، ومساء من الخامسة إلى الثامنة.

وكان يعهد برئاسة كل اجتماع من اجتماعات اللجان إلى أحد الوفود، ومن الطريف أن بعضهم يتخيل نفسه في فصل الدراسة بين طلابه، فيحلو له ما يحلو للمدرس من تعليق على البحث بزيادة إيضاح أو استدراك أو ثناء[1]، وقد يطيب له أن يسمح لبعض المعلقين دون بعض.

فقد ألقى الصديق الدكتور محمود الغول في ضحوة يوم الاثنين بحثًا عن (غزة في نقوش جنوب جزيرة العرب) فحاولت الاستيضاح عن جملتين وردتا فيه هما قوله: عن طريقي التجارة عند المعنيين: (يفترقان عند نجران، فيسير أحدهما إلى الشمال حتى يمر بمستوطنتهم أو جاليتهم التجارية في ديدان – خريبة العلا على سكة حديد الحجاز شمالي المدينة اليوم، وتنتهي بغزة في فلسطين، ويمضي الطريق الثاني من نجران إلى شرق الجزيرة العربية، حتى ينتهي إلى (جرها) وهي مدينة كانت فرضة عظمى على سيف شرق الجزيرة، اختفت آثارها اليوم، ولعلها كانت

---

(١) وهذا لم الاحظه وحدي بل أدركه آخرون غيري كالدكتور عبدالله العثيمين وغيره.

على ساحل الأحساء قرب قطر وقد أردت الاستيضاح عن مصدر المحاضر الكريم في كون (جرها) بقرب قطر، وعن التوفيق بين القول بين إطلاق اسم ديدان على خريبة العلا، وبين تحديد ابن شجاع الحنفي الدمشقي لوادي الديدان بأنه المرحلة الثانية بعد العلا للمتوجه إلى المدينة، وكان رئيس الاجتماع الدكتور سعيد عاشور، من إخواننا الذي وفدوا من جامعة الكويت، فرفعت يدي إشارة إلى رغبتي الكلام كغيري من المعلقين على المحاضرة، وكررت الرفع مراراً، ولكنه أذن لكل من أراد التحدث سواي، وأعلن انتهاء الجلسة. ولم يكتف بذلك بل حين أبصرني أتحدث مع الدكتور الغول في الموضوع على انفراد أتى حتى وقف بجانبه قائلاً له: هذا أحد الاخوان يسألك عن الصلة بين (معون) و(معين) وصرفه عن الحديث معي[١].

ليلة سعودية: سرت في حضور اجتماعات المؤتمر سير التلميذ الكسول، فكثيراً ما كنت أنصرف قبل انتهاء الوقت، وقد لا أحضر بعض المرات، وبينما أنا في مساء يوم الأحد أطالع بعض ما أتحفني به أحد الإخوة من منشورات (الجامعة الأردنية) إذا بالأخ محمد بن ناصر بن عبدالله، الأمين الأول (سكرتير) في السفارة يحادثني بالهاتف سائلاً عن الوقت الذي سيجدني فيه في الفندق، فقد حاول هو وبعض الإخوة الاتصال بي مراراً فلم يتيسر ذلك، ومع أنني لم أكن أعرف الأخ إلا أنني رحبت به، وأخبرته بأنني في انتظاره، فأسعدني بزيارته، ولم نمكث طويلاً في الفندق، فسرعان ما وافقت حين عرض عليَّ الخروج إلى أحد الأماكن خارج المدينة، ومعنا أخ أردني قال لي: إنه كتب إليَّ قبل سنوات وكان يعد رسالة عن قبيلة عبدالقيس، فأجبته بإرشاده إلى بعض المؤلفات التي استفاد منها، ثم قدم رسالة لنيل إجازة (الدكتوراه) عن « شعراء بني تميم في العهد الجاهلي » فنال الإجازة من جامعة القاهرة، وكنت لا أزال أشكو من صداع

---

(١) لزيادة الايضاح عن (جرها) الجرعاء والديدان أنظر المعجم « المعجم الجغرافي » – قسم المنطقة الشرقية – ص٣٧٩ وما بعدها ومجلة « العرب » س١٣ ص٧ وعما يتعلق بسعيد عاشور انظر « العرب » س٤ ص١١٢٤ وس ١٥ ص٨٠١ وس٢٣ ص٢٨٨.

وزكام، فمر أبو مازن محمد بن ناصر بصيدلية أحضر منها ما قد أحتاج إليه، وفي (الواحة) وهو من أنزه الأمكنة في هذه المدينة قضينا وقتًا قصره كرم الداعي ولطفه، وأضاف إلى ذلك المرور بمنزله، وأتبع هذا الفضل بأن خيرني بين أمرين لابد من أحدهما: إما العشاء في البيت، وإما الذهاب إلى بيت عبدالرحمن الحمد الشبيلي، إذ من عادة موظفي السفارة الاجتماع في بعض ليالي الاسبوع في بيت أحدهم. ومن ذا الذي يعرف أبا سليمان محمد الحمد الشبيلي، ثم لا يرى من الوفاء له زيارة من يمت إليه بصلة فكيف بأخيه.

وفي بيت الأخ الشبيلي كان الالتقاء بعدد من الإخوة من موظفي السفارة، ومن بينهم الأخ سعد أبو معطي، الذي حاول حين رأيته أول مرة حيث يعمل في (مكتب الملحق الثقافي) حاول إكرامي – بل أكرمني فعلاً – فدعاني لزيارة منزله فاعتذرت.

أمضيتها سويعات بين أولئك الإخوة، في جو أبعد ما يكون عن بواعث التكليف والتصنع، وسررت حقًّا بما شهدت بينهم من التآلف والتصافي. ورأيت في البيت عدداً من الأطفال مما يدل على أن السيدات قد اجتمعن عند صاحبته. وقد أشرت إلى ما لهذه الاجتماعات من آثار حميدة في مناسبات مماثلة[1].

ثم كان العود إلى الفندق، ولم يكتف أبو مازن –أكرمه الله وحياه– بما أغدقه عليَّ من لطفه هذه الليلة، بل زارني في الليلة التي بعدها وقد اشتد على الزكام من أثر التغير المفاجئ في الجو، فاعتذرت عن حضور مأدبة العشاء التي أقامها سمو ولي العهد ورئيس المؤتمر لوفوده، وعن الخروج مع الأستاذ إبراهيم بن عمار الذي أفضل عليَّ بالزيارة، غير أن الأخ محمد الناصر بذل من وسائل الإغراء ما أضعف عزمي على البقاء في الفندق، فكان الذهاب إلى مكان يدعى حديقة الأردن (غوردن قاردن) فيه مطعم فخم، وموقعة خارج المدينة، ذكَّرني بمظهره وموقعه وأنواع أطعمته وسخاء أبي مازن

(١) في زيارتي للجزائر «العرب» س٧ ص٤٩٧ وفي حديثي عن رحلتي إلى أمريكا سنة١٣٩٩ «العرب» س١٤ ص١٨٤.

بطلب مختلف أنواع المقبلات، وبندله - جمع ندل.

ذكرني كل ذلك بلبنان، ومن الذكرى ما يهيج الأسى! وهاج الأسى أشد وأقوى حين عدت إلى الفندق فاجتمعت بالأستاذ الدكتور عبدالله العثيمين فأخبرني عرضًا بوفاة الأستاذ محمد حسن عواد (يوم الجمعة ٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٠هـ - ١٨/٤/١٩٨٠م) ما أقسى ألم كلمة (الموت) في النفس، وما أشد فجيعة المرء بمن ربطت بينهما أواصر التعارف والتآخي واتحدا مشربًا واتجاهًا وغاية في هذه الحياة!

محمد حسن عواد: لقد كان قمة من قمم الأدب في بلادنا، في خلال مدة تتجاوز نصف قرن من الزمان، كان أول ما عرفته سنة ١٣٤٩هـ وكنت طالبًا في (المعهد السعودي) بمكة وكان موظفًا في (قسم التحقيق في الأمن العام) وكان يسكن في (قاعة) في أعلى محلة الحلقة في منحدر الفلق، وأذكر أنني أثناء الحديث معه في أول اجتماع به كنت أخاطبه بكلمة (الشيخ) مبالغة مني في احترامه، فامتعض من هذه الكلمة وقال: يارجل: لست شيخًا -بتأثر-، وقد استعرت منه تلك الأيام «إلياذة هوميروس» تعريب سليمان البستاني، نظمًا وشرحًا، فأعجبت بأسلوب هذا الكتاب، ولكنه لم يتركه عندي سوى أسبوع، فقد استعرته يوم الجمعة، ولم أشعر مساء ذلك اليوم من الأسبوع الثاني، إلاَّ بصوت الأستاذ حسين نظيف -بالظاء المعجمة- وكان يعمل صيرفيا، في دكان صغير بقرب باب الزيادة، ومن عادتي أن آتي إلى الحرم قبل المغرب وأبقى فيه إلى بعد العشاء، فالتفت فإذا بالأستاذ عواد واقفًا بقرب حسين. فأخبرني بأنه يريد الكتاب هذه الليلة، فدعوتهما للذهاب معي إلى منزلي، وكان في أدنى المسفلة، وكنت تلك الأيام ذا نهم شديد لاقتناء الكتب، وكثيراً ما كانت تباع بالحراج، بالجملة. وكان مما اشتريت تلك الأيام «دلائل الإعجاز» و«أساس البلاغة» في طبعة قديمة. وفيهما حواش بتوقيع (محمد حسن قاسم عواد) بتاريخ ١٣٣٧هـ فلما أطلعت الأستاذ عوادا عليهما قام بمسح اسمه من طرتهما وتَتَبَّعَ كل الحواشي حتى أزال منها الاسم. وقال لي: بأنهما

استعيرا منه، ولكنني حين أبديت له رغبتي بتقديمهما له هدية، وأخبرته باسم الرجل الذي اشتريتهما منه، أظهر عدم حاجته إليهما.

كان من أوائل خريجي مدرسة الفلاح في جدة في العقد الرابع من هذا القرن، وتولى التدريس فيها وألف في تلك الفترة كتاباً دعاه «الإكليل الذهبي في الإنشاء العربي» طبع سنة ١٣٤١هـ - ولكنه كان - فيما بعد - يكره أن ينسب إليه، وكان كثير الاعتزاز بكتابه «خواطر مصرحة» والواقع أن هذا الكتاب من أجل آثاره، ففيه ومضات فكرية سبق بها عصر أقرانه من أدباء هذه البلاد.

وكان قوي الاعتداد بنفسه، بدرجة باعدت بينه وبين كثير من أصدقائه من الأدباء، لا أذكر أن أديبًا أو شاعرًا أو كاتبًا من ذوي المكانة المرموقة في دنيا الأدب في هذه البلاد، سلم من نقد الأستاذ العواد، فما كان يعرف المجاملة، وما كان هادئًا في نقده إلا إذا اضطر إلى ذلك.

حاولت التحكك به تلك الأيام - ولك أن تتصور ما بين منزلتينا في الأدب والمعرفة، طالب لم يتجاوز بعد مرحلة الدراسة في (المعهد)، وكاتب عملاق عندما يذكر اسمه بين أدباء هذه البلاد وشعرائها يبدأ به، ولكن هكذا كان، فقد بدأ بنشر مقالات عن (سليمان بن عبدالملك أول محرر للرقيق) رأيت فيها منافذ للتعرض له، ووسع تلك المنافذ ما بينه وبين بعض الأدباء من جفوة، دفعت بعضهم إلى الثناء على ما أبديه من آراء حول تلك المقالات، ومن هؤلاء الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري صاحب «المنهل» الذي أفسح لي المجال في مجلته للنشر، والأستاذ عبدالله عريف رئيس تحرير جريدة «البلاد» الذي سمح بنشر ثلاث مقالات بعنوان (إلى الشيخ حسن عواد) ثم توقف بعد ذلك بإيعاز من الشيخ محمد سرور الصبان - على ما قيل لي - وفي «المنهل» نشرت ما لا أذكره إلا أن أبا نبيه الأنصاري ذكره الله بكل خير - [1] حين أعاد الأستاذ العواد طبع كتابه عن (سليمان بن عبدالملك) منذ عهد قريب، مذيلاً بالرد على أحد الناقدين، ذكر في مجلة «المنهل» أنني أنا المعني بالرد وأشار إلى كلمة لي نشرتها هذه المجلة قبل أربعين عاماً.

---

(١) توفي بعد ذلك في سنة ١٤٠٣هـ.

لقد رد عليَّ في أول الأمر ثم تجاهلني الأستاذ حسن عواد، بعد ذلك فأحسن إليَّ بتجاهله، ولعله فعل ما فعل حينما لم يجد أمامه مجالاً يتلاءم مع ما له من مكانة في عالم الأدب، فترفع وحسنا فعل!

ولقد تجنت عليه إحدى الصحف، فوصفته بالإلحاد، وهاجمه الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله - ونسب إليه أنه قال: (خرج محمد - ﷺ - من الجزيرة ولم يجر فيها نهرا) وما أكثر ما يحاول الأعداء إلصاق مختلف التهم بمن ينالون حظًا من الشهرة، أو يبرزون في أحد جوانب الحياة، ولقد كان عواد - رحمه الله - قوي الإيمان، بعيداً عما رمي به من ضعف الدين. عرفت ذلك عنه معرفة صلة ومخالطة وقصيدته (صلاة نفس) تعبر أصدق تعبير عن قوة الإيمان وطهارة النفس وسمو الخلق.

وأشد ما يطعن به عليه صراحته التي بلغت به حد القول المشهور: (لم يترك لي قول الحق صديقًا) وحسبك برجل كانت تربطه بالشيخ محمد بن سرور الصبان في أول حياتهما أقوى الصلات، ولما دار الزمان فحلق الصبان في سماء الحظ والرفعة، وأصبح مقصد الباحثين عن المناصب والجاه، وكان عواد على حالة من ضعف الحال تُخْنِعْ وتُخْضِعُ، إلا أن عزة نفسه، وترفعه أبى عليه ما تهافت لنيله لداته من الأدباء والشعراء، الذين احتضنهم الشيخ الصبان، وكان لهم موئلا - بل لم يتورع محمد حسن عواد - وقد بلغ الشيخ الصبان ما بلغ - من أن يضمه إلى الزمرة التي اطلق عليها وصف (الأصنام) ورآها جديرة بأن تحطم، وكانت تمثل رواد الأدب في منتصف هذا القرن.

ولما أصدرت «اليمامة» أول صحيفة في الرياض كتب إليَّ كتابًا رقيقًا مهنئًا، وواعداً بإمدادي بما أرغب فيه من كتاباته، وكنت بعثت له العدد الأول منها مع كتاب مني رجوته أن يبعث إلي بما يرى نشره فيها.

وأذكر أنني نشرت له شيئًا من ذلك، ومنه مقال يرد فيه على كاتب مصري يدعى (محمد حلاوة) ومن ألطف ما فيه المقارنة بين (الملكية) و(الجمهورية) وتفضيل الأولى.

وما كان -رحمه الله- ممن يضيق بالنقد ضيقًا يورث الضغينة والكراهية، فقد زرت إدارة جريدة «البلاد» بعد نشر تلك الكلمات، فكات استقباله لي كريمًا، ولما عتبت عليه في أمر لا صلة له في الموضوع اعتذر لي وقال (أنا موظف ولابد لي مما فعلت)[1].

ومنذ سنتين مررت بمدينة جدة، فزرته في (النادي الأدبي) فكان استقبالاً حارًّا، وأحاديث طويلة حول الأدب، ومنها ما يتعلق بتطوير النادي، وتوسيع مجالاته، وتنمية مكتبته، ورغب إليَّ أن أتحدث فيه في إحدى الليالي التي أحدد زمنها في أي موضوع اختاره، فوعدته بذلك.

وحين أتيت إلى جدة يوم السبت ١٩ جمادى الأولى سنة ١٤٠٠هـ اتصلت بالنادي ليلة الخميس فقيل لي: إن الأستاذ متأثر، وهو لا يحضر هذه الأيام، ولم أعلم بمرضه، ولكنني فوجئت بخبر وفاته بعد أسبوع.

لقد أحسست بالأسى يعصر قلبي، وبوحشة غريبة تطغى علي بانتقال محمد حسن عواد عن عالمنا. ولكن ماذا يملك الإنسان أمام هذه القوة القاهرة المتمثلة في هذه الكلمة (مات! مات).

---

(١) صدر في تلك الأيام أمر بإخلاء الحرم من النائمين ليلاً، ومن عادة طلاب العلم البقاء فيه بعد العشاء للمذاكرة، وكنت وبعض زملائي نحضر كتبنا فنمضي في المسجد بعد صلاة العشاء وقتًا لمطالعة دروسنا، فلم نشعر في إحدى الليالي إلا بمدير شرطة الحرم، وكان ضابطًا تركي الاصل يدعى (نظمي) يجري ومعه جنديان باقصى سرعة وكلما مروا بأناس جالسين انهالوا عليهم بالضرب بعصيٍّ من الخيزران التي يحملونها، وكنت ممن ضربوا، فوقفت في وجه الضابط صارخًا بالاحتجاج، وان عمله يتنافى مع حرمة هذا المكان، فادعى انني كنت نائمًا، مع ان الكتاب الذي كنت أطالعه بيدي وأرغمني ومن معي على الخروج، فأبرقت للملك عبدالعزيز -رحمه الله- وكان في مكة تلك الأيام- فأمر بإحالة الأمر إلى المحكمة، وكانت (المستعجلة) وكان قاضيها الشيخ حسين عبدالغني، وعند البدء في المحاكمة وقف الضابط يقرأ في أوراق بين يديه، ولكنه لم يكن يحسن النطق ببعض الكلمات، فاستوضح منه القاضي وساله من كتب له هذا الكلام، فاجاب وهو مرتبك (محمد حسن عواد) وانتهى الموضوع بقرار من القاضي بتوبيخ الضابط، وأخذ تعهد منه بان يعامل من يراه في الحرم بالحسنى، ولو كان نائمًا، وأن لا تستعمل العصيُّ في ذلك المكان الشريف.

وفي ليلة الأربعاء (٧ / ٦ / ١٤٠٠هـ - ٢٢ / ٤ / ١٩٨٠م) لم أغادر الفندق، منذ أن عدت إليه ظهرًا حين أحسست بالتعب واشتداد الزكام، وقد أوشكت الوحشة أن تستولي على نفسي، من جراء الوحدة، ولبعض ما قرأت أثر في ذلك، فقد علمت بوفاة المستشرق المسلم الحاج عبدالكريم جرمانوس في ١٧ / ١٢ / ١٣٩٩هـ - ٧ / ١١ / ١٩٧٩م - منذ خمسة شهور، وقد عرفت الحاج عبدالكريم من كتابه أولاً، ثم لما زرت (بودابست) عام ١٣٨٧هـ مررت به مرارا، وكرم فدعاني إلى بيته، وأطلعني على مكتبته، وأفضل هو وقرينته السيدة زبيدة بدعوتي للعشاء في (مطعم القديسين السبعة) وأرشدني إلى طبيب مشهور للعيون في تلك المدينة، وكان الحاج عبدالكريم ذا مقام بين قومه، فهو نائب في مجلس الأمة، وكثيراً ما تسند إليه بعض الأمور التي لها صلة بالعرب على ما قال لي. وقد نشر دراسات عن الأدب في بعض الأقطار العربية باللغة العربية وغيرها، ولغته العربية مستقيمة، وطلب مني أن ابعث إليه بعض الكتب المتعلقة بالأدب الحديث في نجد، فبعثت إليه من بيروت بكتابي «شعراء نجد» و«الأدب الشعبي في جزيرة العرب» وغيرهما، ولكنني فوجئت بإعادة ما بعثت، وقد كتب فوقه بلغة تلك البلاد ما تعريبه: (ترجع إلى مرسلها) ولم أدرك تعليلا لذلك. ولكنني حينما اجتمعت به قبل بضع سنوات. وأخبرته: نفى أن يكون أمر بإرجاعها، وكان في ذلك الوقت مع تجاوزه الثمانين عامًا نشيطًا، صحيح الجسم إلا أن نظره ضعيف، وكانت زوجته زبيدة برة به، شديدة الاهتمام بمراعاة صحته، وهي تصغره بنصف العمر -فيما يظهر- وتتحدث العربية وتساعده في كتابة أبحاثه على الآلة الكاتبة.

أكرمني -بالزيارة هذه الليلة- الإخوة عبدالرحمن الحمد الشبيلي وإبراهيم العمار، والدكتور محمد المعيني من عمان[1]، فمضى هزيع من الليل بمحادثة الأخوين الشبيلي وابن عمار، مما خفف عني ما ألم بي من وحشة. ولكنني استيقظت مبكرًا، فطالعت صفحات من كتاب «أنساب الاشراف» للبلاذري تحقيق الدكتور عبدالعزيز الدوري -

---

(١) سبقت الإشارة إليه حين زارني مع الأخ محمد الناصر.

وكان أفضل علي بنسخة منه - فغلبني النعاس وهو بين يدي، فلم أفق إلا الساعة الخامسة صباحًا، ولما حاولت الخروج من الفندق لفحني الهواء البارد فعدت إلى الغرفة.

وفي صباح يوم الأربعاء (٨/٦/١٤٠٠هـ - ٢٣/٤/١٩٨٠م) كان الالتقاء بالدكتور محمد عدنان البخيت، وكنت قد أبديت له رغبتي أنا والدكتور عبدالله العثيمين الاطلاع على ما في مكتبة الجامعة من كتب مخطوطة أو مصورة. فدعا الأخ السيد نوفان رجا الحمود، وأمره بالذهاب معنا إلى (مركز الوثائق والمخطوطات) وكان منفصلاً عن مكتبة الجامعة، ثم قدم لنا الأخ نوفان (فهرس المخطوطات المصورة)[1] مكتوبًا بالآلة ثم مصورًا، ويقع في ستة أجزاء، منها ثلاثة قد رتبت فيها الكتب على الفنون، وأُلْحِقَ بها فهرس يحوي أسماء المؤلفين، وكثير من تلك الكتب مصور من مكتبات جامعات غربية، ولفت نظري كثرة الرسائل المتعلقة بالنحلة الدرزية، ومع أنني لا أزال متأثرًا مما أصابني من البرد أول يوم قدمت فيه هذه البلاد. إلا أني شعرت بارتياح دفعني إلى الانهماك في المطالعة والكتابة، وكأنني لأول مرة أرى فهرس كتب وكما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

ويظهر أن رداءة التصوير أو الكتابة كانت من أسباب عدم الدقة عند ذكر أسماء الكتب أو ذكر التاريخ المتعلق بها. ومن أمثلة ذلك (ص٤٤٥): الطبري - الرباط النضر، في مناقب العشرة، ووصف خطه بأنه مغربي واضح. ومعروف أن اسم الكتاب «الرياض النضرة، في مناقب العشرة» للطبري محب الدين العالم المعروف.

وعند ذكر كتاب «خلاصة الوفاء» جاء في وصفه: ولعل هذا في الفهرس قبل أن يرتب على العلوم -: خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى - للسمهودي نور الدين علي.. ألف سنة ٦٩٣ - مخطوطة سنة ٧٥٧ - الشريط رقم ٣٠ مصور من جامعة شيكاغو رقم ٣٧٢٧ - وكنت أعرف أن السمهودي من أهل القرن العاشر، واستبعدت أن يقع خطآن في تاريخ التأليف وفي تاريخ النسخ. وتوهمته غير كتاب السمهودي. ولكنني حين اطلعت على الشريط وجدته هو هو. والخطأ في قراءة (تسعمائة) في الموضعين، فليست (ستمائة) و(سبعمائة).

(١) من إعداد الدكتور محمد عدنان البخيت، والسيد نوفان رجا الحمود.

ورأيت اسم السمهودي مرة أخرى مكتوباً بصورتين -بالدال وبالراء- وهو غير مؤرخ المدينة، وهو إبراهيم الحسني الشافعي له كتاب «الإشراف على فضل الأشراف» - ويقصد أشراف النسب، وهو مصور من جامعة كولمبيا رقم ٢٤٧ - مجموعة سميث - ورقم شريطه ٤١٣ ويقع في ٧٦ - وللسمهودي المؤرخ كتاب في الموضوع[١].

ومن مؤلفات السيد مرتضى الزبيدي[٢] شارح القاموس: «جذوة الاقتباس، في نسب بني العباس» في ١٧ ورقة رقم الشريط ٦، من جامعة ييل رقم ٨٧ مجموعة لاندبيرج، و«نفحة العنبر في نسب الشيخ علي اسكندر» في إحدى عشرة ورقة، في الشريط رقم ٢٦٦ من مجموعة جاريت في جامعة برنيستن، برقم ٢٩٣٦.

ورسالته في الدخان، وهي معروفة، وقد نشرتها في مجلة «العرب»[٣].

ومر بي اسم «الإنباء في تاريخ الخلفاء» لمحمد بن محمد العمراني، مخطوط سنة ٦٢١ في ١٣٢ ورقة في الشريط رقم ٦٨٠ عن خزانة الرباط، والكتاب على ما أعرف حققه الدكتور قاسم السامرائي من العراق وتحدثت عنه في «العرب» وقد استعار المحقق الفاضل مني نسخة مصورة، ولا أعرف ما تمتاز به هذه النسخة، فأنا أنقل معلومات من الفهرس، ولم أطلع على النسخة.

وكنت تحدثت عن «التذكرة الحمدونية» حين اطلعت على أجزاء منها في بعض المكتبات التركية، فرأيت ذكر أحد أجزائها مصوراً عن مكتبة أحمد الثالث في اصطنبول، على الشريط رقم ٦٠٩ ومما جاء في وصفه: الجزء الثاني عشر الباب التاسع والأربعون والباب الخمسون، في التاريخ، من آدم ومن بعده من الأنبياء. ثم العرب قبل الإسلام فالسيرة النبوية، فالخلفاء إلى سنة ٥٥٣ - مع الإشارة إلى ارتباك في التسلسل، وأن المؤلف أو الناسخ أشار إلى ذلك بجملة (يحتاج إصلاح). ويقع في ٢١٩ ورقة من القطع الكبير.

---

(١) «جواهر العقدين، في فضل الشرفين - شرف العلم وشرف النسب».

(٢) لم أجد اسمه في فهرس المؤلفين.

(٣) س١١ ص١١٤ إلى ١٣٠.

وكتاب «تخريج الدلالات السمعية»[1] على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية» للخزاعي التلمساني، يقع في ٧١٨ ورقة على الشريط ٣٧٠ عن خزانة الرباط ورقمها فيها ١٨٢٨ د.

ومما لفت نظري عند مطالعة عناوين بعض الرسائل الدرزية ذكر رسالة من القرمطي للحاكم صاحب مصر، ورد الحاكم عليها، مما صور من جامعة ييل (٤٥ مجموعة الزبوري) وتقع في الشرط الذي يحمل الرقم (١) وقد وردت الإشارة إلى الرسالتين في كتب التاريخ حين استهان القرامطة بحرمة الكعبة المعظمة، واستباحوا قتل حجاج بيت الله الحرام في مكة.

ولرسائل ابن ماجد الربان النجدي المشهور صورة على الشريط ٤٧٣ عن مخطوطة في مكتبة الكونجرس (٩٧ مجموعة الشرق الأدنى) لا أدري مبلغها من الصحة والقدم.

ولعناية بعض الأحباب في بلادنا بدراسة الأمثال أشير إلى مؤلف في هذا الموضوع، باللغة العامية الشامية عنوانه «تحفة الأكياس في الأمثال السائرة بين الناس» يقع في ٣٦ ورقة على الشريط ٦٢٠ من مكتبة توبنجن برقم (١٤٥).

وذكرت وأنا أطالع أسماء مؤلفات السيوطي للبحث عن مقامته التي كتبها عن (ينبع) فمر بي اسم «إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء» مصوراً من جامعية ييل (٢٥٨) في أربع ورقات، على الشريط (١٠) ذكرت كتاب الشيخ محمد بن ناصر العبودي، ولا أشك بأنه اطلع على هذه الرسالة.

ونسخة «جمهرة نسب قريش» للزبير بين بكار – أي القطعة الموجودة من هذا الكتاب في مكتبة بودليان – أكسفورد مصورة على الشريط ١٥٦.

وأخذ مني التعب مأخذه فلم أستطع الاستمرار في المطالعة، ولا رؤية صورة كتاب «بستان الآداب، والكناش المستطاب» للحميدي – كذا ورد في الفهرس –

---

(١) هذا الكتاب ضمَّ محتوياته عبدالحي الكتاني إلى كتابه المطبوع «التراتيب الإدارية» وعلى أثر ذلك تصدى أحد علماء تونس لنشره عن نسخة فيها نقص، وقد عرف له الآن نسخ إحداها في اصطنبول واثنتان في خزانة الرباط والثالثة في الخزانة الملكية في الرباط أيضاً، ويقوم الأستاذ الدكتور إحسان عباس بتحقيقه وإعداده للنشر.

يقع في جزءين الأول ورقاته ٥٦٦ والثاني ٣٢٠ من القطع الكبير، وقد صور من خزانة الرباط (٢٨٠ / ٢) على الشريط ٦٧٥ وجاء في آخر الجزء الثاني منه : (انتهى بحمد الله تعالى يتلوه فيما بعد : ومن كتاب جمهرة أنساب العرب، ومن قصيدة لعامر بن الطفيل العامري) .

وكنت قبل ذلك قد أتعبت بصري بالاطلاع على الشريط الذي يحمل الرقم (٦٣١) حين رأيت عنوانه (مصطفى العيص – التبصرة والتذكرة، ينقل مشاهداته في رحلته إلى الديار المقدسة ويتحدث عن الدراويش) صور من مكتبة توبنجن (٧١٢٩) فرأيت كثيراً من الصفحات مما لا يقرأ، ورأيت اسم المؤلف (اللطيفي) في أحد هوامش الكتاب، وهو اسم عالق بذهني قبل الاطلاع على هذه النسخة، وقد زار اليمن والحجاز والشام، ويهتم كثيراً بالتصوف، ويوجز فيما لا صلة له، ويكتب بلهجة عامية أحيانًا.

وكان الأستاذ الدكتور عبدالله العثيمين قد شغل بنقل قصيدة لأحد العراقيين(١).

---

(١) يدعى السيد ياسين بن السيد إبراهيم البصري الحسيني نظمها في غرة رجب ١١٦٨ هـ مطلعها

بدأت ببسم الله والشكر والحمد ... على نعم جلت عن الحصر والعد
وثنيت صلى الله ربي مسلما ... على المصطفى الداعي إلى الخير والرشد
وبعد ففي صنعاء قد بان خارج ... مُوَاتٍ بتضليل مُسيلمة النجْدي

واستمر–أخزاه الله – في هذيانه، ووصمه الدعوة السلفية وإمامها وأنصارها بالزور والبهتان، تقع في نحو مئة واحدى عشر بيتاً، افتتحها بمقدمة ثم صار يورد من قصيدة الصنعاني البيت أو الأبيات بعنوان (قوله) ويعقب ذلك بكلمة : (قولي) وقد اورد من قصيدة الصنعاني نحو ثلاثين بيتًا . وللشيخ سليمان بن سحمان رسالة حول قصيدة الصنعاني وقصيدة أخرى نسبت إليه مطلعها :

رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي ... فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي

ورسالة الشيخ سليمان مطبوعة مراراً بعنوان « تبرئة الشيخين » وحبذا لو تصدى أحد العلماء للرد على قصيدة ياسين البصري فهي جديرة بذلك، كما فعل الإمام الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ابن الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله، في رده على البولاقي الازهري في قصيدة مماثلة لهذه القصيدة بحرا وقافية ومزاعم باطلة. وقد اطلعت على رد الشيخ عبداللطيف وعلى قصيدة البولاقي في (دار الكتب المصرية) بقلم نجدي يدعى (ابن جلاجل) فاخبرت الشيخ محمد بن عبداللطيف – رحمه الله– بالرد وبالقصيده، وكان في القاهرة للعلاج وذلك عام ١٣٥٨ هـ فطلب مني نسخهما له ففعلت .

يعارض فيها قصيدة الصنعاني :

سلامي على نجد ومن حلَّ في نجد   وإن كان تسليمي على البُعْد لا يُجْدي

فاظهرت له رغبتي في الراحة واستاذنته وانصرفت إلى الفندق، ولزمت الفراش، وفي المساء سعدت بزيارة بعض الإخوة ومنهم الأستاذ الحبيب اللمسي، الذي عرفتهُ أول ما عرفتهُ حين اكرمني بالزيارة عندما كنت مقيماً في القاهرة قبل خمسة وعشرين عامًا، ثم لما زرت تونس، وعلم بذلك سارع بالمجيء هو والأستاذ محمد المطوي العروسي، في المكتبة العامة، وأشرت إلى هذا في كلامي عن زيارة تلك البلاد الحبيبة إلى النفس، وفي بيروت كان اللقاء مراراً وكان يعمل في (الدار التونسية للنشر) إلا أنه منذ أربعة أعوام فتح مكتبًا في مدينة بيروت، لنشر الكتب، فنشر كثيراً من نوادرها واستقرَّ هُناك .

وكنا التقينا في الصباح مع الأستاذ الدكتور إحسان عباس، والدكتورة وداد القاضي، وجرى حديث حول نشر كتاب « أنساب الأشراف »[1] للبلاذري، فعلمت أن الدكتورة ودَاداً تشارك في تحقيق الكتاب، وأن الدكتورين الدوري وإحسانا أوشكا أن يكملا جزءين منه . أما الدكتور الغول فحين جرى الحديث معه في الموضوع، واوردت المثل: (تَعسَتِ العجلة)!! أوضح أن عمله في (جامعة اليرموك) حال بينه وبين انجاز تحقيق ما أسند إليه تحقيقه وهو جزءان، وأضاف بأن من أسباب تأخره في ذلك عدم الاتفاق على طريقة التحقيق، ولكنها اتضحت له بعد صدور الجزءين اللذين حققهما الدكتوران احسان والدوري، وقال: إنه سيقدم أول الجزءين للطبع في شهر نيسان من عام ١٩٨١م .

والتقيت أيضًا بالدكتور شاكر مصطفى - المصري لا العراقي - رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة الكويت، وكان حضر هذا اليوم ولهذا لم يطبع بحثه ولم يوزع على حاضري المؤتمر، والدكتور يُعْنَى بوضع معجم يحوي تراجم المؤرخين وحدهم، من العلماء وقال: إنه أكمل نحو ثمانية أجزاء منه .

---

(١) انظر عن هذا الكتاب وما صدر منه محققًا « العرب » س٣٣ ص٢٤٣ إلى ٢٤٨ .

وقد سألته عن ترجمة عالم له رسالة مخطوطة في وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، وهو من أهل القرن الرابع الهجري، واسمه (محمد بن ابي بكر التلمساني) على ما في طرة الرسالة التي نشرتها في مجلة «العرب»[1] فرغب الاطلاع على الرسالة، وعلى ما كتبته عن مؤلفها.

وكان ممن قابلته الدكتور جبر عبدالفتاح، له مؤلف عن بلاد عسير، وقال لي: إنه مكث في هذه البلاد حقبة من الزمن، ودرسها دراسة واسعة، وكتب عنها باللغة الألمانية من الناحية الزراعية، ووضع في كتابه مجموعة من المصورات الجغرافية، وقال: إنه سيقدم لي بعضها ومنها ما يتعلق بتوزيع القبائل، وبتحديد بعض المواضع كالطرق والأودية وأمكنة الأسواق الأسبوعية.

ولما تمنيت أن الكتاب وُضِعَ باللغة العربية، وأبديت له وجود من سيسهم في نشره أجاب بأنه سيصدر قريباً باللغتين الألمانية والفرنسية، وسيفكر في نقله إلى العربية، واثنى على سمو الأمير خالد بن فيصل بن عبدالعزيز أمير بلاد عسير، وما قدم له من المساعدات، وأنه وعده بطبعه باللغة الغربية على نفقة سموه، إذا رغب ذلك، وأن يقدم له خمسة آلاف نسخة دون مقابل.

وكان مما قال لي الدكتور كمال: إن كثيراً ممن يُعهد إليهم القيام بدراسة بعض مناطق المملكة ليسوا كلهم على درجة من الكفاءة تهيئهم وتمكنهم من أداء عملهم على الوجه المطلوب. ومثل لذلك برجل أمريكي كلف بكتابة تقرير عن منطقة القرعا - أو السودة الشك مني - ودفع له في سبيل إعداد ذلك التقرير من المال مالا يسوغ صرف جزء منه مقابل ما قدمه ذلك الرجل من دراسة تنبئ عن جهله. وأثنى على دراسة قام بها أحد المختصين بالزراعة من العرب عن (المراعي في المملكة) وقد نشرتها (وزارة الزراعة) منذ أمد.

انتهاء المؤتمر : وكان الاجتماع الأخير للمؤتمر في صباح يوم الأربعاء (٩/٦/١٤٠٠هـ - ٢٤/٤/١٩٨٠م) في الساعة الحادية عشرة، وقد أقيم معرض

(١) السنة الثامنة، من ص٣٢٤ إلى ص ٣٥٧.

للمصورات الجغرافية (الخرائط والرسوم) منذ افتتح المؤتمر، ازدانت بتلك المصورات جدران أبهاء عرف (كلية الزراعة) حيث تعقد الاجتماعات. فكنت ذلك الصباح واقفًا مع أحد الإخوة، وكان يُعْنَى بوضع رسالة عن (صلة الأردن بالمملكة) في عهد تأسيس إمارة شرق الأردن، فأظهرت له عدم اهتمامي بهذه الناحية من تاريخنا، وأحببت أن ألفت نظره إلى التثبت عند مراجعة بعض المصادر، والحرص بأن تكون شاملة، فلا يجوز الاعتماد على ما قد يدونه مؤلف أردني بدون الرجوع إلى ما قد يكون مدونًا في مؤلف آخر، لتتم المقارنة التي بها يمكن اتضاح الأمر. وضربت له مثلاً بهذه المصورات التي تملأ هذه الأبهاء، فهي مما لا يصح الاعتماد عليه لا من ناحية رسم الحدود فحسب، بل حتى في المعلومات التاريخية وفي كتابة الأسماء وخُذْ مثلاً هذا المصور الذي عُنْونْ بـ (الفتوحات الإسلامية) في القرن الهجري الأول أن أكثر هذه المدن والقرى الموضوعة فوقه لم تكن موجودة في ذلك القرن، بل منها ماحدث بعد القرن العاشر، وعددت بعضها وفي الأسماء: عرار وطبال والميرة والجيشومة وقرة وذات الحج وأسماء أخرى كثيرة شوهت حمال هذا المصور (الخريطة) الذي وضع لبيان مواقع الحروب الإسلامية – الصليبية، وصوابها: عَرْعر وتُبل والْمِرَار والقيصومة[1] وقارة وذات الحاج[2].

وكان الاجتماع برئاسة سمو الأمير حسن بن طلال، افتتحه بكلمة مرتجلة، شكر فيها المؤتمرين، ومع إيجازها فقد نالت الاستحسان. ثم قرأ الدكتور ناصر الدين الأسد – رئيس الجامعة الأردنية – المقررات والتوصيات في اثنتي عشرة مادة منها :

١ – استكمال الوثائق والمخطوطات المتعلقة بتاريخ الشام، وإعداد مكتبة تضم منها كل ما يتعلق بفلسطين والقدس خاصة.

---

(١) هذه القيصومة منهل في وادي تبل حين يتوغل داخل الحدود العراقية، وهناك قيصومتان مشهورتان غيرها إحداهما جنوب وادي الباطن غير بعيدة عنه، والأخرى في الشمال الغربي منه، وهي بعيدة وتدعى قيصومة فيحان.

(٢) الحاج نوع من النبات – بتخفيف الجيم.

٢- تنظيم فهارس (قوائم ببليوغرافية) للأطروحات والكتب والبحوث المتعلقة بفلسطين والعمل لنشر ما هو صالح للنشر فيها .

٣- تكوين لجنة لدراسة التوصيات، والعمل على تنفيذ ما تستطيع تنفيذه منها، وتحرير البحوث المقدمة إلى المؤتمر لنشر ما ترى نشره منها .

ثم جرى نقاش طويل أعقبه تناول الشاهي -كالعادة- واقترح الدكتور ناصر أخذ صورة كاملة للوفود مع سمو رئيس المؤتمر الأمير حسن فوق درج باب (كلية الزراعة) مكان الاجتماع . وهكذا انتهى المؤتمر .

انزويت في احدى الغرف أثناء تناول الإخوة الشاهي، حيث تعبت من الوقوف، مع إحساسي باشتداد الزكام، فدخل علي الأخوان الدكتوران عبدالله الشبل وعبدالفتاح أبو علية يتبعهما أحد موظفي (وزارة الإعلام) وكان يتتبّع الوفود ليسجل ما يرى تسجيله من انطباعاتهم عن المؤتمر وتوصياته، ويظهر أن الأخوين هربا منه فأشارا له إليَّ، فقلت له : لن أبخل عليك بالكلام، بشرط أن تقبله وإن لم يوافق رغبتك . فكأنني أثرت في نفسه حوافز التطلع إلى ما سأقول، فجلس جواري مبديًا بأنه يود أن يسمع مني أي كلام أقوله، فكررت له ما سبق أن قلته عن المؤتمرات[١]، وأن فائدتها قد تنحصر في التعارف، وبالتعارف تتآلف القلوب، وتتحد الغايات، وتقوى أواصر التعلون لبلوغها .

ويظهر أنني لم أداعب عاطفته بما كان يتوقع، وخاصة حين قلت له : إن المؤتمرين من العلماء، والعلماء قد يستطيعون رسم الطرق، وإيضاح الوسائل، ولكن ليس لديهم ما هو أكثر من ذلك، كما فعلوا في الدورتين الأوليين لهذا المؤتمر، بل كما حدث -وسيحدث- في المؤتمرات التي لا عَدَّ لها ولا حصر، في كل قطر عربي، وفي كل عام بل في كل شهر .

---

(١) انظر « العرب » س٨ ص٤٦٠ .

كلمة حقٍّ يجب أن تقال: لقد بذل الإخوة المشرفون على شؤون هذا المؤتمر ما وسعهم بذله لتوفير الراحة الممكنة لكل مدعو إليه. أما عن تنظيم جميع أموره من الناحية الإدارية، فمما لا يستطيع أحد هضمهم حقهم، ولا نكران فضلهم، ولا سيما الأستاذ الكريم الدكتور محمد عدنان البخيت[1]، رئيس اللجنة المشرفة على الإعداد للمؤتمر، والقيام بتنظيم جميع أموره.

كنت قد قررت السفر صباح هذا اليوم إلى القاهرة، وكان موعد الحضور إلى المطار صباحًا الساعة الحادية عشرة، غير أنني علمت قبل الخروج من الفندق بأن الطائرة المتوجهة إلى القاهرة تأخر موعد إقلاعها إلى الساعة الثامنة مساء. وكنت حين زرت (مركز الوثائق والمخطوطات) لم أكمل مطالعة ما أردت مطالعته من الفهارس، فانسللت بعد انتهاء مناقشة (التوصيات) أثناء التقاط صور وفود المؤتمر مع رئيسه الأمير الحسن بن طلال، فرآني الدكتور الأسد، وكان واقفًا يتحدث مع الأمير فلحق بي وقال: سيأخذ الإخوة الآن صوراً مع الأمير فأظهرت الموافقة، وقلت: إنني عند الباب فوق الدرج، وهو المكان المعدُّ لالتقاط الصور. ولكنني أسرعت حين خرجت، متجهًا إلى (مركز الوثائق) هربًا من التصوير.

ولقد ألح الأخ الأستاذ العُزيزي عليَّ قبل الخروج من الفندق هذا الصباح لأخذ صورة (تذكارية) حين رأى المصور يتنقل بآلته بين وفود المؤتمر، فوافقت، ولكنني حين رأيت تلك الصورة تضاءلت خجلاً من نفسي، إذ ظهرت بين الأخوين العُزَيري والحبيب اللمسي في مظهر أشبه بمظهر إنسان أُمْسك به اثناء ارتكابه أمراً محظوراً فحاول الاختفاء، وبدا خائفًا منكسر النفس.

لم أجد باب مكتبة (الوثائق والمحفوظات) مفتوحًا، فرجعت إلى موقف السيارات

---

[1] يطلق الاسم مكبراً ومصغراً، وقد سمعته من الدكتور الأسد مصغراً ولما سالت البخيت عن نفسه عن صحة النطق أجاب: الدكتور الأسد دائمًا يحب التصغير!! وكذا كان اسمي، ولكنه الآن ينطق مكبرا.

المخصصة لنقل الضيوف، فلما أقبلت عليها إذا بسيارة تقف بجانبي، وإذا بالدكتور الأسد ينزل منها، ثم يمسك بي قائلاً: هذا سمو الأمير يريد أن يسلم عليك، لقد كان لطيفًا كريم النفس، استقبلني هاشًا باشًا، معانقًا عناقًا حارًا. ولم تَجُدِ البَدِيهةُ على لساني - بعد التعبير عن كرم الضيافة وحسن الاستقبال سوى القول: إنك بإكرام العلم والعلماء تكرم نفسك وتعلي مقامك، فشكر وودَّع معانقًا مرة أخرى.

لقد كان الدكتور ناصر الدين الأسد بي حفيًّا، فما رآني إلا أسرع إليَّ معبراً عن استعداده لبذل ما قد أحتاج إليه، وتلك سجيته مع جميع ضيوف المؤتمر. وأثناء الاجتماع الأول - بعد انتهاء الملك حسين من افتتاح المؤتمر بخطابه - وتقديم الوفود للسلام عليه - لم يكتف حين رآني بالأخذ بيدي، وتقديمي على كثير من الذين تقدموا عليَّ - وكنت أتأخر شيئًا فشيئًا للخروج من مكان الاجتماع - فقدمني للملك وأضفى عليَّ وصفًا دفعني إلى أن قلت أثناء مصافحتي للملك: لا أتهم الدكتور الأسد بالجهل بي حين وصفني بخلاف ما اتصف به، ولكن الرجل الفاضل يرى في غيره ما يتحلى به نفسه هو من نبل الخلال، فكان الكلمة وقعت من نفس الملك موقعًا دفعه أن يمد إليَّ يده مرة أخرى مبتسمًا، إن لم يرد أن أدع المكان لغيري، وكان الملك يوزع كلمات الترحيب وما يبديه من بشاشة وابتسام على من يعرفه ومَنْ لا يعرفه ممن تقدموا بين يديه توزيعًا عادلاً.

(عَنْبَر جُوَدة)[1]: أسرعت بعد الظهر في الذهاب إلى المطار، وتلك عادتي فأنا أسير على الحكمة القائلة: (من تقدم لم يتندم) وفي الساعة الخامسة والنصف كنت قد أخذت مقعدي بين الجالسين في (صالة السفر) بعد أن شاهدت ما بقربه من أمكنة، كالسوق الحرة، والمقهى، والمكان المخصص لتناول (المرطبات) مجانًا من قبل شركة الخطوط الأردنية (عالية) واستبدلت نقوداً مما بقي معي من الدنانير الأردنية، وعلى ذكرها فإني أنصح بعدم الصرف إلا في المصارف (البنوك) لا في الفنادق.

ها هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عوض الله صالح - مفتي السودان - جالس غير

---

(١) «العرب» س١١ ص٤٨٥.

بعيد عني، وكان ممن حضر المؤتمر، وقد اجتمعت به مراراً في (مؤتمر السيرة النبوية) في الدوحة في قطر في أول هذا العام، ومنذ نحو شهر في (أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب) في الرياض، وقبل خمس سنوات عرفته -أول ما عرفته- حين زرت الخرطوم، فاجتمعت به عند سفير بلادنا الأستاذ الكريم الشيخ عرب سعيد هاشم (يوم الخميس ٢٥ / ١١ / ١٣٩٦هـ) وتحدثت عنه بما انطبع في ذهني في أول اجتماع.

جلست بقرب الشيخ، وكان مُحَدِّثًا لبقًا فكهًا، بحيث تمنيت أن يطول أمد الجلوس، فكان ذلك، ولكن بدرجة لا تكاد تحتمل، فقد تأخر السفر إلى الساعة التاسعة، ثم الحادية عشرة، ثم لم يكن الإقلاع من المطار إلا الساعة الثانية عشرة.

وببركة الشيخ أفضل علينا أحد موظفي المطار بالخروج من المكان الذي اجتمع به المسافرون حتى ملأوه، فهم بين واقف، وجالس فوق آخر، مع ضيق ذلك المكان وكثرة المسافرين، ولم يسمح لغيرنا بالخروج، لأنهم قد فتشوا تمهيداً لركوب الطائرة. وحين يريد أحد أن يخرج لأمر عارض، يعترضه أحد الشرطة، حتى طال الوقت وضَجَّ الناس، فسمح لذوي الحاجة منهم.

كان الشيخ عوض الله حين يرى ما فيه أولئك من ضيق وحصر وضوضاء، يكرر كلمة (عَنْبر جودة) حتى استوضحت منه عن معناها فقال: جودة قرية تقع في شمال الخرطوم، وتبعد عنه ثلاث مئة وخمسين كيلا، وجرى أن حبس في سجن تلك القرية أربعون إنسانًا، وكان السجن مسقفًا ولا منفذ فيه للهواء، وكان الوقت حارًا، فبدأ المحبوسون يتساقطون موتًا واحداً بعد الآخر، ولم يبق منهم سوى واحد، فذكرني هذا المنظر بذلك المثل الذي يضرب في الحالة التي يستسلم فيها المرء للواقع، ولا يتصرف تصرفًا يخرجه مما وقع فيه من ورطة. فيقال لحثه على عدم الاستسلام: وهل وقعت في (عنبر جودة)؟!

مضى في انتظار السفر وقت تجاوز ست ساعات، لم أطعم فيه سوى كوب من

شراب بارد حلو، يقال إنه عصير برتقال، ولم أر عند المشْرَب الذي داخل المطار من الأكل ما يغري بتناوله، وفي الطائرة قدم طعام بارد، ولكنه كان لذيذاً، وكما قال حميدان الشويعر:

الجـوع خَـدَيْديم اجـوادْ ودِّكْ يـاطى كـل زِنْـقَـه

والنعـمـه خَـمْـر جـهّـاشَـهْ مـا يحـفظها كـود وثْقـه

وفي الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم الجمعة (١١/٦/١٤٠٠هـ و٢٦/٤/١٩٨٠م) كنت أرمي بالحقيبة داخل منزلي في شارع مراحق بن عامر في الجيزة، وأتمدد فوق أقرب مكان صالح للنوم، إذ قد أخذ مني التعب مأخذهُ، فطيران ساعتين، وقبله انتظار ست ساعات، ثم المزاحمة للبحث عن الحقيبة - ركاب الطائرة نحو ٤٠٠ إذا صدق أحد المضيفين - ثم.. ثم.. ثم وسيبقى السفر كما كان (قطعة من العذاب!

ولا تفوت الإشارة أن ما أظهره الإخوة الأحبة المشرفون على شؤون ذلك المؤتمر، من حيث تنظيمها، والاهتمام بكل ما يوفر الراحة لكل المشاركين في حضوره في جميع أمورهم، وما كانوا يبدونه لكل واحد منهم من حسن الاستقبال، والمسارعة في تحقيق الرغبات، والحرص الشديد على بذل المستطاع لكي يعودوا إلى بلدانهم، يحملون أطيب الذكريات لهذا الجزء الحبيب من الوطن العربي، وللقائمين بتنظيم أمور المؤتمر خاصة، من مليك البلاد[1]، ومن الأمير الحسن، ومن أبي البِشر الدكتور ناصر الدين الأسد، ومن الدكتور محمد عدنان البخيث، وجميع إخوتهم مما أحدث في نفس كل من سعد بالمشاركة بالحضور، من الذكريات الحسنة، ما يتجدد في كل مناسبة يجري فيها ذكر هذه البلاد الكريمة.

---

(١) وقد توفي الملك حسين -رحمه الله- يوم ٢١/١٠/١٤١٩هـ فخلفه في ولاية المُلك ابنه الملك عبدالله وأسند ولاية عهده إلى أخيه الأمير حمزه، والله المسؤول أن يتولى هذه البلاد وغيرها من البلاد العربية الإسلامية بلطفه وتوفيقه لما فيه الخير.

وماذا في بلاد الرافدين[1]؟!

رعى الله تلك البلاد، وأقالها من عثارها ووقاها شر أعدائها، فلقد كان فيما اعتراها من نكبة أبلغ الضرر لا في البلاد وحدها، ولا على ما يقاسيه سكانها من وسائل الظلم والاضطهاد والفقر وغير ذلك من المحن، بل يضاف إلى كل ذلك - مع شدته - ما شمل الأمة العربية من تمزيق وحدتها، وسيطرة أعدائها عليها، وإضعافها وإذلالها مما لا مجال للحديث فيه.

لقد كانت تلك البلاد - من أقدم ما عرف من تاريخ العصور الماضية فضلاً عن كونها جزءاً من البلاد العربية، ومستقراً لكثير من قبائلها منذ قديم الدهر - كانت منفذاً ومتنفساً رحباً لسكان الجزيرة أثناء الأزمات التي تحل بهم، والنكبات التي تعتريهم، فحين يتكاثر أولئك السكان، وتضيق بهم بلادهم من جراء الهجرات والتموجات، من جنوبها وغربها إلى شرقها وشمالها ووسطها، ففي بلاد الرافدين من السعة، وفيها من رخاء العيش ورَغْده، وفي أهلها من كرم الخلال، ومن حسن الاستقبال ما يرغب في الانجذاب إليها، وعندما يحل بمواطن البادية الجدب من جراء احتباس الغيث، الذي يتوقف على نزوله بقاء أنعامهم، وببقائها تقوم حياتهم، إذا حدث شيءٌ من هذا اتجهوا إلى تلك البلاد ليجدوا في أريافها أرحب مكان لاستقرارهم، مما تحيا به أنعامهم، فتنعش جميع أحوالهم، ومن هنا انتشرت القبائل، واستقر كثير منها هناك، وليس هذا الأمر خاصاً بأهل البادية بل شمل جميع السكان، فليست بواعث الانسياح إلى تلك البلاد خاصة بالبادية، بل كثيراً ما يصاب أهل القرى ببعض نكبات الدهر، من جرَّاء فتنة تحدث، أو فقر يحل، أو أية حادثة من الحوادث، وليس كبلاد الرافدين قرباً وصلة، وتوفُّرَ ما يكفل الراحة والاستقرار، مما نشأ عنه من الامتزاج، وقوة الاختلاط، ما أثر في طبيعة تلك البلاد نفسها، بحيث أُنْشِئَتْ فيها بعض القرى كبلدة (الزُّبَيْر) واستقر في مدنها كثير من سكان قلب الجزيرة في (البصرة) وبغداد وغيرهما، هذا فضلاً عن الصلات

(١) الرافِدَانِ: النهران العظيمان، دِجْلَةُ والفُرات.

الأخرى الناشئة عن هذا التواصل من اقتصادية وغيرها، بحيث قويت الروابط المبنية على تبادل المنافع، والعيش في محيط واحد، والاتجاه في الحياة العامة وجهة واحدة، وفوق كل ذلك الصلات الروحانية الدينية والحضارية، مما بقي على أقوى ما يكون من القوة والتماسك بين أهل هذه البلاد، وبين من يعيش في الجزيرة من إخوانهم، مهما تغيرت الأحوال وتقلبت صروف الدهر ونكباته، الناشئان عن قوة تلك الصلات لا يتأثران ولا يتغيران بل يزدادان قوة وصلابة، مع اشتداد الأحوال وتكرر الأزمات من بعض أسباب قد تكون عارضة، وسرعان ما تزول وتنمحي وتبقى الشعوب صامدة قوية. وما بينها من صلات التعاطف يزداد اتصالاً وتماسكًا.

أُرَانِي خرجت عن الموضوع، وهو الحديث عن رحلاتي في بعض الأقطار العربية وها هي بعض ما علق في الذاكرة مما يتعلق بتلك البلاد الحبيبة إلى النفس.

إلى البصرة الفَيْحَاء(*) : أمضينا في الكويت يوم العيد ويومين بعده، ثم امتطينا في صبيحة اليوم الرابع من شوال ١٣٧٥هـ سيارة صغيرة، ميممين شطر البصرة الفيحاء وصحبنا في السيارة اثنان من سكان شمال الشام، والمسافة بين الكويت والبصرة تقارب مئتي كيل، في طريق بين دكادك ومنخفضات، غير معبد ولا ممهد، إلا أنه لا يلحق بالمسافرين كثيراً من التعب، ولقد أراد أحد الرفقة الثلاثة أن يتخذ من الحديث وسيلة تخفف مشقة السفر، غير أن الرفيقين السوريين وهما لا يدركان ما نقصده من الحديث لتغاير اللهجات بيننا، ظنا أن ما نجريه بيننا من حديث لا صلة له بهما، يتعلق بهما، فأبديا امتعاضهما واستياءهما. ورغبا منا عدم الحديث. وهكذا فإن اختلاف اللهجات بين سكان البلاد العربية من الأسباب التي توجد عدم التقارب والتفاهم.

كانت السيارة تنهب بنا الأرض نهبًا، وكانت الإجراءات المتعلقة بجوازات السفر في الكويت من خير الاجراءات وايسرها وأقلها كلفة، فقد ذهب سائق

(*) «اليمامة» العدد ٤٣ الأحد ١٩ محرم سنة ١٣٧٦هـ (٢٦ أغسطس سنة ١٩٥٦م) السنة الثالثة.

السيارة عندما اردنا الخروج من الكويت بجوازات سفرنا وسرعان ما عاد إلينا بها قد تمت إجراءاتها، ولما مررنا مخفر شرطة الكويت الواقع في الحدود فيما بين الكويت وبين حدود العراق، اكتفي بتسجيل الأسماء، ولم نتريث عنده، إلا أننا بعد ساعتين من خروجنا من مدينة الكويت بلغنا أول مخفر لجنود العراق في قرية (سفوان) فبقينا فيه ما يقرب من ساعة كاملة.

هذه القرية كانت في القديم ماء من أشهر مياه العرب، ومنهلاً من مناهلهم المعروفة، وفيها يقول الشاعر القديم، وهو الوَدَّاك بن نُميل المازني:

رويد بني شيبان بعض وعيدكم   تلاقوا غدًا خيلي على سفوان

وقد شاهدنا لافتات المحلات الحكومية فيها كالشرطة والمكس وقد حرف فيها اسم القرية فكتب (صفوان) بالصاد، وهكذا ينطقها سكانها - ويسكنون الفاء والصواب فتح السين بدل الصاد.

في هذه القرية مقهى ذكرني بمقاهي القطيف بعدم النظافة، وبمظهره كله، وفيها حانوت يباع فيه بعض ما يحتاجه المسافرون من أكل، خبز وبيض ونحوهما، وفيها قليل من السكان في بيوت مبنية باللبن والطين، وبساتين قليلة خارجها.

جلسنا في المقهى وذهب سائق السيارة بالجوازات لعرضها على (ضابط جوازات السفر) وبعد نصف ساعة عاد ليدعو اثنين منا لمقابلة الضابط، أنا أحدهما، ولما مثلنا بين يديه قال لي: يجب أن تتصل بمديرية الدعاية والأنباء في خلال أربع وعشرين ساعة من هذا الوقت، فاستوضحت منه أين تقع هذه المديرية؟ وما الداعي للاتصال بها؟ فقال: إنها تقع في بغداد، وسبب اتصالك بها لأن مهنتك صحفي. فأفهمته من غير المعقول الاتصال خلال هذه المدة لأن اتجاه سفرنا إلى البصرة، وقد نمكث فيها أيامًا، وقد نعود منها أو قد نسافر إلى خارج العراق، وإذا كان الأمر يستلزم الاتصال بتلك المديرية في خلال المدة المذكورة فقد أفكر في

العدول عن دخول العراق، فما كان منه إلا أن كتب في جواز سفري بالسماح لي بالدخول، وأما صاحبي فقد كان جواز سفره خاليًا من ذكر اسم العراق، ضمن البلدان المسموح له بالسفر إليها، والتي شملت كل بلدان الدول العربية، وقسمًا كبيرًا من أوروبا! وقد سقط اسم العراق بدون قصد إلا أن هذا حمل الضابط إلى أن يقول له بأنه لا يمكن أن يمنحه سمة دخول، فحاولنا بما استطعنا من القول، أن يعدل عن رأيه هذا ولكنه أحالنا إلى رئيسه، وهو رئيس على جانب من الصرامة، فلم تُجْدِ معه المحاولات، ولم تنفع التوسلات بما نحسن من عبارات الأخوة العربية، وازالة الفوارق وتسهيل المرور، وإلغاء جوازات السفر، ونحو هذه الجمل، ولم يكن هناك من الوسائل إلا أن نترك (أبا سهيل) في سفوان، وماذا في تركنا له؟! فعنده ما يحتاج إليه من شراب وأكل، وهما كل ما يطمح إليه -بضم الياء- في هذه القرية، حتى يعود أحدنا بجواز سفره من البصرة، ملحقًا به اسم العراق.

لقد كان من ضمن برنامج الرحلة المتفق عليه، أن نتخلى عن كل الأمور التي تقيدنا، أو تحول بيننا وبين التمتع بأقصى ما نستطيع التمتع به مما نحن بحاجة إليه من راحة، وانطلاقًا من شواغلنا، وأن ننال قسطا من التحرر من بعض القيود والعادات والتقاليد المألوفة في بلادنا، والتي تحول دون استفادتنا من هذه الرحلة التي قصدنا منها استجمام النشاط، ومن ضمن ذلك عدم الاتصال بمن نعرفه في البلدان التي نمر بها. وقد قررنا بأن رحلتنا كلها سوف لا تزيد على أسبوع واحد، ولهذا فلا حاجة لنا إلى الاتصال بأية جهة من الجهات، ومنها قنصلية حكومتنا في البصرة، أو سفارتها في بغداد، أما الأولى فقد سبق أن مررت بالبصرة منذ بضع سنوات، وأقمت فيها أسبوعًا اتصلت أثناءها بسعادة الشهم الكريم الشيخ محمد الشبيلي فأغدق عليَّ من صنوف كرمه وبره، وطوقني من جميل فعله ما يجعلني أتحامى مجيء البصرة مرة أخرى، فأنا أرى الإحسان يستبعد المرء، فإذا لم أقدر على المكافأة على حسن الصنيع أحسست بالضعف، وعجزت عن تحمل ذلك، وهذا من الأمور

التي حملتنا معشر الرفقة الثلاثة على أن نقرر عدم الاتصال بأحد ممن نعرفه في البصرة، ولكن الأمور جرت خلاف ما أردنا (وتقدرون فتضحك الأقدار) .

لابد من الاتصال بالقنصلية، وهل يتم هذا بدون علم أبي سليمان بنا؟ هذا من المحال، فإن كل من يفد إلى البصرة من البلاد السعودية لا يعزب عن أبي سليمان من حركاته وسكناته شيء.

سرنا من سفوان، فبلغنا البصرة قبل الظهر، وعندما قربنا من دار القنصلية حملت أبا خالد ما قدر على حمله من التوصية بأن لا يشعر بمجيئنا أحد، حتى تلميذنا وابننا فارس بن عبدالعزيز الحامد، الموظف في القنصلية، فذهب الأستاذ بجواز سفر أبي سهيل فكان أول من قابل في القنصلية هو فارس نفسه. فيسر له مهمته، وحاول أن يفهم منه مكان نزوله ولكن أبا خالد لا يعرف المكان، والحاجة لا تدعو سائله إلى الإلحاح عليه بمعرفة ذلك، فقد اكتفى بأن علم بأنه قدم البصرة وهذا كاف في الاهتداء إلى المنزل.

كنت أخبرت الأستاذ بأن يأتي إليَّ بعد إصلاح الجواز في فندق سميته له، ولكنني من باب الحيطة خشيت أن يكون أخبر أحداً به فلما عاد إلي وجدني خارج الفندق بحجة أنه لا يوجد فيه محل صالح للسكنى، فذهبنا إلى مكان آخر، خدعنا اسمه، وتوسمنا فيه الخير فوجدناه خلاف ما ظننا، إلا أن التعب قد أخذ منا مأخذه، وصاحبنا قد خلفناه وراءنا، فأنزلنا امتعتنا في غرفة من غرف ذلك الفندق، وبقيت فيها. وعاد أبو خالد إلى صاحبنا في سيارة.

في مدينة البصرة(*) : نزلنا في فندق يدعى (سميراميس) قيل إنه من خير الفنادق، والحق أنه لقذارته، وسوء معاملة خدمه، وعدم نظافة أمكنته يعد من أَسْوإِ فنادق المدينة. غير أننا انتقلنا منه في اليوم الثاني إلى فندق يدعى فندق

(*) «اليمامة» العدد ٤٥ الأحد ٤ صفر سنة ١٣٧٦هـ (٩ سبتمبر سنة ١٩٥٦م) السنة الثالثة.

الخيام، يمتاز عليه بنظافته حِسًّا ومعنى، وبوقوعه فوق الشط، وهذا مما يخفف لفح السموم وشدته، ونحن وإن كنا في آخر برج الثور (شهر مايو) إلا أن الجو حار . أما أحسن فندق في هذه البلدة على الإطلاق فهو (فندق شط العرب) الواقع في المطار، وهو بعيد عن المدينة، وساكنه يحتاج إلى سيارة للتنقل، وإلى فضل في النفقة يستطيع به سَدَادَ أجرة هذا الفندق .

كانت سكنى ذلك الفندق السَّيّئ بطريقة استعجال، لأن صاحبنا أبو خالد مرَّ بالقنصلية قبل النزول، وبعض إضافة اسم العراق عاد إلي إذ كنت في انتظاره بالسياره، فعلمت منه أنه أخبر الأستاذ فارس الحامد في القنصلية بنا . وكنا حريصين على أن لا يعلم الشيخ محمد الحمد الشبيلي، فقلت ليكن النزول في فندق بعيد عن القنصلية . فأنزلني صاحبي وعاد مسرعًا إلى رفيقنا في (سفوان) وكنت مُتعَبًا . فأخذني النوم، ولما استيقظت إذ بثلاثة كتب موضوعة بقربي من الشيخ . في أحدها أنه زارني فوجدني نائمًا، ويرحب بنا، ويصف الفندق بعدم مناسبته، وبأنه حجز لنا ثلاث غرف مفاتيحها مع الكتب . في فندق مناسب، وأنه سيحضر إلينا بعد ارتياحنا . فكان الانتقال إلى ذلك الفندق . وبعد حضوره ألحَ علينا بأن نتناول العشاء معه، فلم يجد الاعتذار .

استجبنا لدعوة أبي سليمان، واجتمعنا على مائدته بعدد كثير من إخواننا ممن عرفنا وممن لم نعرف، وشاهدنا من كرمه وسجاحة خلقه ما ذكرنا بقول الشاعر :

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

أما هو فقد جمع الخصبين، إكثار القِرَى، وطلاقة المحيا البشوش، ولم نستطع أن نعتذر من محاولتنا عدم مقابلته، لا حينما قصصنا عليه خير زهير بن أبي سلمى الشاعر مع هرم بن سنان المرّي، فكان إذا مر به جالسًا في ملإ من قومه، سلم على الملإ، واستثنى هرما من بينهم قائلاً : عموا مساء (أو صباحا) سوى هرم بن سنان، وخيركم من استثنيت . وأبو سليمان كريم الخلق واليد والنفس، فقبل العذر، إنني ممن يربأ بنفسه من التعرض للناس بمدح أو بقدح، لأنَّ كثيراً ممن يفعل ذلك يتخذه وسيلة دنيئة لنيل

دنيء من أقوى الزواجر له النهي عن التمادي في السوء. ولقد شاهدت - وغيري- من حسن أخلاق الشيخ محمد الحمد الشيبلي وحسن معاملته لكل قاصديه ولطف استقباله لمن زار القنصلية السعودية في البصرة، ما غرس حسن الدعاية للبلاد التي اتصف رجالها الذين يمثلونها في البلاد الخارجية بالأخلاق الفاضلة، وبحُسن استقبالهم للناس، أما إذا أحاط هؤلاء الرجال أنفسهم بسياج من التعاظم، وقبعوا في أمكنتهم، فسينتج قبيح الظنة، وينتشر البلاد عن وأهلها سَيِّئُ القول وباطل التهم.

ولسنا بصدد الحديث عن هؤلاء. لنذكر أسماء بعضهم، غير أننا نقول إن سعادة الشيخ الشبيلي في كرم نفسه، وطيب أخلاقه، وحسن معاملته - فوق ما قيل وأسمى ما سيقال.

لم نقم في البصرة أكثر من ثلاثة أيام، ومنها في القطار إلى دار السلام (بغداد) وها قد مضى من عطلة العيد ستة أيام، وكل واحد من الرفقة الثلاثة - أبو سهيل، وأبو خالد عبدالعزيز المنصور وأخوهم - ينبغي عودته إلى عمله بانتهائها، وكانت الغاية من الرحلة الاستجمام، والاستراحة فترة تتيح الاتجاه للعمل بنشاط. ولم يبق سوى يُوَيْمات قليلة، فلنحاول خلالها الاتجاه لغايتنا ما أمكن. ولكن لم تطب لنا الإقامة لكثرة - من غير قصد - ممن يعرفنا، أمضيناها ثلاثة أيام، كانت العودة بعدها جوًّا كل إلى مقر عمله.

في بغداد: تكررت زياراتي لمدينة بغداد، فكان منها في شهر رمضان في عام ١٣٦٨هـ كنت اطلعت عل مخطوطة لكتاب «بلاد العرب» وهو فَردٌ في موضوعه، وهو تحديد منازل القبائل العربية في القرن الثالث الهجري فما قبله، والمخطوطة كانت من كتب الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى -المؤرخ النجدي المعروف- وكتابتها حديثة سنة ١٣١٣هـ، ويبدو منها أن كاتبها عراقي من أهل القرن الماضي، ففكرت في نشر الكتاب، وتوقعت أن أصلها في بغداد، لأنني رأيت السيد محمود شكري الألوسي نقل عن الكتاب، ونسبه للغدة الأصبهاني، بينما هناك

من نسبه إلى الأصمعي، فعزمت على السفر إلى تلك البلاد، وسفير بلادنا فيها أحد أصدقائي الأستاذ عبدالله الخيَّال.

لا داعي لذكر المقدمات. لقد كان النزول في فندق الرشيد من الفنادق المتوسطة التي ارتاح للسكنى فيها، وفي اليوم الثاني قابلت الأستاذ الخيَّال، وعرف الغاية من قدومي، وقد أراد المبالغة في اكرامي فأقام مادبة عشاء دعا إليها عدداً من العلماء والأدباء. منهم الشيخ محمد بهجة الأثري، والدكتور تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد محمود الصواف(١)، والأستاذ محمد أحمد الصراف معرب رباعيات الخيام، وآخرين غيرهم مع بعض كبار الموجودين من أهل نجد، وقد آنست بالالتقاء بهذه النخبة الطيبة تلك الليلة، ومنهم من أكرمني بتكرار زيارتي في الفندق. وقد سألت الشيخ الأثري وهو من أخص تلاميذ السيد محمود شكري الألوسي عن مآل كتبه بعد وفاته، فأخبرني بأن أكثرها اشتراه المحامي عباس العزاوي، من المتزوج من إحدى قريبات الألوسي، وقد كتب لي عنوان العزاوي، وأنه (خان الباجهجي - شارع الرشيد) فطلبت منه أن يكتب إليه ليعرفه بي فامتنع قائلاً: إن بيني وبينه ما قد يحدث بين المتعاصرين، ولكن الدكتور الهلالي صديقه، فقال الهلالي: نعم وأخرج بطاقته من جيبه وطلب من أحد الحاضرين كتابة ما أملاه - لأنه لايبصر- وقدم لي البطاقة، وعرفت أنه لا يوجد في مكتبه إلا مساء، وبعد العصر مررت به، فسألني عن الذي أريد من كتب الألوسي. فقلت على البديهة: بلغني أن منها كتاب «بلاد العرب» للغدة الأصفهاني. فقال: نعم وهو عندي، فأبديت له رغبتي في الاطلاع عليه، فقال: إنني لا أطلع على كتبي أحداً، فأخبرته أن لدي نسخة من الكتاب قد تكون أصح من نسختك. قال: إن كنت صادقًا فميعادك الساعة الثامنة (قهوة بلقيس) في (شارع أبي نواس) فكان الالتقاء هناك، وأمضينا ليالي في مقابلة النسختين... وعرض عليَّ أثناء ذلك كتابًا عن تحديد المواضع. قال: إنه تأليف العمراني تلميذ الزمخشري، الذي

(*) كان الشيخ الصواف ممن درس بمصر وعمل في بلادنا في عهد الملك فيصل -رحمه الله - حتى توفي وابنه الدكتور مجاهد يعمل في جامعة أم القرى.

ينقل عنه ياقوت، وقد وصفته في «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق» وأبى أن يعيرني إياه للمطالعة، وأثناء تصفحي له ونحن جالسان وقع نظري على نص وردت فيه كلمة (إمامنا الناصر لدين الله) يعني الخليفة العباسي، فقلت للأستاذ: ليس هذا للعمراني هذا معاصر للخليفة العباسي الذي في عهده حدثت نكبة بغداد سنة (٦٥٦هـ) والعمراني من أهل القرن السادس توفي سنة (٥٦٠هـ) فأبدى أسفه لكونه لم يطلع على هذا النص، وقد دعاني بعد ذلك لزيارة مكتبته، وكانت تحتوي على عدد من المؤلفات المخطوطة، ومجموعة من خطوط مشاهير الخطاطين في العراق واصطنبول والشام، ولكنني لم أتمكن من الاستفادة من تلك الكتب، ولما وصفه الأستاذ عبدالله الجبوري بكلمة نشرها عنه، بالبخل من هذه الناحية كتَب مكذبًا له، مستشهداً بي وأنه اطلعني على مكتبته -رحمه الله-.

أمضيتها أيامًا من أسعد أيام حياتي، وأحفلها في البحث والاستزادة من المعرفة بما اطلعتُ عليه من مخطوطات نادرة، وبزيارتي عدد من العلماء البارزين، مما سأشير إلى أطراف من ذلك.

كان مما زرت من المكتبات (مكتبة الأب أنستاس الكرملي) وهي تضم مجموعة من المخطوطات، بعضها نادر، ومن مخطوطاتها نسخة من كتاب «بلاد العرب» يبدو أنها منسوخة عن نسخة الألوسي، ولكن ناسخها سليمان الدخيل -رحمه الله- أصيب بالعوز، واشتداد الحاجة حتى اضطر لبيعها على الكرملي، فكان يظهرها بمظهر الندرة، ولهذا كتب بطرة النسخة أنه نسخها من (مكتبة داوود باشا) في المدينة، حين اضطر بسبب قسوة والٍ تركي تسلط على رجالات العرب بالقتل أو السجن، فهرب إلى المدينة، ومن تلك المخطوطات جزء من «تاريخ ابن غنام» المعروف، كتب الكرملي بطرته، كلامًا خرافيًا عن كيفية الحصول عليه، هو من تلفيق سليمان(١). ومنها «شرح شعر ابن أبي حُصينة» لأبي العلاء المعري، ومجموع أشعار عامية، لبعض شعراء نجد، بخط حديث كأنه خط الكرملي الذي ذكر بأنه سيتولى شرحها، نقلاً عن سليمان الدخيل، فشرح قسمًا منها.

(*) لإيضاح هذا انظر ترجمته في «العرب» س١ ص٤٦٩.

كما زرت مكتبات أخرى كمكتبة الأوقاف، و(دار الآثار) ومما رأيت في هذه من نوادر المخطوطات « ديوان الحطيئة » وكان ممن ملك النسخة الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى، ورأيت في الدار أيضًا ديناراً من مسكوكات (اليمامة) . وزرت مكتبة المجمع العلمي العراقي، وفيها مصورات نادرة.

واجتمعت ببعض العلماء، كالشيخ الأثري والشيخ محمد محمود الصواف. وكان يكرمني بالزيارة كل يوم. والدكتور جواد علي وهو من ألطف من رأيت في بغداد، وكان مُتَّجهًا لتأليف كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » ووجدت من حسن استقباله ولطف أخلاقه ما دفعني لتكرار زيارته، حيث نمضي فترة من الوقت في المذاكرة في الموضوع، وأخبرته بأنه يوجد في بعض جهات شرق المملكة أمكنة فيها بعض الأثار، ولكنها معرضة للعبث وعدم الصيانة، إذ لا يوجد من يعنى بهذا الجانب التاريخي، ولعلي أرسلت له بعض الصور، وأنه ذكر اسمي في الجزء الأول.

وكنت أعجبت بما للدكتور مصطفى جواد من أبحاث، فاتّصلت به بالهاتف ليحدد لي وقتًا لزيارته، ولكنه قال: سأزورك. فأفضل بذلك ومعه أستاذ فاضل أنسيت اسمه ممن يعنى بتأليف كتاب عن حياة البادية. كان يغلب على الدكتور مصطفى الانقباظ، وفيه كنزازة، لا أعتقد أن ذلك من تعاظم العلماء، فقد تكون سجية من سجاياه، ولما أبديت له رغبتي الاطلاع على بعض المخطوطات التاريخية التي يذكرها فيما ينشر من أبحاث، اعتذر بأن منزله ضيق وأن كتبه مركوم بعضها فوق بعض بدون ترتيب ويصعب العثور على ما يراد الاطلاع عليه منها، ورأيته كمن لا يهوى الحديث في هذا الموضوع، ويتحفز للقيام لولا أن صاحبه يبدي الرغبة حتى حضور ما طلبا من قهوة. كما اجتمعت بالدكتور علي حسين محفوظ، وهو كالدكتور مصطفى جواد، وشبيه بهما الشيخ الأثري فقد سألته عن مكتبته فقال ليس فيها من المخطوطات سوى ما نسخته وليس بذي أهمية بالنسبة لما ترغب الاطلاع عليه، فطلبت أن أرى النسخة التي نقلها عن مخطوطة الشيخ محمد السماوي من كتاب « مثالب العرب » : فرد قائلاً: قبحه الله وقبح مؤلفه، ولماذا تهتم

به؟ فقلت إن إبطال الباطل وإحقاق الحق لا يتم بالتقبيح والشتم، ولكن بإدراك حقيقة الآخرين، والصحابي الجليل حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، ولماذا إذن تهتمون بنسخ الكتاب وتعلقون على مواضع فيه. وكانت النسخة الأصلية من هذا الكتاب في مكتبة الشيخ محمد السماوي، فوصلت إلى الشاعر معروف الرصافي، فأهداها لأمين الريحاني لما زار بغداد، ولما زار أحمد ذكي باشا -شيخ العروبة- لبنان وزار الريحاني في قريته (الفريكة) قدمه هدية له تذكاراً لزيارته. ثم انتقلت إلى دار الكتب. بعد أن انطمس كثير من كلماتها، ومنها صور متعددة لكن قل أن يستقيم الكلام في مواضع كثيرة منها، وكان يظن أن الكتاب من تأليف ابن الكلبي، ولكن اتضح لي من نصوص فيه أنه متأخر عن عهده.

أما الشخ محمد رضا الشبيبي، وهو من أجل العلماء، فقد كان مثالاً في لطفه وأدبه، وحسن استقباله، مع جلالة قدره وسعة شهرته. لقد اتصلت به مبديًا رغبتي في زيارته. فرحب بي في أي وقت أشاء، إذ قلَّ أن يخرج من المنزل، إلا أنه فضل أن تكون الزيارة بعد صلاة العشاء، فلما علم بي استقبلني عند الباب، واحتفى بي وأخذ بيدي حتى أجلسني جواره، وفي مجلسه الواسع عدد من الحضور، أغلبهم -فيما يبدو- من تلاميذه، فاستمر بالحديث معهم برهة، ثم قال: لنستقبل ضيفنا فقلت: بل استمروا فيما أنتم فيه. فضحك وقال: إنهم إلى عدم الاستمرار أحوج. أحضروا لنا العشاء. وبعد ذلك أمضيت عنده وقتًا طيبًا في المذاكرة والاستفادة. وكان مما سألته عنه كتاب «بلاد العرب» عن الأصل الذي نقل عنه الألوسي نسخته، فأخبرني بنسخة أخرى في (مكتبة نعمان الألوسي) قال: ولكنها حديثة الكتابة، وعندي عنها نسخة، وقد ألقيت محاضرة عنه على طلبة (كلية العلوم) في القاهرة[1]، وأطلعني على مكتبته وكان الوقت متأخراً. وقال: جُلَّ ما فيها مطبوع. وليس فيها ما هو نادر سوى نسخة من «ديوان ابن المشَدّ» وبعض دواوين حديثة لشعراء من العراق.

(*) وقد نشر الشيخ الشبيبي عنه مقالاً في العدد الاول من «مجلة المجمع العلمي العراقي» بتاريخ ذي القعدة ١٣٦٩هـ.

ودار الزمان دورته وهو ذو عجب كما يقال فإذا (مجمع اللغة العربية) ينتخب الشيخ الشبيبي عضواً فيه يوم ١٥ / ٣ / ١٣٦٧هـ (٢٦ / ١ / ١٩٤٨م)، وكاتب هذه السطور في ٢٧ / ٥ / ١٣٧٨هـ (٨ / ١٢ / ١٩٥٨م)، ويصدر مرسوم جمهوري عن الأخير بالموافقة على ذلك[1].

في (المجمع العلمي العراقي) : رغبني الشيخ الشبيبي بزيارة المجمع، لمشاهدة ما يقوم به من نشاط في نشر كتب التراث، وللاطلاع على بعض منشوراته. وكنت قد مررت به فلم أقابل فيه سوى الدكتور جواد علي أمينه، الذي أمضيت في محادثته ما استغرق وقت الزيارة. واطلعت على بعض ما تحويه مكتبته من كتب أكثرها مصور. فلما حضرت في اليوم الثاني بعد مقابلتي للشيخ الشبيبي، وجدت الرئيس الأستاذ منير القاضي وعدداً من الأعضاء منهم الشبيبي والأثري، ومصطفى جواد، وجواد علي وغيرهم، فاستمتعت بالاستماع إلى بعض أحاديثهم العامة، وشاركتهم في بعضها، ثم قدم لي أمينه الدكتور جواد علي بعض مطبوعاته. ولم أطل البقاء، توقعًا أنهم سيتحدثون في أمورهم التي اجتمعوا من أجلها.

وقد تلقيت بعد عودتي كتابًا من رئيسه بتعييني من أعضائه المراسلين، وصرت أتلقى ما ينشر من مطبوعات، منها مجلته التي كانت في أول عهدها من أحفل المجلات بالمباحث المتعلقة بالتعريف بالمخطوطات والمطبوعات من المؤلفات التي لها صلة بالعرب وببلادهم، ومن أشهر كتابها الدكتور جواد علي.

مرَّت الأيام التي قضيتها في بغداد سريعة، أو هكذا تصورتها، لما غمرني خلالها من الارتياح، فعدت إلى مقر عملي في الظهران. أحمل لتلك البلاد، وللإخوة الذين سعدت بلقياهم أجمل الذكريات. ولم تكن هذه الرحلة الأولى إلى تلك المدينة الكريمة، ولا الأخيرة.

وحين كنت في بيروت تلقيت دعوة لحضور الاحتفال بمرور ألف عام، وإقامة (مهرجان الكندي) فكان الاستقبال والاحتفاء بجميع المدعوين – وأنا أحدهم – وترتيب سكناهم

---

(١) مجلة « العرب » س٦ ص٥٧٣ .

ووسائل تنقلهم بغاية حسنة من التنظيم، ثم كان افتتاح الحفل في (قاعة الشعب) والمدعوون يزيدون على أربع مئة من مختلف البلاد العربية وغيرها من علماء ومستشرقين، ولكن لم يحضر من المملكة ولا مصر أحد، ومع كثرة المدعوين، فقد خصص لكل وفد مرافق يتولى ترتيب جميع أموره، وقد اسكنت في غرفة كبيرة، فيها خارجة واسعة تطل على النهر، وخصصت لي سيارة فخمة باسم (الوفد السعودي) وفي جلسة الافتتاح قبل بَدْئها حضر الزعيم عبدالكريم قاسم فأطل على الحاضرين من شرفة من الطابق الذي فوقهم، فوقفوا جميعهم، واتجهوا ينظرون إليه، وكنت جالسًا بجوار الوفد المغربي، ورئيسه إذ ذاك الشيخ محمد الفاسي، فلما هبَّ للوقوف ككل من في (القاعة) أمسكتُ بطرف برنسه، وقلت: العلماء يقام لهم، لا يقومون حين يطل عليهم هذا من عليائه؟ ولكنه وقف وهو يُسِرُّ بأذني بالبيت المعروف :

ودارهم ما دُمت في دارهم وأرْضِهم ما دُمْت في أرْضِهم

ويَبْدُو أنَّ عدم وُقُوفي -وحدي- لم يرق للمشرفين على تنظيم الاجتماع، ويرأسهم إذ ذاك الشيخ بهجة الأثري، وإسماعيل عارف وزير الإعلام، فبعد انتهاء الجلسة قبل خروجي أتى إليَّ أحمد القحيمي سفير بلادنا في بغداد، وكان مع السفراء في المكان الذي كان يطل منه الزعيم، وكنت قد عرفته في عمَّان، ثم في بيروت، فبعد أن سلم عليَّ قال: إن الشيخ بهجة وبعض الحضور لاحظوا عدم قيامك للزعيم. وكنت متأثرًا من طول الجلسة ومما حدث. فقلت: عندما أزورك في السفارة وجِّهْ ما تشاء من آداب الاجتماعات، فأدرك عدم ارتياحي فانصرف.

لقد كانت الأيام التي قضيتها أثناء تلك الزيارة في بغداد أشبه بأيام السجن، فجميع الوقت من الساعة الثامنة صباحًا حتى الثانية عشرة ليلاً مملوءة بالزيارات والمقابلات والاجتماعات، وكلها مخصصة لمظاهر الدعاية. والمرافق لا يدع لمن معه فرصة، فهو الذي يتصرف في وقته، ويوجهه وفق برنامج موضوع لذلك، وحدث أن أقيم للوفود احتفال في قرية (الصويرة) قرية الزعيم الساعة الثانية بعد الظهر، لتناول طعام الغداء، فحضر جميع الوفود، وحشروا في خيام أقيمت بطرف القرية، ولم يلاحظ

عند نصبها أنها قليلة، كما لم يهيأ ما قد يحتاج إليه الإنسان عادة عند مكثه طويلاً في المكان، ولم يحضر الزعيم إلا بعد الوقت المحدد، وقد صفت موائد الطعام في مكان مكشوف بين الخيام. الذي خرج من فيها لاستقباله، فوقف خطيباً أكثر من ساعة.

كان أحد الإخوة المغاربة ويدعى العلوي، وهو صاحب مجلة أسبوعية قد عرفني بنفسه، فلما رأى سعة غرفتي، وأنني في سيارة وحدي، رغب أن ينزل معي في الغرفة، ويزاملني، وشكى إليَّ ضيق الغرف المخصصة لهم على كثرهم وكذلك قد السيارات، وكنت قد تضايقت من الوحدة، فوافقت بعد أن أدركت من ظرفه وآدابه ما رغبني بمرافقته. وحين الذهاب إلى (الصويرة) كنا معًا فعرض عليَّ زيارة بلدة (الحلة) وهي ليست بعيدة، ولكن كيف التخلص من المرافق، عبدالأمير. كانت فرصة بعد انتهاء الزعيم من خطابه، اتجه مع الوفود للغداء، ومنهم المرافق، فانسللنا إلى السيارة وقلنا للسائق: سنذهب إلى (الحلة) نتغدى هناك، فكان الاتجاه إليها، وعند مدخل البلدة اعترضنا جنود، وفوق واجهة السيارة لافتة تحمل كلمة (الوفد السعودي) فقالوا الاجتماع في (الصويرة) فقال صاحبي: قد حضرناه ولكننا جئنا لزيارة العميد الجنابي، وكان هذا من كبار رجال الجيش، وقد عرفه صاحبي حين كان ملحقًا عسكريًا في المغرب. وكان الجنابي ممن أمر الزعيم بحبسهم وكان في السجن، وهو من أهل (الحلة) فحضر أحد الضباط، وأمر بإيقافنا مع الجند، فأوضحت أنني لا أعرف الجنابي. وإنما أتيت لزيارة البلدة، وإذن فأنا أرغب العودة إلى بغداد. قنع الضابط بكلامي، ولكنه قال: انتظر حتى يزور رفيقك صاحبه، فذهبوا به إليه وهو في السجن، ثم عاد متأثراً مما حدث. ورجعنا إلى بغداد برفقة شرطي يبدو أنه مكلف للتثبت من أمرنا.

لم أقابل في بغداد أحداً ممن سبق أن اجتمعت به، ممن كانت استجابتي للدعوة أهم أسباب الحرص على الالتقاء بأولئك الأحبة، ولم أشاهد شيئًا مما كنت أود مشاهدته في هذه المدينة الطيبة. ولم يتسنَّ لي من الوقت ما يمكنني من الالتقاء ببعض من حضر المهرجان، وفيهم من العلماء من كنت أود الاجتماع بهم، وقبل

الانتهاء بيومين اتصلت صباحًا بالسيد إسماعيل عارف -وهو إن كان عسكريًا - إلا أنه كان على درجة عالية من اللطف وحسن الاستقبال، وهو الذي يشرف على جميع شؤون الوفود، فأبديت له رغبتي في العودة فقال: إن الزعيم سيخصص الوقت الباقي لمقابلة الوفود، وقد عرف أنك منهم، فيحسن البقاء. فأوضحت له أن غايتي من الحضور الاجتماع بمن سبق أن عرفتهم من علماء هذه البلاد وأدبائها، والاتصال بغيرهم، وقد حرمت من ذلك فقال: كل من تود الاجتماع به مع الحاضرين، فسميت له منهم الشيخ الشبيبي. فقال: إنه مريض، فقلت لقد اتصل بي وهو بصحة جيدة، والأستاذ العزاوي فقال: إنه في الخارج يعالج عينيه، فأخبرته بوجوده، والدكتور جواد علي. فقال: هو في ألمانيا لإلقاء بعض المحاضرات فقلت: لقد زارني وهو موجود.

فقال: أرجو أن ترى في زيارتك المقبلة لبغداد كل من تريد مقابلتهم، وأسرع بتهيئة العودة إلى بيروت في المساء. وتلك آخر مرة أزور بغداد. قابل الزعيم أكثر الوفود في إحدى الليالي بعد انتهاء من تناول العشاء، وكان بين الوفد السوري الأستاذ عزالدين التنوخي، فاحتفى به قائلاً: إنه من أعز أساتذته.

لقد عدت إلى بيروت خاوي الوفَاض من هذه الرحلة، ولكنني تابعتها برحلات أخرى لن أطيل بالحديث عنها. ولن تفوتني الإشارة إلى ما تقدم من الكلام عن بيروت وصلتي بالأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر، تلك الصلة التي امتدت حتى اختطفته يد المنون، إلاّ أنها لم تنقطع، فقد عرفت من تلاميذه في بغداد في آخر حياته عدداً من خيرة المثقفين، ممن أرى في امتداد صلتهم من الآثار النافعة لمعرفتهما بالأستاذ رحمه الله ممن أضحوا يغذُّون مجلة «العرب» بما يتحفون به قراءها من أبحاث لا يقلل من إمتاعها وفائدتها تنوعها تنوعًا يلائم أذواق مختلف القراء وأهداف المجلة، ومن أبرزهم الدكتور محمد حسين الأعرجي، والدكتور حاتم صالح الضامن، والأستاذ عباس هاني الجراخ، والدكتور محسن غياض عجيل (عقيل)، وغير هؤلاء ممن تزدان صفحات المجلة بما يجودون ببعثه للنشر فيها، منذ عهد أستاذهم الجليل إلى اليوم.

في اليمن السعيدة

بين صنعاء ومأرب : كثير من إخواني حين يعلمون أنني لم أزر بلاد اليمن يستغربون هذا مني، إذ ذلك الجزء الحبيب من وطننا هو أعرق الأجزاء الأخرى إلى الحضارة، وأعمقها في مجاهل التاريخ، وأبرزها سمات وآثاراً لما عُرِف من الحضارة العربية القديمة، التي لا تزال آثارها بارزة، ومن ثَمَّ كان يعرف في المؤلفات القديمة بـ (اليمن السعيدة).

وأنا في نظر أولئك الإخوة ممن يُعْنَى بالتاريخ القديم، وخاصة ما يتعلق منه بالعرب وبلادهم، والقطر اليمني الكريم مهد حضارة عربية منذ أقدم الأزمان المعروفة، وليس من المستبعد أن تكون جذور القبائل العربية المنتشرة في جزيرتها وخارجها تمتد في العهود السحيقة إلى ذلك المهد للحضارة العربية، وإن كان كثير من علماء العرب المتقدمين يرون الحجاز الموطن الأول الذي انتشرت منه قبائل العرب، وتفرقت في أنحاء الجزيرة.

ومما لا شك فيه أن مما عرف من آثار العمران القديم، وما أبرزته الكتابات والنقوش وبقايا الحصون والسدود، وما تناقله المؤرخون، وما شاهده الباحثون عن الآثار – من كل ما يتعلق بالحياة بالقطر اليمني – يتميز بالوضوح أكثر مما تتميز به بقية الأقطار العربية، وهذا بدون شك يدل على تغلغل العنصر العربي وإيْغَالِه في أحقاب التاريخ في تلك البلاد العريقة الحضارة.

لأدع هذا ولأَتحدث عن لمحات سريعة مما شاهدته خلال أيام قليلة أمضيتها في هذه البلاد الطيبة، هي على قلتها كانت مصدر إمتاع وراحة وصفاء ذهني، وارتياح نفسي.

في الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الثلاثاء (ثامن ذي القعدة ١٤٠٦هـ– ١٥/٧/١٩٨٦م) هبطت الطائرة في مطار صنعاء بعد رحلة مريحة استغرقت ساعة ونصفًا من مطار الرياض.

وكنت قد فوضت للرفيق الأستاذ عبدالكريم الجهيمان أمر ترتيب كل ما يتعلق

بتلك الرحلة، منذ مغادرة مدينة الرياض حتى العودة إليها، من حيث اختيار النزل، وتقرير أيام البقاء، وزيارة المواضع التي ينبغي أن تزار، وترتيب أوقات الراحة والتنقل.

وأبو سهيل – في رأيي – ينطبق عليه المثل: (نَبِّهْ لها عَلِيًّا ثم نَمْ) ولا يمنعني احترام الصديق من أن أشير إلى كلمة عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – حين سمع شعر ذلك الشاعر الماجن في وصف المرأة التي قربت بينه وبين محبوبته: (الطبّة العالمة، التي تمزج الجد مراراً باللعب) فقال كلمته المعروفة.

لقد اشتد التطلع إلى الأرض وازداد حين توقعنا الوصول إلى تلك البلاد، لكي نشاهد أبرز سمة منطبعة في الأذهان، مما حفلت به المؤلفات القديمة فأضفته على هذه البلاد الكريمة من نعتها بأنها (اليمن الخضراء) حتى كادت الخضرة أن تكون مظهراً مميزاً لها عن بقية مناطق جزيرة العرب، ولكننا وقد أصبحت الأرض واضحة أمامنا لم نر خضرة، ولكن قتاما اغبر منه الأفق حتى تغير سطح الأرض.

هذا ما كنا نتهامس به والطائرة تحلق بنا حول مدينة صنعاء، ثم ازدادت الدهشة حين هبطت بنا في أرض جرداء إلا من شجيرات قليلة لا تمت إلى عراقة تلك السمة بصلة، وقد تكون غريبة بالنسبة إلى هذه الأرض كغربة كثير ممن يطأها من الغرباء، ولسنا منهم ولله الحمد، ولكننا سنحل بلادنا بين أحبابنا وإخوتنا.

أفترى ما يراه بعض علماء الفلك من أن للأرض دورة خلال فترات من السنين قد تبلغ آلافًا، فيحدث من أثر تلك الدورة – بإذن الله وتدبيره – ما يكون سبباً في تغيير ظواهر الحياة فوق ظهر الأرض، فكان أن برزت هذه البلاد كما تشاهد الآن؟! ولم لا؟ ها هي مدينة الرياض (حَجْر قديمًا) كانت يومًا ما تزدان بالخصب وكثرة الحدائق، بحيث كانت في صدر الإسلام تجري مياه العيون على ظهرها كما تروي تلك المؤلفات القديمة، أما الآن فقد أصبح الماء يرفع من أعماق الأرض إلى ظاهرها مجتازاً آلاف الأمتار.

وهذا إقليم الأحساء (البحرين قديمًا) كان إلى ما قبل نصف قرن من الزمان واحة مخصبة بل جنة من جنان الأرض، تتفجر من خلاله العيون، فتغمر أرضه بالري والنماء والخصب حتى تجود بأوفر الثمار تمرًا وحبوبًا وفواكه. لقد أصبح المرء الآن حين يشاهد تلك البلاد ينتابه الأسى لما اعترى أرضه من الجدب. ولله في خلقه شؤون.

وفي داخل مطار صنعاء حين قيل لنا: قبل الحصول على سمة الدخول يجب صرف مبلغ من النقود بالعملة اليمنية لمحنا شاب كان من ركاب الطائرة، وبعد السلام والتعارف عرض علينا - مُفْضِلاً - النزول عنده، ولكننا أوضحنا له أننا نرغب في اختيار المنزل الذي نريد، إنه الابن الكريم عقيل بن محمد الحربي، من موظفي (مكتب المشروعات السعودية في اليمن) الذي ألح بأن يوصلنا إلى أحسن فندق يعرفه، فكان هذا العمل منه من أولى علامات يمن هذا السفر وسهولة أمره، ثم كان اختيار النزول في فندق (شرتون) الذي قيل لنا: إنه الفندق الأول في هذه المدينة من حيث حسن الترتيب والتنظيم، وجمال الموقع، ويليه فندق آخر هو (فندق سبأ) ولكنه في وسط المدينة، بحيث تحيط به الأسواق فتزدحم حركة الناس بقربه، فيكثر الضجيج فينعدم الهدوء والراحة، ولكن من مميزاته أنه لا يحوج المرء إلى تكلف نفقات التنقل وهي مرتفعة نوعًا ما، بل خاضعة لما يقرره صاحب سيارة الأجرة، ثم إن المرء عندما يزور أية مدينة، يرغب أكثر ما يرغب أن تزداد معرفته بها، يختار النزول داخلها.

و(فندق شرتون) هو الذي تختاره الدولة لإسكان ضيوفها على اختلاف منازلهم، وقد يكون من أسباب اختياره سهولة حراسته لوقوعه في مكان منعزل، ويتولى إدارة هذا الفندق سيد مصري يدعى عادل بن طلعت حرب، الاقتصادي المصري المعروف.

والحديث عن حالة هذا الفندق قد لا تَعْنِي القارئ ما دام قد عرف أنه في القمة من فنادق هذه المدينة التي تنتشر في داخلها، أما هذا فيكفي فيه هدوء موقعه وسعته، وهو واقع في الضاحية الشرقية الجنوبية من المدينة عل سفح جبل (نُقُم)

المشهور الذي امتد إليه العمران حتى تجاوز جوانبه الغربية والشرقية وإحاطته بحديقة جميلة واسعة.

ومدينة صنعاء – كغيرها من المدن في عصرنا – قد ازدهر فيها العمران، حتى أصبحت المدينة القديمة تُعَدُّ حيًّا من الأحياء الكثيرة، التي قد تمتاز عليها بالسعة والانتشار في الضواحي، وتفضيلها من قبل السكان لتنظيمها.

لقد كانت الاستراحة في الفندق آخر اليوم ثم في المساء، وقد أحسسنا بجو مريح، مَعَ بعد عهدنا به، فدرجة الحرارة لا تتجاوز الخامسة والعشرين، والغيم يكسو السماء، والرذاذ يتساقط ذرات دقيقة، والنسيم العليل في إقبال الليل ينعش النفس، ويزيدها انشراحًا، فلماذا لا نستمتع بهذا الجو بالقيام بجولة حول الفندق، وفي داخل حديقته وخارجها مشيًا على الأقدام؟ كان ذلك، ولم تكن الشوارع القريبة من الفندق على درجة من الاضاءة تُهَيِّءُ لنا إطالة الوقت للاستمتاع بما نحن بحاجة إليه من الارتياح في هذا الجو اللطيف. ولهذا كانت العودة إلى الفندق، وتناول طعام العشاء على طريقة (اخدم نفسك) وليس في الأطعمة المعروضة ما يستغرب سوى الفاكهة التي كان من بين ما اخترنا منها الأَنْب[1] (الباباي) ولعل هذا النوع هو خير فاكهة في هذا الوقت، مع توفر أنواع أخرى كالموز والبطيخ بنوعيه، والرمان والبرشومي، ولكنها ليست من الجودة بالدرجة التي كنا نتوقع مما تأثرنا بصفته بما قرأنا.

كان من المقرر أن نمضي أيام الرحلة دون أن نتصل بأحد، وأن (نتدروش) وفي حياة (الدروشة) إراحة للنفس، وتحريرها من أمور كثيرة تضايقها، كالمجاملة والتصنع، والظهور بغير المظهر الطبيعي. وأمثال ذلك من الصفات التي تلازم حياة إنسان هذا العصر في معاملته للآخرين – ولكن لابد مما ليس منه بد، فأول ما ينبغي الاهتمام به لكل مسافر حين يقدم إلى بلد غير بلده، تسجيل جواز سفره في قنصلية بلاده، وهذا الأمر هو في مصلحة المرء نفسه، إذ لو فقد جواز سفره لنشأ عن ذلك ما قد يسبب له

(*) سماه صاحب كتاب «تاج العروس» العَنْب – بالعين بعدها نون ساكنة في مادة (ع ن ب).

تعبًا ومشقة، وإذن فلابد من الذهاب إلى (القنصلية) وقد لا نجد فيها من يعرفنا وكان ذلك في صباح اليوم الثاني (٩ / ١١ / ١٤٠٦هـ) وكانت القنصلية والسفادة في دار واحدة، إلا أن المكتب الذي يقوم موظفوه بالتسجيل ومنح السمات منفصل عن الدار، وعند وقوفنا عند بابه تقدم إلينا أحد الحراس سائلاً عما نريد، فلما علم بأن الغاية تسجيل الجوازين أدخلنا إلى أحد الموظفين، وأثناء وقوفنا أمامه، وقد تناول الجوازين تقدم إلينا شا بٌ دعانا للسير معه بعد أن أخذ جوازي السفر، فتبعناه إلى خارج هذا المكتب حيث دخلنا في دار السفارة، وفي مكتب القنصل اجتمعنا بعدد من الإخوة منهم القائم بأعمال السفارة، والقائم بأعمال القنصلية وغيرهما ممن أضفوا علينا من حسن استقبالهم ورعايتهم مالا يستغرب من أمثالهم.

وكان من هؤلاء الابن الكريم الأستاذ عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالعزيز أبو عباة، من أهل شقراء من موظفي السفارة، وقد عرفته قبل بضع سنوات في تونس، حين كان قائمًا بأعمال القنصل هناك، فعرفت فيه من دماثة الخلق واللطف مالا أنساه له.

وكان السفير خارج البلاد في رحلة استجمام وعلاج، وهو الأستاذ علي بن محمد بن علي القُفَيْدي، شاب ذو نباهة وعقل وخلق وفضل، عرفته أول ما عرفته قنصلاً في القاهرة، وقد عرفت والده الشيخ محمد بن علي قبل ذلك في مكة المكرمة في عشر الستين، وجالسته، وكان رجلاً فاضلاً ذا معرفة بأحوال تجار نجد المعروفين باسم (عقيل) الذي كانوا يتاجرون بالإبل بين نجد والشام ومصر.

وكان بينه وبين الشيخ محمد بن جلاجل صداقة قوية بحيث قلَّ أن يريان إلا معًا، في الحرم في جميع أوقات الصلوات ، وفي المطاف بعد صلاة الفجر، وفي سوق الجودرية، وفي زيارات الأصدقاء والاجتماع بهم، بحيث يذكِّران بندماني جذيمة اللَّذَيْنِ قال فيهم متمم بن نويرة اليربوعي التميمي :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

رحمهما الله – وقد عرفتهما بواسطة زميلي في الدراسة في المعهد السعودي بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩هـ الأستاذ عبدالله بن محمد بن جلاجل الذي آخر عهدي به موظفًا في وزارة الخارجية، بمكة المكرمة وعهدي بوالده وبالشيخ القفيدي مديرين لسجن مكة في (القصر المحروق) وهو السجن المعروف في عهد الشريف الحسين باسم (القبو).

ولقد رغب الإخوة في السفارة أن يضفوا علينا من رعايتهم ما يهيئُ لنا كثيرًا من وسائل الراحة في رحلتنا ، إلا أننا أردنا أن تكون رحلتنا وفق مانرسم ونروم ، مما لا نود أن نثقل به على أحد من إخوتنا ولا نتكلف به فوق طاقتنا ، ومن هنا قابلنا ما عرضوه علينا بالشكر والاعتذار ، وأننا في رحلتنا هذه ينطبق علينا قول عروة بن الورد العبسي :

وسائلةٍ أين الطريق وسائل — ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟!

مذاهبه أن الفجاج عريضة — إذا ضن عنه بالفعال أقاربه

إلا أن الأستاذ عبدالعزيز أبو عباة صار يتعهدنا بتفقد أحوالنا ، ويزورنا لمامًا في بعض الأوقات . ففي مساء هذا اليوم عرض علينا الذهاب الى المكان الذي يعد المتنزه المشهور في هذه المدينة وهو وادي (ضهر) فاستجبنا شاكرين .

ووادي ضهر هذا من أشهر الأماكن المعروفة قديمًا في هذه البلاد ، ومن قرأ وصف الهمداني له في كتاب " الإكليل " وأتى الى مدينة صنعاء ولم يزره أحس بأن مجيئه إلى هذه البلاد لم تتحقق غايته ، إذا كان مراده الاطلاع على آثار هذه البلاد ، وأماكنها التاريخية .

إن الهمداني يقول عن وادي ضهر في " الإكليل [1] " : ومن مآثر اليمن ضهر ، وهو موضع فيه واد وقلعة ومصنعة ، منسوب كل ذلك إلى حمير. وقال : هو على ساعتين من صنعاء أو أقل . والواقع أنه على نحو سبعة عشر كيلا أي مسير ربع ساعة بالسيارة في شمال صنعاء.

---

(١) ٨/ ٩١١ تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع، المتوفى في ٢٤ شهر رجب سنة ١٤١٩هـ –رحمه الله–.

واستمر الهمداني في صفته فذكر أن فيه نهرًا عظيمًا يسقي جنتي الوادي ، وفيهما ألوان من الأعناب – عَدَّد تسعة عشر منها – وفيه أصناف العضاه ، وبه من أصناف الخوخ الحميري والفارسي والخلاسي وبه التين والبلس والكمثرى الذي ليس في أرض مثله ، يؤكد ذلك بقوله : يقول ذلك من يفد الى صنعاء من الغرباء . وفيه من الإجاص والبرقوق والتفاح الحلو والتفاح الحامض واللوز والجوز والسفرجل والدرياح (؟) والرمان والورد والشقائق والرتم . وذكر طريقة توزيع الماء في الحدائق وتوالي الشرب من أسفل الوادي إلى إعلاه من غيل كان في الجاهلية أقوى مما هو عليه حتى انهدم سد ريعان فنقصت زروع الوادي وكرومه بنقص ماء الغيل. وذكر أن فيه قلعة واسعة الرأس ، مطلة على هذا الوادي تسمى (دروم) على أكمة من الصخر يضرب أهل صنعاء المثل بخبث جنها. ونقل عن رجل مصري زار هذا الموضع ورأى مافيه من العجائب أنه قال : دخلت أرض مصر والعراق والشام فلم أر مثل هذا الوادي . وأطال الهمداني الحديث عنه ، ومزج الحقيقة بالخيال ، وأورد من شعر علقمة بن ذي يزن الحميري :

ومنا الذي سنَّى بضهر مفاخرًا وأشْرِفْ بها ذكرًا لنا وفخارًا

ثم أتى الإخوة من أدباء اليمن وعلمائه في عصرنا فساروا على طريقة الهمداني حتى في كتابة الاسم بالضاد على مانص عليه ، خلاف ما ينطقون – وعدوا هذا الوادي من متنزهات صنعاء ، ووصفوه بكثرة الفواكه ، وذكروا أن فيه عينًا جارية تسقي بساتينه .

كان الاتجاه من صنعاء إلى وادي ضهر نحو الشمال الغربي في طريق معبد ، وبعد مايقرب من ثلث ساعة ، وبالتحديد بعد أن قطعنا سبعة عشر كيلا بلغنا الوادي ، فوقفنا أمام شق واسع منحدر في الجبل هو أعلى ذلك الوادي ، وشاهدنا قلعة صغيرة حديثة البناء ، مبنية فوق صخرة كبيرة ناتئة في وسط الجبل قيل لنا : إن اسمها (طيبة) وأنها هي التي ذكرها الهمداني ، ولكن البناء حديث .

ثم انحدرنا في الوادي الضيق الذي انعرج نحو الجنوب ثم انحرف نحو الشرق حيث انداحت الأرض واتّسَعَتْ، وعلى ضفاف الوادي في مضيقه بساتين صغيرة محوطة، لا يوصل إليها إلا من أبوابها ، ولهذا لم نستطع معرفة شيء مما في داخلها ، وقيل لنا : إن أكثر مافيها من النبات هو شجر القات ، بالإضافة الى أشجار الفاكهة ، ولكن مظهر تلك البساتين لايدل على ماوصف به هذا الوادي من كثرة فواكهه .

لقد ذكرت بعد أن انتهينا من المسير في ذلك الوادي حتى خلفنا جانبيه اللذين تنتشر فيهما البساتين - ذكرت ما كان يقصده سكان مدينة الرياض في نزههم في عشر السبعين من القرن الماضي وما بعدها ، حين كانو يتجهون الى طريق خريص ، وما الذي في هذا الطريق سوى الأرض البراح الواسعة ، وقليل من المقاهي للاستراحة فيها وشرب الشاهي ، وهذا مافقدناه في هذا الوادي.

ومعذرة فقد أكون نظرت إليه بغير الأعين التي ينظر بها إليه إخوتنا من أهل هذه البلاد الكريمة ، الذين يحسنون الى وطنهم وإلى تاريخهم لو اتخذوا من وادي ضهر متنزهًا عامًّا ، يكون متنفسًّا لسكان مدينة صنعاء ، أو اختاروا من بين بساتينه حديقة تنظم وتعد بما يُهَيِّئُ لرتادي هذا الموضع الأثري قسطًا من الراحة ، ليتمكنوا من استجلاء ذكريات التاريخ في هدوء واطمئنان ، لا أن يمروا به مرور من كأن قلبه (في جناحي طائر) من وعُورة النزول إليه ، وضيق المسير فيه، وتسرب المياه العكرة على جوانبه .

في منطقة ذمار : لعل مما يشغل الأذهان في الأيام الأخيرة - عندما يتذكر المرء اليمن - الزلزال الذي حدث في ٢٧ صفر ١٤٠٣ هـ (١٣ كانون الأول ١٩٨٢م) وتركزت شدته في لواء ذمار فدمر ما دمر في تلك الجهة ، وكان أن قامت الدولة في بلادنا - وهب المواطنون - ببذل المستطاع في سبيل تخفيف وقع الكارثة في نفوس الإخوة في اليمن .

ومن هنا كانت زيارة منطقة ذمار لمشاهدة آثار الزلزال بعد الوصول إلى صنعاء

من الأمور التي اختمرت في أذهاننا ، وفي ليلة الخميس (١٠ / ١١ / ١٤٠٦ هـ) عرضْ علينا الأخ عبدالعزيز أبوعباة - بدون سابق علم منه عن رغبتنا - أن نزور تلك المنطقة ، وأيد عرضه بأن الأخ الكريم المهندس محمد بن أحمد الموسى - المدير العام لمكتب المشروعات السعودية في اليمن- من عادته أن يخرج يوم الجمعة إلى المنطقة لتفقد العمل هناك - وهناك له مكتب فيه موظفون، فحبذ الأخ عبدالعزيز الذهاب وقال : بإن المهندس محمداً رغب إليه أن يبلغني أنا ورفيقي دعوته لزيارة تلك الجهة .

ومما ينبغي أن يلاحظ أن التنقل في اليمن - حتى في الضواحي القريبة من صنعاء - يحتاج إلى روية وحسن ترتيب ، واتخاذ حيطة ، فالحالة الاجتماعية في جميع نواحي هذا القطر الحبيب تختلف عن غيرها في بقية الأقطار ، فكل منطقة منه في الغالب تسكنها وتنتشر فيها إحدى القبائل التي ترى من حقها أن تعرف كل شيء عما يجري في منطقتها ، وليس من السهل لكل أحد أن يتجول في تلك المناطق ما لم يكن ذا صلة قوية بالدولة ، أو بسكان المنطقة التي يرغب زيارتها ، وهذا من الأسباب التي ثنت عزمنا عن زيارة كثير من الأمكنة التي ينبغي أن تزار مما لم تكن زيارتها قد أعدت بطريقة تكفل لنا الراحة والاطمئنان .

استجبنا لدعوة الإخوة ، ومر بنا الأستاذ أبوعباة صباح يوم الجمعة ، فكان الذهاب معه في سيارته ، ورافقنا أحد الإخوة من موظفي السفارة .

بعد الخروج من صنعاء مررنا بمنطقة تدعى بلاد الروس - على لفظ جمع رأس - وهم فرع من قبيلة سنحان ورئيس الجمهورية الآن علي صالح من هذه القبيلة، وبلادها واقعة في جنوب صنعاء على نحو ٣٠ كيلا منها ، وقاعدة هذه البلاد تدعى وَعْلاَن، وبعد اجتياز هذه البلاد التي ينحدر سيلها على ماقيل لنا في وادي سهام في تهامة، اعترضتنا سلسلة من الجبال تخترقها ثنية معبدة تدعى (نَقِيل يسلح) والنقيل في لهجة أهل اليمن هو الثنية ، ويسلح بالياء بعدها سين ساكنة

فلام مكسورة فحاء مهملة. ولا غرابة في هذا الاسم مع أن أحد الإخوة أثناء اجتماعنا على الغداء على مائدة مضيفنا المهندس محمد الموسى أراد أن يخفف أثر هذا الاسم في النفوس فقال : إن الأصل (يصلح) من الصلاح ، ولكن أحد العارفين بتاريخ اليمن القديم قال : إنه من الأسماء القديمة ، وأن قاعدة بلاد سبإٍ أو أشهر حصونها هو (سلحين) فلا غرابة في هذا ، وأضفت ذاكرًا خبر الجبلين الواقعين في مدخل وادي الصفراء أعلى وادي بدر ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما علم باسميهما الكريهين تنحى عنهما إلى طريق آخر في غزوة بدر – ومن هذا النقيل – أي العقبة – يكون النزول إلى سهل جهران الواسع . أوحقل جهران ، والحقل من الكلمات الفصيحة التي لا تزال مستعملة في اليمن يراد به الأرض المتسعة ، وحقل جهران يبعد عن صنعاء جنوبها بنحو ٦٥ كيلا ، وهو فسيح . واسماء المواضع في اليمن ترتبط بأسماء الأعلام القديمة ، والهمداني وغيره من مؤرخي اليمن يقولون : إنه منسوب الى جهران بن يحصب ويصلون نسبه بسبإٍ.

في هذا القاع الواسع تنتشر القرى الصغيرة والمزارع القليلة ، ولكن المياه ليست قوية. وعلى مقربة من بلدة (مَعْبَر) الواقعة في هذا السهل ، على مسافة ٧٠ كيلا من صنعاء يقع أحد مكاتب (المشروعات السعودية في اليمن) وكان الداعي قد أعد طعام الإفطار الجامع بين الطريقتين اليمنية والغربية .

ثم كان الاتجاه إلى مكان يكثر ارتياده في اليمن ، وهو نبع حار في أعالي وادي رِمَع، من أشهر أودية تهامة ، فيه زراعة قليلة والنبع يدعى (حمّام علي) ويكثر اطلاق اسم (حمام علي) في اليمن على ينابيع حارة أخرى ، ولعل هذه التسمية متأثرة بنحلة أكثر سكان هذه البلاد ، من حيث النظرة إلى الإمام علي كرم الله وجهه ، وهم يرتادون هذه الأمكنة للاستشفاء فمياهها معدنية حارة ، وقد يكون من أثر بعضها معالجة أمراض الأعصاب أو تطهير بعض الجروح .

قيل لنا : إن الطريق إلى (حمام علي) غير معبد ، ومع أنه لا يبعد عن ضوران

أكثر من عشرة أكيال ، إلا أن السير فيه على قربه يستغرق زمنًا ، وهناك طريق آخر طويل معبد سوى ثلاثة عشر كيلاً منه وهو أسهل من الأول ، فكان اختيار هذا الطريق المعبد الممتد إلى الحديدة .

كان المرور بقرية ضوران التي تُعَدُّ أهم مدينة تأثرت بالزلزال ، وهذه المدينة تقع في سفح جبل آنس ، ويطلق على الجبل أيضا اسم ضوران ، وهي بلدة لها ذكر في تاريخ اليمن القديم ، وكانت قاعدة لبعض الأئمة في العصور المتأخرة ، وكانت مبانيها منتشرة في سفح الجبل ، ويظهر أن هذا الجبل من الجبال البركانية كما تدل على ذلك صخوره السود، وقد أشار المسعودي في كتاب " التنبيه والإشراف " -١٧٢- إلى بركان ضوران ، إذ قال - عن قدماء اليمنيين- : وأرخوا بنار ضوران ، وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار ، من أقاصي اليمن ، وكان التبابعة يحاكمون الناس إليها ويحلفون بها . انتهى . ولعل أقل زلزلة تحدث في هذا الجبل تأتي بسرعة على هدم المباني التي بنيت على سفوحه ، وهكذا كانت مدينة ضوران ، فما كان موقعها ملائمًا لتكون مدينة نامية يسهل الاتصال بها ، وإنما كانت أشبه بحصن لا يستطيع أحد الوصول إليه إلا بجهد وعناء ، ولهذا فقد كان الاكتفاء بمشاهدة آثار ما بقي من البلدة دون محاولة الوصول إليها .

أما الآن فقد اختير موقع المدينة في أسفل الجبل ، وعلى جانب من سفحه الممتد نحو السهل ، غير بعيد عن موقعها الأول .

وقاعدة هذه المنطقة التي يعبر عنها أهل هذه البلاد باسم (لواء ذمار) تقع في الجنوب من المكان الذي يقع فيه مكتب المشروعات ، على عشرة أكيال منه ، وهي مدينة ذمار التي تبعد عن صنعاء نحو ٩٠ كيلا ، ويقارب سكانها أربعين ألفا ، وهي مركز اللواء ، الذي ينقسم إلى تسع نواح هي : ١- عنس - ٢ - عتمة - ٣ - الحدأ - ٤ - ضوران - ٥ - معبر جهران - ٦ - وصاب العالي - ٧ - وصاب السافل - ٨- مغرب عنس - ٩ - جبل الشرق . وهذه النواحي فيها سكان

مستقرون في قرى منتشرة متفرقة.

ومن أشهر القرى في سهل جهران قرية مَعْبَر التي تبعد عن صنعاء ٧٠ كيلا ، وضوران لا يفصل بينها وبين معبر سوى بضعة أكيال .

كان الاتجاه إلى (حمام علي) نحو الغرب في طريق شديد الانحدار ، يمر بعدد من القرى ، ومما يبهج النفس أن أكثرها حديث ، مما قام بانشائه (مكتب المشروعات السعودية) وتزداد النفس سروراً وبهجة أكثر فأكثر حين يشاهد المرء بنايتي المدرسة والمستشفى بجوار القرية على طراز حسن جديد . ولقد ذكرت وأنا أشاهد آثار العمران في جميع مامررنا عليه في طريقنا لا في منطقة ذمار وحدها بل فيما حولها ، ذكرت قول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا ما حدث في هذه البلاد من زلزال – لا أريد أن أتحدث عن آثاره لجهلي به – لما تغيرت حالة كثير من هذه القرى التي شاهدناها بعيدة عن موقع الزلزال، وبقيت سنين وأحقاباً من الزمن على ما هي عليه .

بعد لسير الذي قطعنا به ما يقرب من ٥٢ كيلا من بلدة معبر في الطريق المعبد انحرف بنا السير ذات اليسار ، في طريق وعرٍ تتراكم فيه الصخور الكبيرة وتكثر الحفر ، ويمر بقرب مهاوي بعيدة الأغوار، ولكن سائق السيارة – وهو من اهل هذه البلاد وهي من نوع اختاره المضيف الكريم لا تؤثر فيه قوة الاهتزازات – كان يتجشم السير بقوة وعنف ترتجف بهما أقوى القلوب . وبعد نصف ساعة من انحراف الطريق – وأيدينا على قلوبنا – نزلنا في جوف واد تكسوه الخضرة ، ثم وقفنا على جانب ضيق منه ، عند حجر مبينة بناءاً حديثًا ، قيل : إنها من آثار الحمْدِي الذي كان رئيسا للجمهورية اليمنية فقد كان يألف هذا الحمام ويتردد عليه وعمل بجواره مزرعة. أما أنا فلم أر فيما عمل حول هذا النبع ما يدل على كبير جهد أو عظيم اهتمام ، وعندما دخلت مع الإخوة في الغرفة التي بنيت فوق

منبع الماء الحار شاهدت حياضًا صغيرة ، كأنها جعلت للجلوس فيها للاستحمام ، والماء يسير من حوض إلى آخر ، والحرارة شبيهة بحرارة (عين نجم) التي في الأحساء ، ولكنني أحسست بانقباض داخل الحجرة سرعان ما دفعني إلى الخروج منها ، وقيل لنا : إن في بعض الأوقات يكثر زوار هذا الموضع .

وكانت الاستراحة وشرب الشاهي وأكل قليل من الأنب (الباباي) الذي قدم لنا من مزرعة قريبة منا في ظل شجرة في بطن الوادي .

كان طريق العودة هو ما سلكناه في المجيء ، ويظهر أننا وقد خبرناه وَطَّنَّا نفوسنا على تحمل المشقة، فمر نصف الساعة كأنه دقائق حتي التقينا بالطريق المعبد الذي منه وصلنا الى بلدة معبر بعد قطع ٥٢ كيلا .

ومعبر هذه الواقعة في وسط سهل جهران ملتقى طرق من صنعاء وإليها، وهي تبعد عن صنعاء نحو ٧٠كيلا ، وبيوتها قليلة متفرقة ، وقيل لنا : إن سكانها يقلون عن الألفين قليلا ، وعلى مقربة منها تنتشر زراعات قليلة .

لقد خفف من تعب المسير إلى (حمام علي) ما أضفاه المهندس محمد بن أحمد الموسى من لطف وفضل وكرم، روحًا ويدًا وتعبيرًا .

وبعد تناول طعام الغداء الذي تمثلت في إجادته طريقة أهل هذه البلد العريقة في الحضارة ، وما أضفته الحياة المعاصرة من أساليب الجدة والنظافة كان العود الى صنعاء.

في داخل مدينة صنعاء: وفي يوم الأحد (١٣ ذي القعدة ١٤٠٦هـ) ذهبت لزيارة جامع صنعاء الكبير أوصلني صاحب سيارة أجرة إلى باب من أبواب المدينة القديم يدعى (باب اليمن) أي الباب الجنوبي ، إذ من تعبيرات أهل هذه البلاد أنهم يسمون الجهة الجنوبية (اليمن) وجهة الشمال (الشام) ولهذا فلا تستغرب إذا سمعت من يقول : ذهب إلى الشام ، وجاء من الشام ، فهم يقصدون بلاد صعدة وما حولها الواقعة شمال صنعاء .

وباب اليمن باب لايزال قائمًا من الأبواب القديمة في سور هذه المدينة ، والداخل منه يسير في أسواق متعرجة طويلة نحو الشمال ، وهي تزدحم بالباعة أشبه ما تكون بأسواق مكة المكرمة قبل ستين عامًا .

وفي كل منعطف من هذه الأسواق الكثيرة التعاريج يشاهد الإنسان أنواعا مختلفة من البضائع ، على أن منها ما خصصت له أزقة صغيرة كزقاق الملح وزقاق الخناجر (الجنابي) وهكذا . وفي منعطفات هذه الأسواق وفي متسعاتها يجلس أناس يعرضون بضائعهم فوق الأرض، وقد لا يعدم المرء بينهم من النساء من يعرضن أنواع الخبز وبعض الفواكه والملابس .

وعلى مقربة من الجامع توجد مكتبات قليلة متفرقة ، أكثر ما يباع فيها ما طبع في بيروت من الكتب ، وبعض المؤلفات اليمنية في التاريخ أو الفقه الزيدي .

والجامع يتوسط المدينة القديمة ، وهو ذو بناء محكم ، بأعمدة من الحجر ، وبظهر أنه كان قد جدد في فترات مختلفة، منها ما هو قديم، ويتوسطه بَهْوٌ واسع غير مسقوف ، وما حول هذا البهو من جميع الجهات مسقف ، والأرض مفروشة بالصخر ، وفوقها فراش من المنسوجات الحديثة .

ولقد أحسست بشيء من الرهبة حين دخلت هذا المسجد ، فكل ما شاهدته يوحي بالقدم ، والإنارة فيه ضعيفة ، والوقت قبل صلاة الظهر بنحو ساعة ونصف ، ومع ذلك جوانب المسجد تغص بأناس كثيرين ، أكثرهم شيوخ ذوي هيئات متميزة ، وإن شئت فقل: غريبة، ذكرتني بجملة كنت قرأتها في أحد المؤلفات في وصف زي بعض العلماء: (عمائم كالأبراج وكمائم كالأخراج) هكذا قرأت (كمائم) وهو يقصد أكمامًا جمع كم - هاؤلاء الشيوخ رأيت عدداً منهم قد احتضن كل واحد منهم كرسيا كبيراً فوقه مصحف كبير ، وأرخى رأسه بين دفتي المصحف ، حتى تكادان أن تخفيها ، وهو يهمس في القراءة ، أو يستمع، أو يتحدث مع اثنين أو ثلاثة بجلسون بجواره ، لم أستغرب منظر العمائم على كبرها، ولكنني وقفت مدهوشًا

حين رأيت شيخًا واقفًا وكم قميصه قد بلغ الأرض من طوله ، بدون مبالغة ، أما سعة الكم ، وقد أمعنت النظر فيه فإن الطفل الصغير يدخل فيه بدون مضايقة .

ومع أن المسجد مكشوف الجوانب، بحيث لا تتصل به الأبنية المجاورة له إلا أن الهواء راكد داخله ، ولهذا أحسست بشيءٍ من الضيق حين جلست داخل البوائك الشرقية ، فتقدمت إلى صحن المسجد المكشوف ، ورأيت بعض المصلين يتنفلون فيه والسماء محجوبة بالغيم ، ولكن سرعان ما انكشف عنها فأحسست بحرارة الشمس، وما كنت بحاجة إلى الجلوس ، فسألت إنسانًا قريبًا مني توسمت فيه المعرفة عن المكتبة العامة فقال : إنها ليست مفتوحة الآن ، فقلت : الذي أعرف أن في هذا الجامع مكتبتين الشرقية والغربية فأرشدني إلى أقربهما ، فما كان منه إلا أن خرج بي من البهو إلى الجانب الأيمن من المسجد ، ثم وقف وأشار إلى باب مفتوح قائلا : بسم الله المكتبة مفتوحة ، دخلت الباب فوجدت درجة طويلة ذات عتبات يحتاج صعودها إلى قوة ونشاط . فلما عددت منها اثنتين وعشرين زلفة شعرت بالحاجة إلى الراحة ، فالتفت يساري فإذا باب صغير مفتوح ، وفي داخله شيخ معمم جالس ، وأمامه كتب كثيرة منشورة فوق الأرض ، فلما أردت الدخول تقدم إليَّ رجل كان عند الشيخ ، مشيرا إليَّ بأن أستمر في الصعود فقلت : دعني أستريح ، وكان الشيخ كريمًا فأشار لي بالدخول ، وسمح لي بالجلوس في مكانه الوثير ، ثم أخبرته بأنني أتيت زائرًا هذه المكتبة فقال لي : إن الكتب كما ترى غير مرتبة، وليست في أماكن يسهل الاهتداء إلى ما يراد منها ، ولكن ها هو الفهرس، فأي قسم تريد الاطلاع عليه ؟ فاخترت التاريخ من " فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء " إعداد أحمد محمد عيسوي ومحمد سعيد المليح . وقد نشرت هذا الفهرس الهيئة العامة للآثار ودور الكتب ، وجاء في ٨٩٩ صفحة بالقطع الكبير .

سألت الشيخ الفاضل عن اسمه فعلمت أنه القاضي محمد بن عبدالرحمن الطير[١]، وهذا الاسم أيضا يضرب إلى التاريخ القديم بصلة ، وصاحبه على ما

---

(١) ترجمه القاضي الأكوع في «هجر العلم» ١ / ٣٣ وقال عنه : ولد في رجب ١٣٤٠هـ وأنه عالم عارف بالسنة، متمسك بها، أحد شيوخ القرآن في الجامع الكبير بصنعاء، يعمل أمينًا لخزانة المخطوطات فيها.

علمت منه يمت بنسبه إلى الأبناء الذين استوطنوا اليمن في عهد سيف بن ذي يزن قبيل الاسلام .

كان من الكتب التي رغبت الاطلاع عليها كتاب " الذهب المسبوك في ذكر من ظهر في المخلاف السليماني من الملوك " ووصف هذا الكتاب كما في الفهرس المذكور[١] مؤلفه أحمد بن عبدالله بن عبدالعزيز الضمدي الشهير بـ (عاكش) ثم اقتباس من أوله وآخره، ووصف للخط والورق وقياسه ، وأنه يقع في ١٦٧ ورقة يلي كتاب " اللطائف السنية " وأن فيه بياضًا كثيراً من بعد الورقة الـ ٢٢٥ حتى وصل إلى الورقة الـ ٢٢٨ – .

لما طالعت الكتاب ظهر لي أن ورقاته لا تزيد على ١٧ ورقة ، تبتدئ من الورقة الـ ١٥٢ إلى الورقة ٢٢٣ ثم إن أحد النساخ أراد أن ينسخ الكتاب فأضاف ورقًا خاليا من الكتابة إليه ، بدأه باسم الكتاب ، ولكنه لم ينسخه . ولا يلام الأخوان الكريمان اللذان وضعا الفهرس، فتلك المخطوطات الكثيرة في المكتبة الغربية كثير منها يقع في مجاميع ، وفحصها بدقة يتطلب زمنًا طويلاً، وهذا فيما يظهر مما لم يتهيأ للمفهرسين المذكورين.

أما كتاب " الذهب المسبوك " فيظهر أن مؤلفه يتصرف في مؤلفاته بحسب تغير حوادث أوقاته ، فيزيد منها وينقص ويغير أسماءها لأننا نجد السيد محمد زبارة وهو خبير بالمؤلف وبمؤلفاته يسمي الكتاب " الذهب المسبوك في سيرة سيد الملوك " وهو الشريف الحسين بن علي بن حيدر التهامي – انظر ترجمة عاكش في " نيل الوطر "[٢] وهذه النسخة التي اطلعت عليها مخطوطة في شهر صفر سنة ١٢٣٤ ، أي في حياة المؤلف الذي توفي سنة ١٢٨٩ .

ومما اطلعت عليه من مخطوطات هذه المكتبة " الإنعام التام ، بالرحلة إلى بيت الله الحرام ، وزيارة الحبيب عليه وعلى آله الصلاة والسلام" لعبد الملك الآنسي –

---

(١) ص ٦٦٦.
(٢) ٣١٧/١.

عبدالملك بن حسين بن محمد الآنسي – ١٢٣٢ / ١٣١٥ هـ[١] وهي في أول مجموع رقمه (٤٦) يبتدئ من الورقة السابعة إلى الورقة الحادية عشرة ، فهي في ثلاث عشرة صفحة والمجموع كتب في طرته : (من خزانة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله يحيي بن أمير المؤمنين) الخ .

والرسالة تتضمن وصف رحلة قام بها مؤلفها في اليوم الـ ٢٥ من شهر شوال سنة ١٣٠١ ، فوصف ما مر به من المنازل منذ أن خرج من صنعاء حتى بلغ الحديدة ، ومنها ركب البحر فيما سماه (بابور النامسة) حتى وصل إلى جدة فقال : (ووقع عرض الحجاج على صاحب الكرتان ، الذي هو من كمال الامتحان، وأخذوا ماهو لهم الموجب غضب الرحمن ، وتلقانا أهل جدة ، كل يريد النزول عنده، كأن بيننا وبينهم مودة ، وهم ذئاب في ثياب ، مقصودهم الدنيا بلا ارتياب ، وهذا بندر جدة في قوة عظيمة فيه أصناف المجلوبات من جميع الجهات ، وقصور شامخات) . أوردت هذه الجمل لإيضاح أسلوب الرجل ، وما أراه منصفًا حيث عمم الوصف بخصوص حادثة، فما كان كل أهل هذه المدينة الكريمة بتلك الصفة. ثم ذكر مسيره من جدة على الإبل والوصول إلى مكة المكرمة .

وقد أنشر ملخص هذه الرحلة فقد تسنى لي تلخيصها على وجه السرعة .

وكان مما طالعته نسخة من كتاب " درر نحور الحور العين " للسيد لطف الله بن أحمد جحاف ، وفي المكتبة هذه خمس نسخ من هذا الكتاب ، وقد تحدث عنه الأستاذ عبدالله بن محمد الحبشي في مجلة " العرب "[٢] ويتضمن الكتاب لمحات عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله – وقيامه بنشر الدعوة السلفية ، مع ترجمة للشيخ ، وذكر جوانب من أحواله وأحوال الإمام سعود بن عبدالعزيز ، ومنها ما لم يذكره غيره ممن تصدى لترجمتهما نقل ذلك عن أناس سماهم مما يدل على دقة

---

(١) «نيل الوطر» ٢ / ٤٠٠ .

(٢) ٧ / ٢٨ .

تحريه، ومحاولته الظهور بمظهر المؤرخ المنصف الذي لا يتحيز لجهة دون أخرى .

حان وقت الصلاة وعندما أردت الخروج سألني القاضي أمين المكتبة عن اسمي وكان سمعه ضعيفًا كسمعي ، ولكنه كان يستعين بصمام في أذنيه فيبدو الحديث بيننا مرتفعا لافتًا للنظر ، ولما أخبرته قال لي : إن القاضي محمد بن علي الأكوع يعرفك ويثني عليك كثيراً ، فرجوته أن يبلغه سلامي ، وأن يبلغ القاضي أخاه اسماعيل المسؤول عن ادارة المكتبات والآثار ، بأنني أحب أن أراه فوعد خيراً . ويظهر أنه نسي ابلاغ الصديق القاضي اسماعيل .

سد مأرب : من أهم ما يطمح القادم إلى اليمن ويتوق إلى مشاهدته من آثار هذه البلاد القديمة سد مأرب، ولكن كيف يتسنى ذلك ، والموضع يقع في شرق اليمن على مسافة ١٧٠ كيلا من صنعاء ، وتجتاز مناطق قبلية ليس من السهل اجتيازها لمن لا يملك تصريحًا من الدولة ورعاية منها .

ولي في صنعاء إخوة كثيرون ، منهم من يتولى رفيع المناصب ، ولكنني أبديت الرغبة أن تكون جميع أموري في هذه الرحلة تسير وفق الطريقة التي رسمتها ، لا أثقل على أحد من إخواني، ولا أكلف نفسي تحمل إفضال المفضل عليَّ ولو كان عن كرم وسماحة نفس .

وكان أن أبديت للصديق الكريم الأستاذ محمد أنعم غالب تلك الرغبة على ما أوضحتها ، فحاول هو والصديق الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله أن يرتبا أمر الرحلة إلى موقع السد ، باعتبارنا أنا وأخي الأستاذ عبدالكريم من ضيوف هذه البلاد، إلا أننا رفضنا هذا وأوضحنا أن الغاية تنحصر فيما يكفل لنا الوصول إلى الموضع والعودة منه بحيث لا نكون عرضة لعرقلة أو تعب .

قرر الأخوان الكريمان أن نذهب معا في سيارتيهما ومعهما من يطمئنان إليه .

وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الاربعاء (١٦ / ١١ / ١٤٠٦هـ

-٢٣/٧/١٩٨٦م) كان المسير من الفندق ، والاتجاه شرقًا إلى مأرب ، والطريق معبد، ومنذ أن خرجنا من صنعاء والأرض في انحدار حتى بلغنا مأرب .

وقد مررنا بمواضع مسكونة منها بلدة الغِرَاس - على لفظ جمع غرس - وهذه تبعد عن صنعاء ٢٣ كيلا ، وتقع في سفح جبل يدعى غضران - بالغين العجمة مفتوحة والضاد المعجمة ساكنة فراء فالف فنون - وهو طرف من سلسلة من الجبال تمتد نحو الجنوب الشرقي ، قيل لنا : إنها جبل (ذي مرمر) على أن ياقوتًا ذكر في "معجم البلدان" أن (ذمرمر من حصون صنعاء) وقال القاضي إسماعيل بن علي الأكوع معلقا على كلام ياقوت: (ذي مرمر حصن مشهور شمال صنعاء على مسافة ٢٠ كيلا كان عامرًا الى نحو مئة سنة ، وقد لحقه الخراب) كذا وردت كتابة الاسم بصورتين (ذمرمر) و (ذي مرمر) . وفي كتاب "البرق اليماني" -٢٨٩-: من جملة الحصون التي بقرب صنعاء حصن ذمرمر ، وهو للطف الله بن مطهر ، وحوله قرى كثيرة ، في واد عظيم ، يقال له وادي السر ، فيها خلق كثير من الزيدية أتباع مطهّر - ثم ذكر استيلاء الأتراك عليه ، وعلى بلدة شبام ، ومن شعر السيد صلاح الوزير :

لله أيامي بذي مرمر ... وطيب أوقاتي بربع الغراس

والجنس منضم إلى جنسه ... وأحسن النظم نظام الجناس

والشكل مقرون بأشكاله ... والسر فيه السر والناس ناس

والسر هذا هو الذي ذكره الهمداني في " صفة جزيرة العرب " وسماه سر آل الرَّوِيَّة .

ويقارب سكان الغراس ٥٠٠ نسمة ، ومنها يجلب الجص إلى صنعاء ومن جبل يدعى ذباب قبلي وادي السر ، وعلى مقربة من بلدة الغراس بلدة (شبام سخيم) سكانها يقاربون ٤٠٠ نسمة ، وهي من البلدان الأثرية ، ولعل اسم الجبل (ذي مرمر) ذو صلة باستخراج حجر المرمر منه على ما ذكر بعض مؤرخي اليمن ، ومنذ أن خرجنا من صنعاء إلى هذا الموضع ونحن نسير في بلاد بني حشيش - الشين مفتوحة والياء

المثناة ساكنة ، أما الحاء فاليمنيون ينطقونها مكسورة ، ولعل الصواب ضمها – وهاؤلاء من خولان العالية، تمتد بلادهم من صنعاء إلى بلاد نِهْم على مقرب من منطقة مأرب .

ثم مررنا بقرية فيها مركز حكومي تدعى (فرضة نهم) وهو يفتحون الفاء – تقع شرق صنعاء بنحو ٥٨ كيلا ، وهذه المنطقة التي تقع فيها هذه القرية تحلها قبيلة نهم من بكيل أحد فرعي قبيلة همدان المشهورة، وهذه بلادها منذ العصور القديمة كما أوضح ذلك الهمداني في " صفة جزيرة العرب " ، وشيخ نهم في العهد الحاضر أبو لحوم .

وبعد اجتياز هذه القرية اتجه السير نحو الجنوب الشرقي لأن هذا الطريق روعي في تعبيده أن يمر بهذه المنطقة ، ومع تعهد هذا الطريق بالصيانة فقد تراكم التراب في جوانب منه إلا أننا أثناء مرورنا به كان حديث عهد بالمطر .

ثم نزلنا في سهل فسيح تكثر فيه الأودية ، وتنتشر كثبان الرمال ، وهو متصل بسهل مأرب ، وكنا نسير في انحدار منذ خروجنا من صنعاء حتى بلغنا هذا السهل الذي قيل لنا : إن ارتفاعه عن سطح البحر نحو ١٦٠٠ متر ، بينما ارتفاع صنعاء نحو ٢٢٠٠ متر، وهناك فندق يدعى (فندق أرض الجنتين) كانت الاستراحة فيه جزءاً من الوقت، وأثناء الاستراحة كان التعرف على الأستاذ الشاعر المصري أحمد عبدالمعطي حجازي الذي قدم إلى هذه البلاد بدعوة من مدير الجامعة الدكتور عبدالعزيز مقالح ، وقيل لنا: إنه كان مقيماً في فرنسا منذ عشر سنوات إثر خلاف بينه وبين الرئيس أنور السادات.

لا يبعد السد عن القرية الحديثة التي يقع فيها الفندق ، ولكن الطريق غير معبد، وتكثر فيه الرمال .

وقد قامت دولة الإمارات العربية المتحدة بإنشاء سد حديث على مقربة من موقع السد القديم قيل لنا عن إنشاءه: كلف سبعين مليونًا من الدولارات ، وقد تم إنشاؤه، وشاهدنا المياه محجوزة به في مساحة مد البصر .

وقد أعدت منه قناة لتصريف المياه التي يحجزها ، ولكن المجاري التي توزع الماء في

الأراضي التي ستزرع لم تهيأ بعد ، وقيل لنا : إن المياه التي يختزنها هذا السد تكفي لري عشرة آلاف هكتار ، وأن الفائدة لا تنحصر فيما يحجزه من المياه التي سيجري تصريفها بقنوات الصرف في المزارع القريبة من السد ، وإنما في اختزان المياه في الطبقات الجوفية من الأرض ، بحيث تتسرب فتمد الآبار التي ستحفر في الأراضي الزراعية الواقعة شمال السد بالماء . ولعل من أسباب عدم الاستفادة الآن منه مايتعلق بحالة سكانه .

وهذا السد الذي شاهدناه يقع فوق السد القديم وهو أقصر منه ، فلقد لوحظ في إنشائه أن يكون في مضيق الوادي ، أما السد القديم كما يبدو من آثاره فإنه أطول ويختزن كمية من المياه أكثر ، لوقوعه في متسع من الوادي وادي ذنة (أذنة) وكان ممتدا بين جانبي جبل بلق، وهما الصدفان ، ولاتزال آثار ذلك السد القديم قائمة تدل على عظمته وقوته – على أن مشاهدة ما حول السد من الأرض الصالحة للزراعة في الوقت الحاضر تحمل المرء على أن يتصور أن ماقيل عن القبائل التي كانت تسكن حوله بحاجة الى التثبيت ، فالأرض ليست واسعة للدرجة التي تجعلها كافية لاستقرار قبائل كثيرة .

وبعد العودة من مشاهدة السد مررنا بمعبد بلقيس الذي لاتزال بعض أعمدته قائمة وقد قام بإبراز آثاره (وندل فلبس) مؤلف كتاب " كنوز بلقيس " سنة١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) كما شاهدنا آثار مدينة (سلحين) غير بعيدة عن آثار السد القديم ، وكانت القيلولة قد اشتدت بحيث أن بعضنا وأنا أحدهم أسرع الى الجلوس في داخل السيارة ، بينما هناك من كان يسير في تلك الرمضاء المحرقة وقت اشتداد حرارة الشمس يسير على مهل ، ويجمع بعض الأحجار الأثرية الصغيرة كما شاهدت السيدة سهير زوجة الأستاذ الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي، فأعجبت من تحملها لشدة الحر، مع أن من عاش في هذه الأجواء أو مايشابهها لم يطق حرها .

إن منطقة مأرب أشبه ما تكون بمنخفض من الأرض تحيط به الجبال من جهات

الجنوب والغرب ، وتنتشر في شرقيه الرمال المتصلة بصحراء صَيْهَد (الربع الخالي الغربي) ولهذا فإن جوه يختلف اختلافا كبيرا عن جو صنعاء وما حولها من حيث ارتفاع الحرارة ، يضاف الى ذلك اشتداد الزوابع فيه بدرجة لا تطاق وخاصة آخر النهار.

كان العود الى الفندق وتناول طعام الغداء ومن الحاضرين الشاعر أحمد وزوجته، اللذان زارا صنعاء بدعوة من جامعتها، ومديرها الأستاذ عبدالعزيز مقالح، فهو شاعر، معرفة بالشاعر أحمد في القاهرة ثم كانت الاستراحة وقتا قصيرا والعودة الى صنعاء.

لم أتمكن – خلال هذه المدة القصيرة التي أمضيتها في هذا الجزء الحبيب من وطن الأمة – بأن تكون لي صلات بمثقفيها، تمكنني من ادراك بعض الجوانب الثقافية، فباستثناء ما أكرمني به عدد من إخوتي المعنيين ببعض هذه النواحي بزيارتي في الفندق، ومنهم مؤرخا اليمن في هذا العهد، الواسعا الاطلاع على تاريخه في القديم إلى عهدنا الحاضر، الأستاذان محمد بن علي الأكوع وأخوه إسماعيل، والأستاذ عبدالله الحبشي من أبرز المعنيين بما يتعلق بهذا القطر من حيث معرفة مالعلمائه من آثار، والاتجاه لتحقيق بعضها، والدكتور يوسف عبدالله – وهو من أبرز علمائه في آثاره، فقد كانت لي صلة به، وهو يتلقى العلم في بيروت – فيما أشرت الله في كتاب «في شمال غرب الجزيرة[١]» كما اجتمعت به في (باريس) أثناء (مؤتمر المستشرقين)[٢]. ثم اجتمعت به أثناء هذه الزيارة. ومع أنني التقيت بالدكتور عبدالعزيز المقالح – مدير (الجامعة) في القاهرة عام ١٣٧٣هـ وعلم بمجيئي هنا إلا أنني لم أره، ويبدو أن إخواننا في اليمن – بصفة عامة تغلب عليهم الرغبة في إتاحة الفرصة لزائر بلادهم بعدم الإثقال عليه بالزيارات، لا كما علل أحد الإخوة بأن هذا من آثار الخمول الناشئ عن تعاطي

---

(١) الصفحات ٦٤، ٦٧، ١٣٥.

(٢) «إطلالة على العالم الفسيح» ص١٩٥.

(القات) في مجالسهم العامة، وإضاعة جزء من وقتهم ومالهم لا يستهان بهما في ذلك، بحيث بدا أثر هذا الخمول واضحًا في كثير من مظاهر الحياة ولا تفوت الإشارة إلى ما يبدو من شباب هذه البلاد - أثناء تلقيهم العلوم خارجها - من اندفاع قوي متصف بالذكاء الحاد ثم بالتفوق، فقد عرفت عدداً كثيراً منهم في القاهرة في أواخر عشر الستين من القرن الماضي الهجري، حين قويت صلتي بالأستاذين محمود الزبيري ومحمد أحمد نعمان، ومنهم من تولى - بعد إكمال دراسته مناصب عالية، كالأستاذ محمد أنعم غالب، الذي يتولى إدارة (ديوان الموظفين) وقد هيأ لي ولزميلي مشاهدة الآثار في (منطقة سبإ) وما كان مثل هذا يتيسر لكل راغب.

ولا شك أن للوضع الاجتماعي القبلي أكبر الأثر في عدم استقرار الأمن في ربوع البلاد، استقراراً ثابتا، طيلة الفترات الماضية، مما نشأ عنه عدم تقدم مسيرة الاصلاح والعمران، التي من أهمها الحياة الاقتصادية، إذ عليها بتوقف قيام النواحي الأخرى من ثقافية وصحية وعمرانية وغيرها.

ويضاف إلى تأثير الحياة القبلية في ذلك. ما للاتجاهات الفكرية المختلفة، فالمذهب الزيدي وإن كانت له الهيمنة. إلا أن كثيراً من السكان يحسون بهذه الهيمنة ما يبدون امتعاضًا منه، وهؤلاء وإن كان أكثرهم في تهامة، إلا أن في الجهات الأخرى من البلاد من لا يستهان به من الكثرة ومن هنا لا يستغرب أن تبدو بعض تلك الآثار - التي تمتد جذورها إلى آخر القرن الثاني الهجري في عهد الهادي، أول إمام زيدي قام في اليمن - بعضها يظهر في كتابات بعض المعاصرين كالقاضي محمد بن أحمد الشامي وغيره مما داعي للتوسع فيه، وهو ما يسعى المصلحون في هذه البلاد للقضاء عليه.

إلى سلطنة عُمَان

في مسقط : كان أبو ناصر – الدكتور عبدالله الناصر الوهيبي – رعاه الله وأكرمه – حين علم برغبتي في امتداد رحلتي من الإمارات إلى عُمَان – اتصل بالأستاذ يحيا بن عثمان البشر – الملحق التعليمي السعودي في سلطنة عمان ، لكي يساعدني فيما قد أحتاج إلى المساعدة فيه من الالتقاء ببعض العلماء ، أو زيارة ماقد أستفيد من زيارته .

فلما هبطت الطائرة بي وبالرفيق الأستاذ عبدالله الخيال في مطار مسقط بعد رحلة استغرقت من مطار دبي نصف ساعة – في صباح يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الأول – إذا برجلين يقابلاننا عند النزول من سلم الطائرة ، إنهما سفير بلادنا في السلطنة – الأستاذ عبدالمحسن بن صالح البلاع والأستاذ يحيا ، فكان استقبالاً كريمًا، واستراحة قصيرة في بهو الاستقبال الخاص ، ثم المرور بدار السفارة الواقعة على أنف جبل مطل على ما حوله من منطقة رُوِي – بضم الراء وكسر الواو وبعدها ياء – في مدينة مسقط الحديثة ، ثم الذهاب إلى فندق (شرتون عُمَان) الذي فضلنا السكنى فيه لتوسطه في المدينة .

ثم لاتسل عن حفاوة الشهمين الكريمين بنا ، فقد كان من إكرام السفير أبي صالح لنا أن ترك تحت تصرفنا إحدى السيارات المريحة ، ودأب على تفقدنا بالزيارة في الفندق ، وأوصى الأخ يحيا بالاتصال بمن ينبغي الاتصال به من رجال السلطنة لستهيل زيارة ما نرغب زيارته ، وأبدى استعداده بالقيام بما نحتاج إليه لتكون الرحلة مريحة وذات فائدة ، مع كثرة مشاغله هذه الأيام.

ولقد غمرنا من لطف الأستاذ يحيا وحسن اهتمامه بنا طيلة إقامتنا في هذه البلاد ما نعجز عن شكره .

لم يطب لنا المقام بفندق (شرتون عُمَان) فكان الانتقال إلى فندق (انتركنتننتال) وكان الشيخ عبدالله يفضل السكنى فيه إلا أن حجز المكان من دبي لم يتم ، مع

الاتصال بهذا الفندق مرتين بدون جواب ، وهذا الفندق يبعد عن وسط المدينة نحو اثني عشر كيلا مع اتصاله بها ، إذ هو يتوسط الطريق المتجه إلى المطار من المدينة، وعلى هذا الطريق تمتد المنازل الحديثة ، والوزارات. وهو على شاطئ البحر في منطقة تدعى القُرْم – بضم القاف وإسكان الراء – اسم نوع من الشجر في هذه البلاد.

ومع أن مسقط من الموانئ القديمة في عمان ، حيث ورد ذكرها في كتاب "الجماهر" للبيروني – بما هذا نصه : عن مغاصات اللؤلؤ : ثم يتجاوز إلى الأماكن المعروفة من البحر الأخضر في سواحل أرض الشحر ، مثل سرجهمت ويعرف برأس الجمجمة ، وبحيرة وهي المصيرة ، ومشكت وهو المسقط . انتهى .

وذكرها ياقوت في " معجم البلدان " بقوله : مسقط مدينة من نواحي عمان في آخر حدودها مما يلي اليمن – كما ذكرها غيرهما ، إلا أن ماضيها لا يزال مجهولاً ، وما أرى الاسم (مسقط) سوى تعريب لاسم قديم مجهول الأصل ، هو ما ورد في كتاب البيروني (مشكت) .

ولعل هذا من أسباب كتابة الاسم ونطقه بصور متعددة ، فابن حميد في " تحفة الأعيان "[١] يسميها (مسكد) وفي مواضع من كتابه (مسقط) وينطق الاسم كثير من أهل الخليج (مسكت) .

أما ما نقله السالمي في " تحفة الأعيان "[٢] عن إنشائها من قبل العرب، وأن النصارى (الفرتكيسية) اشتروها منهم ، فسوروها ، وأحاطوها بالحصون التي ذكرها – ومنها ما لا يزال باقيا كحصن الجلالي – فيظهر أن هذا في عهد متأخر ، لا يبعد عن الزمن الذي استولى فيه عليها السلطان سلطان بن سيف في القرن الحادي عشر الهجري.

---

(١) ج١ ص٥و٦و٦٢وج٢ ص٩و١١.

(٢) ٢/٦٢ وما بعدها.

ومدينة مسقط الحديثة مستطيلة الشكل ، يخترقها شارع ممتد من المطار حتى يتوغل وسط المدينة بين الجبال فيضيق ويستمر حتى يبلغ موقع المدينة القديمة على ساحل البحر، حيث يقع قصر السلطان وديوانه ، ووزارة المالية، بينما أغلب الوزارات في بنايات حديثة في المدينة الحديثة ، وكذا السفارات - قد خصصت لها منطقة على مقربة من ساحل السِّيْب ، ولكنها لم تعمر كلها .وتخطيط المدينة بقسميها جميل من حيث تنسيق بناء المنازل ، وتشابهها في المظهر، وتميزها بطابع خاص ذي طراز عربي جميل، بحيث أن مبنى (وزارة الخارجية) كان الفائز بجائزة (منظمة المدن العربية) وهذا يقع بمنطقة ساحل القُرْم.

لا أثر لبلدة مسقط القديمة ، فقد أزيلت جميع المباني . وانتقل سكانها إلى خارجها، ولم يبق فيها سوى قصر السلطان ، وقلاع للجند ، ومبان خاصة بالدولة وداري سفارتي أمريكا وانكلترا ، وكلها مما أنشئ حديثًا .

وعلى بعد بضعة أكيال شمال مسقط القديمة على الساحل وبين الجبال تقع بلدة مَطْرَح، وقد اتصل العمران بينها وبين مسقط القديمة ، وهي عامرة بالسكان والأسواق المزدحمة للبيع والشراء ، إلا أنها ضيقة متعرجة ، ومنها سوق مسقف شبيه بسوق سويقة في مكة قبل خمسين عامًا، تعرض في دكاكينه المنسوجات والعطور والعاديات وغيرها.

وقد تجولنا داخلها - صباح الجمعة (١٢ / ٣ / ١٤٠٧ هـ) وكان مما سجلت من مشاهدتي عنها أن مايلي مدينة مسقط من هذه البلدة (مطرح) حديث العمران حيث تقع المصارف (البنوك) والمعارض والشركات ، أما وسط البلدة وما كان يلي البحر منها فلا يزال على قدمه ، فالأزقة ضيقة ، وليست على درجة من النظافة كما ينبغي ، وأكثر ما يشاهد المرء ممن يتعاطى التجارة ذوو سحنات مختلفة ، تغلب السمرة على ألوانهم ، وأكثرهم من الهنود ، ومن ايران - كما يتضح من أسماء محلات التجارة ، وللشيعة ويسمون (اللواتية) في هذه البلدة محلة خاصة بهم ، محاطة بسور ذي

أبواب تغلق في بعض الأوقات ، على الساحل مقابلة للميناء ، وفيها جامع كبير ، أبوابه على الشارع العام وبقرب تلك المحلة على الشارع أيضا مكتبة تجارية تدعى (مكتبة المعرفة) وهي أكبر مكتبة شاهدت في عمان – مع صغرها بالنسبة لغيرها في المدن الأخرى – وتضم كثيراً من مطبوعات بيروت ومصر وإيران .

وبلدة مطرح محصورة بين البحر وبين الجبال ، ولذلك أصبحت ضيقة الشوارع، صغيرة البيوت ، أكثر سكانها من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة ، ولاتزال مظاهر البيع والشراء في سوقها على الطريقة المعروفة في مدن الجزيرة قبل نصف قرن من الزمان ، فالدكاكين مملوءة بمختلف المعروضات ، و (المحرِّج) – المنادي على بيع بعض السلع – يتخذ جانبًا في السوق ، رافعًا صوته عما يحمل بين يديه من آنية أو غيرها ، وآخر يجلس على الأرض أمامه بضاعته .

وأبرز مايشاهد المرء مما يعرض في أسواقها – بعد المنسوجات والأفاويه – التي ترد غالبًا من الهند – العاديات – (الأشياء الأثرية) كالأواني القديمة والحلي والأسلحة .

ويرتاد هذه البلدة من يزور عمان من الأجانب ممن ينزل في مسقط التي لاسوق فيها تشبه معروضاته ما في سوق مطرح.

دار المخطوطات والوثائق في مسقط : وكانت زيارة (دار المخطوطات والوثائق) في (وزارة التراث القومي والثقافة) في صباح يوم الأربعاء (١٠ / ٣ / ١٤٠٧هـ – ١٢ / ١١ / ١٩٨٦م) بعد أن هيأ لنا هذه الزيارة الأستاذ يحيا ، فكان الاستقبال حسنًا من مديرها الأستاذ صالح ابراهيم، وهو من مصر ، وتساعده في العمل بعض الفتيات العمانيات .

وفي الدار مجموعة من المخطوطات أكثرها في فقه أهل هذه البلاد . وقيل لنا إنها تزيد على أربعة آلاف مخطوط ، وقد نشرت (وزارة التراث) كتابًا يضم اسماء كتب مختارة من تلك المخطوطات ، استرعى انتباهي منها :

١- ماجاء في - ص ٦٠ - ونصه : ٤ - تاريخ العصامي ، مجهول المؤلف والناسخ ، سنة النسخ ١٢٥٣ - ٢٠٠ ورقة - ١٧ سطر - ٢٥X٢٨ سم ، حبر أسود. انتهى.

ولما رغبت الاطلاع عليه أحضرت لي الفتاة مجلدين - لا جزءاً واحداً كما يفهم من ذلك الوصف.

أحدهما : أوله : الباب السابع في ذكر دولة آل عثمان ... وفي آخره : خاتمة نسأل الله حسنها .. تحتوي على ثلاثة أبواب : الباب الأول : في ذكر نسب الطالبيين ومشاهيرهم ... إلخ . الباب الثاني : في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة ... الباب الثالث : في ذكر من ولي مكة ... من آل أبي طالب إلى يومنا هذا ... وآخر الكتاب : ثم وليها الشريف سعد بن الشريف زيد بن الشريف محسن بن حسين بن حسن ، وهذه التولية الثانية ... - وبعد بضعة سطور : وفي يوم الاثنين الرابع عشر جمادى الأولى كان وصول القفطان ... ومعه صورة الأمر السلطاني بانعام العلية على مولانا الشريف سعد بشرافة مكة ... وبإنعام الدولة العليا بشرافة مكة على والده (؟) واقامته قائم مقام والده (؟) ... ثم نودي بالزينة سبعة أيام فتمت بأَبْهَى منظوم وابرام ... آخر ما وجد من الجزء الأخير من تاريخ العصامي .

والثاني : المجلد الثالث من كتاب تاريخ العصامي : وأوله بعد الحمدلة : لا يخفى أنه كان لبني عبد مناف في قريش محل من العلا ...

وآخره : خاتمة - نسأل الله حسنها - على نحو ما جاء في الجزء الموصوف قبل هذا - ولكن الكلام يقف بعد صفحات ، بحيث يزيد الجزء الذي قبله بنحو الثلث.

وهذا الأخير هو المخطوط سنة ١٢٥٣هـ - أما الأول فلا تاريخ لكتابته . وقد اتضح لي : أن هذين الجزءين هما من تاريخ عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي (١٠٤٩ / ١١١١هـ) المسمى " سمط النجوم العوالي ، في تاريخ الأوائل والتوالي "

المطبوع سنة ١٣٧٩ هـ في المطبعة السلفية في مصر على نفقة حاكم قطر الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني في أربعة مجلدات ، وهي أكمل وأوفى من تلك المخطوطة .

وطالعت الكتاب الموصوف – ص ٦١ – بما نصه : ٧ – " معجم الأدباء " ياقوت بن عبدالله الحموي – الناسخ غير معروف ، سنة النسخ غير معروفة – ٢٣٢ ورقة – ١٧سطر ، ٢٠ X ٢٥ سم خط نسخ ، حبر أسود . انتهى .

فاتضح لي أن الكتاب ليس لياقوت ، وإنما هو – كما جاء في طرته – : الجزء الأول من " بغية الألباء ، من معجم الأدباء " اختاره لنفسه أحمد بن علي بن عبدالسلام التكريتي – عفا الله عنه ورحمه – وهو من أول الكتاب ، وينتهي بترجمة (عبدالله بن محمد بن هارون التوزي ... عند آخر جملة : (وأنشد لفضل الرقاشي) ثم تنتهي الصفحة ولا شيء من الكلام بعدها متصل بها. وورق الكتاب ١٣٥ – والكتابة قديمة وجيدة ، وفي الحواشي تعليقات حديثة ، ولا أستبعد أن يكون الكتاب من مخطوطات القرن الثامن[١] .

أما ما جاء في وصف ما اختير من المخطوطات – ص ٤٩ – عن " ديوان شعر ابن مشرف " المخطوط سنة ١٢٤٠ – فابن مشرف هذا ليس الشاعر الأحسائي أحمد بن علي بن مشرف الأحسائي بل هو قبله ، كما لفت نظري إلى هذا الأستاذ الدكتور عبدالله الوهيبي الذي أفضل عليَّ بنسخة مصورة منه ، والشاعر من أهل القرن التاسع الهجري ، وقد خصص ذلك الديوان لمدح السلطان الخليل بن أحمد بن سليمان الأيوبي ، صاحب حصن كيفا في ديار بكر ، وهو – على ما ذكر الأستاذ الزركلي في " الأعلام " أمير من الشعراء ، تولى الإمارة بعد أبيه السلطان الأشرف سنة ٨٣٧ – في الديوان : ٨٣٣ – قال الزركلي : وقتله ابنه على فراشه سنة ٨٥٦ هـ .

---

(١) اقتنيت صورة من هذا الكتاب، صورتها لأستاذنا الدكتور إحسان عباس، فرجع إليها في تحقيق «معجم الأدباء» الذي صدر قبل بضع سنوات.

وكان مما طالعت من المخطوطات : " ديوان ابن هتيمل " وقد كتب في طرته : (ديوان تاج الأدبا ، وأحد النجبا ، وحيد دهره ، وفريد عصره ، شرف الدين بن هتيمل القطاني (كذا) نسبًا ، والصمدي والشيعي مذهبًا ...) ومعروف أن صواب (القطاني) : (القحطاني) و (الصمدي) : الضمدي بلداً . وأول هذه النسخة : (قافية الهمرة – قال يمدح الشيخ أبا بكر بن عمر العد (؟) :

لاتعالج من الصبابة داء فهي داء أعيا الطبيب دواء

وآخرها : (وقال يمدح الأمير المتوكل على الله شمس الدين أحمد بن أمير المؤمنين:

أمِلْهَا إن وجدت لها مُمالا لعل خماسها ترد الشمالا

ثم بعد ثمانية وعشرين بيتا :

تعد إلى البرا وإلى المثنى وحيدر وابنه شرفا وخالا

ثم ينقطع الكلام بانتهاء ورق النسخة التي تقع في ٥٠٢ من الصفحات ، في الصفحة خمسة عشر سطراً ، والخط ليس قديما ، ورقم النسخة ١٣٥٣ / ٢٣ز .

ومعروف أن الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي نشر دراسة عن الشاعر ابن هتيمل ، مع مختارات من شعره ، عن مخطوطة غير هذه .

وفي المكتبة مخطوطة رقمها ١٣٣٢ / ٢ ز – تحوي مجموعة من الأشعار القديمة، في أولها نقص، إذ تبتدئ بالكلام عن منزلة امرئ القيس بين شعراء الجاهلية ، ثم بشعره، ثم شعر طرفة، فشعر زهير بن أبي سلمى، فشعر النابغة، فشعر الأعشى، فشعر لبيد ، فشعر بشر بن أبي خازم الأسدي، فشعر عبيد بن الأبرص، فشعر عدي بن زيد، وقد ترد إشارات عند إيراد بعض القصائد بأن هذه رواية الأصمعي أو غيره من رواة الشعر من القدماء ، وإشارات إلى أن ماورد من شعر الشاعر هو كله، فعند انتهاء شعر بشر وردت هذه الجملة: (آخر شعر بشر فَي جميع الروايات) و (آخر شعر عبيد). وآخر مافي هذا المجموع قصيدة قيس بن الخطيم :

أتعرف رسما كالطراد المذاهب – في المخطوطة ... بالطراد المذاهب – وبعده: (وقال الشجوى) :

مـراضى (؟) ليس لنـا طبيب ومهجورين (؟) ليس لنـا حبيب

في أحد عشر بيتًا آخرها :

عسى الهم الـذي أمسيت فيـه يكـون وراءه فـرج قـريـب

فـتـرجـع سـالما وتـقـر عيـنـًا وتـنـزل بـين أهلك يـاغـريب

وبعدها قصيدة الشنفرى :

أقيمـوا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سـواكم لأميـل

ويظهر أن هذه المجموعة من مخطوطات القرن الحادي عشر ، حيث يبدو من كتابة مطموسة في آخرها : (عشر ليال خلون من جمادى سنة ستين وألف) ويكثر التحريف في الكتابة .

وقدم لي مدير الدار مجموعة من مطبوعات (وزارة التراث) أكملها الأستاذ أبو عثمان– أكرمه الله – بأن دفع ثمن بعضها .

ثم اجتمعت في تلك الوزارة بعالم جليل مشهور بكثرة مؤلفاته ، وبغزارة علمه وفضله هو الأستاذ الشيخ سالم بن حمود السيابي – مستشار الوزارة – ويعد من أوسع علماء هذه البلاد اطلاعا على تاريخها ، وقد أمضيت برهة من الوقت نتجاذب أطراف الأحاديث ، فوجدت من لطفه وسماحة نفسه وبشاشته مالم أعهده عند كثيرين غيره من العلماء ممن بلغ من العمر ما بلغه الشيخ ، فهو في الثمانين من عمره ، ولايزال دائبًا على مواصلة البحث والتأليف ، حيث أخبرني بأن كتابه في الأنساب الذي طبعه حاكم قطر منذ زمن قد أعاد النظر فيه ، فزاد عليه زيادات كثيرة ، ولا يزال مستمرًا في إكماله، وقد رغب أن أزوره في بيته ، وألح عليَّ في ذلك مبالغة في إكرامي، إلاَّ أن قصر الوقت الذي قررت البقاء فيه في هذه البلاد حال دون تلبية تلك الدعوة الكريمة .

وكان ممن اجتمعت به عند الشيخ السيابي الشيخ بدر العبري مدير قسم الحصون والقلاع – في وزارة التراث – فكان أن قدم لي قطعتين من نسيج تلك البلاد ، تذكاراً لهذه الزيارة .

حول (الجبل الأخضر) : وفي الساعة الثامنة والربع من صباح يوم الخميس (١١/٣/١٤٠٧هـ – ١٣/١١/١٩٨٦م) كانت الرحلة إلى (أدم)، وهي تبعد عن مدينة مسقط ٢٢٤ كيلاً (مئتان وأربعة وعشرون) . والرفاق أبو فهد الأستاذ عبدالله الخيال وأبو عثمان يحيا بن عثمان البشر ، وسائق السيارة من موظفي السفارة . وكان السير في طريق معبد، إلا أنه لايتسع إلا لمرور سيارتين متعاكستي الاتجاه، وهو الطريق الوحيد المعبد لسلوك السيارات المتجهة إلى جنوب عمان، وإلى أشهر مدنه في تلك الجهة كصلالة ونَزْوا وغيرهما ، ولهذا يكثر السير فيه من جميع أنواع السيارات، فيصعب تجاوز سيارات النقل في كثير من منعطفاته الضيقة ، ولهذا لم نصل إلى نزوا – وعليها الطريق إلى أدم – إلا الساعة العاشرة إلا ثلثًا، والمسافة – كما سجلها عداد الأكيال في سيارتنا ١٦٧ من فندق(انتركنتننتال) إلى (فندق نزوا) .

كان السير بعد مجاوزة مطار مسقط داخل الجبال ، بمحاذاة سلسلة شامخة منها على اليمين ، تدعى (الجبل الأخضر) مع أنها جرداء، سوداء القمم على مايبدو للناظر ، لها شناخيب بارزة ، تتخللها فجوات شديدة الانحدار ، وفيما بين هذه السلسلة وما حولها من الجبال تكثر الأودية التي تنتشر فيها القرى ذات العيون الجارية ، ويدعونها أفلاجًا، واحدها فَلَجٌ – بفتح الفاء واللام وآخره جيم– ولكن مياه أكثرها ضعيفة بحيث تنحصر الزراعة في حدائق صغيرة من النخل، وأكثره يظهر عليه عدم العناية ، لانصراف أهله عنه إلى حرف أخرى أيسر كلفة داخل المدن .

كان مما مررنا به أو بقربه من القرى: (فَنْجَا) بعد الفاء نون ساكنة وجيم

مفتوحة بعدها ألف ينطقها بعضهم هاء – وبِدْبِد – بباءين بعدهما دالان، وسمائل وهي من أشهر المدن ، وتبعد عن مسقط ١١٤ من الأكيال ، وهي من أقدم المدن العمانية ، فقد ذكر ابن حميد في " تحفة الأعيان "[١] أن أول من أسلم من أهل عمان مازن بن غضوبة من بني نبهان من طيء وكان من أهل سمائل، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ظهور الاسلام بعمان ودعا له ولأهل عمان بخير ، وكان يسدن صنما في الجاهلية في سمائل ، يقال له ناجر، تعظمه بنو خطامة وبنو الصامت من طيء وترجم ابن حجر في "الاصابة"[٢] مازنًا هذا وأورد من شعره .

إليك رسول الله خَبَّتْ مطيتي تجوب الفيافي من عمان إلى العَرْجِ

ولم يذكر بلده وبسط ابن الأثير ترجمته في " أسد الغابة " وذكر أنه من عمان، من خطامة من طيء.

ومررنا بواد يدعى وادي مَحْرَم – بفتح الميم وإسكان الحاء – كاسم الوادي الذي بقرب الطائف الذي هو أعلى وادي قرن المنازل (السيل) وبلدة إمْطِي – بكسرِ الهمزة وإسكان الميم وكسر الطاء بعدها ياء– وتبعد عن مسقط١٢٥ (مئة وخمسة وعشرين كيلاً). وقاروت – بالقاف على وزن هاروت وماروت .

ثم إزْكِي – بكسر الهمزة وإسكان الزاي وكسر الكاف فياء ساكنة – والمسافة بينها وبين إمطي نحو ثمانية أكيال .

ثم انحرف الطريق باتجاهه ذات اليمين ، حيث اتسعت الأرض ، بتباعد الجبال ، وبلغنا بلدة صغيرة بعد تجاوز مضيق بين جبال ليست مرتفعة، – تدعى (بركة الموز) مضافة إلى الفاكهة المعروفة للتفريق بينها وبين قرية أخرى تدعى

---

(١) ١/٤١. (٢) ٧٥٨٥.

البركة – الباء مكسورة والراء ساكنة – ويظهر أنها على فلج قوي، إذ بدت لنا في مدخلها البساتين الحسنة ، ولم ندخل القرية ، وهذه بلدة الإمام غالب آخر أئمة الإباضية في عصرنا ، وتبعد عن مسقط ١٤٢ (مئة واثنين وأربعين كيلاً).

وبعدها تركنا طريق عَبْرِي يميناً حيث اتجه صوب سلسلة الجبال (الجبل الأخضر) وانحرف بعد ذلك طريق صلالة – وهو الطريق الذي سنسلكه إلى أدم – انحرف جهة اليسار حين قطعنا منه من مسيرنا من مسقط ١٦٤ كيلا – واتجهنا صوب فندق نَزْوا – بعد أن شاهدناها، وبلغنا الفندق بعد زمن يقرب من ساعتين من خروجنا من الفندق في مسقط – وكانت المسافة التي سرناها حتى بلغنا نزوا – ١٦٧ – سبعة وستين ومئة كيل .

وبعد استراحة في الفندق تقرب من الساعة واصلنا السير إلى أدم ، والمسافة بينها وبين نَزْوا – كما يبدو من علامات الطريق – ٥٣ كيلا – والساعة العاشرة والنصف .

ولابد من وقفة قصيرة حول الجبل الأخضر . مما لاريب فيه أن كثيراً من المناطق التي عرفت في العهود القديمة بالخصب ووفرة المياه، وكثرة محصولات الزراعة، قد تغيرت كثيراً عما هي عليه – كالحال في منطقتي الأَحْساءِ والقطيف وفي بلاد ينبع النخل وواحات خيبر ووادي القرى (العلا) وقل مثل هذا في الجبل الأخضر، الذي كان يُعَدُّ – ولا يزال – أخصب منطقة في بلاد عمان ، قال عنه المؤرخ المعاصر الشيخ عبدالله بن حُميد السالمي في " تحفة الأعيان "(١) مانصه : وفي عمان الجبل الأخضر ، ويقال له رُضْوَى، وهو من عجائب الدنيا مملوء بالفواكه من الرمان والعنب والجوز والخوخ ، والمشمش ، والبوت والنمت وغيرها من أشجار الجبل ، وفيه من الرياحين كالورد والزعفران والآس وغيرها .

---

(١) ١/٦.

وسئل بعض أهله عن وصفه فقال : جبل عظيم الارتفاع ، صعب الامتناع ، في وسط عمان ، أهله في رفاهة وأمان ، لايخافون جور شيطان، ولا سطوة سلطان، ذو نُهورٍ وقصور ، وحياض ورياض ، وبساتين بهاكروم وتين ، وتوت وجوز وخوخ ، ولوز ومشمش ورمان ، وفواكه ألوان ، محصنة حدائقها بالورد والياسمين، وحشيشها الزعفران الثمين، والفوذنج والشذاب، والنرجس المشبه بعيون الكعاب ، محفوفة بالآس، كأنها الجنة في القياس، اغتصت بالكرم والتفاح، والشجر المعطر النفاح، قال: وإن حللت في أقفارها اكتفيت عن جني أثمارها ، بكمثل النمت والبوت شفاء وقوت ، تسفح من هذا الجبل تسعة أودية ، وكل واد بـه له طريق مؤدية ، وعلى أبوابها قرى لبني ريام ، أحاطوا به كالأكمام بالثمر والهالة بالقمر ، حامين لأبوابه عن طلابه . انتهى وصف صاحب الجبل له - .

وسماه السالمي جبل بني ريام ، ورُضْوا ، - بضم الراء - قيل: سمي بذلك باسم نَبِيٍّ دفن فيه[1].

وما أرى شهرة هذا الجبل الأ لمناعته ، وصعوبة الوصول إلى قراه ، مع وجود ينابيع مياه فيه ، نشأت عليها قرى صغيرة، قليلة السكان ، يتصف أهلها بالقناعة والصبر للحفاظ على دينهم ، ويرون في جبلهم غاية ما يطمحون إليه في حياتهم القائمة على العزلة .

ومع أن أبا صالح السفير-أكرمه الله-كان بوسعه أن يُهَيِّئَ لنا الوسائل لزيارة ما يمكن الوصول إليه لمثلنا- إلا أننا اكتفينا بمشاهدة القرى الواقعة في سفوحه الجنوبية الغربية ، وقاعدتها نَزْوا .

إلى بلدة أدم: لقد انداحت الجبال بعيدة عن الطريق منذ أن أقبلنا على نزوا ، فاتسعت الأرض أمامنا بحيث لا نبصر جبلاً الا عن بُعْدٍ، باستثناء أكمات وجبال صغيرة-وكان الاتجاه نحو الجنوب الشرقي ، والسير في الطريق العام المتجه صوب

---

(١) ٦٢/١.

صلالة–قاعدة ظفار–وعند بلوغ عدد الأكيال في السيارة الرقم ٣٠٠٦٧، وكان حين مغادرة الفندق ٢٩٨٤٣ (أي بعد سير ٢٢٤ كيلاً من مسقط) شاهدنا لوحة كتب فوقها (ولاية أدم ترحب بكم) ورسم فوق اللوحة نخلة، وهكذا كل ولاية أو مدينة مشهورة في هذه البلاد، يرسم فوق لوحة الطريق الموصل إليها على مقربة منها صورة ترمز الى ما اشتهرت به الولاية أو البلدة .

انحرفنا ذات اليسار عن الطريق المعبد إلى بلدة أدم التي امتد عمرانها طولاً حتى بلغ هذا الطريق ، الذي قصر إصلاحه وتمهيده عن الوصول إلى هذه البلدة ، فكدنا لا نبصر ما يحيط بنا من شدة الغبار وارتفاعه ، حتى داخل شوارع البلدة ، فشاهدنا أبرز بناء تعلوه قبة مرتفعة ، عرفنا أنه المسجد من منارته الطويلة وقبته الجميلة ، وكان المسجد الجامع الذي أمر بانشائه السلطان قابوس في العام الماضي بطراز عربي جميل ، وبناء قوي محكم ، وقد فرش داخله ، ووجدنا فيه رجلين يقومان بتنظيفه–ولعلهما يفعلان ذلك استعدادا للصلاة فيه غداً (الجمعة) وأول صلاة أقيمت فيه في رمضان من العام الماضي (١٤٠٦هـ) على ما قيل لنا .

في بلدة أَدَمٍ: كيف نستطيع الاهتداء إلى المعالم الاثرية في هذه البلدة ولا أحد معنا من أهلها ؟ ليكن الذهاب إلى المدرسة فلا بد أن يكون بين مدرسيها من يعرف شيئًا من تاريخ مدينته ، فكان ذلك ، وكان الاجتماع بعدد من إخواننا المدرسين منهم العماني ، ومنهم المصري ، ومنهم الأردني ، (الفلسطيني) ولا عجب في تعدد الجنسيات وكثرتها ، فطلاب هذه المدرسة التي تضم ثلاثة أقسام ابتدائي وإعدادي و ثانوي–يقرب عددهم أكثر من ألف طالب وطالبة .–وحسب ما أملى علينا القائم بتسجيل الحضور والغياب ٨٠٠ تلميذ ٦٣٠ تلميذة ، والمدرسون ٣١مدرسة و٥٠ مدرسا. والمدرسات أكثرهن مصريات ، والدراسة بالتناوب بين الطلاب والطالبات ، يخرج أولئك من المدرسة فيدخلن ، ثم يخرجن ويدخل الطلاب ، وليس كل من في المدرسة منهم من أهل بلدة أدم ، بل من

الولاية وبما بقربها من القرى ، وهناك سيارات تنقلهم إلى المدرسة ، وكذا الحال في كل ولاية أو مدينة كبيرة ، تنشأ فيها مدرسة لكل ما حولها من القرى .

كان تناول القهوة–بعد تقديم التمر–وهذه عادة باقية لدى العمانيين تقديم التمر قبل القهوة ، وهكذا رأينا ساعة حللنا بهذه البلاد في البهو المعد للاستقبال في المطار ، فقد قدم لنا التمر قبل القهوة ، وتلك سنة حسنة ، وكانت متبعة في نجد إلى عهد قريب ، ولا تزال باقية في بعض القرى ، إذ يقدم للزائر طبق التمر ، ويقال له (تفضل : اقدع) ويسمى هذا الأكل (القُدُوع) ولعله سمي بهذا لأنه يكسر حدة الجوع حتى يُعَدُّ الطعام المناسب للضيف ، وفي الأثر : (اقدعوا هذه الأنفس) أي اكسروا حدة تطلعها إلى شهواتها .

ها هو الشيخ سالم بن هلال المحروقي ، الذي استقبلنا عند باب المدرسة بحفاوة وبشاشة ، وأمر بتقديم القهوة لنا ـ في حجرة مدير المدرسة فهو نائبه–وهو من أهل هذه البلدة ، ومن خيرة مثقفيها فقد زار مصر ، وزار البلاد السعودية ، وتلقى من المعارف والعلوم ما أهله للإشراف على إدارة هذه المدرسة أثناء غياب مديرها ، ثم هو ذو إلمامٍ بتاريخ بلدته ، فقد أفاض في الحديث عن ماضيها حين كانت سوقًا من أسواق العرب القديمة ، ثم كانت قاعدة للإمام أحمد بن سعيد الذي ولد فيها ولا يزال حصنه قائمًا في البلدة القديمة ، حيث أقدم جامع فيها ينسب إلى عمر بن الخطاب ، أنشئَ سنة سبع عشرة من الهجرة على ما قال الشيخ المحروقي–وهناك من يقول : إن إنشاءَه سنة ٣١٧– سبع عشرة بعد الثلاث مئة – والكتابة لا تزال باقية في محراب الجامع–هكذا حدث الشيخ سالم .

إن الجانب الذي تقع فيه المدرسة والجامع الكبير الجديد ، ومقر والي أدم ، حديث العمران ، بيوته ومحلاته التجارية على الطّراز الحديث، في براح واسع من الأرض، تشاهد سلسلة من الجبال في الجهة الشرقية غير قريبة من عمران المدينة ،

ولهـذا فإن البنايات متباعدة نوعًا ما ، والشوارع واسعة ولكنها غير مبلطة ، وتتخللها حدائق النخيل التي تبدو العناية بها أكثر مما هي في كثير من نخيل القرى التي رأيناها .

لقد كان من أهم ما حرصنا على معرفته موقع البلدة القديمة، الذي من المتوقع أنه السوق القديم الذي كان يقام في الجاهلية، أو أن يكون بقرب ذلك الموقع، فطلبنا من الشيخ سالم أن يبعث معنا من يرشدنا إليه ، وهكذا كان .

اتجهنا إلى الجنوب الغربي من البلدة الحديثة وبعد قطع مسافة خمس أكيال دخلنا غابة من النخيل ، في أزقة ضيقة ، أفْضَتْ بنا إلى بلدة محاطة بسور لا تزال أبوابه الضخمة المصنوعة من الخشب سليمة ، والسور سُمْك جداره يزيد على المترين ، مَبْنِيٌّ بالجص ، وباللبن والطين ، وكذا منازل القرية التي لا يزال كثير منها عامرًا ، مع أنه لم يبق فيها أحد من السكان–على ما قليل لنا–. بلغنا المسجد الجامع–والبلدة حوله تدعى (محلة الجامع) فوجدنا في مدخله بئرًا عليها دَلْو، لإخراج الماء منها ، وبجانبها مكان للوضوء وآخر للاستحمام ، وعمقها نحو سبعة أمتار ، وطعم الماء مقبول للشرب ، وإن لم يكن عذبًا– إنه (دَبْجٌ) كما يعبر أهل نجد– .

أما المسجد فبناؤه قوي متماسك ، مقام على تسع سواري ، لا تلتقي اليدان على سمك السارية، والبناء من الجص ، والسقف من الخشب ويظهر أنه مجدد ، وسعة المسجد ١٧ X ٨٢ خطوة ، وفيه ثلاثة صفوف من السواري كل صف ثلاث يقابلها في جانبي المسجد سارية داخلة في الجدار، تحمل جانب القوس الممتد من السارية الأخرى، ويتسع كل صف بين السواري لصفين من المصلين ، بحيث يتسع المسجد لثمانية أو تسعة صفوف ، أما الجانب الذي لم يسقف من المسجد خارجه، بينه وبين البئر فيقارب في المساحة ما سقف .

وقد لُيِّسَتْ جوانب الجدران الداخلية منه بالجصِّ، ونُقِشَ محرابه بطريقة الحفر، وبجانبه الأيمن كتابة بخط النسخ الجميل ، لم نستطع قراءتها لعدم وضوحها،

ولتقشع بعض الحروف، إلا أن بجوارها في لوحة معلقة مانصه : نقلت هذا التاريخ كما وجدته مكتوبًا بالقلم في المحراب : (القائم في عمارة هذا المحراب المبارك الشيخ الأجل محمد بن نوح أبو حسن الأزدي ، والصانع عيسى بن عبد الله ، في شهر جمادى الأولى سنة ١٧ هجرية–على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام–بعد سبع مئة سنة والله أعلم) .تم نقل هذه اللوحة في ٢ / ١٢ / ١٤٠٢هـ .

واذا صح هذا فإن تجديد المحراب حدث سنة ٧١٧هـ ومنه توهم من توهم أن عمارة المسجد كانت في سنة سبع عشرة–في عهد عمر بن الخطاب–وقد تكون عمارته أقدم من عمارة محرابه ، ومهما يكن فقد كان جامع بلدة أدم القديم ، ولا يحفظ من قابلنا من أهلها من تاريخها إلا الإمام أحمد بن سعيد المتوفى سنة ١١٩٦هـ– جد الأسرة الحاكمة في عمان [١] الآن–ولد في هذه المحلة التي يقع فيها هذا الجامع ، والمكان الذي كان يعيش فيه لا يزال قائما أحد أبراجه ، في الجنوب الشرقي من المسجد المذكور، أرانا اياه الرجل الذي أرشدنا إلى هذه الأبراج المقامة على السور المحيط بهذه المحلة المبنية بيوتها بالطين ، وتحيط بها بساتين النخيل الجيدة العمران .

وهذه المحلة التي يقع فيها المسجد ، قد بدأها الخراب ، وأوشكت أن تخلو من السكان ، وتقع في منخفض من الأرض ، بين النخيل ، فتحيط بها المستنقعات التي تتسرب من مياه سقي البساتين التي بدأ الاهمال ينتشر فيها .

أما منازل المدينة الحديثة فتقع شرق هذه المحلة ، متصلة بها ، وممتدة نحو ثلاثة أكيال من الجنوب إلى الشمال حتى الطريق المعبد ، المتجه إلى صلالة ، في منطقة الظاهرة ، وفي غربيها تقع حقول النفط على مسافة تقرب من خمسين كيلاً، وفيها أربعة أفلاج ، ليس ماؤها قويًّا .

---

(١) هو الأب الثامن للسلطان قابوس بن سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد المذكور.

وأقرب الجبال إليها جبل (صلاخ) في غربيها يشاهد منها غير بعيد ، وجبل (مدمار) شرقها يكاد العمران يتصل به ، وبلدة أدم في براح من الأرض ممتد غربًا حتى الربع الخالي ، ولا تبعد حدود المملكة من هذه الجهة عن بلدة آدم أكثر من مئة وخمسين كيلاً وما بينها وبين ساحل خليج عمان يقارب هذه المسافة ، حيث تقع صور وقلهات وطيوي(١) .

وتقع أدم بقرب خط الطول ٣٠َ / ٥٧ْ وخط عرض ٢َ/٢٢ْ- وكتب الاسم في بعض المصورات الجغرافية (الخرائط) خطأ (آدم) بمدِّ الهمزة .

نَزْوا (قاعدة الإباضية الأولى) : بعد مشاهدة تلك المحلة القديمة في أدمٍ كان منها العود إلى نزوا فبلغنا الفندق بعد أن سجل عداد الأكيال ٦٤ كيلاً ، من الجامع القديم ، منها ثلاثة أكيال هي امتداد عمران أدم إلى الطريق المعبد . كانت الاستراحة والغداء في ذلك الفندق ، والخدمة فيه لا بأس بها بالنسبة لموقعه، فالمسافر لا يفقد فيه ما يتوفر في فنادق المدن الكبيرة ، وبعد صلاة العصر قمنا بجولة في مدينة نزوا-قاعدة أئمة الإباضية منذ عهودهم الأولى-وتقع في سفوح الجبل الأخضر، جنوبه ، وتمتد، منها طرق إلى صلالة قاعدة ظفار-٨٦٠ كيلاً ، وإلى عِبْري في سفح الجبل الأخضر من الشمال-١٣٠ كيلاً-وإلى البريمي-٢٨٥ كيلاً-بطريق عِبْري، وتبعد نزوا عن مسقط ١٦٦ كيلاً .

وهذه المدينة من أقدم المدن،وإن كانت كغيرها من مدن عمان،لاتزال بحاجة إلى من يجلو مازال خافيًا من أحوالها في العصور القديمة ، وسماها ياقوت الحموي في « معجم البلدان » نَزْوة-على اسم المرة من النَّزْو-وهو الوثب ، ولكنه عَدَّها جبلاً فقال عنها :

---

(١) توفي الشاعر علي بن المقرب الأحسائي سنة ٩٢٦في هذه البلد التي وصفها ابن بطوطة في رحلته بقوله : وبمقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطبيب إذا أضافه المتكلم لنفسه ، وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات وبها الموز المعروف بالـمَرْواري بالفارسية والمرواري هو الجوهري المروار الجوهر-وهو كثير بها ويجلب منها إلى هرمز وسواها وبها أيضا التنبو- إلى آخر ما ذكر-وسماها (طيبي) ولكن السالمي في « تحفة الأعيان » : ١ / ٣١٣-صحح الاسم قائلاً : الصواب بطاء مكسورة ثم واو مكسورة (طيوي) - إلخ .

جبل بعمان وليس بالساحل، عنده عدة قرى كبار ، يسمي مجموعها بهذا الاسم، فيها العرب كالمعتكفين عليها ، وهم ... إباضية ، يعمل فيها جنس من الثياب، منمقة بالحرير ، جيدة فائقة ، لا يُعْمَل في شيء من بلاد العرب مثلها ، ومآزر من ذلك الصنف ، يبالغ في أثمانها ، رأيت منها واستحسنتها-كذا قال ياقوت وأضيف : وأنا قد أُكْرِمت من قبل وزارة الثقافة ، بإزارٍ من نسج هذه البلاد فأعجبت بجودة نسجه .

ووصف ابن بطوطة في رحلته هذه المدينة بأنها قاعدة بلاد عمان ، وأنها في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة، ومساجد منظمة نقية، وأن عادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجد، يأتي كل إنسان بما عنده ، ويجتمعون للأكل ، معهم الوارد والصادر ووصفهم بالنجدة والشجاعة .

ويظهر أن ياقوتًا الحموي أطلق اسم نزوة على المنطقة التي هي الجانب الغربي الجنوبي من الجبل الأخضر ، حيث تنتشر القرى وقاعدتها نزوا-وهي كما وصف ابن بطوطة ، ولكن بساتينها الآن قَلَّتْ ، وأنهارها جَفَّ أكثرها ، وبرزت المدينة إلى الأرض البراح الواسعة في دارات حديثة ، وعمران جديد .

ويتفق الإدريسي مع ياقوت في تسمية نزوا المعرفة الآن باسم (نزوة) وأن الاسم يطلق على منطقة لأعلى القرية ، فيقول في كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[1] : (ويقابل صُحَار في البرية على مسير يومين بلدان متصلان بينهما واد يسمى وادي الفلج ، واسم أحد البلدين سعال والآخر العفر ، وهما مدينتان صغيرتان عامرتان، بهما نخل كثير، ومزارع وحدائق نخل وتمر، وهما متقاربان في القدر، وشربهما من نهر الفَلَج ، وتسمى الأرض التي هما فيها نزوة ، ويتصل بهاتين المدينتين على قدر نصف يوم مدينة منح ، وهي مدينة صغيرة في أسفل جبل يسمى جبل شرم، بها نخيل وعيون ماء ، وهي أعلى ضفة نهر الفلج ، ومن منح إلى سِرِّ عمان غربًا مرحلتان ، وهي أسفل جبل شرم ، حيث منبعث نهر الفلج، وهو نهر كبير عليه قرى وعمارات متصلة إلى أن يصب في البحر بمقربة من قرية جُلَّفَار) . انتهى .

---

(١) ص ١٥٧ .

وكل المواضع التي ذكرها الإدريسي لا تزال معروفة مثل : سعال والعفر ومنح وسر عمان (يدعى الآن السرَّيْنِ–مثنى سر) . أما جبل شرم فيظهر أنه يقصد ما يعرف الآن باسم الجبل الأخضر ، وجلفار–على ما شاع عند المتأخرين–هو ما يعرف الآن باسم (رأس الخيمة)، وهي واقعة في مفيض أودية تنحدرمشرقة من جبال الحجر التي يعد الجبل الأخضر امتداداً لها من الناحية الغربية .

وفي كتاب «تحفة الأعيان» لمحات عن تاريخ نَزْوا القديم ، فقد ذكر أنها نهبت سنة ١٤٥[١] وفي سنة ١٧٩ أصبحت مقرًّا للإمام الوارث بن كعب الخروصي وفيها مات سنة ١٩٢[٢] وقُبِرَ بين العفر وسعال– محَلَّتَيْنِ فيها – ودعاها (تخت ملك العرب) و(بيضة الإسلام)[٣]. إلى آخر ماذكر عنها .

وأبرز معالمها الأثرية قلعتها التي كانت يومًا ما مقرًّا للجند لحماية المدينة وكانت سجنًا ، وهي مستديرة الشكل ، ولم نستطع دخولها ، إلا أن حراسها سمحوا لنا بالوقوف داخل الباب للاستماع من أحدهم عن تاريخ إنشائها، ومما رأينا مكتوباً كتابة حديثة على الجدار: أن السلطان سلطان بن سيف الأول أنشأها فيما بين سنتي ١٦٤٩و١٦٦٨ ميلادية خلال اثني عشرة عامًا ، وأنها أهم المعالم التاريخية في نزوا، وهي مبنية بالحجر والجص، ويبلغ ارتفاعها ١١٥ قدمًا، وقطرها ١٥٠ وسلطان بن سيف من الأئمة اليعاربة ، بويع سنة ١١٢٣ وتوفى سنة١١٣١ هـ. ولايبدو – في نزوا من النشاط العمراني ماشاهدناه في غيرها من مدن السلطنة كمسقط ، ويقال : إنه كان من المقرر أن تنشأ فيها الجامعة (جامعة قابوس) وقدحدد مكانها،ولكنها أنشئت فيمابعد في مسقط بقرب المطار(مطار السِّيْب الدولي) .

ولمدينة نزوا سوق مسقف صغير، بجوار المسجد ، يغلق أثناء الصلوات، وسألنا أحد الإخوان عن أقدم محلة في هذه البلدة فقال : إنها (حارة جامع) كذا نطق الاسم ، في سُعَال – بالسين والعين المهملتين الأولى مضمومة والثانية

---

(١) ١/٨٨. (٢) ١/٩٣. (٣) ٢/٢٥٣.

مفتوحة بعدها ألف فلام ، وفسر كلمة (حارة جامع) بوقوع الجامع الذي يصلي فيه الإمام، فا تجهنا معه شرق شمال المدينة فدخل بنا في السيارة سوقًا ضيقًا متعرجًا داخل النخيل ، في محلة ضيقة البيوت المبنية بالطين، وبساتين النخيل تحيط بالمحلة ، حتى وقف بنا على ربوة مرتفعة يقبع فوقها المسجد ، فصعدنا الدرج إليه، فإذا طراز بنائه شبيه بطراز بناء مسجد أدم ، السواري متينة مستديرة، والعقود بينها مقوَّسة ، وقبلته فيما حول محرابه مزينة بالنقوش والكتابات الجميلة القديمة، داخل دوائر ، وفي شبه أقواس بالجص المحفور، والحروف بارزة ، إلا أننا لم نستطع قراءة شيء منها لقدمها ولضعف النور داخل المسجد ، وتدل جودة الكتابة ونمطها الكوفي المشجر على قدمها، بحيث أتوقع أن زمنها قد يبلغ القرن الرابع الهجري ، وأمام القسم المسقف من المسجد بَهْوٌ واسع مكشوف (سرحة) وهو أوسع من مسجد أدم ، وعلى يمين المحراب قد كسر بلاط الجص المتصل بالكتابات المحيطة بالمحراب ، لمد أسلاك الكهرباء ، ولم يصلح موضع التكسير ، وهذا ماسَيُسَبِّبُ تساقط البلاط كله ، فتزول تلك الكتابات الأثرية ، ولما تحدثنا مع الاخوان الذين دخلنا منزلهم من أهل القرية عن ضرورة الاسراع في إصلاح ماحفر من الجدار ، وكسر من البلاط ، علمنا أنه جرى الاتصال بوزارة التراث مرارًا، فبعثت من زار المسجد وشاهده ، ووعدت خيرا ، ومضى على ذلك زمن و (لعل له عذرا، وأنت تلوم) .

قال لنا الأخ الذي أرشدنا إلى المسجد : هنا رجل قد جاوز المئة سنة من عمره، وهو أعلم أهل هذه القرية بتاريخها ، وبيته أمام المسجد، فكان المرور به ، فاستقبلنا ثلاثة من الإخوة عند الباب ودعونا للدخول ، فوجدنا رجلاً واقفًا متكئًا على (محجن) لايبدو عليه أنه بلغ من السن ماقيل لنا عنه ، كان حسن الاستقبال والترحيب ، والسؤال عن الحال ، كالعادة – ثم القهوة وقدمت معها

(الفُوالة) وهو التمر، والماء المبرد في قلل صغيرة من الفخار، معلقة بجوانب المجلس الواقع في مدخل الدار، ثم تقديم الفاكهة المجلوبة من خارج عمان - التفاح والموز والبرتقال - وكان الشيخ يفيض في أحاديثه عن تاريخ أوائل الإئمة، وذكر كرامات بعضهم - كالوارث - وقصة شجرة الليمون التي نبتت من عصاه، ولايزال ثمر تلك الشجرة وقفًا في هذه القرية - لاشيء لدى هذا الشيخ ممانبحث عنه - سوى طيب قلبه، وسماحة نفسه ويده هو وأبناؤه - وكان مما قال لنا: إن سليمان الباروني، زار هذا المسجد، وصور مافيه من كتابة. ومعروف أن سليمان هذا تونسي من زعماء العرب السياسيين في هذا العصر، وقد تولى عملاً من أعمال سلطنة عمان في منتصف القرن الماضي - تقريبًا - وتوفى سنة ١٣٥٩ هـ.

يظهر أن هذه المحلة (سعال) هي البلدة القديمة، كما يبدومن طراز عمرانها القديم، ومسجدها، وأن العمران بدأ في الاتساع إلى الأرض البراح، البعيدة عن بساتين النخيل ومجاري المياه - ويلاحظ أن مراحيض المحلة القديمة في أدم ومثلها المنازل القديمة في سعال، تشبه ما كان معروفًا في الرياض وغيرها من مدن نجد، بحيث يخصص برج صغير في أعلى المنزل، له باب ضيق مسدود على الشارع يفتح عند الامتلاء، ويستعمل مابداخله سماداً للحدائق.

ان أكثر ما تعتمد عليه القرى في عمان في الزراعة والشرب مياه الافلاج - جمع فلج بالفاء واللام المفتوحتين وآخره جيم - وهي عيون تنحدر غالبًا من الجبال، وتختلف قوة وضعفًا، ويزداد ماؤها وينقص بتأثير السيول وعدمها، وبقرب مدينة نَزْوا - في سفح الجبل الواقع شمالاً شرقيًّا منها يقع فلج، يظهر من شدة اعتناء الدولة به، إذ تَعُدُّهُ من معالم نزوا التي تزار - يظهر أنه من أقوى الأفلاج - عرجنا عليه، وهو لا يبعد سوى بضعة أكيال من نزوا، فرأينا ماءه جاريًا صافيًا، وفي المجرى رأينا رجالاً وصبيانًا يستحمون فيه، وماكان ماؤه

على حالة من القوة بالدرجة التي توقعنا، إن كثيراً من عيون الأحساء – كعين (أم سبعة) وعين (الخدود) وعين (الحقل) وعين (الجوهرية) كما عهدتها في عشر الستين من القرن الماضي – أقوى جرياناً، وأغزر من هذا الفلج .

ولعل ما يتصف به أهل عمان من القناعة والاكتفاء بالقليل من حطام الدنيا، ثم محبتهم لوطنهم ، كل ذلك مما حملهم على إبراز جوانب من مظاهر بلادهم، قد لاينظر إليها غيرهم بالعين التي يرونها بها ، كشهرة الأفلاج ، والجبل الأخضر الذي لاأقول عنه بأنه يذكر المرء بماهو معروف عند العرب من تسمية الشيء بضده – كالمفازة والسليم والبصير – فأنا لم أسر فيه ، ولم أصل إلى سفوحه، ليصبح حكمي عليه مبنيًّا على أساس قوي – ولعل أكثر من يزر هذه البلاد يتوقع أن يشاهد فيها ما لا يتوقع ، فتبدو له الأشياء على غير حقيقتها ، وكما يروى عن أحد خلفاء بني أمية حين نظر إلى عزة صاحبة الشاعر كثير فقال لها : ماالذي رأى فيك صاحبك، فقال في وصفك ماقال ؟ ! فقالت: يا أمير المؤمنين إنه نظر إليَّ بغير العين التي نظرت إلي بها . أما أنا فقد نظرت إلى هذه البلاد الكريمة وإلى إخواننا من أهلها بعين الحب والاجلال والتوقير.

سارعنا في العودة إلى مسقط قبل اشتداد الظلام ، وقد دلفت الشمس للغروب، فكان الوصول الساعة السابعة والثلث ، والمسافة في العودة ١٦٦ كيلا من نزوا – بعد أن قطعنا منذ خروجنا من الفندق في مسقط حتى عدنا إليه مسافة (٥٠٧) من الأكيال. خفف ما لاَقَينا من التعب، وما اعترضنا من الإخفاق من عدم التثبت مما قصدنا معرفته ما شاهدناه وعرفناه من حالة إخواننا في هذه البلاد الكريمة، ومشاهدة عدد من قراهم، ونمط معيشتهم، ثم ما هيأه لنا المرافق الكريم من وسائل الراحة والعون، في هذه الرحلة، وغيرها أبو عثمان البشر.

في الإمارات العربية المتحدة

إلى مدينة (أبي ظبي) : وفي الساعة الخامسة من مساء يوم السبت (١٣/٣/١٤٠٧هـ - ١٥/١١/١٩٨٦م) كـان إقـلاع الطائرة بنا من مطار مـسـقط ، ويسمى (مطار السِّيْب الدولى) والسِّيْب بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة فباء - ساحل يقع شمال مدينة مسقط ، فيه ميناء صغير يدعى السيب فيضاف الساحل إليه .

لقد أكرمنا الأخوان الكريمان أبوصالح السفير وأبو عثمان الملحق الثقافي فأبى لطفهما إلا أن يرافقنا حيث ذهبنا وأين حللنا :

ونكرم ضَيْفَنَا مادام فينا   ونتبعه الكرامة حيث سارا

فلم يدعانا إلا بعد أن صعدنا الطائرة .

كان أبو فهد الخيال قد قرر العودة إلى الرياض في هذا اليوم ، لارتباطه بميعاد مع الطبيب الذي اعتاد مراجعته في أوقات مرتبة ، وأنا لم يسبق لي أن زرت قاعدة الإمارات مدينة (أبي ظبي) وها أنا قد مررت بجميع مدن الدولة، فوجدتها فرصة اغتنمتها لزيارة هذه المدينة .

وفي مطارها هبطت الطائرة الساعة السادسة إلا ثلثًا ، فكان الافتراق ، وكان مطاراً على درجة من النظافة والسعة ، يضاهي ماشاهدته من مطارات العالم الحديثة .

تبعد المدينة عن المطار ٣٤ كيلاً، ودفعت لصاحب سَيارة الأجرة الذي أوصلني (فندق انتركنتيننتال) ستين درهما من نقد هذه البلاد ، وهو أخ يمني ، من منطقة رَدَاع ، أمتعني بأحاديثه عن بلاده ، حيث توهمني يمنيًّا .

وفي غرفة في الدور الرابع عشر أشاهد منها المدينة والبحر، كان النزول بأجرة قدرها ٤٠٠ ريال- بعد المماكسة ولم أَسِرْ على طريقة (الكريم لايماكس) أي

لايحاور من يعامله ، فأصحاب الفنادق من أوْلَى من يُمَاكَس ، فهم في الغالب ممن خبر طباع أكثر الناس ، فتأثر بتلك الطباع ، وهذا ما قد يدفعهم إلى أن يحاولوا استغلال الطيبين والكرماء منهم ، أو استغفالهم متى وجدوا إلى ذلك سبيلا – وصدق الله العظيم في وصف الإنسان ﴿ وإنه لحبِّ الخيرِ لشديدٌ ﴾ ولا أطيل فقد رفضت الجناح الذي قال لي الأخوان الكريمان العاملان في الفندق : إنه حُجِزَ لي (لأنه يليق بمقام فخامتي) – كما قالا !! – وماهذا الرفض إلا لأن الأجرة اليومية تزيد على ألف ريال !! إن أحدهما من بلدة الخليل من فلسطين ، والآخر من عَمَّان – بفتح العين وتشديد الميم – ، فكان أن اختارا لي غرفة في الدور الخامس عشر ، وبئس الاختيار ، ولكنها تليق بالمقام !

إن أجرتها لاتتجاوز أربع مئة درهم – في اليوم سوى إضافة الخدمة – ومئة الدرهم تساوي ٨٩ ريالاً سعوديًّا ، بينما أحد الإخوة وهو الأستاذ محمد السُّوَيِّد وهو ساكن في الفندق – لم يدفع أكثرمن ١٦٠ درهمًا لغرفة مماثلة للغرفة التي أسكنها، لأنه كان أعرف مني بالوسائل التي ينبغي استعمالها مع هؤلاء – ومنها كتاب توصية من إحدى الجهات الرسمية ، ولما عاتبت موظف الاستقبال على هذا التفاوت في الأجور أقسم بأن هذا حدث خطأ من موظف سوف يُسْتَوفى الفرق من مرتبه – وصَدَّق أو لاتُصَدِّق – !!

كنت وأنا في عُمَان – قد فكرت في النزول في بلدة العين ، اذ هي أقرب إلى الموضع الذي أردت زيارته ، وهو موقع (تُؤام) الموضع القديم ، الذي اشتهر بأنه مغاصٌ للؤلؤ ، وبلؤلؤه يضرب المثل في الجودة – ولكن توقعت أن أجد في مدينة (أبي ظبي) وهي قاعدة البلاد من المهتمين بالتاريخ من أستفيد من مقابلته ، فكان النزول في هذه المدينة .

وبكَّرت في الصباح لزيارة (المكتبة العامة) فأوقفني صاحب السيارة التي

ذهب بي إليها عند فرع لهذه المكتبة ظنًّا أن هذا ماقصدت ، وكانت الأجرة كما بدًا من العداد إحدى عشر درهمًا ، فدفعت له خمسة عشر ، متوقعًا أن يضيف إلى الأجرة مااعتاد أصحابُ سيارات الأجرة في كثير من البلدان طلبه ممن يحملون في سياراتهم ، ولكنه أرجع لي خمسة قائلاً : يكفي عشرة ، فاستغربت وقلت له : لم أر سائق سيارة أجرة أسمح منك ، فمن أي بلد أيهاالأخ ؟ فقال من (دَرْعا) - أتعرفها ؟ فأجبت : لعلي بتاريخها القديم أعرف بها منك ، فماهو اسمها قديمًا؟ فكرر : درعا ، درعا هو اسمها ولكنني أخبرته بأنها تسمى (أَذْرِعَات) فَحُرِّفَ الاسم ، ولعل الرجل سر بمجيئي معه ، فذكر لي اسمه ورقم سيارته ، وأخبرني أنه ممن يقف دائمًا عند باب الفندق الذي أسكنه ، وقد اتضح لي - فيمابعد - أن السيارات التي تعد لاستعمال سكان فنادق الدرجة الأولى تختار، فتكون الأجرة ملائمة ، وهي أكثر من سيارات الأجرة الأخرى عادةً.

دخلت في (المكتبة العامة) الفرع ، بعد أن سجلت اسمي في دفتر وضع في المدخل، الذي أفضى بي إلى حجرة مستطيلة - في الدور الارضي - من عمارة ضخمة ، تقع على أهم شارع في المدينة طولاً وكثرة متاجر - ورأيت صوانات الكتب تملأ جوانب الحجرة ، وشاهدت وسطها إنسانًا جالسًا بقرب إحدى المناضد المنتشرة في وسط الحجرة ، فتقدمت إليه ، وجلست على كرسي مقابل له بعد أن سلمت ، ويظهر أنه لم يسمع سلامي ، أو لم أسمع إجابته !

أحضر لي الفهرس الذي طلبت مكتوبا في دفتر ، فكان نور الحجرة ضعيفًا بحيث لم أتمكن من القراءة ، فاكتفيت بمحادثة الرجل ، ليرشدني إلى مقر (المكتبة العامة) فقال : في شارع الكترا - لم أفهم الكلمة الأخيرة ، فطلبت كتابتها، فكتبها كما نطقها ، فاستوضحت منه عمابقربها من الأمكنة المعروفة فقال : خزان الماء ، شكرت الرجل ، وخرجت بعد أن عرفت منه أنه من الهند ،

وركبت سيارة أجرة ، فكان السير لايزيد على الكيل الواحد . ونزلت عند خزان ماء كبير واقع في الشارع الذي سلكته منذ خرجت من الفندق ، واكتفى سائق سيارة الأجرة ، التي ذهبت معه على القول : هذا الخزان ، ولا أعرف المكتبة ، وكان عند ركوبي معه قد قال : إنه يعرفها ! أعياني السير والبحث فعدت صوب الفندق ، فمررت بمقر (وزارة الثقافة والشباب) فرأيت بجوارها (مكتبة) بابها مفتوح على الشارع ، فدخلتها ، وكنت بحاجة إلى ماء ، فوجدت في الحجرة المستطيلة التي يفضي إليها الباب رجلا أسمر اللون ، جالسًا ، وأمامه كتاب يطالعه، فجلست بقربه – بعد السلام – فأشار إشارة فهمت منها أنه يستوضحني عما أريد ، فأخرجت الدواء الذي معي ، وأوضحت له أنني بحاجة إلى ماء لاستعمال الدواء ، أجاب : طيب طيب !! بلكنة أعجمية ، ثم ذهبت إلى أقصى الحجرة الممتلئة بالكتب ، وغاب برهة من الوقت ، وعاد اليَّ وهو يكرر كلمة (ممنوع . ممنوع) ! ويشير إليَّ بالخروج ، فخرجت ، وركبت سيارة أُجْرَة مع أحد الإخوة الذي عرفت منه – فيما بعد – أنه يمني من (يافع) بعد أن قيل لنا : إن المكتبة العامة تقع في شارع المطار القديم بقرب (وزارة الاعلام) .

في وزارة إعلام دولة الإمارات : بلغنا الوزارة ، ولم نشاهد المكتبة ، فنزلت وسائق سيارة الأجرة في انتظاري لأستوضح عن موقع المكتبة ، ويظهر أنه خشي أن لا أعود إليه ، فطلب الأجرة ووعد بالانتظار ، ولعله استبطأني .

لقد عرَّجت على أقرب مكتب يلي الباب ، فوجدت فيه سيدة تطالع أوراقًا، وضعتها وردت السلام ردًّا حسنًا، فذكرت لها أنني من طلبة العلم من غير أهل هذه البلاد ، وأريد معرفة شيء عن تاريخها ، وقد توهمت أنني لا أجد ذلك إلا في (المكتبة العامة) وأنتم موظفو (وزارة الاعلام والثقافة) أعلم الناس بهذا ، فقالت : سأرشدك إلى من يفيدك ، ثم كتبت في ورقة صغيرة (الأستاذ محمد

خليفة مدير التوثيق الاعلامي) وأشارت إلى مكتبه في الدور الأول ، فشكرتها بعد أن عرفت أنها من مصر من الشرقية تدعى السيدة إجلال ، ثم قابلت الأستاذ محمد خليفة خارجًا من مكتبه، ولكن الرجل الذي ذهب معي ليرشدني إليه أشار إليه وقال له : هذا يسأل عنك ، فعاد إلى المكتب ، وبعد حديث بيننا عرفت منه أنه درس في (برايتون) في بريطانيا ، وأنه يعرفني مما قرأ لي في الصحف السعودية ، ومن ذالك ما كَتَبْتُ حول توقف مجلة « العرب » وأبدى لي سروره بهذا الاجتماع ، وتمنى أن في استطاعته إمدادي وإرشادي بما - أو بمن - أستفيد به أو منه ، إلا أن ماحادثته عن رغبتي بمعرفته لا يوجد لديه عنه شيء . ثم اتصل بالهاتف بانسان عرفت - فيما بعد أنه مدير الثقافة في الوزارة الأستاذ عبد الوهاب الرضوان ، ويظهر أنه ذكرني عنده ، وكأنه يريد من الأخ المجيء ، ولعله كان مشغولاً (لعل له عذر ...) فاكتفى بأن كتب إليه تعريفًا بي، راجيا منه مساعدتي، وانتهت المقابلة بالاعتذار بأن ما وضع من دراسات ومعلومات عن موقع (تؤام) يوجد في بلدة (العين) وهذا كتاب إلى وكيل دائرة الآثار هناك ملخصه : (طرفكم ... يرجى مساعدته في الحصول على بعض المطبوعات عن الآثار) . كما قدم لي نسخة من كتاب « المفَصَّل في تاريخ الإمارات » قلت له : لعلكم تحتاجونه فعندي منه نسخة ، ففهمت منه أنه يفضِّل أن آخذَهُ، إذ قال : هذا للتوزيع .

إن سيارات الأجرة من أكثر ما رأيت في مدينة (أبي ظبي) ، وتقدير الأجرة بالعداد ، ولكن يُضَايق المرء جهل السائق اللغة العربية ، وهكذا كان مع من ركبت سيارته ليرني معالم المدينة ، ويسير بي في شوارعها وشواطئها ، مما بهرني جمال ما شاهدته منها ، بخلاف ما توقعته .

لا أدري لماذا أحسست بأنني بحاجة إلى التوقف فجأة بعد زيارتي وزارة الاعلام

والمرور عابراً ببعض مكاتب موظفيها من الشباب ، لأسجل بعض الخواطر الذهنية :-

أولها : أنني أدركت أن زمن أبي الفتح البُسْتي (علي بن محمد بن الحسين) القائل :

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنَّفسِ لا بالجسم إنسان

هذا الزمن قد تولى منذ ألف عام (توفى الشاعر سنة ٤٠٠هـ) وأصبحت الحالة الآن بضدٍّ ما كان يراه ، وبضد المثل : (الرجال مخابر لا مظاهر) .

ثانيتها : شاهدت بعض الإخوة من بلاد غير هذه البلاد يتولون في بلادنا أو في بلاد إخوتنا أعمالاً يديرها شباب هم أقل ثقافة ومعرفة وتجربة منهم ، ولا أدري أيدرك هؤلاء الذين يديرون تلك الأعمال أن لأولئك الإخوة من حق الإجلال والتوقير والإحترام ما لغيرهم ممن لا يتولى شيئا من الأعمال ؟! فلماذا لا ينظر هؤلاء الرؤساء إليهم نظرتهم إلى أولئك ، بل لماذا لا ينالون - لمنزلتهم العلمية ، ولقيامهم بأعمال هم أقدر منا على القيام بها ، ولكونهم غرباء بيننا - ما هم جديرون به من التقدير والاحترام ؟!

الثالثة : حين وقف بي سائق سيارة الأجرة على أحد أبواب مبنى وزارة الإعلام ودخلت ذلك المبنى وكان حديثًا لم يُنْزَلْ بعد ، سرت في أبهائه الواسعة ، ومررت بالدهاليز المستطيلة الممتدة بين تلك الأبهاء ، فلم أشاهد داخل ذلك القسم من المبنى إنسانًا، وكدت أن لا أهتدي إلى الباب الذي دخلت منه ، وبعد أن خرجت شاهدت بابًا آخر للمبنى ، فوجدته مغلقًا، فاتجهت إلى باب ثالث تقف عنده سيارات ، فعلمت من أحد الواقفين عندها أن المدخل إلى البناية هو من الشارع الآخر .

حسنًا بأن تتسع المباني وأن تكون على درجة من الحسن والقوة يتلاءَم مع ما

يجب أن تبرز به الدولة من أبهة وهيبة ، ولكن التغالي في تشييد المباني الواسعة ، والزيادة على قدر الحاجة وإن كان من الأمور التي أصبحت من أبرز مميزات هذا العصر ، لا أعتقد أننا بحاجة إليه ، لا سيما بعدما أدركنا أننا قد بذلنا فيه جانبًا من ثرواتنا ، كنا أحوج إلى صرفه في جهات أخرى أنفع لنا .

إلى مدينة العين : ثم بكرت في الصباح – صباح يوم الأحد ١٤/٣/١٤٠٧– إلى موقف السيارات التي تذهب إلى العين ، وفي حافلة تضم خمسين راكبًا كان الذهاب في الساعة السابعة والربع ، والأجرة سبعة دراهم – كالأجرة من الفندق إلى موقف السيارات ، والمسافة بين العين وبين (أبي ظبي) ١٦٥ كيلاً .

لقد كان الطريق كبطن الكف الأملس ، في أرض سهلة منبسطة ، إلا من بعض كثبان الرمال المرتفعة في بعض الأماكن ، ولا سيما بقرب العين ، ولكن الطريق يخترق فجوات واسعة بينها ، وكان مشجَّرًا من الجانبين ، ويحيط بجوانب منه شجر كثيف ، لعله غرس ليحميه من الرمال ، كانت السيارة الكبيرة تترنح وتهتز بقوة ، لسرعة سيرها، إلا أن اشتغالي بالحديث مع جاري خفَّفَ آثار ذلك الاهتزاز، إنه مصري يدعى أحمد الدردير ، من جرجا محافظة سوهاج بمصر، من المساعيد، عاش في هذه البلاد سبعة عشر عامًا يعمل في البناء ، ويذهب كل عام إلى بلاده ثم يعود ، ليس متعلمًا ولكنه ذكي ، وقد خبر طبيعة أهل هذه البلاد فتكيف بما يلائم الحياة فيها .

بعد أن قاربت الساعة (٨,٤٠) وقفت بنا السيارة عند بناء صغير ، كتب فوقه (مطعم ومقهى فلسطين) فانتشر الركاب خلفه لقضاء حوائجهم ، إذ لا دورة مياه فيه ، ولكن على الطبيعة الأولى في الخلاء، والاستجمار بالتراب ، مما ذكرني حالة مدينتي الخبر والدمام – عام قدمتهما ١٣٦٣ – وحين كان بنيان البيوت من السعف والبواري ، فكان المرء في الصباح يشاهد (العدامة) التي بقرب المدينة والتي أصبحت فيما بعد من أرقى المحلات – تشاهد كأن أسرابا من الغربان قد

انتشرت فيها ، وما ذلك سوى السيدات !!

وبعد شرب الشاهي وغيره من المشروبات خلال مدة لم تزد على ربع الساعة ، استمر السير ، وكان الوصول إلى بلدة العين الساعة التاسعة والنصف ، ثم الاتجاه إلى مقر فرع وزارة الإعلام ، فوجدت القائم بالعمل مشغولاً حتى عن رد السلام، بالتحادث مع بعض الجالسين عنده ، حتى أشار إليَّ سائلاً : ماذا أريد ، فسارع أحد الإخوة بجواب فصدمني ودفعني إلى الانصراف عنه، لأسأل رجلاً جالسًا عن يميني، يلبس لباسًا افرنجيًا : ممن الأخ ؟ لئلا يمتد الحديث بيني وبين ذلك المجيب ، فعرفت أنه من الأردن ، تخرج في جامعتها ويدعى فلاح عبد الله ، وهو موظف في وزارة الإعلام ، مراقبة المطبوعات - وحين اطلع على عنوان الكتاب الذي أحمله أخبرني بأن الموجه إليه في (إدارة الآثار) وعرف الأخ القائم بعمل فرع وزارة الإعلام بي ، فدعا بالقهوة ، ورحب بي ، وكان أن اتجهت إلى (متحف العين) وهناك قابلت الوكيل المساعد الأستاذ سيف بن علي الضبع الدرمكي ، والأخ خلفان - مدير الآثار - وبعد البحث معهما عن موقع (تؤام) لم أجد لديهما علما به ، ودعا الأستاذ سيف أحد المشرفين على إدارة المتحف وهو الأستاذ صلاح سليمان من السودان ، متخرج في جامعة الخرطوم ، ليقوم بإطلاعي على ما يحويه المتحف من آثار في مختلف أقسامه ، وأن يقدم لي نسخة مما نشر عن تلك الآثار ، فكانت جولة قصيرة ، إذ لم أر - فيما اطلعت عليه - ما يضيف جديداً لمعرفة ما أبحث عنه ، سوى ما في ذلك الكتيب الذي قدم لي نسخة منه وعنوانه (الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة) ويظهر أنه يتكون من أجزاء ، وأنه بشكل مجلة دورية ، قدم لي منها جُزْءَيْنِ - لعل أحدهما الأول فلا رقم فيه ولا تاريخ له ، أما الثاني فقد كتب فوق غلافه (العدد الرابع : ١٩٨٥م) .

ومدينة العين - كغيرها من المدن في (الإمارات) أكثر من يشاهد فيها ممن

تميزه سحنته ولكنته في الكلام ، جلهم من الهنود والباكستانيين والإيرانيين ، وقليل من المصريين واليمنيين والشاميين والسودانيين ، ويتعاطى كثير من هؤلاء وأولئك مختلف الأعمال .

وشوارع البلدة نظيفة وواسعة ، وأكثرها مشجر ، وتكثر فيها الميادين المزدانة بالأشجار ، ويحيط بالبلدة حدائق من جميع جوانبها ، وقيل لي : إن فيها ثمانية أفلاج تسقي القرى التابعة لها ، منها اثنان في العين نفسها ، ولكن الماء فيها انخفض مستواه وضعف .

ومما لفت نظري أن إشارات المرور للمشاة في الشوارع تُضِيْءُ باللون الأحمر دائمًا ، وإذا أراد المشاة قطع الشارع غيَّروا النور ، فقد كتب تحت الإشارة الكهربائية : (اضغط الزر لتعبر) .

ولوقوع البلدة في براح واسع من الأرض لا تحدُّه جبال ولا بحر ولا آكام – اتسعت أرجاؤها ، وتباعدت منازلها ، كمدينة أبي ظبي وغيرها من أكثر مدن الإمارات ، وعلى مرآى من العين من البلدة سلسلة جبال تدعى حَفِيت – سيأتي الحديث عنها – ويقع متحف العين في ناحية من المدينة ، متصلة في البساتين، في بناء حديث يتكون من طابق أرضي ، وفي جانبه قصر مبني على طراز القصور المعروفة في نجد إلى عهد قريب ، يحيط به سور مرتفع ، ذو شرفات ، في أحد أركانه الأربعة برج مستدير ، ويدعى هذا القصر (حصن سلطان) والحصن الشرقي ، وهو مبني على الطراز العماني ، أول من بناه الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ، ومكتوب على بابه تاريخ عمرانه سنة ١٣٢٨هـ :

لاح نجم السعد في باب العلا   مجده باق على رغم المعاند
شاد بيت الملك سلطان بن زايد   أشرق التاريخ باليوم السعيد

– هكذا ورد في مجلة " الآثار " المنشورة في سنة ١٩٧٥ م – إذ لم أستطع

قراءة الكتابة –وقد رممت إدارة الآثار هذا القصر .

وفي هذا المتحف – المكون من أربعة أبهاء عدا حجر الموظفين – مجموعة من المعروضات من الملابس والحلي والأواني المنزلية والأسلحة ، وسرج الخيل ورحال الإبل ، وبعض الصناديق الخشبية ، وكلها حديثة ، أما الآثار القديمة فأهمها الأواني الخزفية وقطع معدنية مختلفة ، جمعت من العين ، وأم النار ، ودبي ، والشارقة ، وأم الْقَيْوَيْنَ، ورأس الخيمة ، أقدمها تاريخًا يرتفع إلى الألف الخامس قبل الميلاد ، وليس في المتحف آثاراً عربية قديمة مهمة ، وقد أنشئ قبل خمسة عشر عامًا (افتتح في ٢ / ٩ / ١٩٧١م) .

في بلدة البريمي : إن من المتواتر بين المتأخرين أن بلدة (تؤام) القديمة تقع في المنطقة المعروفة الآن باسم العين – البريمي ، فقد ذكر السالمي في " تحفة الأعيان "(١) أن منطقة الجوِّ معقِلُها البريمي ، وتسمى في القديم تؤام ، وفي " دليل الخليج "(٢) واحة البريمي .. واحة هامة ، تعرف سابقًا باسم توامية (tuwamiyah)ولكن هذا الاسم بطل استعماله الآن . وفي الكتاب الذي أصدرته حكومة المملكة العربية السعودية عن قضية البريمي(٣) : هناك موضعان في المنطقة معروفان من زمن قديم، وهما البريمي وبينونة، وقد ورد ذكر البريمي باسمها القديم (توام) أو (تُؤَام) في القرن الثالث الهجري ، بينما ورد اسم بينونة في "معجم البلدان" ... والاسم القديم لمنطقة البريمي هو الجو ، (أو الجوف؟) انتهى .

ولقد أكَّدَ لي الأمير الدكتور سلطان بن محمد القاسمي – أمير الشارقة – أن (تُؤَام) هي العين، وأن فيها مستشفى أنشئ، حديثا يحمل اسم (مستشفى تؤام) كما ورد في كتاب "المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة " في مواضع منه أن بلدة تؤام هي مدينة البريمي الحديثة – والبريمي والعين لا فاصل بينهما، فليكن

(١) ٢ / ٢٤٨.	(٢) ٣٧١.	(٣) ص٩٨ هامش.

الذهاب إلى البريمي، وقد لا أعدم في مدرستها من يُعْنَى بتاريخ هذه البلاد.

لقد بلغت الساعة الواحدة ظهراً ، وها هي إشارة توضح انني في البريمي في أثناء أحد الشوارع المتجهة شرقًا، إنها لوحة كتب فوقها (السلطنة العمانية – ولاية البريمي ترحب بكم) وها هو طراز بناء البيوت قد تغير بما تغلب عليه البساطة، ويشبه كثيراً ما يشاهد في بلاد عمان مما هو أقرب إلى الطراز العربي القديم .

وها هي المدرسة في مبنى حسن ، لا مظهر للأبهة فيه، ولكنه حسن الترتيب من طبقة واحدة ، في حجر واسعة، محاط بسور ذي باب واحد ، وادخلني البواب على المدير، ولكنني وجدته فتاةً يحيط بها ثلاث سيدات، فقلت: لعلي لم أخطئ أنا وإنما الخطأ من (بوابكم) الذي أدخلني في حجرة المدير، فقالت الفتاة : نعم أنا المدير، فماذا تريد ؟ فأوضحت لها ما قصدت ، فقالت : مدرس التاريخ الآن في الفصل، وكل ما تريد أن تسأل عنه يمكنك الذهاب إلى (وزارة الثقافة) في مسقط، فأظهرت لها بأنني سأنتظر خارج المدرسة، وكل ما أطلبه إخبار المدرس برغبتي بمقابلته، فردَّت ردًّا يتسم بالقوة والصرامة بأنه لايمكن لأي أحدٍ هنا أن يجيبك على أي سؤال، وأن ذلك من اختصاص (وزارة الثقافة)، ولا يسمح لمدرس التاريخ ولا غيره ... وبدت مُنْفَعِلة، وإن تكلفت اللطف بمخاطبتي بكلمة (يا أبي)!.

وهكذا كانت مقابلة مدير المدرسة التي عرفت – فيما بعد – أنها من عُمَان ، وتعلمت في المملكة العربية السعودية ، وكان وقت تدريس الأبناء قد انتهى ودخل وقت تدريس البنات ، كحالة كثير من المدارس في عمان ، لقلة الأبنية المعدة للدراسة ، ولقلة المدرسين ، فهم يتولون – في الغالب – تدريس الجنسين عند نقص المدرسات .

لم أعد – كما يقال – بخُفَّي حُنَينٍ ، بل شاهدت كثيراً من معالم مدينة البريمي الحديثة، بنايات ذات طراز يوشك أن يكون متميزاً ومصارف (بنوك) ومطاعم ،

ودوائر رسمية ، ثم سوق شعبي مسقف ، يشاهد فيه المرء ما يشاهده في الأسواق الشعبية المتشابهة في المدن العمانية ، ويندر أن تشاهد بين منازل هذه البلدة الواسعة أثراً للعمران القديم إلا ما كان داخل بعض بساتين النخيل القليلة ، مما هو مبني بالطين واللبن كمباني البيوت في نجد قبل نصف قرن .

ثم كان الرجوع إلى (أبي ظبي) بعد تناول طعام الغذاء في (مطعم جُحَا المصري) وكان وجبة دسمة لم يزد ثمنها على اثني عشر درهماً .

ومع أن سيارة الرجعة كانت صغيرة ، إلا أن السير استغرق ساعتين إلا ربعًا - سيرا متواصلاً لم يقطعه سوى الوقوف عند حجرة كتب فوقها (مطعم واستراحة بلودان) وهي كالموضع المتقدم وصفه في المجيء.

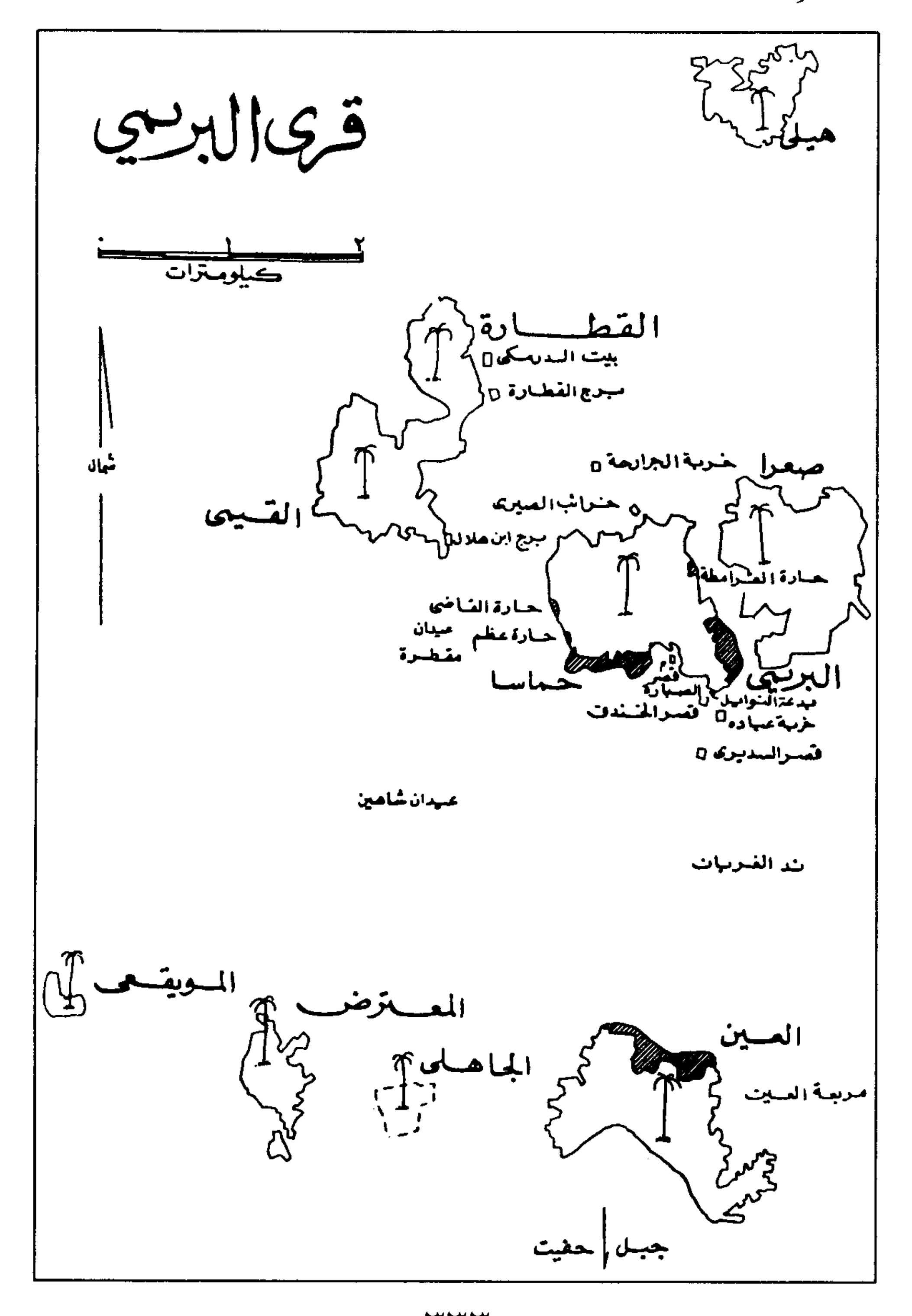
وها هي لمحة موجزة عن واحة البريمي التي وقع الاختلاف بين حكومتنا وبين بريطانيا حولها حين كانت مسيطرة على تلك النواحي، وكان من أثر ذلك نشر كتاب مفصل حول (التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية) نشر هذا الكتاب سنة ١٣٧٤ (١٩٥٥م) في ثلاثة مجلدات ملحقة بالرسوم والمصورات الجغرافية وفيها ما يغني عن التفصيل .

وقد انحسم ذلك الخلاف - ولله الحمد - بعد أن استقلت دولة الإمارات وأصبح جميع الإخوة المتجاورين تجمعهم روابط المحبة والائتلاف ، وحسن الجوار، والتعاون على ما فيه خير أمتهم وبلادهم .

إن اسم البريمي كان يطلق على واحة صغيرة تقع في مثلث من الأرض يبلغ طوله نحو عشرة أكيال ، وعرضه نحو سبعة ،وفي وسطه تقع قريتا البريمي وحماسا ، وتنتشر قرى وبساتين صغيرة في الجوانب الأخرى من المثلث ، ولا تزال أطلال قصر الخندق الذي أقامه الأمير مطلق المطيري الذي كان أميراً للبريمي في عشر الثلاثين بعد المئتين والألف وقتل سنة ١٢٢٨ ، أو أن هذا القصر بناه ابنه سعد سنة ١٢٦٠، لنزوله فيه حين ذهب إلى البريمي مصحوباً بأحمد السديري أمير الأحساء سنة ١٢٦٩ .

وكذا قصر السديري المنسوب إلى الأمير أحمد بن محمد السديري أمير البريمي في عهد عبد الله بن فيصل سنة ١٢٧٠ – وهو القصر الواقع بقرب قصر الخندق، ولا تزال أطلال القصرين قائمة .

ومع هذا مصور جغرافي لموقع البريمي قبل خمسة وثلاثين عامًا كما رسم في الكتاب المشار إليه.



أما الآن فقد اختلف الوضع بحيث اتسع عمران بلدة العين فشملت ما حولها من القرى، وكذا الحال في بلدة البريمي إلا أنها لم تبلغ من العمران ما بلغته بلدة العين.

في مدينة (أبي ظبي) : تعد مدينة (أبي ظبي) قاعدة الإمارات – أحدث مدينة فيها ، فزمن الاستقرار في موقعها لا يتجاوز القرن الحادي عشر ، بل يحدده صاحب كتاب " المفصل في تاريخ الإمارات " بعام ١١٧٥هـ (١٧٦١م) إذ يقول[١] ما ملخصه: في هذه السنة (١١٧٥هـ – ١٧٦١م) تم إكتشاف الماء في جزيرة (أبو ظبي) ، وأخذت جماعات من بني ياس بالهجرة من منطقة الظفرة الصحراوية لتقطن في هذه الجزيرة البحرية ، وبدأت تمتهن مهن البحر ، كالغوص وتجارة اللؤلؤ ، وصيد الأسماك ، وصناعة السفن ... عرفت هذه الجزيرة – التي كانت تفصلها عن البحر مخاضة يقطعها البعير ماشيًا في ساعات الجزر – عرفت باسم (أم ظبي) وقيل : إن سبب التسمية أن صياداً طارد ظبيًا فيها ، فلما أدركه وأمسك به كان الصياد والظبي قد تعبا وعطشا فذهب الصياد بالظبي إلى بئر فوجدها جافة ، فهلك الإثنان على البئر . انتهى ، وفي كتاب " دولة الإمارات العربية دراسة مسحية شاملة "[٢] في تعليل التسمية : ويقال أن هناك جزيرة فيها ظباء كثيرة . انتهى ، ولا أرى في القولين ما يقنع الباحث عن الحقيقة. قد لا يَعْني القارئ تعليل التسمية ، وإنما المهم معرفة تاريخ سكنى الجزيرة وتقديم بيانه ، وهي – كما يشاهدها المرء – رأس من الْبَرِّ، ممتد في البحر ثم يتسع ليشكل شبه جزيرة صغيرة ، تنتشر حوله جزائر (أرخبيل) ، أما المدينة الآن فقد نشأت ممتدة حول ذلك الرأس الذي حفر حتى بلغ عمق البحر ، فأصبحت مدينة أبي ظبي تحل جزيرة يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، وهي بشكل مثلث مساحة قاعدته نحو عشرة

---

(١) ج١ ص٢٠٨.　　(٢) ص ٤٧.

أكيال ، وضلعاه يتلاقيان عند جسرين يدعى أحدهما جسر المقطع ، في موقع الرأس الذي كان مدخلاً للجزيرة عند الجزر ، قبل تعميقه ، ومن المعروف أن الأرض القريبة من البحر تؤثر فيها ملوحته فتصبح غير قابلة للزراعة ، ولغرس كثير من أنواع الأشجار ، ولكن المرء يعجب حين يلقي نظرة على هذه البلدة الواسعة ، فيراها غابة مخضرة بأنواع الشجر ، وما ذلك إلا للجهد العظيم الذي صرف لتبرز بتلك الصورة الجميلة ، ولاتصال هذه المدينة بالأرض البراح الخالية من الجبال والآكام انتشرت في مساحة فسيحة ، فتباعدت مبانيها ، واتسعت شوارعها ، واستطالت ، تتخللها الحدائق الجميلة ، وتنتشر على جوانبها الأشجار الباسقة حتى برزت من أجمل المدن في العالم وأوسعها .

وكانت مدينة أبي ظبي تعتمد فيما تحتاجه من مياه على آبار سبعة عميقة ، حفرت في منطقة سعد ، في واحة البريمي ، تنتج في اليوم ٤٠٠ ألف جالون ، وتجري في أنابيب بسعة تسع بوصات ، ممتدة نحو المدينة مسافة ١٤٠ كيلاً ، إلا أن انخفاض مستوى المياه في تلك الواحة جعل الاعتماد على محطات أنشئت لتحلية مياه البحر ، ومع ارتفاع تكاليف التحلية فالعناية عظيمة بحدائق المدينة ، وتجميل شوارعها بالأشجار والحدائق ، التي يُسْتعان على سقيها وإصلاحها بالمياه المستعملة (مياه المجاري) بعد تكريرها ، فيستفاد منها ريًّا وسماداً .

ويبلغ سكان مدينة أبي ظبي حسب إحصاء سنة ١٩٧٥م : ٢١٠,٢٧٠ نسمة، نسبة الأجانب ٧٣٪ على ما في كتاب " دولة الإمارات " الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – ص١٩ – بينما كان عددهم سنة ١٩٦٨ : ٤٦,٣٧٥ ونسبة الأجانب ٥٢ ٪ ، إلا أن النسبة زادت حتى بلغت حدًّا مذهلاً في السنوات الأخيرة، بحيث لم يزد عدد السكان الأصليين في دولة الإمارات على ١٨٪ – على ما حدثني الأستاذ محمد بن يوسف

السويد ، الذي يقوم بإعداد دراسة شاملة عن (مجلس التعاون) لنيل درجة الدكتوراه ، وقد اجتمعت به أثناء مروري بمدينة (أبي ظبي) .

في السفارة السعودية : كان لا بُدَّ من زيارة (السفارة) ولكي لا أكون عبئاً ثقيلاً على إخواني من موظيفها ، بل لكي لا أثقل كاهلي بما يغدقونه عليَّ من فضل ورعاية قد يعجزني القيام إزاءهما بما يجب عليَّ من شكر - ذهبت حين قرب موعد السفر في صبيحة يوم الثلاثاء (١٦/٣/١٤٠٧هـ) فاجتمعت بالإخوة محمد بن عبد العزيز بن مقرن - من شقراء - وعبد الله العيسى من الغاط ، وغيرهم ممن لم أحفظ أسماءَهم ، أما السفير الشيخ صالح السليمان الفوزان فكان في حفل افتتاح (الحلقة التاسعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية) ، وبعد الأنس بأولئك الإخوة ، كان الذهاب للشيخ أحمد بن عبد العزيز آل مبارك[١] - رئيس المحاكم والدوائر الرسمية- فقد علمت بتأثر صحته وأنا في مسقط ، وتربطني به وبأسرته الكريمة وبوالده الشيخ عبد العزيز - رحمه الله - معرفة ومحبة، منذ أن كنت في الأحساء سنة ١٣٥٨، وقد أجتمعت بالشيخ أحمد في الرياض قبل شهور، فاكرمني بأن دعاني للزيارة وكان عليَّ أن أقوم بذلك بعد أن وصلت هذه البلاد، وبعد الوصول إلى منزل الشيخ قيل لنا أنا والأخ الأستاذ محمد المقرن إنه الآن مرتاح ، فاكتفيت بكتابة ورقة أدعو له بتمام الراحة المقرونة بالصحة والعافية ، ويظهر أن الأخ الذي استقبلنا لم يخبر الشيخ أول الأمر - كما عرفت فيما بعد - .

ذهبت مع الأخ الكريم محمد بن مقرن إلى (المجمَّع الثقافي) حيث تقع (دار الكتب) فعرفني الأستاذ ابن مقرن بأحد كبار موظفي (المجمع) الذي سار بي إلى بهو الاجتماعات ، حيث ستفتتح في تلك الساعة (الدورة التاسعة لمراكز دراساتَ الجزيرة والخليج) ، وقد شارك فيها مدعوون من جميع البلاد التي فيها مراكز تلك

---

(١) توفي رحمه الله سنة (١٤٠٩هـ).

الدراسات ، كالعراق والكويت والمملكة – عن (دارة الملك عبد العزيز) – ولكنني أخبرت الأخ بأنني أرغب زيارة (دار الكتب) فدعا أخًا وأرشدني إلى موقعها المجاور لمكان الاجتماع ، فكان استقبالاً كريمًا من إخوة جهلت الآن أسماءهم ولكن ذكراهم الطيبة لن تزول من نفسي ، ومنهم الأستاذ الكريم مدير الدار ، الذي أفضل فأمدني بمجموعة طيبة من المؤلفات التي تتعلق بهذه البلاد ، تاريخًا وأدبًا ودراسات شاملة ، وهو من أحبتنا واخوتنا المصريين .

حين عدتُّ إلى الفندق اتصل بي – بالهاتف – الشيخ الدكتور عبد العزيز بن محمد الحُمَيْر – بضم الحاء وفتح الميم وتسكين المثناة التحتية وآخره راء – وهو من رجال القضاء ، ومن خيرة العلماء خلقًا وإدراكًا وتواضعًا – نال إجازة الدكتوراه من (معهد القضاء العالي) وبلاده الخرج ، وقد ندب للعمل في هذه البلاد منذ خمسة عشر عامًا – اتصل بي فأخبرني أن الشيخ أحمد تأثر حين علم بزيارتي ، وهو يود أن يراني ، فتركت تحديد الوقت للشيخ نفسه ، فكان أن اتصل بي الدكتور عبد العزيز مرة أخرى محدداً الساعة السادسة والنصف ، وبعد برهة اتصل بي الشيخ أحمد –أكرمه الله – وأسبل عليه لباس الصحة والعافية – مؤكداً ومعتذراً عما جرى من الحاجب الذي لم يعرفني ، ولا يدرك رغبة الشيخ نفسه .

كانت الزيارة والاطمئنان على صحة الشيخ والأنس برؤيته ، والاجتماع بإخوة أحبة منهم الدكتور عبد العزيز الحمير ، والشيخ عبد الله بن ناصر – من المجمعة ومن قضاة المملكة الذين يعملون في هذه البلاد – وبابني الشيخ أحمد وابن أخيه الشيخ عبدالله .

كنت قد عزمت على السفر في يوم الخميس (١٨ / ٣ / ١٤٠٧هـ) وكان الشيخ صالح الفوزان حين علم من الأخ ابن مقرن بأنه قد دعاني على العشاء ، اتصل بي لكي يكرمني بالزيارة لأن الوزير السويدي وجه إليه دعوة للعشاء مع المشاركين في

(ندوة تاريخ الجزيرة والخليج) ، فكان الاتفاق على الاجتماع في السفارة صباحًا، وفي البيت للغداء ظهرا ، وكم قيل : من مأمنه يؤتى الحذر ، فقد وقع ما تحاشيت وقوعه ، ففي مساء ذلك اليوم كان الاجتماع في بيت الأخ محمد المقرن ، حيث سعدت بالالتقاء بجميع موظفي السفارة ، ومنهم مَنْ لم أقابله في الصباح كالأخ العقيد عبد الله الدايل – الملحق العسكري في السفارة ، وكنت قد اجتمعت به في (هيوستن) ، والأستاذ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن إدريس وهذا عرفته قبل سبع سنوات في إحدى زياراتي لمكتب وزارة الخارجة في الرياض ، ووالده –رحمه الله – كان ممن تعلمت على يديه مبادئ القراءة والكتابة في البرود، القرية التي ولدت فيها ، وذلك أعني التعليم سنة ١٣٤٠هـ، ومما انطبع في ذاكرتي من أخلاقه الهدوء ، وإطالة الصمت ، وقد علمت من ابنه – غفر الله له – أنه توفي سنة ١٤٠٢هـ – تقريبا – وقد تجاوز التسعين من سني عمره ، وهومن أسرة كريمة (آل غيهب) من بني زيد – من أهل شقراء ، ولقد كان ابن أستاذي بي حفيًّا ، بحيث أتى إليّ وقت السفر ، ولم يدعني – هو والأستاذ عبد المنعم – سكرتير سفير بلادنا الكريمة – إلا في داخل الطائرة ، وتوليا – رعاهما الله – إنهاء جميع جوازات السفر ولم يفترقا عني هما والأستاذ الدكتور عبد العزيز إلا في داخل الطائرة .

ومن بين من أكرمني ابن مقرن بالالتقاء بهم تلك الليلة السيد محمد الهاشمي – مستشار الشيخ زايد بن سلطان في شؤون القضاء ، وكان محدثا لبقا ظريفا ، يستحوذ على المستمعين بحلو حديثه . واستحسن أن أذهب في وقت يحدده للسلام على الشيخ زايد، فاعتذرت .

وكان اللقاء الساعة التاسعة صباحًا بأبي سليمان الشيخ صالح السفير في السفارة وبعد صلاة الظهر في البيت حيث ضم مع جميع موظفي السفارة –عددًا من الوجهاء من بينهم السفيران السوداني والعراقي ، والأستاذ عبد الله بن حمد

الحقيل - مدير (دارة الملك عبد العزيز) والأستاذ عبد الرحمن بن سراء مساعد مدير الدارة - وقد حضرا للمشاركة في اجتماعات (الدورة التاسعة لمراكز ودراسات الخليج والجزيرة العربية) وأحد كبار موظفي الإدارة الثقافية (المجمع الثقافي) في أبي ظبي .

ثم لا تسل عن حفاوة الداعي الكريم بضيوفه ، لا من حيث ما ضمت مائدته الحافلة مما لذ وطاب فحسب ، بل بما أضفاه من لطفه الأجم :

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

في مطار الظهران: في الساعة التاسعة والنصف من ليلة الخميس (١٨ / ٣ / ١٤٠٧هـ) كان النزول في مطار الظهران ، بعد رحلة استغرقت ساعة في الجو ، وما ألطف ذلك الأخ الذي كان يشرف على جوازات سفر القادمين ، لقد نسيت اسمه لكنه من قبيلة كريمة النسب من بني الأحمر (بالأحمر) من رجال الحَجْر، من أزد السراة ، لقد ذكرني بلطفه وحسن معاملته ما حدث لي من بعض الإخوة الساعة الحادية عشر من صباح يوم الجمعة (٥ / ٣ / ١٤٠٧) وأنا أريد التوجه من الرياض إلى الظهران ، فقد وضعت حقيبتي في صندوق الفحص ، ولما خرجت إلى الجهة الأخرى حملتها ، واتجهت إلى بهو المسافرين ، فإذا بذلك الأخ الذي ينادي بصوت عالي (يا مطوع . يا مطوع) فظننته لا يعنيني ، وإذا بآخر يلحقني ويمسكني من كتفي ، ويعود بي إلى الأول الذي انتهرني قاءلا : (افتح الشنطة) ! فكان أن فتحتها فرأى الأخ الواقف بجانبي جواز السفر فيها ، فأراد أخذه ، ولكنني أبيت وأخرجت له البطاقة الشخصية ، فذهب بها - ولا أدري أين ذهب بها - بينما أنا واقف جوار الجالس بقرب آلة الفحص أحادثه بأنه كان من الأَوْلى فتح الحقيبة قبل السماح بحملها ، ثم إن كلمة (مطوع) قد يُقْصَد بها معنى آخر غير المعنى المتعارف عليه في نجد ، ليس في داخل الحقيبة سوى كيسين

مملوءين بالأدوية التي استعملها كلها ، ومكتوب فوق كل زجاجة من الدواء اسمه ومصدره (مستشفى الملك فيصل التخصصي) وفيها أوراق خالية من الكتابة ، وليس في عمل هذا الأخ سوى إثارة التوتر، وشتى الانفعالات النفسية ، في حالة أحوج ما يكون المرء فيها إلى استقبال السفر مرتاح الذهن ، هادئ المشاعر - وما أشد الفرق بين معاملة الأخوين . ولله في خلقه شؤون !!

ملاحظة : كنت قد زرت بقية الإمارات (دُبَيّ) و(الشارقة) و(رأس الخيمة) و(عَجْمان) و(أم القَيْوَين) والفُجَيرة) ثم سلطنة عُمان، وانتهت بزيارة (أبي ظبي) إذْ منها تكون العودة إلى الرياض، ولكنني عند إعدادها هذا للنشر رأيت الْبَدْءَ بها، لأنها قاعدة تلك الإمارات، وها هو ما كتبته عن مشاهداتي .

إلى دُبَيٍّ : ومن مطار الملك خالد في الرياض كان إقلاع الطائرة في الساعة الثانية عشرة إلاَّ ثلثا صباح يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ (٧ / ١١ / ١٩٨٦م) ثم البقاء في مطار الظهران إلى الساعة الرابعة إلاَّ ثلثًا بعد الوصول في الواحدة . ووقت الانتظار مُمِلٌّ ولو قصر ، فكيف إذا كان المرء لا يجد خلاله ما يريح ذهنه ، وهكذا الحال بالنسبة لي لولا أن أخًا كريمًا من موظفي الخطوط حين سمعني أعتب على أحد موظفيها عدم تهيئة مكان لارتياح المسافرين إلى دبي ، ممن قَدِمَ من الرياض ، فلم يجد من يستقبله ، ذلك الأخ هو علي بن صالح آل قُريع اليامي من نجران ، فقد أجلسني في المكتب الذي يعمل فيه، وأكرمني بما يكرم به الضيف عادة، فارتحت في الجلوس ، وفي مبادلة الأحاديث مع الإخوة الحاضرين ، وكان عَلِيٌّ يعرف أخًا كريمًا من إخوتنا في نجران ، كان قبل سنتين يمد قراء " العرب " من المعلومات عن تلك البلاد بما يفيد ، من أنساب أهلها ووصف بلادهم ، هو محمد بن ذِيب المهَّان - بفتح الميم وتشديد الهاء المفتوحة وبعدها ألف فنون - وهذا اسم أسرة كريمة كثيرة الفروع ، عريقة النسب ، بارزة

الحسب في قبيلة يام الشهيرة. لم يدعني الأخ علي بن صالح حتى أجلسني بين المسافرين حين قرب موعد السفر ، بعد أن هيأجميع متطلباته ، فبه وبأمثاله من ذوي النبل وكرم الخلال تستقيم الأحوال ، وتحسن سمعة القائمين على المرافق الحيوية في البلاد.

لم تزد مدة الطيران إلى (أبي ظبي) على الساعتين ، ولكن الانتظار في الطائرة في المطار بلغت ساعة بحيث كان الوصول إلى مطار دبي بعد مضي ما يقرب من ست ساعات بينه وبين مطار الرياض ، ولكنها لم تكن مملة ، فقد كنت متفقًا مع الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز الخيال ، على القيام بتلك الرحلة ، فكان الاجتماع في الطائرة . وأبو فهد - رحمه الله - ممن عرف البلاد التي اتجهنا إليها حق المعرفة ، فقد أقام فيها سفيراً أكثر من عامين ، كان أول من افتتح السفارة السعودية في (أبي ظبي) بعد تنقله بين بغداد وواشنطن ومن (أبي ظبي) إلى (فينا) حيث طلب الإحالة إلى التقاعد ، بعد أن خدم بلاده ودولته نصف قرن من الزمان - من سنة ١٣٥٠هـ - موظفًا في المكتب الخاص لفيصل - رحمه الله - ثم في (مالية الرياض) حتى ألحق بالبعثة السعودية في القاهرة سنة ١٣٥٥هـ - وتخرج في (دار العلوم) بمصر سنة ١٣٥٩هـ - وتولى إدارة التعليم في الأحساء في المحرم سنة ١٣٦٠هـ ، وفي المحرم من سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤١م) عمل في وزارة الخارجية ، موظفًا في مفوضية بغداد ، فوزيراً مفوضًا ، فسفيرا في واشنطن والإمارات العربية ثم في النمسا حتى سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) (بعد أن مضى له في السلك السياسي ٤١ عامًا) .

ومعرفتي الأستاذ الخيال تزيد على نصف قرن من الزمان بعشر سنوات ، فقد تعارفنا وتصادقنا منذ عام ١٣٤٦هـ - حين قدمت مدينة الرياض في رحلتي الثانية إليها - لطلب العلم - فانضممت إلى الطلبة ، وكان الأستاذ الخيال أحدهم ،

وأذكر أن لوالده عبدالعزيز - رحمه الله - مدرسة تقع على حافة سوق (الصفاة) الموالية لمحلة الظهيرة، على جانب منحدرها من السوق الممتد إلى الجامع، وكانت تلك المدرسة - على ما علمت من الأستاذ عبدالله - قد أوقفها الإمام فيصل - رحمه الله - وعين جدَّ الأستاذ عبدالله - واسمه عبدالله مدرسًا فيها وكانت تعرف بـ(مدرسة فيصل) وآخر من تولى التدريس فيها الأستاذ صالح بن عبدالعزيز بن عبدالله الخيال، أخو الشيخ عبدالله، ومن بعده أحد آل مديميغ، وقد أزيلت، وموقعها بقرب المكان الذي أقيم فيه برج الساعة - شمال شرق (قصر الحكم) .

لأدع الحديث عن الصديق الأستاذ عبدالله الخيال لمناسبة أخرى[1].

مما أعجبني في مطار دبي سعته، وجمال بلاطه، فقد ذكرت وأنا أسير في بهوه الواسع جدا الصرح الذي أعد لاستقبال ملكة سباء : ﴿فلما رأته حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقيها، قيل : إنه صرح ممرد من قوارير﴾، ونور ثريات الكهرباء ينعكس بصفاء الرخام الأملس الصافي الذي بلطت به الأرض، فيزداد الموضع إشراقًا وحسنًا .

أما ترتيب مواضع حقائب القادمين فلم أر له مثيلاً فيما مررت به من المطارات الأخرى وما أكثرها!! - هناك لوحات طويلة معلقة، كتب في كل لوحة اسم الطائرة والجهة التي قدمت منها ورقم الرحلة - كتبت بصفة دائمة - وتحت تلك اللوحة تمر الحقائب أمام الباحثين عن أمتعتهم. عند النزول من الطائرة استقبلتنا إحدى موظفي الخطوط السعودية، وكان هذا بإشارة من الاخوة في مطار الظهران، ودعتنا الفتاة للاستراحة حتى أخرجت حقائبنا، فأفضل أحد الإخوة الذين عرفتهم في مطار الظهران أثناء جلوسي في مكتب الخطوط

---

(١) «انظر العرب» س٢٤ ص١٢٣.

بإيصالنا إلى الفندق في سيارة أحضرت له في مطار دبي، إنه الأخ يوسف بن عبدالعزيز المنصور من رجال المال من أهل المجمعة ، كان النزول في فندق (انتركنتننتال) ويعد من أفخم فنادق هذه المدينة ، وأجرة الغرفة ٣٣٧,٥ درهمًا - وهي تقارب مئة دولار .

والجو يميل إلى الحرارة ، فدرجة الحرارة المئوية وإن لم تتجاوز الثلاثين إلا أن حرارة الشمس لا تطاق بعد الساعة التاسعة صباحًا حتى الساعة الرابعة مساء ، وفرق التوقيت بين الإمارات وبين المملكة ساعة .

في القنصلية السعودية في دبي : كانت زيارة قنصلية بلادنا أول ما فكر فيه الأستاذ الشيخ عبدالله ، فقمنا بها في صباح يوم السبت (١٤٠٧/٣/٦هـ) والقائم بالعمل فيها هو الشيخ عبدالملك ابن الدكتور بشير الرومي ، وصلة المعرفة بينه وبين أبي فهد على درجة من القوة ، برز أثرها بما أضفاه من لطف وكرم ، حيث هيأ وسيلة التنقل إكرامًا بدون طلب ، وكرر الدعوة ، وأحسن الاستقبال والتوديع، بعد أن أمر أحد موظفي القنصلية من إخواننا من السودان بالقيام بجولة بنا في سيارته داخل مدينة دبي ، لمشاهدة أبرز معالمها .

هاهو (سوق مرشد) من أهم أسواق المدينة التجارية لبيع الأغذية بالجملة ، بحيث يغذي جميع الإمارات ، وتجارهُ ايرانيون ، أما سوق الذهب فللهنود والباكستانيين منه أوفر نصيب ، بل قل : إن أغلب الأعمال التجارية ليست في أيدي أبناء دبي باستثناء المصارف (البنوك) والفنادق ، وما أكثرها في هذه المدينة فلأمراء البلد وبعض تجارها ، هذا فندق (ريجنسي) الفخم للشيخ مكتوم ، وهذا (انتركنتننتال) و . . و . . للشيخ راشد - إلى آخر الأسماء اللامعة .

يظهر أن البلدة أنشئت في أول أمرها على خور من البحر (رأس) ممتد من الخليج ، وكانت ممتدة على شاطئ هذا الخور ، الغربي الجنوبي ، ثم توسعت حتى

بلغت الشاطئ الآخر ، الذي كان يعرف باسم (بَرَّ دُبَيٍّ) وهاهو نفق تحت هذا الخور يدعى (نفق الشندغة) بعد الشين المعجمة نون فدال مهملة فغين معجمة فهاء - ينفذ إلى جانب الخور المعروف باسم (بَرّ دبي) غير الطريق العام المتصل به عند انتهاء الخور ، حيث يقع أوسع جانب من مدينة دبي في هذا البر ، فهاهو (المركز التجاري) الذي يرتفع بناؤه أكثر من ثلاثين دوراً ، بمعارضه الواسعة ومساكنه الكثيرة التي تحلها أكبر الشركات العالمية ، وبعض قنصليات الدول الشهيرة ، وتدعى المنطقة (زعبيل) وفيها قصر الشيخ راشد .

وها هي منطقة (الجمَّيْرة) بعد الجيم ميم مشددة فمثناة تحتية فراء مهملة فهاء - حيث منازل الطبقة الراقية ، من قصور أمراء ، ودارات (فلل) أثرياء ومنازل كبار موظفين ، وهذه المنطقة من السعة بحيث تمتد على الساحل نحو عشرة أكيال أو أكثر ، وبامتداد الساحل من الرأس الواقع في وسط المدينة نحو ثلاثين كيلاً - ماراً بمنطقة (الجميرة) يقع (ميناء جبل علي) أكبر ميناء على الخليج ، أنشئَ في عهد الشيخ راشد المكتوم ، وفيه أحواض لإصلاح السفن الكبيرة .

وفي ميناء الخور الواقع وسط المدينة ترسو السفن الشراعية حيث تصل من موانئ البحر العربي أو البحر الأحمر .

ومن دبي تمتد الطرق المعبدة إلى أمهات مدن الخليج ، فالشارقة لاتتجاوز المسافة بينها وبين دبي عشرة أكيال بحيث أن العمران في المدينتين يوشك أن يتصل ، و(عجمان) نحو ١٧ كيلا ، وأم القيوين ٤٠ كيلاً، ورأس الخيمة ١٠٠ كيل ، والفجيرة ١٢٠ مئة وعشرون كيلاً ، والعين ١٣٠ كيلا، وأبو ظبي ١٦٧ كيلاً .

أما الحدود بين هذه الإمارات فمتشابكة بدرجة غريبة ، بحيث أنك قد تجد بلدة واحدة تشترك فيها إمارات ثلاث كالحال في بلدة (دبا) إذ يطلق هذا الاسم على (دبا الحصن) تابعة لإمارة الشارقة و (دبا البيعة) لسلطنة عمان ، و (دبا)

الفُجَيْرة ، وما هذه المسميات سوى بلدة واحدة ، ذات محلات (حلل) متعددة لاتتجاوز المسافة بين أبعدها عشرة أكيال في مساحة واسعة من الأرض.

ويجر الحديث عن التشابك في الحدود إلى الإشارة أنه كان من أثر ذلك وقوع خلاف بين إمارتي دبي والشارقة – فيما مضى – وقد زال في الأيام القريبة، حين قام أحد أبناء الشيخ راشد بزيارة حاكم الشارقة ، فأبدى كل جانب من التساهل وكرم النفس ما كان سببًا في حلِّ هذه المشكلة ، ومثلها خلاف بين إمارة الشارقة وسلطنة عمان على الحدود ، زال حين زار حاكم الشارقة الشيخ سلطان بن محمد القاسمي السلطانَ قابوسًا، وأظهر من سماحة النفس وكرم الطباع ما دفع السلطان لإزالة الخلاف ، بالتنازل عن مساحة الأرض ، ولكن هذا لا يزال معلقًا حتى الآن ، إذ لابد من أن يتم مثل هذا الأمر بصيغة قانونية بين دولة الإمارات وسلطنة عمان.

لم أر – فيما بين يدي من المؤلفات القديمة – ذكرًا لمدينة دبي ، وأراها أنشئت بعد ضعف (دبا) البلدة القديمة الممتدة إلى الساحل ، ومن هنا اشتق اسمها ، ومنازلها تنتشر شرق خور البحر وغربه ، في مساحة واسعة من الأرض ، منبسطة ، خالية من الجبال والآكام والمنخفضات ، ولهذا فالمباني متفرقة ، وليست مرتفعة أكثر من خمس طبقات باستثناء بعض الفنادق والمحلات التجارية، والمدينة ليست مهملة ، فهي معبدة الشوارع ، وشُجِّر أكثرها ، وتتخلل ميادينها حدائق صغيرة ، وفيها حديقة للحيوان واسعة في منطقة الجمَّيْرة، والشوارع تعرف بالأرقام لا بالأسماء التي قد تسمى بها بعض الشوارع مع ذكر الرقم ، وليست على درجة قوية من النظافة ، باستثناء أطولها الممتد من البلدة القديمة حتى منطقة الجميرة ، والشارع الموازي للخور حيث المرفأ في البلدة القديمة .

ويستغرب المرء قلة من يشاهده حين يمر بالأحياء التجارية من أهل البلد ، حيث يبدو السكان مختلفي الألوان والملابس التي يتميزون بها ، وأكثرهم من الهند

وبلاد فارس ، وفيهم من مختلف الأجناس . رأيت جنديًا يحرس محلاً تجاريًا كبيراً بقرب الفندق الذي أسكنه فسألته عن الطريق الموصل إلى النفق المخترق للخور ، ففهمت من لهجته أنه يمني، فبدهته بلهجة يمنية سائلاً عن اسم بلده ، بأجاب بإنه من سنحان من بلدة حمَّام دمث ، وعلمت منه أن كثيراً من أهل اليمن يعملون في الشرطة ، وقليل منهم يتعاطى الأعمال الأخرى .

وشاهدت كثيراً من الدكاكين والمنازل – في الأحياء القديمة – خالية .

ويلفت النظر كثرة المصارف (البنوك) في هذه المدينة وقلة الحركة حولها .

في (الشارقة) : في هذه الأيام يقام في مدينة الشارقة (المعرض الخامس للكتاب المعاصر) فكانت زيارته من المناسبات الطيبة ، ومدينة الشارقة يكاد يتصل عمرانها بعمران مدينة دبي ، أي بامتداد بضعة عشر كيلاً .

لقد أقيم المعرض في مكان خصص له، بقرب ديوان الحاكم الذي دعا لإقامته ، وبذل جهداً كبيراً لتشارك فيه جميع دور النشر والجامعات والهيئات العلمية ، في العالم العربي ، وهكذا كان .

بعد عصر يوم السبت (٦/٣/١٤٠٧هـ – ١٨/١١/١٩٨٦م) كانت جولة سريعة داخل المعرض ، وكان اللقاء ببعض إخواننا وابنائنا كالأستاذ مبارك بن عبدالله المبارك – الملحق التعليمي السعودي في دولة الإمارات العربية – وبعض الإخوة من المشرفين على معروضات الجامعات ورعاية الشباب في بلادنا .

لعل حاكم الشارقة الأمير سلطان بن محمد القاسمي ألمع شخصية بين حكام الإمارات العربية في ثقافته وعلمه وأدبه ، وقد واصل دراسته حتى نال درجة (الدكتوراه) وقد نشرت سنة ١٩٨٦م باللغة الانجليزية بعنوان : "THE MYTH OF ARAB PIRACY IN THE GULF" "خرافة قرصنة العرب في الخليج " ويعد هذه الدراسة للنشر باللغة العربية ، وهو ذو اطلاع واسع على

تاريخ هذه البلاد ، لديه خزانة كتب حافلة بمختلف الدراسات الحديثة عنها ، وله اهتمام بالاتصال بمراكز البحث خارج البلاد.

وأسرة القواسم الذين ينتمي إليهم الأمير سلطان ذات تاريخ بارز في الخليج، وكانوا من أوائل من ناصر الدعوة الإصلاحية السلفية التي قام آل سعود بنشرها، واستمروا على التمسك بها، حتى في عهد ضعف القائمين عليها، ولما أراد أحد سلاطين تلك الجهة أن يستغل جفوة وقعت بين أحد حكام الشارقة من القواسم وبين أحد ملوك آل سعود رفض الحاكم القاسمي ذلك قائلاً ما معناه : إن ما حدث بيننا هو من قبيل ما يحدث بين الابن وبين أبيه ، ولا تأثير له فيما نعتقده حقًّا، ونتمسك به دائماً .

وللأمير سلطان بن محمد القاسمي اهتمام قوي بنشر التعليم في إمارته لايتسع المجال للإفاضة في تفصيله .

ولقد كان للرفيق الكريم الأستاذ عبدالله الخيال من شؤونه الخاصة ما دعاه لمقابلة الأمير سلطان ، فحدثني عنه وعن سعة اطلاعه ، وعن محبته للبحث، ورغبته في مقابلة طلبة العلم ، ورآى الأستاذ عبدالله أن نذهب معًا الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين (٨/٣/١٤٠٧هـ - ١٠/١١/١٩٨٦م) حيث حدد هذا الوقت للمقابلة، فكان ذلك . وقد شاهدت من حسن استقبال الأمير ماملأ نفسي غبطة وانشراحًا، ورأيت من تواضعه مالم أعهد مثله ممن له مكانة في السلطة والدولة كمكانته، وأدركت أنه على جانب كبير من الفضل والمعرفة بأحوال هذه البلاد، وانصرفنا من عنده بعد أن ودعنا خارج قصره الداخلي لسان الحال ينشد قول الشاعر:

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
ثم التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأبلغ مما قد رأى بصري

لقد كانت جلسة استغرقت ساعة كاملة - مرت كلمح البصر بإمتاعها ولطفها -والأمير يفيض في أحاديثه المتعلقة بتاريخ بلاده ، بل تتدفق تلك

الأحاديث العذبة التي تناولت جوانب مختلفة من ماضي هذه البلاد منذ العهد البرتغالي – القرن العاشر الهجري – فما بعده مما كان ذا عناية به ، وكان له لإتقانه اللغة الانجليزية من الاطلاع على ما ألف بها من المؤلفات – وما أكثرها – عن مختلف أحوال هذه البلاد ماامكنه من التعمق بمعرفة ما تحتويه تلك المؤلفات، ولعل من أشرها كتاب "GAZETEER PERSIAN GULF" تأليف J.G. Lorimr - ج.ج. لوريمر الذي عربه (قسم الترجمة في مكتب أمير قطر) باسم " دليل الخليج " في قسمين : تاريخي وجغرافي – كل قسم في سبعة مجلدات – .

وكان من حديث الدكتور سلطان عن هذا الكتاب أن مؤلفه سرد أسماء مصادره الكثيرة ، ولكن مما يصعب تصوره أنه لم يرجع إلى كثير منها ، أو أنه لم يكن على درجة من التعمق في فهم نصوص ما قرأ ليبني نتائجه على فهم صحيح لتلك النصوص ، وفي كتاب الدكتور سلطان مايوضح هذا الأمر المزري حقًّا ممن يتصدى لدراسة تاريخ بلادنا ، بمثل ذلك الأسلوب ، وقد لا يعدم من الباحثين من يثق بعلمه فيعتمد على آرائه ، وهذا لا يمنع من الاعتراف بالفضل لحكومة قطر بنشرها هذا الكتاب الذي كان ولايزال يعد أهم مرجع تاريخي– لا عن سكان الخليج العربي وحدهم – بل عن العرب في قلب جزيرتهم وشرقها في خلال أربعة القرون التي مضت – لكي يكون الدارسون على بينة بما يحوي مما لايتفق مع الحقيقة ، وليستفاد بما فيه من معلومات قد لاتوجد في غيره ، فهو من أوسع المراجع وأشملها ، وحسنًا لو أسندت تلك الحكومة أمر التعريب إلى علماء ذوي اطلاع ومعرفة تامة بالموضوعات التي طرقها المؤلف ، ليخلو من الهفوات الكثيرة التي غيرت المعاني بدرجة تحول دون الاستفادة منه في مواضع كثيرة– انظر مجلة "العرب" س ١٤ ص ٦٢٨ – .

واسم (الشارقة) يطلق على الإمارة وعلى قاعدتها التي تعد ثالثة مدن الإمارات المتحدة ، ولا ذكر لهذا الاسم فيما اطلعت عليه من المؤلفات القديمة ، مع أنه كشف في هذه المنطقة عن آثار ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، تدل على اهتمام البابليين والآشوريين والفرس واليونانيين والفينيقيين والرومانيين للسيطرة عليها لكونها تحتل مركزًا تجاريًّا هامًّا منذ القدم - كتاب "دولة الإمارات العربية"(١).

ويظهر أن اسم (الشارقة) ك (الباطنة) و (الظاهرة) المنطقتين في عمان - ذو صلة بصفة الموقع ، فهي تقع شرق الخليج بامتداد أكثر من عشرة أميال على ساحله، وتتوسط دولة الإمارات وتتصل بها بحدود مشتركة ، وتصل إلى الساحل الشرقي لخليج عمان، حيث تقع دبا وكلبا وخور فكَّان التابعة لها .

وقد أنشئت الشارقة قاعدة البلاد على خور - رأس الخليج العربي - ولهذا كانت في الماضي من أهم موانئه ، ثم نمت وانتشرت في الأرض البراح ، حتى أصبحت المدينة الثالثة في دولة الإمارات - بعد أبي ظبي ودبي - وخططت ضواحيها تخطيطًا حديثًا ، فازدهر فيها العمران ، وكثرت الميادين الواسعة ، واتسعت الشوارع وامتدت بطول المدينة ، ورصف ساحلها ، وأنشئ لها ميناء حديث في عمق البحر ، بحيث كانت ترسو فيه السفن الكبيرة .

وفي إحدى ضواحي المدينة يقع المطار ، ويظهر أن نزول الطائرات فيه ليس في كل وقت ، فقد مررت بقربه في طريقي إلى دبا فشاهدت الحركة فيه ضعيفة .

من أبرز ما شاهدته في المدينة الجامع الكبير الذي أمر بإنشائه الملك الشهيد -فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله- وكلف تعميره نحو أربعين مليون ريال، ويبدو بارزاً لمن يمر من أهم شارع في هذه المدينة ، على مقربة من ديوان حاكم الشارقة،

---

(١) ٦٩٧.

وبقربه أقيم (المعرض الخامس للكتاب المعاصر) في براح من الأرض ، أقيمت فيه خيام واسعة ، ونسقت أمكنة العرض تنسيقًا حسنًا ، بحيث خصص لكل دار نشر أو جامعة أو هيئة علمية المكان الملائم .

وتبدو مدينة الشارقة – لمن يتخلل شوارعها الرئيسة – على حالة من الهدوء ، ولا أدري هل يعود هذا لسعة شوارعها ، وتباعد مبانيها ، أو لحالة الركود الاقتصادي الشاملة .

بين دبي ودبا : دبا – بفتح الدال بعدها باء موحدة مفتوحة فألف – كانت قاعدة عُمَان في صدر الإسلام وهي (المصر والسوق العظمى) كما وصفها ابن جرير في تاريخه[١] ، فلماذا لا يبحث تاريخها ؟ .

لايزال الاسم يطلق على جهة معروفة ، فأين موقع المدينة التاريخية من تلك الجهة ؟.

لهذا كان الاتجاه من دبي إلى دبا صباح يوم الأحد (٧/٣/١٤٠٧هـ – ٩/١١/١٩٨٦م) مروراً بمدينة الشارقة ، ثم الاتجاه غربًا، وبعد مسيرة نحو ٢٠ كيلاً كان المرور بقرب مطار الشارقة .

وبعد مسيرة نحو ٥٠ كيلاً كان الوصول إلى منطقة الذَّيد – بالذال المعجمة بعدها مثناة تحتية ساكنة فدال مهملة – وهي منطقة خصبة تابعة لإمارة رأس الخيمة تنتشر البساتين فيها حيث يمر بها واد يعرف بهذا الاسم ، قامت عليه قرية الذيد ، وفيه تجود زراعة النخيل التي تسقى من فلج يبلغ طوله سبعة عشر كيلاً يتفرع الى فرعين ، وقد ضعف ماؤه كحالة مياه الأفلاج في هذه المنطقة ، وتبعد منطقة الذيد إلى الشرق من مدينة الشارقة بنحو ٥٠ كيلاً، وسكان المستوطنات في هذه المنطقة يقال لهم : الطنيج ممن ينضوي تحت لواء القواسم، ولا أعرف لهذا الاسم معنى .

---

(١) ٣/٣١٥.

وجاء عن وصف هذه المنطقة في كتاب "دولة الإمارات العربية المتحدة"[1] مانصه : (واحة الذيد تمثل منخفضاً واسعًا من الأرض تنتشر فيه البساتين والمزارع الكبيرة وتتميز الزراعة بأنها منظمة ومزدهرة ، وتكشف عن عناية كبيرة، ومعظم المزارع مسيجة بأسلاك حديدية أو بسعف النخل، كما أن البعض محاط بأشجار الكينا التي تستخدم كمصدات للريح . انتهى

وكانت المسافة التي قطعناها فيما بين الشارقة والذيد أرضا سهلة تتخللها كثبان رملية.

ومن الذيد كان الاتجاه إلى بلدة المسافي وتبعد عن الذيد ٢٣ كيلاً وقد مررنا بقرية صغيرة تركناها يسارنا تدعى (مربض) - بالميم المفتوحة بعدها راء ساكنة فباء موحدة فضاد معجمة - وذلك بعد أن توغلنا في سلسة من الجبال المرتفعة قبل أن نصل إلى المسافي.

والمسافي - الميم بعدها سين مهملة بألف ففاء مكسورة فياء - وهي من المراكز الزراعية في هذه المنطقة ، تقع على رأس واد يدعى وادي (حام) ينحدر من جبال الحَجْر العمانية ، وفي هذه المنطقة آبار ارتوازية يؤتى بالماء المعدني العذب منها إلى بلدان الإمارات.

وبعد بلدة المسافي اتجه الطريق إلى (دبا) يساراً شرقيًّا، حيث توغل في سلسلة من الجبال البركانية فيما يبدو من سواد لونها ، وتكثر بينها الشعاب الصغيرة التي تنتشر فيها أشجار الطلح والسلم.

ثم اجْتَزْنَا ثنية في السلسة الجبلية فبدأ الطريق بالانتحدار الشديد على جانب واد غائر ضيق ، حتى بلغنا قرية تدعى (الغدنة) - بالغين المعجمة بعدها دال مهملة فنون فهاء - تركناها ذات اليسار، سائرين على جانب هذا الوادي العميق

---

(١) ٥٦٤.

الغور، ونحن نشاهد على يسارنا حدائق ومنازل في شكل قرى صغيرة ، وهذا الوادي هو وادي (دبا) الذي تقع على ضفافه حلل دبا الثلاث ، ثم خرجنا من هذا الوادي يساراً داخل السلسلة الجبلية ، وبعد مسيرة خمسة أكيال انحسرت عنا الجبال، وبدا لنا على اليسار سلسلة أخرى من الجبال الشامخة ولكنها ليست سوداء اللون ، ثم بلغنا منبسطًا من الأرض يحف به من الجنوب الشرقي طرف من السلسلة التي اجتزناها، ومن الشمال الشرقي سلسلة الجبال الشامخة الحمر التي شاهدناها ، وبين هاتين السلسلتين منخفض مستطيل من الأرض يدعى (الفج) وهو يمتد إلى البحر ، ودبا تقع في هذا الفج ، وقبلها بخمسة أكيال مررنا بمصانع اسمنت الفجيرة ، ثم بالراشدية والمهلب ، وهما محلتان من محلات دبا ذات الأقسام الثلاثة ، دبا الحِصْن تابعة للشارقة ، ودبا البيعة تابعة لعمان ، ودبا التابعة للفجيرة ، وكلها حلل متقاربة والشرقية الموالية للبحر منها هي التابعة للفجيرة .

هذا الوادي الذي تقع فيه دبا يبلغ امتداده إلى البحر، أما سلسلة الجبال الشامخة اليسرى فقد انقطعت بينما استمرت اليمنى تماشينا في الاتجاه الشرقي نحو الفجيرة حتى بلغت البحر بقرب محل يدعى (رول دبا) وهنا برزت أمامنا في البحر صخرة عظيمة كأنها جبل صغير، فسرنا على الساحل بعد مجاوزة شاطئ دبا، وعلى مقربة من هذا الشاطئ تنتشر حدائق النخيل .

وكنا قطعنا في سيرنا من الشارقة حتى بلغنا محلات (دبا) ١٢٦ كيلاً في نحو ساعة وثلث .

كيف الاهتداء إلى الموقع القديم لبلدة دبا ، واسم دبا يشمل كل ما نشاهده من هذه القرى، في هذا الوادي الذي انحدرنا فيه منذ تجاوزنا بلدة المسافي ، والذي يمتد إلى شاطئ البحر ، ومواطن الاستقرار والحدائق تنتشر فيه ، إنه كما جاء وصفه في كتاب " الإمارات العربية "[١] : يدعى أعلاه (وادي الشمال) ويمتد من

---

(١) ٩٣.

شمال (المسافي) ويتجه شمالاً ستة أكيال، ثم ينحرف باتجاه الشمال الشرقي حتى بداية انفراج أرض الوادي ، ويستمر في الاتساع حتى دوحة دبا بعرض خمسة أكيال بعد أن يقطع سبعة عشر كيلاً ، فيبلغ امتداده ٣٣ كيلاً .

ومن مراكز الاستقرار فيه غير دبا : عجمية وطيبة وطيبان وعينية . هاهي المحلات المتفرقة التي يطلق عليها اسم (دبا) كلها حديثة العمران ولا آثار للقدم تبدو على أحدها ، فليكن الاتجاه إلى المدرسة فقد لانعدم من بين مدرسيها من يعنى بتاريخ بلاده .

وقفنا عند أقرب مدرسة تقع في أبرز تلك المحلات عمرانًا وأكبرها ، ولكننا وجدنا نوبة الفتيات في الدراسة قد بدأت ، فسألنا أحد الإخوة عن أكبر مدرسة في هذه البلاد ، فأشار إلى سلسلة الجبال الممتدة على ضفاف الوادي في شماله قائلا : (في اليبل وانتبه الطريق شرشر) أي إنها تقع في الجبل ، والطريق غير معبد ، لهذا يحدث الاهتزاز الشديد ، بعد أن قطعنا ثمانية أكيال في طريق تكثر فيه الصخور ، ويصعب السير فيه، وحيث أوشكنا أن نبلغ الجبال ، بعد منحدر من مجرى الوادي بلغنا المدرسة ، وتدعى (مدرسة عقبة بن نافع) .

كانت استراحة قصيرة مع تناول (فنجان) من القهوة المرة ، وحديث قصير مع ناظر المدرسة الأستاذ عبدالقادر ذياب من غزة ، ومع غيره من المدرسين من مصر وفلسطين ، ولم نر بينهم أحداً من أهل هذه البلاد ، إن الأستاذ عبدالقادر هو مدرس التاريخ في هذه المدرسة الثانوية التي أنشئت في هذا المكان البعيد عن (دبا) لتتوسط بين قرى الوادي في (سيح دبا) أي هذا المتسع الواقع على ضفاف الوادي الطويل ، ولهذا فهي تضم طلابًا من مختلف القرى باستثناء (دبا البيعة) التابعة لسلطنة عمان .

كان الحديث مع الأستاذ عبدالقادر عن موقع دبا البلدة القديمة ، فذكر أنه كتب

بحثًا في مجلة يصدرها (نادي دبا الرياضي) تدعى « الوعي » تعرض فيه لتاريخ دبا القديم ، وأن الموقع هو ما يعرف الآن باسم (دبا البيعة) التابعة للسلطنة العمانية، ويستدل على هذا بوجود مقبرة قديمة بقربها ، تعرف بـ (مقبرة أمير الجيوش)، وأنه قد يفهم من كلمة (البيعة) قدم القرية ، واعتذر عن وجود نسخة من بحثه للاطلاع عليه ، ونصح بالاتصال بالأخ عبدالله بن سلطان السلامي ووصفه بأنه خبير بتاريخ هذه البلاد ، وهو عضو في المجلس البلدي في دبا – وقد اتصلت بالهاتف بهذا الأخ فوعد خيراً عند مقابلته ، فلم تتم .

إنني – وان كانت مشاهدتي للموقع لا تعدو لمحات خاطفة أثناء السير – قد لاحظت أن مواقع المحلات المعمورة الآن مرتفعة عن ضفاف الوادي التي في الغالب تكون أماكن الاستقرار ، في الأزمنة الماضية لقربها من المياه ، وقد شاهدت في وسط الأرض البراح المعروفة باسم (سيح دبا) فيما بين البلدة وبين المدرسة آثار عمران قديم بقرب مجرى الوادي ، لا أستبعد أن يكون موقع البلدة القديمة ، ثم رأيت في كتاب " البحث عن دلمون " تأليف جيو فري بيبي تعريب الأستاذ أحمد عبيدلي – ما يقوي هذا ونصه[1] : إن رأيي أن موقع دبا والذي يبعد ميلاً ونصف ميل جنوب غربي دبا نفسها – سيدل على أنه موقع استيطان ، فربما كانت هناك مدينة أو قرية ، وأن الثلاثة أقدام من الحصا المتراكم فوقها إنما هو تراكم حديث كنتيجة للسيول . انتهى – كذا وردت كلمة (جنوب) ولا أدري عن صحتها، والذي انطبع في ذهني أن ذلك الحصا المتراكم يقع في (الشمال) الغربي من دبا، لا في (الجنوب) .

ويربط المؤرخون المتأخرون بين (مقبرة أمير الجيوش) التي لا تزال معروفة وبين المعركة التي وقعت في السنة الحادية عشرة من الهجرة في عهد الخليفة أبي بكر

---

(١) ٤٥٥.

الصديق فيقول صاحب كتاب " المفصل في تاريخ الإمارات العربية "[1]: وفي دبا حدثت المعركة الأخيرة فكانت مذبحة مات فيها أكثر من عشرة آلاف قتيل بين الطرفين ، وانتهت بمصرع رأس الفتنة لقيط ذي التاجين ، ومازالت قبور ضحايا تلك المعركة شاهدة الى يومنا هذا ، في مقبرة أمير الجيوش ، بالقرب من دبا . انتهى ولكن من أمير الجيوش هذا ؟ وخبر الوقعة قد فصله ابن جرير في "تاريخه"[2] ، وابن الأثير في " الكامل " ، وإن كان مؤرخو عمان كالشيخ السالمي في " تحفة الأعيان " ممن لا يتفق معه في كل ما ذكر ، ولي عودة للبحث عن موقع(دبا) .

خور فَكّان والفجيرة : ثم واصلنا السير من مدرسة (عقبة بن نافع) في (دبا) فمررنا بمكان ذي بساتين من نخل وأشجار يدعى (رول ضدنة) – بالضاد المعجمة والدال بعدها نون فهاء – ولعل (رول) بمعنى (دوحة) وهذا المكان منبسط مستطيل من الأرض ، ثم كان المرور بقرية (ضدنة) واجتزنا طرف السلسلة راجعين إلى البحر حيث تبدو فيه صخور بارزة كالروابي . وكان مما مررنا به بعد ذلك من القرى (العقة) و (شرم) و (بادية) وهذه الأخيرة يكثر فيها النخل ، ثم بقرية اللجّة (الليّة) ومنها يفضي الطريق إلى عقبة ينزل منها إلى خور فكّان، حيث يمتد طرف من السلسلة الجبلية فيبلغ البحر .

وفكّان – الذي أضيف إليه الخور – بفتح الفاء والكاف المشددة ، وبعدها ألف فنون – اسم قديم .

ومع اكتشاف آثار في خور فكان يرجع تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد على ما جاء في كتاب " آثار الشارقة " فإن البلدة القائمة الآن بلدة حديثة بمبانيها، ذات سوق صغير ذي طراز جميل متميز ، وفيها حدائق من النخيل ، وتقع أمام خور واسع شبه مستدير ، لإحاطة سلسلة الجبال به من الغرب والشمال وقد وصف

---

(١) ١/٣٦.

(٢) ٣/٣١٥.

صاحب " معجم البلدان " خور فكَّان في أول القرن السابع الهجري بقوله : بليد على ساحل عمان ، يحول بينه وبين البحر الأعظم جبل ، وبه نخل وعيون عذبة . انتهى .

وبلدة خور فكَّان تبعد عن الفجيرة ٢٠ كيلا ، وهانحن قد قطعنا من (المسافي) حتى بلغنا الفجيرة نحو أربعين كيلاً ، ومن خور فكَّان تبدأ حدود الفجيرة حيث تنتشر حدائق النخيل فتمتد إلى وسط المدينة ، بحيث يصح وصفها بأنها غابة من النخيل تتخللها المنازل والشوارع الواسعة وتنتشر الدور بين الحدائق ، وتتكون في الغالب من دورين أو ثلاثة ، ماعدا بعض المباني التجارية فقد تبلغ خمسة أدوار .

وموقع البلدة – لخصبه وسعته وحسن ساحله – مما يحمل على الجزم بأنه من الأماكن المأهولة منذ عصور قديمة ، وإن لم يرد لاسم الفجيرة – فيما بين يدي من المؤلفات – مايدل على ذلك سوى قول ياقوت وغيره : الفجيرة اسم موضع .

ويظهر أن الاسم مشتق من فُجرة الوادي – بضم الفاء – وهي متسعه الذي ينفجر إليه الماء ، وهكذا موقع الفجيرة فهو أرض واسعة في امتداد سهل الباطنة الخصيب ، تنفجر نحوها مياه الأودية من الجبال العمانية الواقعة غربها ، اشهرها وادي حام الذي يقارب طوله – مع تعرجه – نحو ٤٥ كيلاً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، بحيث يكون حوضين : أحدهما تقع فيه الفجيرة وأغلب قراها ومن أشهر قراه المسافي والبثنة ودفنة .

والبلدة في طرف الباطنة الشمالي على شاطئ خليج عمان ، وتحيط إمارة الشارقة بحدود إمارة الفجيرة من الغرب ، أما من الشمال فخور فكَّان ، ثم ساحل دبا التابع للفجيرة ، ثم سلطنة عُمَان ، وفي الجنوب كلبا فبلاد عمان .

وتعد إمارة الفجيرة من أصغر الإمارات مساحة ، وأقلها سكانًا .

وأغلب سكانها القدماء من الأزد ، يدعون الشرقيين (المساكرة) .

ويظهر أن بلدة الفجيرة نشأت أول ما نشأت ميناءً صغيراً على الخليج ، ثم انزاحت في اتساعها عن الشاطئ الذي كان عرضة للإغارة ولطغيان البحر، فانتشرت في أرض خصبة واسعة ، واقعة في مفيض أودية تنحدر من سلسلة من الجبال ، ولها ميناء على البحر حيث تقع الغرفة البلدة القديمة ، ومطار صغير بقربه، دون خور فكّان ، وتنتشر حولها قرى عديدة ذات مزارع للخضر ، شاهدت بعض أهلها يعرض على المارة مع الطريق العام بعض ثمار مزرعته ، فأردت أن أسمع لهجة أحدهم ، فوقفت عند إنسان لفتني سواد سحنته ، وعدم اهتمامه بمظهره، أسأله عن ثمن قفص ورق (كرتون) مملوءا بالليمون ، فأشار بأصابعه السبعة مضيفاً كلمة (درهم) فاخرجت من جيبي درهماً واحداً، وقلت : أعطني ليمونة واحدة – وفي القفص ما يزيد على الثلاثين ، ولكنه أومأ برأسه ، فتخيلت أنه لم يفهم كلامي فتقدمت إلى آخر بجواره، وقد اشترى منه أحد المارة، فما كان من هذا المشتري إلا أن أخذ حفنة مما اشترى وقدمها لي ، فأفهمته أنني أقصد التخاطب ولست بحاجة إلى الليمون ، فقال : (لا تواخذهم .. مايفهمون) .

ويظهر أن العجمة الدخيلة في هذه البلاد منتشرة بين أهل القرى .

وأهم شوارع المدينة (شارع زايد بن سلطان) حيث المباني الحكومية ، وتبدو المدينة لسعة موقعها وقلة سكانها على جانب كبير من الهدوء، ساعة دخولنا، وكانت الواحدة ظهراً، ولا أدري كيف ساورتني فكرة الاستقرار في هذه البلدة فترة من الزمن ، وأنا أسير في تلك الشوارع التي تخيم عليها البساطة ، وتزهو بخضرة البساتين القريبة منها ، على مرآى من شاطئ البحر الممتد بامتداد النظر .

كانت الاستراحة في فندق (هلتن) حتى الساعة الثانية ، وتقدم فيه أنواع المأكولات على نمط فنادق المدن الكبيرة ، وفيه قليل من النزلاء الغربيين، ويكثر

ارتياد أهل البلاد له ، ومن المناظر غير المألوفة أن يشاهد المرء على المائدة التي بجواره شرطيًّا ببزته وقد علق بمتنه بندقه .

وفي الساعة الثانية كانت العودة إلى الشارقة حيث استغرقت مسافة الطريق البالغة ١١٥ (خمسة عشر ومئة) من الأكيال – ساعة واحدة من ذلك الفندق ، مروراً ببلدة (المسافي) ٣٨ كيلا من الفجيرة ، ثم الذيد ٦٠ منها – بعد أن شاهدنا عن بعد – عدداً من القرى بمنطقة إمارة الشارقة ، منها – على الترتيب : البثنة ، ثم دفنا ، ثم المنامة ، وبعد مجاوزة قرية الذيد انزاحت الجبال ، واتسعت الأرض البراح ، مما يذكر بفيافي نجد ، وطبيعة أرضها وأشجارها وخاصة الدهناء، حيث تقل ارتفاع كثبانها لولا هذه الأمكنة المنخفضة بين الكثبان، الشبيهة بأرض الساحل ، إلاّ أن الرمال تغالبها فتطغى عليها في كثير من المواضع فتتغير طبيعة الأرض .

ولقد تمنيت أن أجد أحداً من أهل تلك البلدة التي أحسست بانشراح وسرور حين أبصرتها وقد انفرجت عنها الجبال، فبدت في ذلك المبسط الواسع الممتد بين الشاطئ وسفوح تلك الجبال الممتدة غربها، وتنتشر البساتين التي تتخللها الأبنية الحديثة المتفرقة على شوارع مستطيلة هادئة الحركة – تمنيت أن ألقى من ازداد منه علما عن هذه البلاد الطيبة الحبيبة إلى النفس ، ولكن :

استعجمت دار نُعْم لاتكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

إلى رأس الخيمة (جلفار) : وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين (٨/٣/١٤٠٧هـ – ١٠/١١/١٩٨٦م) كان الاتجاه من مدينة الشارقة إلى إمارة رأس الخيمة ، فاجتزنا بعد إمارة الشارقة حدود إمارة عجمان المتصلة بعمران مدينة الشارقة، وبعد عشرين كيلاً من الشارقة كنا بمحاذاة بلدة أم القيوين الواقعة على شاطيء الخليج، وكان الاتجاه نحو الجنوب ، والطريق معبد ، يخترق صحراء واسعة، خالية من الجبال إلاّ مايشاهد عن بعد على يمين المتجه جنوبًا .

وبعد مسيرة ما يقرب من مئة وعشرين من الأكيال كان الوصول إلى مدينة رأس الخيمة ، وهي مدينة تقع في أرض منبسطة واسعة ، وفي غربها تمتد سلسلة جبال عمان رأي العين، ومع أنها بقرب الساحل ، إلا أن تربتها خصبة خالية من الأملاح، أشبه ما تكون بتربة أرض نجد، تكثر فيها الأشجار وتنتشر كثبان الرمال.

والمساكن في هذه البلدة متباعدة، قسم منها يقع بقرب البحر ، ويظهر أنه بقايا البلدة القديمة ، أما القسم الغربي الحديث فينتشر فيه العمران الجديد ويبعد عن الساحل نحو عشرة أكيال . وقصر الحاكم يتوسط القسم الجديد من البلدة . ومن شوارع المدينة شارع الملك فيصل بطول كيل ونصف تقريباً.

وفي مدينة رأس الخيمة معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فيه عدد من الطلاب من هذه البلدة، ومن غيرها من بلاد عمان ومن الإمارات، ويظهر أن الإقبال على الدراسة في هذا المعهد ليست على درجة قوية من النشاط، مع أنه قد أعد إعداداً حسناً من حيث البناء وحسن الترتيب ، وفيه مكتبة تحوي طائفة من الكتب في مختلف العلوم ، وبهو واسع (صالة) لإلقاء المحاضرات ، وقد خصص لأساتذته بجانب مقر المعهد بناء لسكناهم ، وقد اجتمعنا بهم أنسنا بالحديث معهم.

ويقع المعهد متوسطًا بين قسمي المدينة ، وهو أقرب إلى القسم القديم .

وفي المدينة عدد من المدارس من ابتدائية ومتوسطة وثانوية وروضة أطفال ، ومستشفيات ، وإدارات حكومية للتعليم والأشغال والبريد وغيرها ، وفيها فندق حديث كانت الاستراحة فيه في الساعة الواحدة ، وتناول طعام الغداء وهو على درجة حسنة من النظافة .

ومع أن موقع هذه المدينة على مقربة من (جلفار) البلدة التي كان لها ذكر كثير في المؤلفات القديمة، إلا أننا وقد سرنا على الساحل وشاهدنا مابقي من آثار البلدة القديمة لم نر فيها ما يلفت النظر من حيث القدم .

ويعلل المتأخرون تسمية رأس الخيمة بأمور منها ما سمعناه من أحد الإخوة في المعهد من أن رأس البحر يشابه الخيمة في استدارته ، وفي كتاب " دولة الإمارات العربية "(١): وكان زعيم القواسم هو الشيخ قاسم الذي نصب خيمته في منطقة على الساحل مقابل جلفار فكانت تراها جميع السفن المارة في الخليج ، ومن ثم أطلق البحارة على هذا المكان اسم رأس الخيمة ، وبعد ذلك نشأت مدينة عربية حملت ذلك الاسم . انتهى . وينبغي أن يكون هذا في عصور متأخرة لم تسبق القرن الحادي عشر الهجري .

ولأهل رأس الخيمة – بل للقواسم في هذه البلدة وغيرها – مقام محمود في مؤازرة الدعوة الإصلاحية إبَّان قيام الدولة السعودية في عهدها الأول .

وقد تعرضت رأس الخيمة في سنة ١٢٢٣هـ – لهجوم الإنكليز عليها ، وإحراق سفن أهلها ، وتدمير البلدة كلها ، ثم تتبع قرى القواسم في ساحل الخليج شرقًا وغربًا بالإحراق والتخريب – وفي كتاب الدكتور سلطان بن محمد القاسمي "خرافة قرصنة العرب في الخليج" ما يوضح حقيقة الأسباب .

أم القيوين : كان الاتجاه من رأس الخيمة إلى أم القيوين ، وقد أعياني الاهتداء إلى أصل التسمية ، وأقدم ذكر لها رأيته في كتاب " لمع الشهاب " المؤلف سنة ١٢٣٣ هـ تقريبًا والمسافة بينها وبين رأس الخيمة ستون كيلاً . وتقع بلدة أم القيوين على الشاطئ، وتحيط بداراتها الحديثة حدائق واسعة ، وشوارعها فسيحة مشجرة ، وفيها معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وملحق تعليمي يشرف على شؤون الدعاة والمرشدين والقضاة الذين تندبهم المملكة للعمل في هذه المدينة . وسكان أم القيوين من بني (أبو علي) وهم غافريو النسب ، ومن (آل بو مهير) و (الجفالة) ، وتمتد الإمارة على الساحل نحو ٢٥

---

(١) ٢٧.

كيلاً بين إماراتي الشارقة ورأس الخيمة ، كما تمتد في الداخل حوالي ٣٠ كيلا .

عَجْمَـــان : ومن أم القيوين إلى بلدة عجمان ، والاسم ينطق بفتح العين لا بضمها . ويقال في تعليل هذا الاسم : انه من اسم قبيلة العجمان . وليس المقصود بهاؤلاء قبيلة العجمان المعروفة في المملكة التي ترجع بنسبها إلى يام ، ثم قحطان ، ولكن هاؤلاء قبيلة أخرى قال عنهم صاحب كتاب " لمع الشهاب "[١] في كلامه على قبيلة نعيم القحطانية النسب : ومنهم فخذ يبلغ عدده أربع مئة رجل يسكنون ساحل البحر بقرب الشارقة من الجنوب إلى الشرق بأربعة فراسخ ، ويسمون هاؤلاء العجمان ، واسم بلدهم كذلك . انتهى. ولا يعرف من تاريخ هذه الإمارة شيء إلا منذ نحو قرن ونصف من الزمان ، وتحيط إمارة الشارقة بإمارة عَجْمان من جميع جهاتها ، إلا أن لها إطلالة على الساحل بنحو ١٦ كيلاً بين أم القيوين والشارقة ، وتتبعها قرى بعيدة عنها منها مصفوت في الجنوب الشرقي من عمان على مسافة ١١٠ أكيال من عجمان ، والمنامة على بعد ٦٥ كيلاً شرقًا بقرب الذيد .

لم َيكنْ قَطْعُ ما تقدم ذكره من المسافات بين القُرى في تلك الإمارات بالمريح، ولكن الحوافز إليه وهو ازياد المعرفة بهذه الأجزاء من بلادنا، والاتّصال بسكانها من إخواننا، كانت أقوى الأسباب التي سهلت ذلك، مع ما كنت أتصف به من الرغبة القوية لأُلِمَّ بما أستطيع الإلمام به من كل ما يتصل بجميع أقطار البلاد العربية، وأهمها أقربها إلينا، وأعمقها ارتباطًا بنا، في مختلف جوانب الحياة، وحقًّا أنني لم أجد في الجانب الثقافي ما كنت أتوقع في هذا الجزء الحبيب من وطننا، في وقت بلغت الثروة فيه ما بدا أثره واضحًا في القصور والمصارف والفنادق، إلا أنه كان ضعيفًا بذلك الجانب، بما لم أكن أتصور !

---

(١) ص١٧٦ طبعة دارة الملك عبدالعزيز.

في بلاد قطر

لبلاد قطر ولحكامها صلات قوية بالبلاد النجدية، فأسرة (آل ثاني) تنتسب إلى (المعاضيد) الذين يُعَدُّون من فروع قبيلة (الوُهَبَة) التميمية النسب[1] المنتشرة في بلدتي (أُشَيْقِرٍ) و(عُنَيزة) وكثير من قرى نجد، ثم في مدينة الرياض.

ولقد كان عميد بلاد قطر الشيخ قاسم بن ثاني (١٢٣٦ / ١٣٣١هـ) -رحمه الله- يدرك هذه الصلة ويسعى لتقويتها بمختلف الوسائل، فكانت له ارتباطات بأسرة (آل الشيخ) الإمام محمد بن عبدالوهاب، لا من حيث سَيْرِهِ هو وآلِهِ على نهج الدعوة الإصلاحية التي قام بها فحسب، بل بعطف الشيخ قاسم ورعايته لعلماء هذه الأسرة من الناحية المادية، ولآل ثاني -بصفة خاصة- مواقف محمودة في نشر تلك الدعوة ومؤازرة القائمين بها، وسير تلك البلاد على المذهب الحنبلي، والاستعانة بعلماء نجد باختيار القضاة والمرشدين والدعاة، الذين كان من أبرزهم الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع (١٣٠٠ / ١٣٨٥هـ) وبعد وفاته تولى القضاء تلميذه الشيخ عبدالله بن زيد بن محمود (١٣٢٩ /١٤١٧هـ) وفي عهد هذين الشيخين وبتوجيه منهما قام حكام تلك البلاد وخاصة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني (١٣١٠ / ١٣٩٤هـ) بنشر كثير من مؤلفات الحنابلة وغيرها من كتب السلف في مختلف العلوم، وكان لآل ثاني لدى ملوك آل سعود، الملك عبدالعزيز فمن بعده المنزلة العالية من حيث معالجة كثير من القضايا والتشاور في الأمور الهامة، وهذا الجانب مما هو خارج عما أحاول الحديث فيه من وصف مشاهداتي للبلاد التي أزورها، وابداء لمحات تاريخية حولها.

---

(١) من غريب ما اطلعت عليه بهذا الصدد القول بان المعاضيد من بني علي بماهذا نصه: (ونحن لا نعرف شيئًا عن الطريقة التي وصل بها آل ثاني إلى أن يكونوا أصحاب السيادة المطلقة في قطر سنة ١٨٦٨م، وهم من المعاضيد، وبالتالي من آل بني علي - قبيلة عيسى بن طريف - «دليل الخليج» القسم التاريخي - ج٣ ص١٢١٦-. أما المشهور عند أهل نجد فالمعاضيد منسوبون إلى (معضاد بن رَيِّس بن زاخر بن محمد بن علي بن وهيب - جد الوهبة - بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة من الوهبة من بني تميم). وعن نسب (آل ثاني) انظر الاستدراك ص٤١٢.

ومن المعروف أن شبه جزيرة قطر جزءٌ مما كان يعرف قديمًا باسم (البحرين) البلاد الواسعة الممتدة شمالاً من حدود العراق الجنوبية الموالية لـ (كاظمة) حتى حدود (بلاد عُمَان) جنوبًا على ساحل الخليج وغربه إلى (الدهناء) وسكانها من العرب من الأزد وإياد وغيرهما، ثم من بني عبد القيس فبني بكر بن وائل من ربيعة بن نزار، حتى انساحت فروع بني تميم من نجد فانتشرت في الدَّهناء، فالصَّمَّان، حتى زاحمت بني بكر، واضطرتها للنزوح إلى جزيرة (أَوال) المعروفة الآن باسم (البحرين) وتقلَّص اسم المنطقة فانحصر فيها، واستقرت بنو عبدالقيس في مدن ساحل الخليج، حيث تحضرت وارتبطت حياتها في الأرض، وسيطرت بنو تميم وانتشرت في تلك البلاد إلى شمال (كاظمة) وجنوبًا إلى يَبْرِين و(بَيْنُونة) الجافورة، واستمرت حوادث التاريخ تترى بما ليس هذا محل التوسع فيه.

ولبلاد قطر شهرة في الأدب العربي، تحدثت عنها في (قسم المنطقة الشرقية) من « المعجم الجغرافي ».

وقد عبث القرامطة في هذه البلاد فأحرقوا قاعدتها، قال الأزهري محمد بن أحمد بن الأزهر المتوفى سنة ٣٧٠هـ، الذي تجول في بلاد البحرين، وهو في أَسْر القرامطة حين هجموا على الحجاج سنة ٣١٧هـ في كتابه « الزاهر »[١] ما نصه: (وأما القطري فإن شِمْرًا قال: البرود القطرية هي خُمر لها أعلام، فيها بعض الخشونة، قال: وقال خالد بن جنبة: هي حلل جياد، تحمل من قبل البحرين، قال الأزهري: بسيف البحر بين عمان والبحرين مدينة يقال لها قطر، خربها القرامطة، وأرى البرود القطرية كانت تعمل بها ويقال: قُطْرِيَّة، وأنشد شمر:

كساك الحنظلي كساء صوف وقطريا، فأنت به تميد

تميد : تتحرك، وتميل، ويروى: تفيد : أي تتبختر) انتهى. واسم قطر يطلق على منطقة واسعة، ولاشك أن الأزهري يقصد قاعدة هذه المنطقة، ولكنه لم يسمها.

---

(١) ص ١١٦.

وكان لبلدة (الزبارة) دور متميز في تاريخ هذه البلاد في القرن الثاني عشر الهجري قبل اتخاذ مدينة (الدوحة) قاعدة[1]، ومن بعد الزبارة عرفت (البدع) الميناء الوحيد في قطر، ثم الدوحة القاعدة الآن.

وقد انساحت فروع من القبائل القحطانية في العصور الأخيرة من الجنوب إلى هذه البلاد وغيرها من سواحل الخليج، كآل مُرَّة وبني هاجر وآل نعيم، وغيرهم وامتزجوا بسكانها الأقدمين.

ولقد قمت بزيارة (قطر) مراراً أولاها حين دُعيت لحضور (مؤتمر السيرة النبوية) بمناسبة دخول القرن الخامس عشر في شهر المحرم من عام ١٤٠١هـ وحضره عدد من العلماء من جميع الأقطار الإسلامية، وتناولت المحاضرات والأبحاث جوانب سيرة المصطفى ﷺ ومنها المؤلفات التي تعد من مصادرها، وأذكر أن منها بحثًا للأستاذ.... الندوي عن كتاب « أخبار مكة » للفاكهي المتوفى سنة ١٢٧٢هـ فذكر المحاضر أنه قد طبع، وهو لم يطبع بعد، بل أنه لا يعرف من هذا الكتاب سوى الجزء الثاني ومخطوطته الوحيدة في مكتبة (جامعة ليدن) فنبهته إلى هذا، وسألته عن المصدر الذي رجع إليه في القول بانه مطبوع، فقال لي: إنه لا يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في هذا، ويغلب على ظنه أنه مؤلف الدكتور (سِزْكين) وكان ممن حضر المؤتمر فاتصلت به وقلت له: إن الأستاذ الندوي نسب إليك أن كتاب « أخبار مكة » للفاكهي قد طبع، والذي أعرف أن المستشرق الألماني (وستنفلد) طبع ملخصات قليلة من المخطوطات الهولندية، ولا يعرف حتى الآن الكتاب كاملاً، فضلاً عن أن ينشر، فقال -بانفعال- وتلك عادته- (يكذب) وكررها، فأخبرت الأستاذ الندوي بإنكاره لهذا، فقال: أنا أعمل في (جامعة الإمارات) وسأكتب إليك بعد عودتي وتحققي من المصدر، فكتب إليَّ بأن (سزكين) ذكر هذا في كتابه « تاريخ التراث العربي » المجلد الأول - ج٢ ص٢٠٧

(١) « دليل الخليج » القسم التاريخي - ج٣ ص١١٩٥-.

قسم التدوين التاريخي. فوجدته كما ذكر بأن الكتاب طبع مصوراً في بيروت سنة١٩٦٤م.

وكان الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود هو رئيس المحاكم والشؤون الدينية، وكنت عرفته في مكة سنة ١٣٥٩هـ وما بعدها، وكان ملازمًا للشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع، ومن أخص طلابه، وعاد إلى (قطر) بعد استقرار الشيخ محمد في مكة، ورغبة حاكم (قطر) الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني أن يحل محله، وبعد فترة نشر منسكه الذي سار في كثير من أحكامه على ما اختاره محققو العلماء، وإن خالف المشهور في المذهب الحنبلي، فأثنيت عليه بمقال نشرته في «اليمامة»(١) فتأثر شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم، وكنت أعمل في إدارة (المعهد) ودُعِي الشيخ ابن محمود للرياض فكان أن اعتذر، وألف الشيخ محمد رسالة شديدة اللهجة هي «تحذير الناسك مما أحدثه ابن محمود في المناسك» وزعت في مجال واسع، والله يتولى الجميع بعفوه ورضوانه.

أقام الشيخ ابن محمود حفلة تكريم للوفود، فكان مما قال عند السلام عليَّ: هذا الوحيد الذي دافع عني. وإنما دافعت عما اعتقده حقًّا.

وكنت عرفت أثناء اقامتي في بيروت من أسرة آل ثاني الشيخ فالح بن ناصر، رجل خَيِّرٌ، محب لطلبة العلم، اقتنى مكتبة تضم كثيراً من المؤلفات، وأهدى لكثير من المكتبات العامة الكثير من نفائس الكتب التي جمعها من مصر وبيروت ثم عاد إلى قطر.

وفي زيارة ثانية لهذه البلاد زرته والأخ عبدالله بن خميس، فقدم لكل واحد منا من المؤلفات التي يوزعها، ومنها مما نشر «شمال الحجاز» للمستشرق (الويس موزل) وسأله الشيخ عبدالله عن مجموع اشتراه من محمد بن يحيى في الشعر العامي بمبلغ كبير، فأتى به، وقدمه له هدية، وكان -رحمه الله- على جانب كبير من الكرم، وسماحة النفس، والتواضع.

---

(١) «اليمامة» الصادرة في ١٥/١/١٣٧٦هـ.

وعلى ذكر الأدب، فلأمراء هذه البلاد عنايةٌ واهتمامٌ بالشعر فصيحه وعاميه، والشيخ قاسم ممن يجيد النوع الأخير، ويتذوق الأول، وكذا مشاهير هذه الأسرة، وقد قاموا بنشر بعض الدواوين المشهورة كديوان النابغة الجعدي وغيره، وجمع أحد أدباء هذه البلاد يدعى الشيخ عبدالله بن زيد بن درهم القاضي قبل الشيخ ابن مانع، مؤلفًا يحوي على مختارات منه نشروها، وكانوا ذوي عطف ورعاية لشاعر نجد محمد بن عبدالله بن عثيمين المتوفى سنة ١٣٦٣هـ وله فيهم أماديح، منها في ديوانه الذي جمعه الصديق الشيخ سعد بن عبدالعزيز بن رويشد، ونشر على نفقة الشيخ عبدالله بن سليمان الحمدان -وزير المالية- وقد وجد ابن الشاعر من رعايتهم ما حبب إليه الإقامة في تلك البلاد حتى توفي منذ عهد قريب.

ومن أهل هذه البلاد الكريمة الشيخ محمد بن حسن المرزوقي، من (المرازيق) العرب الذين في الساحل الشرقي للخليج. من كبار تجار اللؤلؤ، على جانب واسع من الثقافة والعلم، وله مشاركات بارزة في الاسهام بنشر بعض المؤلفات السلفية، ومناصرة الدعوة الإصلاحية ونشرها، والرد على أعدائها كـ(النبهاني) وغيره، وهو شاعر[1].

ومما يذكر لحكام هذه البلاد في مقام العناية بتاريخها، بل بتاريخ الخليج وقلب الجزيرة وجغرافيتها، قيامهم بنشر كتاب «دليل الخليج» جمع (ج ج لوريمر) من وثائق الحكومة البريطانية، فقد أسندوا تعريبه إلى لجنة قامت بذلك، ثم انفقوا على نشره. فنشر في أربعة عشر مجلداً، ويعد أوفى المراجع في موضوعه عن تلك البلاد في خلال الثلاثة قرون الأخيرة، ويؤخذ على هذا العمل أن الإخوة الذين تولوا نقله إلى اللغة العربية لم يستعينوا ببعض ذوي الاختصاص في التاريخ والجغرافية من مثقفي تلك البلاد، ولهذا ورد كثير من أعلام الرجال والقبائل بصورة شنيعة من التصحيف والخطإ، يضاف إلى هذا أن جل ما في الكتاب من معلومات عامة، وإن كانت مصادرها رسمية انجليزية، إلا أنها مستقاة من أفراد رحالة لم تهيِّئ لهم ظروفهم التثبت مما كتبوا، ومن الممكن تدارك هذا، فالعمل الصعب التعريب والنشر، وقد انتهيا، ويبقى التصحيح

---

(١) انظر «جريدة الرياض» [ع ١٠٩٣٩ في ١٢/٢/١٤١٩هـ].....

والتعليق، ويُحسن هؤلاء الأكارم من حكام هذه البلاد لو أكملوا عملهم الجليل بابرازه بصورة أقرب إلى الصحة، وقد توفرت الوسائل بإنشاء (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) و(مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية).

أراني شط بي الفكر، فتجاوزت ما ينبغي لي الوقوف عنده.

ولقد انتشر التعليم الحديث في البلاد، ونالت المرافق الحيوية قسطًا من التنظيم كالمحاكم والشؤون الدينية والإدارية والصحية، وبدأ السير الحديث للمستقبل الأفضل عامًّا شاملاً، مما يبشر بمستقبل زاهر لهذا الجزء الحبيب من الوطن العربي الكبير.

ولا ينسى العلماء - وطلبة العلم عامة - ما للأسرة الحاكمة في (قطر) من فضل في نشر كثير من المؤلفات العلمية في مختلف أنواع العلوم، كفقه الحنابلة، والأدب والتاريخ، بكميات كبيرة، توزع مجانًا، في وقت كان انتشار الكتب محدوداً في نطاق ضيق، وكان للشيخين الجليلين محمد بن عبدالعزيز بن مانع، وعبدالله بن زيد آل محمود، من الفضل في توجيه الحكام إلى ذلك مالا ينكر، وكانت تنشر -أولاً- في مصر لدى السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » والأستاذ محب الدين الخطيب صاحب « الفتح » وفي الهند قبل ذلك بقلةٍ، وأخيراً في الشام، يتولى ذلك الأستاذ زهير الشاويش صاحب (المكتب الإسلامي).

ومن أهم المؤلفات التاريخية كتاب « سمط النجوم العوالي، في تاريخ الأوائل والتوالي » لعبد الملك العصامي المكي المتوفى سنة (١١١١هـ) في أربعة مجلدات، يحوي تاريخ مكة بذكر الدول والحكومات التي بسطت عليها نفوذها، ثم تاريخ ولاتها إلى القرن الحادي عشر، وعيبه عدم وضع فهارس شاملة له، وقد طبع بمصر بمطبعة (الفتح).

أما كتاب « دليل الخليج » جمع (لوريمر) فقد عرب ونشر مرتين، الأولى في عهد الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، والثانية في عهد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وهذا الكتاب -والحق يقال- أوفى كتاب يتحدث بتوسع عن تاريخ نجد ودول الخليج - بما فيها (عمان) - ونواحي العراق الجنوبية، ويفصل جغرافية تلك البلاد.

وقد أسند توزيع تلك المطبوعات إلى الشيخ محمد بن مانع في آخر حياته - تولى الله الجميع بعفوه وغفرانه-.

في بلاد البحرين

وهذه البلاد هي ما كان يعرف قديمًا بجزيرة أوال[١]، مجموعة من الجزر (أرخبيل) أوسعها (المنامة) وهي قاعدة البلاد، وكانت من جزر إقليم البحرين، فتقلص الاسم عن هذا الإقليم الواسع، الممتد من قرب البصرة، إلى نواحي (عُمان) وانحصر في هذا الجزء الصغير المعروف بهذا الاسم الآن، وقد يقع بعض الباحثين في الوهم، فيظن أنه المراد في كتب المتقدمين، ومن هؤلاء مؤلفو «المعجم الكبير» الصادر عن (مجمع اللغة العربية)[٢]، ولبلاد البحرين تاريخ ليس هذا محل التوسع بذكره.

لقد زرت هذه البلاد مرات كثيرة سأكتفي بإيراد لمحات مما بقي في الذاكرة عن أطرفها.

كان الشيخ عبدالله بن سليمان المزروع - رحمه الله - صديقًا لي، وقد تحدثت عن هذا فيما نشرته في «المجلة العربية» بعنوان من (من سوانح الذكريات)[٣] فزار مدينة (الخبر) حين كنت مقيمًا فيها، وأبدى رغبة في الذهاب إلى (البحرين) وأن نترافق إليها، وكان رجلاً اجتماعيًّا، يعرف كثيراً من الوجهاء والأعيان، ويحرص على الاتصال بهم، وما كنت بهذه الصفة، فاشترطت عليه عدم قبول ضيافة أحد، وأن نسكن في أحد الفنادق، وأن يعفيني من الزيارات والمجاملات، فوافق على هذا، فركبنا في أحد الزوارق البخارية وفيه غيرنا، ففوجئت عند النزول في ميناء البحرين بالشيخ حسن العجاجي، من مشاهير تجار نجد المقيمين في (البحرين) يستقبلنا، ومعه من حمل حقيبتينا، وخرجنا من (الجمرك) فإذا سيارتان عند بابه، ركبنا الثلاثة في أحدها، حتى وصلنا بيت الشيخ حسن، فانفردت بصاحبي، وأخبرته أنني لا أرغب السكنى إلا في الفندق، فقال: وهو كذلك نشرب القهوة، وتوصلنا السيارة إليه. امتد الوقت، فكانت القهوة، ثم قُدِّمَ (فكوك الريق) ثم تواصل الحديث، وأنا لا أكف عن تنبيه

---

(١) انظر هذا الاسم في «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» قسم (المنطقة الشرقية - البحرين قديمًا).

(٢) وقد نبهت على هذا الخطإ في كتاب «ملاحظات على المعجم الكبير» ص١١٤.

(٣) وفي مقدمتي لكتابه «وصايا أساطين الدين والأدب والسياسة للشبان» الطبعة الثانية. وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٨٥هـ.

صاحبي للقيام. وكأن الشيخ حسنًا -رحمه الله- أدرك ما قصدت، فأخذني على انفراد، فلم يكتف بإقناعي بالبقاء، بل أحسست من عتابه وتأثره ما أخجلني. لقد بالغ الرجل في إكرامنا فخصص لكل واحد منا غرفة واسعة، وهيأ لنا جميع وسائل الراحة. وكان ممن اجتمعنا به في بيته الأستاذ الشاعر إبراهيم العريض، وكان يعلم أبناءه اللغة الانجليزية، وهو موظف إذ ذاك في (شركة نفط البحرين).

ليست تلك الفعلة الوحيدة من حِيَل أبي أحمد ووسائل خداعه، فقد قال لي صباح اليوم الثاني من وصولنا: هنا مكتبة تحوي كثيرًا من المخطوطات العربية، والمشرفون عليها أناس خيّرون، وقد حددت معهم موعدًا للزيارة الساعة الرابعة فما رأيك؟ فاستفزني فرحًا حتى استبطأت الموعد، حتى قال: جزاهم الله خيرًا لقد بعثوا إلينا سيارة توصلنا. سارت بنا السيارة ودخلت بنا قصرًا واسعًا فخمًا، استربت من منظره، ومما شاهدته في المدخل من الجند، فأمرت السائق بالوقوف لأنزل، ولكن أحد الجنود أمره بالتقدم (جدام !! جدام)[1] فدهشت مما أنا فيه، حتى وصلنا بابًا نزلنا عنده، فاستقبلنا أحد الجنود: تفضلوا تفضلوا!! وصعد بنا إلى الدور الأول، فإذا مجلس واسع، قد أحاط بجوانبه صف من الجنود، وفي صدره كرسي، بجواره عدد من الكراسي، التي أجلسنا على اثنين منهما، ثم لم نشعر إلا بالشيخ سلمان قد دخل من باب بقرب الكرسي الذي في الصدر، فوقف حتى صافحناه، وأمرنا بالدنو من كرسيه الذي جلس فوقه -كان الشيخ سلمان - رحمه الله - تغلب عليه الطيبة والبساطة، فكان الحديث معه يدور حول السؤال عن أحوال الشيوخ، ولما علم بأنني مقيم في الخبر، وعملي الإشراف على التعليم في مدارس الشركة صار يتحدث عن النفط: أنتم عندكم نفط في (جبل الظهران) وحنا عندنا نفط في (جبل دخان).

فأردت أن أُوْجد صلة أقوى فقلت: أنتم طال عمركم منا من أهل نجد من الأفلاج قال: صحيح صحيح. الإمام عبدالعزيز قال لي: أنتم من عنزة من عيال

---

(١) أي سِرْ قَدَّامَك وهم يبدلون القاف (قدّام) جيما.

عمنا. وفي هذه الأثناء سارَّه رجل دخل عليه فسمعناه يقول: (يبون ذا الحين): يجون - يأتون الآن. فغمزت صاحبي ووقفت مادًّا يدي للسلام عليه فوقف. وإذا بثلاثة يظهر من لباسهم أنهم غربيون، وانصرفنا بعد مصافحته.

اليوم يا أستاذ الزيارة لمكان تتشوق إليه قالها أبو أحمد، فقلت: كمكتبة الأمس؟! فقهقه الشيخ حسن وقال: لا وأنا الذي رتبت الزيارة اليوم لبيت أحد أصدقائنا من الفلاحين القدماء والطيبين نذهب معًا لتناول فكوك الريق عنده! وعقب أبو أحمد: زبد وتمر ومراصيع!! كان الداعي الشيخ سعد الشملان، وقد عرفت اثنين من أبنائه عبداللطيف حين كان يدرس في القاهرة، ثم عمل في الكويت في عدد من الوظائف، وعبدالعزيز الذي عرفته بعد ذلك حين زرت البحرين، وكان رئيسًا لنادي العروبة - كان منزل الشيخ سعد على مقربة من (عين عَذَارِي) التي كانت من أغزر وأشهر عيون البحرين، فذكرنا بما قدم لنا من طعام بفلاحي نجد الأقوياء - زبد ولبن، ومراصيع - كما قال أبو أحمد - وفوق ذلك سماحة نفس.

بعد ذلك حاوَلْت عدم الارتباط مع أبي أحمد في زياراته، وخيراً فعلت بعد أن زرت معه الشيخ محمد بن خليفة، وهو أديب واسع الاطلاع، قوي الحافظة، يسرد على السامع كثيراً من أشعار ابن عثيمين وغيره كأنه يقرأ من كتاب، وقد نقلت قصيدة حين رغب مني الشيخ سعد بن عبدالعزيز بن رويشد الإشراف على نشر ديوانه، بعد ذلك وكان مصطافًا في (بْحَمْدُون) وجرت بيني وبينه مذاكرة، عن نسب آل خليفة، فأصرَّ على أنهم يرجعون إلى جُميلة. وأن جُميلة من عنزة، مع أن الذي اتضح لي أن جُميلة من قبيلة جَرْمٍ من قضاعة، من قحطان، كما زرنا معًا الشيخ عبدالله الخليفة، استجابة لدعوته للعشاء، وقصره في مكان فسيح بجوار البحر، بقرب الموضع المُسَمَّى (المقاصيص) حيث توجد ينابيع من ماء عذب في وسط البحر، يتمكن المرء من ملء قربته والخروج بها دون اختلاط مائها بمائه، وكان الشيخ عبدالله في أكثر مظاهره يمثل مظهر البداوة، وكذا آل خليفة إذ ذاك.

لقد اهتديت إلى (نادي البحرين) وهو ناد أدبي، يتلاقى فيه أدباء البلاد وغيرهم، وفيه مكتبة تحوي كتبًا أغلبها حديث، وصحفًا تأتي من العراق ومصر وغيرهما، وكان ممن عرفت أثناء زيارتي الأستاذ علي محمد التاجر، وكان أديبًا بارزًا، إلا أنه تلك الأيام اعتنق فكرة أحمد صبري شويمان، مؤسس (جماعة الأنصار) في مصر، وفكرته تقوم على أساس أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم أفضل الأمم، وأن ما كانوا يفعلونه في الجاهلية كالقمار وغيره ليس من مثالبهم إذْ له مقاصد حسنة وأن الخير في السير وفق حياتهم في البداوة، وانتسب إلى هذه الفكرة بعض الشباب ومنهم علي، وشاب شاعر من آل خليفة، وآخرون من مصر، وكان أبو علي محمد علي التاجر من العلماء، ولديه مكتبة تضم كثيراً من المؤلفات وفيها بعض المخطوطات، وله تأليف في تراجم علماء البحرين، اطلعني عليه حين زرته مخطوطًا، ولما حدثت ابنه عليًا عن سروري بما شاهدت في مكتبة والده، قال: يجب أن تحرق جميعها!! فاستوضحت: وما الذي يبقى؟! أجاب: القرآن الكريم، و« ديوان المتنبي » وكتاب أحمد صبري شويمان « ضوء في دراسة التوحيد » أو نحو هذا الاسم.

لم أر سوى مكتبة لبيع الكتب والصحف تدعى (مكتبة المؤيد) وممن عرفت الشاعر عبدالله بن علي آل زايد، أما الشاعر العريِّض فقد اجتمعت به في منزل الشيخ العجاجي مرارا.

ورحلة أخرى: اتفقت مع الأستاذ عبدالكريم بن جهيمان على أن نمضي عطلة العيد - في آخر عشر السبعين من القرن الماضي في البحرين، وأن نحاول ما استطعنا من السير على السجيه في جميع أمورنا، سوى اختيار المنزل، والمطعم، فكان النزول في (فندق عبدالنور) خير فندق من حيث النظافة، وأمضيناها أيامًا مريحة، وذات يوم كنا سائرين بعد العصر، فلمحنا لافتة تحمل اسم مجلة « صوت البحرين » ولها شهرة واسعة ذلك العهد، فكان أن اتجهنا إلى مقرها، وما كانت لنا

رغبة في محادثة من سنقابله، بل ما كان مظهرنا يبعث على أن نحادث أحداً، فوجدنا في مكتبها اثنين كانا منهمكين في الحديث عن قضايا عمال الظهران، وخلافهم مع الشركة، وفي نقد موقف الحكومة معهم، بل في النيل منها بصفة عامة، وأحد المتحدثين من محرري المجلة ولعله يدعى عبدالرحمن الباكر، فأثارني ما شاهدته من اهتمامها بمثل تلك الأمور، دون إدراك لحقائق كثيرة منها، وكانا منصرفين عن زائريهما فقلت : أنتما تجهلان ما تتحدثان فيه. وصرت أبالغ في ذكر اهتمام الحكومة بشؤون المواطنين عمالاً وبادية وغيرهم، مما أحدث لهما من الانفعال ما دعانا إلى الخروج، ويبدوا أنهما بعثا خلفنا من يتعقبنا حتى عرفا أننا نازلين في (فندق عبدالنور) ولا ينزله إذ ذاك سوى ذوي الجاه والمنزلة الرفيعة.

ثم لما نشرت إحدى صحفنا خبر عزمي على إصدار صحيفة « اليمامة » نُشر في مجلة « صوت البحرين » الخبر بأسلوب فيه غمر بوطنيتي، وبعد سنوات. وكنت مقيماً في بيروت، قدم محمد المشعل فدعوته للغداء في (فندق منتانيا) بطريق بيروت إلى (عاليه) فلما دخلنا الفندق إذا (الباكر) جالس فيه، فأشار لمحمد، فذهب إليه، ولما عاد سألني : هل تعرف هذا؟ فقلت : لعله الباكر! فقال هو هو، أتدري ما قال لي، قال عنك إنك من أكبر جواسيس السعودية !!

كان الباكر إذْ ذاك حديث العهد بالافراج عنه من الإقامة الجبرية خارج البحرين في إحدى الجزر النائية، من قبل الحكومة البريطانية، وسمح له ولصاحبيه وأحدهما علي محمد التاجر، الذي عرفته في (دمشق) سمح لهم بالاقامة في (سورية) وكان يبعث إلى مجلة « العرب » ما نشر فيها، إذ ذاك[1]، ثم اجتمعت به بعد ذلك في (الكويت) أثناء مجيئي إليه، متشاركين في لجنة اختيار جائزة أحسن كتاب عن علوم البحر.

---

(١) « العرب » س٥ ص٢٨٠، ٣٦٦، ٤٥٤، ٦٣٥، ٧٢٥ عن (الربان أحمد بن ماجد).

إلى بلاد الكويت(*)

بين البحرين والكويت: غادرت مدينة الرياض صباح يوم الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٣٧٥هـ ، وقد عقدت النية على البقاء في الدمام أسبوع العيد ، غير أنني على حد المثل (أردنا شقراء ، وأراد الله ضَرَمَى) فما إن اجتمعت بإخواني في الدمام حتى صح العزم على القيام برحلة قصيرة خارج البلاد .

وكان أن تهيأت جميع الوسائل ، ففي يوم الخميس بل في ساعة واحدة منه تمت الاجراءات التي يتوقف عليها السفر ، وصح العزم على السفر إلى البحرين صبيحة العيد .

وبعد صلاة العيد وقف ثلاثة أمام مكتب الخليج للرحلات في مطار الظهران، اثنان عازمان على السفر هما الأستاذ عبد الكريم بن جهيمان مدير صحيفة « أخبار الظهران » في ذلك الوقت، وكاتب هذه السطور، أما الثالث فهو الأستاذ عبدالعزيز التركي مدير التعليم في الظهران، وقد جاء مودعًا في أول الأمر، غير أن سماحة خلقه ونبله أبيا عليه إلاَّ مرافقة صديقيه ، فانتظم عقد الرفقة على خير ما تكون ، وفي أقل من ثلث ساعة كانت طائرة صغيرة تهبط مطار البحرين، وينزل منها مايقرب من عشرة مسافرين من بينهم هؤلاء الثلاثة .

لقد نسينا - أو جهلنا - ضرورة الحصول على شهادات تثبت أننا سليمون من عدوى الجدري ، فكانت محاورة لطيفة بين أحدنا وبين موظف الصحة ، جمعت بين الجد والهزل ، وكان من أثرها أن تخلص أحدنا حينما أبرز ذراعه وعليه أثر وخز إبرة أصيب بها منذ أسبوع في هذا المطار من هذا الموظف، وتبعه الثاني حينما لوح بشهادة كانت معه منذ بضع سنوات ، وجاز الثالث في حصانة الاثنين .

وفي خلال ساعتين كنا قد جلنا - أو جالت بنا السيارة - في مدينتي

(*) « اليمامة » ع٥-٣ الأحد ١٧ شوال سنة ١٣٧٥هـ (٢٧ مايو ١٩٥٦م) .

البحرين (المحرق) و(المنامة) وشاهدنا أبرز معالمهما، فعدنا أدراجنا إلى المطار، عازمين على السفر إلى جهة أخرى، هي (الكويت).

لم نأت البحرين لواحدة من الفوائد الخمس التي قال الشاعر عنها إنها في الأسفار، لا لنفرج همًّا، ولا لنكتسب معيشة ولا لنزداد علمًا، فكل واحد منا يعرف (البحرين) معرفة لا تحتاج إلى زيادة، وهذا مادفعنا إلى سرعة السفر منها، والهرب من حرها، التي بدأت طلائعه بحيث أن أحدنا (قعب) من زجاجات الماء البارد مارغب صاحب المقهى في بقائنا عنده مدة أطول من المدة التي اضطررنا إلى الجلوس في مقهاه، بعد أن أجهدنا السير.

في البحرين أدباء وشعراء، وفيه صحيفتان هما "الوطن" و "البحرين" وفي هاتين الصحيفتين ينشر كثير من أدباء المنطقة الشرقية من بلادنا مايكتبون، وفيهما تقرأ أدبا حيًّا، وأفكاراً نَيِّرة، ومقالات تتسم بسمة الجد، وتنطبع بطابع الإخلاص للعروبة، وتفيض بالغيرة القوية، وبالدعوة إلى التحرر من نير العبودية، ومحاربة الاستعمار أيًّا كان نوعه، مما يكتبه إخواننا أدباء البحرين وغيرهم من أدباء البلاد العربية الأخرى، ولا يتمالك القارئ- حينما يشاهد ماتنشر هاتان الصحيفتان من العجب، كيف تجرآن على نشر ذلك و(البحرين) تحت السيطرة الأجنبية، وهما مراقبتان مراقبة شديدة، بحيث لا تنشران شيئًا إلاَّ بعد السماح من السلطة المسيطرة بنشره. إن تعليل هذا - في رأيي - لايَعْدُوْ أمراً واحداً هو أن القائمين على هذه الأمور في البحرين أدركوا أن الآراء لاتحارب بالكبح والشدة، وعرفوا أن (الضغط يورث الانفجار) وعلموا أن منع الصحف عن أن تكون مرآة صادقة تنطبع فوقها آلام الشعب وآماله، ليس معنى ذلك القضاء على هذه الآمال، أو إزالة تلك الآلام، فرأوا أن ترك متنفس من طريق الصحافة، وإن كان ضاراً في رأيهم أقل ضرراً من شدة يعقبها انفجار لاقبل لهم بدفعه، ولعل هذا هومادفع

حكومة البحرين إلى أن ترفع الرقابة عن الصحافة ، فتصدر أمراً بإلغاء جميع القيود المفروضة على الصحف ، وتترك لأصحابها الحرية في أن ينشروا مايشاءون.

إن محاربة الأفكار والآراء لاتكون بطريقة كبتها والحيلولة دون إبدائها ، بل تكون بمقارعة الحجة بالحجة ، وإيضاح مافي تلك الآراء من زيف وضلال، والنفوس تتطلع - دائمًا - إلى كل ما حيل بينها وبينه ، فتجد الإنسان حينما يسمع بفكرة غريبة أو مذهب من المذاهب المتطرفة أو رأي من الآراء الشاذة ، يحاول ويسعى جاهداً لأن يعرف ذلك.

وبعد : أتراني شطحت؟ إن يَكُنْ ذلك فلا تعجب واصحبني إلى شطحات أبعد.

في مطار الكويت(*) : بعد ساعة من قيام الطائرة بنا من مطار البحرين ، هبطنا مطار الكويت ، ولم يزد بقاؤنا فيه على الوقت الذي سجلنا فيه جوازات سفرنا بدون أن ندفع رسم (سمة دخول) كما فعلنا في (البحرين) وهو رسم - وإن كان قليلاً - إلا أنه يدل بمعناه على أننا ندخل بلاداً لا يحق لنا دخولها حتى ندفع ثمنا لذلك. وقد قيل لنا حينما أظهرنا استهجاننا لهذا الأمر: إنه لا يفعل مع غير السعوديين، وأنه يفعل معهم على حد المقابلة بالمثل - ولعل ما قيل لنا غير صحيح - لم نلبث في المطار من الوقت أكثر من تسجيل جوازات سفرنا ، ثم ركبنا سيارة ابلغتنا المدينة ، وأوقفتنا عند باب (فندق الخليج الكبير) وقال السائق : هذا أحسن فندق ، فنزلنا فيه وظننا بعد أن شاهدنا غرفه وأثاثه أن هذه المدينة التي بلغت فيها الثروة والتقدم العمراني مبلغها لن تعدم من الفنادق ما هو أحسن منه ، إلا أن ظننا خاب ، فالفنادق في الكويت - مع ارتفاع أجور السكن فيها - ليست على درجة من النظافة والتنظيم، تناسب ما بلغته هذه المدينة من تقدم عمراني عظيم، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن الذين يأتون هذه المدينة من غير أهلها من الموظفين يسكنون في أمكنة هُيِّئَتْ لهم ، كرجال التعليم والمهندسين وأمثالهم .

(*) «اليمامة» ع٣٦ في ٢٤ / ١٠ / ١٣٧٥هـ.

كنت زرت (الكويت) قبل تسع سنوات ولكنني وجدتها قد تغيرت تغيراً عظيماً في جميع مظاهر الحياة، الأسواق واسعة، والطرق مبلطة منظمة، والمباني والقصور الشامخة المنشأة على الطراز الحديث قد حلت محل الدور والأكواخ التي كانت تقام بالطين واللبن.

وأجمل من هذا وأحسن، هذه القصور الواسعة الجميلة البناء، البديعة التنسيق والترتيب، في ضاحية المدينة على شاطئ البحر، وبقربها بنايات عظيمة تقع على مساحة واسعة من الأرض. إن الأولى هي المدرسة الثانوية – وان شئت فقل (المدينة الجامعية) – وإن الثانية هي (المدرسة الصناعية).

كان معظم حديث الرحلة قبل أن نبلغ الكويت، وبعد أن بلغناه قبل أن نشاهد هاتين المدرستين يدور حول المدارس والتعليم، وما يرتبط بذلك بحكم المهنة، وبحكم الصلة بصاحب تلك المهنة على حد المثل (من رافق المصلين صلى، ومن رافق المغنين غنّى) وكنا كلما شاهدنا بناية حسنة، أسرع أحدنا بالسؤال: هل هذه مدرسة؟ وقد يتلوه تعليق موجز: عندنا ولله الحمد مدارس لا بأس بها (من قبيل التواضع في التعبير) وكلمة: لا بأس بها تستعمل في كثير من المواضع للمبالغة، ولكننا بعد أن شاهدنا هاتين المدرستين بدأ حديث التعليم يقلُّ فيما بيننا. وذهبت كلمة (لا بأس بها) وتوابعها، وزالت الاستيضاحات والاستفهامات الكثيرة عن المدارس، وبناء المدارس.

لقد تغير في (الكويت) كل شيء وليس بغريب ولا عجيب أن يتغير، فالكويت أول بلد منتج للزيت في الشرق الأوسط، من حيث كثرة الإنتاج، والثروة التي يدرها الزيت على أهل هذه البلدة القليلة السكان لا تتمتع بها أية بلدة أخرى. وما يصرف منها في وجوه الإصلاح والتعمير ليس بكثير.

توجد حقول الزيت في مكان يدعى (برقان)[1] ولعلَّهُ الموضع الذي قال فيه الفرزدق:

(١) يحسن الرجوع لكتاب «ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد» عن تحديد موقع (برقان).

ولولا سيوف من (حنيفة) جُرِّدَت ... ببرقان أضحى كاهل الدين أزورا
تركن لمسعود وزينب أخته ... رداءً وجلبابًا من الموت أحمرا

ومسعود هذا هو ابن أبي زينب العبدي ، أحد الخارجين على الدولة الأموية في البحرين والكويت كانت داخلة في مسمى البحرين ، الذي يقصد به قديمًا البلاد الساحلية الممتدة من عمان إلى قرب البصرة، وكانت جزائر (البحرين) داخلة فيه، وتعرف باسم (أوال) . ثم أطلق عليها في الأزمان الأخيرة اسم (البحرين) الذي كان اسمًا شاملاً لجميع الإقليم .

ومن الجبال المشهورة قرب الكويت جبل (أوارة) وله يوم من أيام العرب في الجاهلية وأهل هذه الجهة يحذفون همزته فيقولون (وارة) .

والكويت بلدة حديثة النشأة لا تتجاوز القرن الحادي عشر الهجري، وقد خرج منها علماء وأدباء ، منهم الشيخ عبدالعزيز الرُّشَيد مؤلف كتاب "تاريخ الكويت" في جزأين ، وقد توفي -رحمة الله-[1] في (جاوى) ومنهم شيخ الكويت علمًا ووجاهة وأدبا الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ، وله مؤلفاته منها "الملتقطات" و"مقتطفات من تاريخ الكويت" . ومن شعرائها محمود شوقي الأيوبي ، وصقر بن شبيب ، وفهد العسكر ، (وقد توفي الأخير) ، ومن أدبائها عبدالله زكريا الأنصاري ، وفاضل خلف ، وكثيرون غيرهما ، وأول صحيفة صدرت فيها "الكويت" وهي مجلة أدبية شهرية أصدرها الشيخ عبدالعزيز الرشيد سنتي ١٣٤٧و ١٣٤٨ كانت تطبع في مصر.

ثم انتقل إلى بلاد (أندونيسيا) فأصدرها باسم « الكويت والسائح العراقي » بالاشتراك مع يونس بحري سنة واحدة ، ثم أصدر صحيفة دعاها « التوحيد »، نشر لي فيها ولا أزال طالبًا في (المعهد) مالا أرتضيه الآن[2] .

---

(١) توفي الشيخ عبدالعزيز سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)

(٢) انظر العدد السابع من السنة الأولى في ٢٤ / ٤ / ١٣٥٢هـ.

وصدر في الكويت مجلة أدبية تدعى «كاظمة» في سنة ١٣٧٥ رأس تحريرها الأستاذ أحمد محمد زين السقاف، خرج منها سبعة أعداد ، ثم أوقفتها الحكومة ، ومنذ ثلاثة أعوام كان يصدر في الكويت مجلتان شهريتان ، إحداهما "الرائد" تصدر عن (نادي المعلمين) والثانية "الإيمان" يصدرها (النادي الثقافي الرياضي) وقد احتجبتا كما احتجبت مجلة «الكويت» التي عادت إلى الصدور مرة أخرى ، ومجلة "البعث" التي صدرت أخيراً.

وخير صحيفة يقوم أدباء الكويت على إصدارها هي مجلة «البعثة الكويتية» التي كانت تصدر في مصر ، إلى عهد قريب فوقفت وستعود إلى الصدور ، أما الآن فلا يوجد في الكويت سوى صحيفة واحدة هي «الكويت اليوم» وهي مجلة أسبوعية تصدرها الحكومة، وتنشر فيها بلاغاتها الرسمية وأخبارها ، في مجال محدود ، ولا تعنى بما سوى ذلك عناية مجدية.

وقد دخلت الطباعة هذه المدينة ، وفيها الآن مطبعتان صغيرتان إحداهما تابعة للحكومة والثانية تجارية ، وقد جلبت الحكومة آلات طباعية كاملة وفي نيتها إنشاء دار للطباعة مهيأة بجميع الآلات والعدد .

إن هذه المدينة على تقدمها في ميادين الإصلاح العامة محرومة من وسيلة من أقوى وسائل الثقافة والمعرفة وإنارة الأذهان ، وبث الوعي ، وإنماء الشعور تلك هي (الصحافة).

وإذا كان في هذه المدينة من ينظر إلى الصحافة من ناحية أخرى فيجب أن يدرك هؤلاء بأن حرمان بلادهم من ذلك ليس معناه الحيلولة دون صحف العالم الأخرى، من أن تنشر عنهم وعن بلادهم ما يخشون نشره . وخير للإنسان أن يدرك عيبه بنفسه فيسعى لستره ، من أن يفضحه غيره بنشر مساوئه ، وإخفاء محاسنه .

والتعليم(*) في الكويت على درجة من القوة والتقدم تبعث على الاستبشار والتفاؤل بأن يبلغ هذا البلد الكريم في هذا المضمار ما يؤمله ويرجوه المخلصون من

(*) «اليمامة» ع٣٧- الأحد ٢ ذي القعدة سنة ١٣٧٥هـ (١٠ يونيو ١٩٥٦م).

أبناء العروبة في كل قطر من أقطارها .ففيه مدارس ابتدائية بقدر ما يحتاج إليه منها ، وفيه معهد ديني، وفيه مدرسة ثانوية وهي أعظم مدرسة من نوعها فيما يطلقون عليه اسم (الشرق الأوسط) وفيها طلاب من عُمَان والعراق والشام والمغرب واليمن ، وتقوم معارف الكويت بتعليمهم والإنفاق عليهم . وقد فتحت المعارف مدرسة في عُمان وأخرى في باكستان ، وفي الكويت مدارس للبنات ، يقوم بالتعليم فيها مدرسات من مصر والشام ومن الكويت .

وفي إحدى جولاتنا دخل المدينة شاهدنا قصراً جميلاً ظننا أنه من قصور الأمراء قد أُحيط بسياج من النوافذ الخشبية التي تمنع رؤية مَنْ وراءَها ، وكم كان سرورنا عظيمًا حينما استوضحنا من أحد المارة فعلمنا بأنه إحدى مدارس البنات .

ويتولى إدارة معارف الكويت أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، إلا أن الإشراف الفعلي يقوم به الأستاذ عبدالعزيز حسين ، وهو شاب كويتي تخرج من جامعة القاهرة ، وللمعارف مجلس يتولى توجيه سياسة التعليم ، ويرسم برامجه مستعيناً بآراء رجال تخصصوا في التربية والتعليم من علماء مصر والشام وغيرهما .

وممن لهم أثر كبير في توجيه سير التعليم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، والأستاذ عبد اللطيف بن سعد الشملان وهو من أهل البحرين ووالده الشيخ سعد الشملان المتوفى سنة ١٣٧٣هـ من أفذاذ البحرين وطنية وجهاداً في سبيل استقلال بلاده . وقد درس الأستاذ عبد اللطيف في مصر ، ثم تولى إدارة معارف الكويت بضع سنوات (فيما بين ١٣٦٠ و ١٣٧٠هـ) فتح خلالها أكبر عدد كبير من المدارس، وقدم الكويت عدد من المدرسين المندوبين من مصر وغيرها ، وفتحت مدارس للبنات وأنشئت مكتبة عامة تابعة لإدارة المعارف .

وتقوم المعارف ببعث عدد من نجباء الطلاب الذين اكملوا دراستهم الابتدائية في الكويت إلى البلاد الأخرى كمصر وانجلترا لاتمام دراستهم العالمية ، وفي مصر تُعَدُّ (البعثة الكويتية) من خير البعثات العربية بما تقوم به من نشاط علمي

وأدبي، فتقيم الحفلات الأدبية ، وتدعو مشاهير الأدباء والكتاب لإلقاء محاضرات عامة ، وتصدر صحيفة يشارك في تحريرها والكتابة فيها عدد من مشاهير أدباء مصر وكتابها ، وقد وقفت، فقام الطلاب بإصدار صحيفة حلت محلها وقتًا، ويؤمل بأن تعود إلى الصدور.

وعلى ذكر البعثة-أذكر انني حينما كنت في مصر عام ١٣٥٨ عرفت فيمن عرفت من الطلبة الكويتيين شابًا أديبًا يدعى يوسف المشاري ، فاتفقنا على أن يلتحق بـ(كلية الآداب) واتصلنا ببعض رجال التعليم فيها كالدكتور أحمد أمين وغيره ، ثم بعد أن حدثت الحرب العالمية الثانية كان له نشاط في ناحية من النواحي التي يحمد فيها النشاط ، فأخرج من مصر وانقطعت عني أخباره . فلما زرت الكويت سنة ١٣٦٧هـ-بينما كنت سائرًا في إحدى شوارعها شاهدت مكتبة تدعى (مكتبة الخليج) فوقفت عندها فإذا بي أفاجأ بمشاهدة ذلك الصديق الكريم، فأمضينا برهة قصيرة من الزمن استعدنا فيها شيئا من ذكريات ذلك التعارف القديم ، وقد عرفت عنده واحداً من شباب اليمن المثقفين هو الأستاذ أحمد محمد زين السقاف، وكان إذ ذاك يقوم بوظيفة التدريس في إحدى مدارس الكويت، ويرأس تحرير مجلة "كاظمة" وفي أثناء وجودي في الكويت ذلك العام أوقفتها الحكومة عن الصدور، على أثر مقال افتتاحي وصف فيه المدرسين بأنهم الجيش المجاهد في سبيل تحرير البلاد ، وطالب الكاتب من الحكومة تقدير جهودهم وعملهم. إلا أن بعض ذوي المقاصد السيئة اتخذوا من ذلك المقال وسيلة للكيد لتلك المجلة فحملوا عباراته ما لا تحتمل من وجوه التأويل ، حتى حرموا البلاد من هذه الصحيفة، وما أكثر هؤلاء الذين لم يبتل المصلحون بأشد منهم ، وما أعظم ضررهم وأسوأ أثرهم ! يستطيع الإنسان أن يحترس من ذوي الغيبة والنميمة، ولكنه لا يستطيع الاحتراس ممن يؤول كلامه ويصرفه كيفما أراد ، وقد لا يعدم من يقبل منه ذالك التأويل ، ويصادف هوًى في نفسه . هب أن صاحب تلك المجلة

افتتح مجلته بشيء من كلام الله تعالى ، إنه سيجد من اؤلئك المؤولين من يفسر عمله هذا تفسيراً غير صحيح ، وسيجد من يتقبل ذلك التفسير ، ويتخذ منه أبلغ وسيلة من وسائل الضرر والوقيعة بصاحب تلك الصحيفة . كما حدث للشاعر مع الوزير الذي آلى بأن يوقع عقابه به، إن بلغه عنه أنه تكلم فيه بحق أو بباطل، فمر بالشاعر أحد أعدائه وهو جالس في المسجد فسمعه يقرأ عرضًا عن غير قصد، قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾. فأسرع إلى الوزير وقال له: لقد سمعت فلانًا يصفك بالظلم، ويدعو عليك، فما كان من الوزير إلا أن استدعى الشاعر وأوقع به أشد العذاب، ولا ذنب له سوى قراءة هذه الاية،: أو الشاعر الآخر الذي حاول أن يأتي بجديد من المعاني في شعره فقال يصف ممدوحه :

قالوا أبو (الصقر) من شيبان مَحْتِدَهُ   فقلت : كَلاًّ ! ولكن منه (شيبان)

فما كان من سعاة الشر إلا أن أوقعوا في ذهن هذا الممدوح أن الشاعر ينفي نسبه من قبيلة (شيبان) ويطعن فيه، ولم يُجْدِ الشاعر إيضاحه للمعنى الذي أراده في البيت الثاني :

وكم أب قد علا بابن له شرفًـــا   كما علت برسول الله (عدنان)

فكان عرضة لسخط هذا الممدوح وعقابه .

ذهب بنا الاستطراد مذهبًا بعيداً فلنسر في رحلتنا (إلى العراق) بعد ان ننتهي من الكويت.

وليس في الكويت عيون، ولا آبار عذبة الماء، وكان الماء العذب قبل سنوات قليلة ينقل إليه من شط العرب من سفن شراعية، ومن آبار خارج المدينة، وفي الوقت الحاضر قامت الحكومة بإنشاء (معمل) كبير لتقطير ماء البحر ، فأصبح الماء العذب كثيراً، رخيص الثمن، وفي الكويت دار واحدة للخيالة (السينما) ولشدة الإقبال عليها شرع

في بناء ثماني دور لها . وقد قيل لنا : إن المعارف في الكويت ستستعمل الخيالة في المدارس، وسيلة من وسائل التربية والتثقيف . ومستشفيات الكويت كثيرة ومنظمة ، والعلاج فيها سهل ميسور لكل واحد ، ويعمل فيها أطباء من الشام والعراق وفي الكويت مستشفى تابع لـ(للجمعية الارسالية الأمريكية التبشيرية) .

ومما يلفت النظر في الكويت بصفة خاصة كثرة الوافدين إليه المقيمين فيه من غير سكانه الأصليين، من العراق والشام، ولإخواننا اللبنانيين فيه نشاط تجاري ملحوظ ، فكثير من المحلات التجارية والفنادق والمقاهي بأيديهم .

بقينا في الكويت يوم العيد ، ويومين بعده ، وزرنا المدرسة الثانوية وهي أعظم مدرسة فيه، تقع فوق رقعة واسعة من الأرض ، وتتكون من مبان كثيرة ، للدراسة ولسكنى المدرسين والطلاب الغرباء، ولإلقاء المحاضرات ، وللألعاب الرياضية ، وكذا (المدرسة الصناعية) وكانت زيارتنا اياها وقت الغداء، فوجدنا الأساتذة وبعض الطلاب يتناولون غداءهم فيها في مطعم على غاية من النظافة والتنظيم، وممن جرى بيننا وبينه تعارف من اؤلئك الأساتذة الأستاذ مصطفى ناجي من حدائق شبرا في القاهرة .

وقد وجد فيه الأستاذ عبدالعزيز التركي ضالته المنشودة ، فقد مضى عليه ثلاثة ايام انقطعت فيها عنه أحاديث الدراسة، والمدارس والأساتذة والطلاب والمقررات الدراسية، ومايتعلق بذلك، وفقًا للخطة المرسومة التي تقضي بأن ينسى كل واحد من الرفقة الثلاثة كل ما يتصل بعمله ، والخروج إلى جو بعيد عن ذلك، طلبًا للراحة بخُلُوِّ البال من الشواغل والأفكار المتعلقة بالعمل، ولهذا تبارى الأستاذان الكريمان في الأحاديث المتصلة بالمهنة المحبوبة، ونثل كل واحد منها للآخر ما في الكنانة ، وصادف ذلك هوى في نفس رفيقي أبي خالد ، فالجو صائف ، ومكان الحديث بارد ، وأكواب الحليب والشاهي تَتْرَى، وصحاف الحلوى اللذيذة دانية، وزجاجات الماء المثلج كثيرة، فليتحدث أبو خالد ما شاء ، وفيما طاب له الحديث .

وفي أثناء عودتنا من زيارة هاتين المدرستين مررنا بأحد المستشفيات، وكان أحدنا يشكو مرضًا ألم به قبل سفره من الدمام ، فعرجنا على المستشفى، وكان الوقت ظهراً، والأطباء في مثل هذا الوقت ينصرفون إلى منازلهم، غير أننا دخلنا على أحدهم قبل أن ينصرف، فدلف إليه صاحبنا المريض شاكيًا، فلما سأله عن علته قال : إنني جرثومة أمراض من رأسي إلى قدمي . وكان هذا الطبيب على درجة من اللطف بخلاف كثير من الأطباء الذين لا يتحملون مثل هذا المزاح الثقيل. فقال : أنا وقت عملي قد انتهى، ومن الممكن أن أعالج أعظم مرض تشكو منه، وسيأتي الآن طبيب آخر يعالج المرض الثاني ، وهكذا تشفى. فأعجب مريضنا بهذا (الحل) الصحيح، وخرج من المستشفى وقد ملأ جعبته من الأدوية، ونفسه من الاعجاب بأخلاق هذا الطبيب، وتمنى أن يهب الله أطباءنا كلهم من سماحة الخلق، واستعمال الرفق واللطف بالمريض، ما يكون له أكبر الاثر في الانتفاع من علاجهم، فإن الطبيب يؤثر على المريض بأخلاقه ومعاملته ، أكثر من تأثيره بعلاجه.

رحلة أخرى إلى الكويت : كان عبدالكريم قاسم – حاكم العراق – قد هدد بالاستيلاء على الكويت، فدعت حكومته وفود صحفية من المملكة ومصر والشام وغيرها من البلاد لإيضاح القضية، واستجابة لهذه الدعوة الموجهة من وزارة الإعلام الكويتية، سافر وفد صحفي يمثل جميع صحف المملكة، ووسائل الإعلام الأخرى – كالإذاعة وغيرها.

وكان الوقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حينما هبطت الطائرة في مطار الكويت، ونزل منها وفد الصحافة السعودية، ليجد المطار خاليًا إلاَّ من بعض الموظفين والحراس، ومن الشيخ فهد النفيسي الممثل التجاري السعودي، الذي كان وحده مستقبل الوفد في المطار، وبعد الاستراحة سار الشيخ النفيسي بالوفد إلى (دار الضيافة) فلم يجد فيها مكانًا مهيأ لنزوله، فسار إلى فندق يدعى (فندق

الخليج الذهبي) فكان مملوءاً بالسكان، فكان السكن في فندق يدعى (فندق كارلتون) كان الوفد هو أول من نزل فيه، لحداثة عهد افتتاحه، وكان جديداً نظيفًا مكيف الهواء، والوفد يتألف من ثمانية عشر أو كما قال الشيخ فهد النفيسي (ما شاء الله طابور كامل)!!

وأجرة الليلة الواحدة عن كل إنسان ليست بالكثير إنها سبعة دنانير (سبعة جنيهات استرلينية فقط)!

علق الشيخ النفيسي على عدم استقبال الوفد الصحفي في المطار من قبل دائرة المطبوعاتِ الكويتية، معتذراً بأن عدم معرفة الوقت الذي كان مقرراً أن يصل الوفد إلى الكويت فيه، وبأن وصوله متأخراً هما السبب في ذلك، وأضاف بأنه في مثل هذه الأحوال ينبغي إخبار الجهات المختصة بوقت الوصول، وبأسماء من يتكون الوفد منهم، لكي تحجز لهم الأمكنة في الفنادق، وتكون جاهزة ساعة وصولهم .

فوجئ الوفد - في مطار الكويت - بخبر إلغاء (المؤتمر) الذي دعي الوفد الصحفي لحضوره، كما فوجئ في مطار الظهران بأن الجو قد لايسمح للطائرة بمواصلة السير، واننا قد نبيت في الظهران، والمؤتمر قد يعقد الصباح قبل الوصول إلى الكويت، بعد أن أوينا إلى فرشنا للنوم في (فندق مطار الظهران) وقد بلغت الساعة الثانية عشرة ليلا - دعينا إلى التوجه إلى الطائرة لمواصلة السفر .

لم يوضع للوفد الصحفي برنامج يسير عليه، ولهذا فقد صار الملل يتسلل إلى النفوس.

من عادتي في الصباح المبكر أن أمضي نحو ساعة في المشي، بحيث لا تقل المسافة التي أسيرها عن خمسة أكيال، فاتجهت -كالعادة- مع شارع طويل لعله من أطول شوارع المدينة، كان يدعى (شارع الجهراء) في زيارتي الأولى للكويت وقد غير اسمه الآن، وأصبح بما يحفل به من معارض تجارية، وبنايات حديثة جميلة من أعظم الشوارع، كما سمي باسم أحد الأمراء. ولفت نظري حين مررت بأحد تلك

المعارض كبره، فدخلته فمررت في بهوه برجل كبير السن سلمت عليه، وأنا مستمر للدخول إلى أقصى المعرض، فأشار لي بالجلوس إلى أحد الكراسي القريبة منه، وسألني ممن أنا فأخبرته، فنال من المملكة ومن البلاد التي قدمت منها، فأردتُ معابثته بطريقة الممازحة، فقلت: كيف تستقبلني بمثل هذا وقد حضرنا للتعبير لكم عما تبذله حكومتنا وبلادنا في الدفاع عنكم؟ وأثناء الحديث سمعنا دَوِيًّا مزعجًا فقال: اسمع اسمع! هذي طريقة الدفاع عنا، هذه أصوات مدافع البارجة الحربية البريطانية تبادل حامية الكويت البحرية التحية. انسللت خارجًا من المعرض قبل أن أشاهد ما يحويه من أقسام متعددة. مشحونة بأنواع المعروضات.. وأنا أردد المثل القديم (قطعت جهيزة قول كل خطيب)[1].

يحمل المعرض اسم (الطخيم) وهو علم لرجل من أهل مدينة (حايل) انتقل في صغره إلى (الكويت) فنشأ وشب، واستقر، وتعاطى بعض أنواع الحرف، فاكتسب مالاً عظيمًا بحيث أصبح من مشاهير أثرياء هذه البلاد، وكان الرجل مولى -على ما يقال- ومنذ عهد قريب، قدم الكويت من أهل (حايل) من ادعى ولاءه، حتى تدخلت الحكومة في الأمر، بحل القضية بطريقة مرضية، ومن هنا كان متأثرًا بما حدث له حين بدأ الحديث معي.

عدت للفندق وبعد تناول الافطار في صبيحة السبت، وبعد أن ارتفع النهار بدأنا نتسلل أفراداً من الفندق لمشاهدة معالم المدينة فاستأجر خمسة من الإخوان أنا أحدهم سيارة (واجور السيارات غير محددة) فكانت ثلاثة ارباع الدينار عن الساعة الواحدة – أي ما يقارب تسعة ريالات سعودية – وكان الإتجاه إلى (مطبعة الحكومة) غير أن أحد بوابيها وكان لبقًا حينما علم بأننا نريد مشاهدة آلات الطباعة ذهب بنا إلى الإدارة، وإلى المحل الرئيس، إذ لا يسمح بالزيارة الا بعد إذن من (دائرة

(*) لإيضاح هذا المثل يحسن الرجوع لكتاب «مجمع الأمثال» للميداني.

المطبوعات والنشر). وما كانت النية متجهة إلى زيارة هذه الدائرة في مثل هذا الوقت، ولهذا فقد ذهب بعض الإخوان إلى الاتصال بأي موظف يستطيع أن ييسر لنا زيارة المطبعة ، ولا داعي لأن يعلم شيئًا من خبرنا. غير أن هذا لم يتم، فقد لحق باقي الإخوان بمن سبقهم، فاجتمعوا في مكتب معاون مدير المطبوعات والنشر ، ولعل أحدهم قد قال له وهو لا يعرفه: إن صاحبنا (يعنيني) ينتظرنا في السيارة، فأرسل إليَّ، وبعد التحية ومحادثة بعض الإخوان، قال لي: هل بينك وبين (فلان) قرابة ؟ فقلت: نعم بيننا قرابة ، وأردت الوقوف عند هذا الحد من الكلام ، إلا أن أحد الإخوان لم يكتف بهذا فقام يعرف الحاضرين واحداً واحداً كانت هذه هي المرة الثالثة التي اجتمع فيها بالأستاذ أحمد زين السقاف، مساعد مدير المطبوعات، وكانت المرة الأولى حينما زرت الكويت سنة ١٣٦٧هـ- فقد كنت جالسًا في مكتبة تدعى (مكتبة الخليج) اتحدث مع صاحبها أحد شباب الكويت الذين عرفتهم في مصر سنة ١٣٥٨هـ في أول بعثة كويتية تتكون من اربعة من الشبان هم: عبد العزيز حسين، مدير المعارف الآن، يوسف عبد اللطيف العمر-أحمد مشاري العدواني-يوسف المشاري الحسين، والأخير هو صاحب المكتبة [1]- كنت جالساً فإذا بشاب أسمر اللون ممتلئ صحة ونشاطًا، متدفق الحيوية، يقف علينا فيسلم، ثم يقول للأخ يوسف : يظهر أن الأخ - مشيراً إليَّ - سعودي؟ فقلت له : وكيف عرفت أنني سعودي ؟ فأشار إلى لحيتي - قائلا : هذه هي العلامة الفارقة ، أو (جواز السفر). كان الأستاذ أحمد السقاف في ذلك الحين مدرسًا، وكان يصدر مجلة تدعى «كاظمة» صدر منها بضعة أعداد ، وفي الأيام التي زرت فيها الكويت في عام ١٣٦٧هـ صدر أمر أمير الكويت بإيقافها، بعد نشر مقال افتتاحي فيها عن المعلمين ، وعدم تقديرهم، بعد أن لفت النظر من قبل (المعتمد البريطاني).

---

(١) كان الشيخ عبدالله القصيمي أخبرني بقدوم هؤلاء، وإنزالهم في أحد الأروقة، التابعة للأزهر، وهم حديثو عهد بالقدوم، فقمنا بزيارتهم توفي القصيمي في القاهرة يوم ١٥ /٨/١٤١٦هـ.

والمرة الثانية اجتمعت به في (فندق نسيونال) في القاهرة، بعد أن أصبح معاونًا لمدير المطبوعات والنشر، فقدم القاهرة لإعداد العدة لإصدار «مجلة العربي».

وفي هذه وهي المرة الثالثة بدت عليه الدهشة والاستغراب لتغير حالي - كما يقول - وخاصة ابيضاض اللحية ، وبدأتُ الحديث عن (التراث العربي) الذي تقوم دار المطبوعات بنشر سلسلة من الكتب الخطية بهذا الاسم ، وكان الرجل - فيما يبدو - في حالة لا تمكنه من الانصات إلى ما أقول، لأن الحالة في صبيحة هذا اليوم في الكويت غير عادية، وهو في شغل شاغل من الإشراف على البيانات الرسمية في طبعها وتوزيعها، وفي استقبال الوفود الصحفية ، وترتيب شؤونهم ، وغير ذلك من أعمال (دائرة المطبوعات) .

والأستاذ أحمد محمد زين علوي السقاف ، من أسرة السقاف المعروفة في الحجاز، وفي اليمن وفي غيرها من الأقطار العربية ، وقد ولد سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) في قرية من ملحقات عدن تدعى الوهط (السادة)، واستقر في الكويت من سنة١٣٦٢هـ (١٩٤٢م)، بعد أن أقام في بغداد بضع سنوات، وهو شاعر رقيق، وله مؤلفات عن اليمن ، وجنوب الجزيرة .

دعا الأستاذ السقاف رجلاً طاف بنا على أقسام المطبعة الحكومية ، وتقع هي ودائرة المطبوعات ، وإدارة مجلة «العربي» وكل ما يرتبط بدائرة المطبوعات من إدارات في بناية واحدة، تتكون من طابق أرضي ، وقد شيدت حكومة الكويت لهذه الدائرة داراً واسعة عظيمة ، على أحدث طراز لم ينته بنيانها بعد ، وقد أشرف على الانتهاء .

لم نشاهد في المطبعة شيئًا جديداً ، فقد نشرت مجلة «العربي» في أحد اعدادها وصفا مصوراً كاملاً، ولم نر شيئا أكثر مما قرأناه في تلك المجلة.

عدنا إلى الفندق فوجدنا الإخوان يستعدون للذهاب إلى دار الضيافة لمقابلة الشيخ عبدالله السالم الصباح حاكم الكويت - على ما قيل لنا -.

ووجدنا أن دائرة المطبوعات قد هيأت لكل ثلاثة أو اثنين من الصحفيين سيارة، وعينت لهم مرافقًا ، يصاحبهم في تنقلهم ، وكأنها أرادت أن تدع للوفود الصحفية – أو بمعنى أصح – الوفد الصحفي السعودي، مطلق الحرية في قضاء وقته، كيف شاء، ولهذا فلم تضع أي برنامج للزيارات أو التنقلات، أو بمعنى أوضح ليس هناك ما يتطلب مثل هذه!

كان الرفاق في السيارة رياض طه من لبنان (فلان) داوود من الجمهورية العربية المتحدة ، حمد الجاسر، البزري المصور من مديرية الإذاعة والصحافة السعودية .

ما كنت حريصًا ولا راغبًا ، برفقة هؤلاء الصحب، من الصحفيين، وما كنت ميالاً ولا راغبًا – أيضًا – بالجولات الصحفية التي يقوم بها إخواننا هؤلاء، وخاصة في بلد مثل (الكويت) أصبح كل واحد من أهله ينظر إلى الصحفي نظرة غير مشرفة ولا كريمة، لكثرة من تسمى بهذه (الحرفة) (واحترفها) واتخذ منها وسيلة للتكسب، وقد حقق الله رغبتي مدة مقامي هناك .

أتى إليَّ الأستاذ عبد الله بن إبراهيم المفرِّج – بتشديد الراء وكسرها – وهو شاب يشغل وظيفة في مكتب البعثات في معارف الكويت، وقد وكل إليه أن يرافقني – فأخبرني بأن سمو الشيخ سيعقد مؤتمرًا صحفيًّا في (دار الضيافة) وأن سموه سوف يجيب على الأسئلة التي يوجهها الصحفيون، وذلك في الساعة الحادية عشرة، وقد تأهب الإخوان للذهاب إلى دار الضيافة، وفي أثناء السير إليها سمعت من مذياع السيارة البيان الذي أذاعه المجلس الأعلى بشأن طلب سمو أمير الكويت من الحكومة البريطانية قوات عسكرية ... ولقد أصبت وأنا استمع إلى ذلك البيان بالأسى والألم ، وأدركني من الحيرة والذهول ، ما جعلني أطلب من سائق السيارة أن يقف لأستمع إلى البيان مرة أخرى ، وكان المذياع في ذلك اليوم السبت ١٨ / ١ / ١٣٨١هـ ١ / ٧ / ١٩٦١م ، يكرر إذاعة البيان في الساعة الواحدة مرات .

تقع (دار الضيافة) على شاطئ البحر ، وعند الوقوف عند بابها ابصرنا بارجة حربية بريطانية قد رست بقرب الكويت ... أبديت للأخ المرافق عدم رغبتي في

حضور المؤتمر الصحفي وأن أذهب لزيارة المكتبة العامة، فلم يمانع بل سار معي.

توافى الرفاق في دار الضيافة فوجدوها مكتظمة بالصحفيين من عرب وغيرهم، من لبنان والأردن ومصر والشام .

لم يحضر الشيخ الحاكم ، ولم يحضر مدير المطبوعات ، وكل ما حدث أن بعض الصحفيين كتبوا أسئلة قدموها لمرافقيهم ، وهؤلاء سلموها لأحد موظفي المطبوعات وبعد الانتهاء من كتابة الاسئلة وتقديمها ، طُلِب من الحاضرين أن يتوجهوا إلى مدير المالية وشؤون الزيت، وهو أحد الأمراء، وبعد السلام عليه تحدث عن الوضع الحاضر، وشكر الصحافة العربية وطلب منها مناصرة الكويت ، فقام صاحب جريدة " الكفاح " الأستاذ رياض طه ، وتكلم (باسم الصحافة العربية !) ووعد بأن هذه الصحافة ستكون دائمًا في نصرة الكويت ... وأطال الكلام في الموضوع ... ثم ارتجل الأستاذ حسن الأشعري مدير المطبوعات ورئيس الوفد الصحفي السعودي كلمة أشار فيها إلى أن ما قامت به البلاد السعودية ملكاً وحكومة وشعبًا تجاه القطر الشقيق الكويت، هو ما يمليه الواجب، وهو ما ستقوم به تجاه كل قطر عربي ... وكانت كلمة الأستاذ الأشعري متزنة ، متفقة مع ما كان ينبغي أن يقال في ذلك المقام. ثم انتهى الاجتماع ...

ولم تتعد جولة بعد عصر يوم السبت مشاهدة بعض معالم المدينة ، الشوارع المزدوجة المبلطة التي تنتشر على جوانبها القصور والبنايات العظيمة ، ثم تمتد وتتجه إلى الصحراء غربًا وشمالاً وجنوبًا حيث لا تتجه صوب غاية ، باستثناء طريق الكويت إلى سفوان[1] فالزبير، وتتجه إلى الشرق حيث يردها البحر، وهذه

---

(١) جنى الجهل على هذه الاسم فأصبح يسمى (صفوان) بفتح الصاد واسكان الفاء، والصواب (سفوان) بفتح السين والفاء ، وهو من أشهر مناهل العرب المعروفة ، وفيه يقول الراجز :

جـارية بسـفـوان دارهـا   لم تدر ما الدهنا ، ولا تعشارها
تمشي الهوينـا ، مائلا خمارها   ينحـل مـن غِلْمَتِهَا ازارهـا

ويقول الشاعر :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم   تلاقوا غدا خيلي على (سفوان)

وهي الآن قرية صغيرة .

القصور الجميلة التي أراد بعض أصحابها أن يجعلها تضاهي حتى بإحاطتها بالحدائق ، أجمل القصور في أرقى المدن، والأشجار الملتفة الأغصان، رغم قلة المياه في هذه البلاد ، وهذا المسجد الذي أراد القائم بعمارته أن يجعله معرضًا للفن الحديث ونسي – أو جهل – أنه يبني مسجداً للعبادة لا متحفًا ، وهذه الكنيسة الضخمة الجاثمة في وسط البلدة، مطلة بوجهها على البحر ، بل هذه المدارس الجميلة البناء– مع بساطتها – المحاطة بالحدائق الصغيرة البديعة المنظر .

رغبت في عصر ذلك اليوم بزيارة علامة الكويت وشيخه ومفتيه الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ، الذي عرفته قبل بضع عشرة سنة في زيارتي الأولى للكويت ، ولكن قيل لي بأن كبر سنه ، وتأثر صحته يستلزمان تحديد وقت الزيارة .

والشيخ يوسف هو أبو كل دعوة إصلاحية في الكويت فهو – لمكانته الاجتماعية والعلمية – ذو أثر عظيم نافع في جميع المجالات الحيوية في هذه البلاد .

وقد كانت دراسته الأولى في الأحساء والبحرين ، ومكة ، حيث تضلع في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ، ويُعَدُّ من أثرياء الكويت في الماضي قبل أن تطغى الثروة البترولية ، في هذه البلاد . ومن مؤلفاته : «الملتقطات»، جزءان ، و«مقتطفات من تاريخ الكويت» .

والشيخ القناعي قد أشرف على المئة من السنين من عمره الحافل بالأعمال الوطنية النافعة .

وفي ليلة الأحد دعى بعض الرفاق ، وأنا معهم إلى (القهوة) دعاهم آل عيسى الكرام ، وكان أبرز ما في هذه الدعوة مائدة حوت ما لذ وطاب من صنوف فواكه الشام وبلاد فارس والهند ، ثم توالت في الليلتين التاليتين من الأخوين (البواردي) . و (ابن ثنيان) وغيرهما ، فانقضت الليالي قصيرة بكرم الإخوان، والانس بهم كما قال الشاعر : (وأيام السرور قصار) أما الرفاق الآخرون فقد فضلوا

مشاهدة بعض الأفلام (السينيمائية) وفي الكويت دور للسينما ، تعرض مختلف الافلام من عربية وغير عربية .

وفي الكويت (مرناة) بكسر الميم - او كما يسميها الدكتور أحمد زكي (تلفاز) بكسر التاء، أو على رأي الأستاذ محمود تيمور (الإذاعة المرئية) من الرؤية .

وعلى ذكر الإذاعة - بعد العودة إلى الفندق في مساء يوم السبت : أتى إليَّ الصديق الأستاذ حسن الأشعري مدير المطبوعات ورئيس الوفد الصحفي، فقال لي : هنا مندوب من الإذاعة الكويتية معه آلة تسجيل ، يريد أن يسجل كلمات لبعض الإخوان ، ويريد منك كلمة. فلما قابلت هذا المندوب، وجه إليَّ اسئلة تتعلق بالوضع الحاضر، والتفاف الكويتيين حول حاكمهم... وما شاهدته في الكويت مما يتعلق بهذه الموضوعات. فقلت له: قد تكون أنت أو غيري من الإخوان أقْدَرُ مني على الكلام في هذه الموضوعات، أما إذا أردت كلمة عن (الماضي) فأدن آلتك واسمع، و (ثرثرت) له عن بعض الاحداث التاريخية القديمة، وعن أصول نسب بعض الأسر الكويتية، وعن طرف موجز من ترجمة مؤرخ الكويت وأديبه ، الشيخ عبد العزيز الرشيد (بضم الراء) مؤلف كتاب « تاريخ الكويت » وصاحب مجلة « الكويت » التي هي أول مجلة صدرت في شرق الجزيرة العربية ، في عام ١٣٤٧ هـ - حتى اكتفى، بل رآني أبعدت عما سيضعه من طُعْمٍ في شباكه، بالغوص في أعماق التأريخ، فأظهر الاكتفاء، فأحسن إلي! ثم سجل كلمتين جيدتين للأخوين الأستاذين عزيز ضياء، ومحمد حسين زيدان، -رحمهما الله- وانصرف .

وعلى ذكر الصحافة تحسن الإشارة إلى أنه يصدر في الكويت الآن من الصحف : « الكويت اليوم » وهي المجلة الرسمية تنشر البلاغات والاعلانات الحكومية، والنظم والقوانين، وقد تنشر بقلة بعض المقالات التي تتعلق بهذه البلاد، مترجمة عن بعض الصحف الغربية ومن الصحف التي تصدر هناك « الرسالة » و « الهدف » و « الرأي العام » وكلها أسبوعية، والغريب أن بعضها يطبع في (بيروت) . وهذه الصحف - مع

جمال مظهر بعضها من حيث الاخراج - هزيلة من حيث المادة ، وأقوى مجلة من هذه الناحية، لافي الكويت وحدها ، بل في أقطار البلاد العربية كلها هي مجلة " العربي " هذا من حيث الجمال في الاخراج، أما من حيث (الدسومة) في المادة فاعتقد أنه قل أن تفوقها مجلة عربية تصدر الآن .

كان في الكويت صحف أخرى ، وكان فيه (نواد) أدبية في الماضي ، غير أن بعض الحركات قضت على كل ذلك ، وعلى كثير من أوجه النشاط الأدبي والاجتماعي، ويوجد الآن ناديان ولكنهما تحت إدارة الشؤون الاجتماعية ، وهي دائرة حكومية .

وفي صباح يوم الأحد ، تأهب الرفاق للذهاب إلى حاكم الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح - للسلام على سموه ، فابديت لرفيقي رغبتي في زيارة الدكتور أحمد زكي - أحد اعضاء مجمع اللغة العربية ، ورئيس تحرير مجلة "العربي" - ثم زيارة (المكتبة العامة) - وفي الإخوان البركة للقيام بأداء الواجب (الرسمي) .

تقع المكتبة العامة ، في وسط الأحياء القديمة من مدينة الكويت ، ولها فرعان في الأحياء الجديدة ، وهي في بناية حديثة ، إلا أنها ضيقة .

ويتولى إدارتها الشيخ محمد محمد صالح ، وهو لطيف المعشر ، كريم الخلق، عرفته في القاهرة ، عن غير قصد ، فقد كنت سائراً على ضفاف النيل في الجيزة ، فرأيت رجلاً توسمت فيه العلم ، وعرفت من قيافته أنه من سكان شرق الجزيرة ، فبدأته بالسلام ، فرد بأحسن منه ، وجرى التعارف فجلسنا في أحد المقاهي نتحدث عن الكتب والمكتبات .

ولما دخلت المكتبة - عليه في مكتبه، أراد الرفيق الاخ الأستاذ عبد الله المفرج أن يعرفني . بادره قائلاً : أهلاً وسهلاً ... أنا أعرفه كل المعرفة .

تحتوي المكتبة العامة وفرعاها على (٢٦٥٠٤) ستة وعشرين ألفًا وخمس مئة واربعة من المجلدات والكتب مصنفة فيها من حيث الترتيب على طريقة

(ديوي) العشرية، مع إجراء تعديلات تقتضيها البيئة واللغة والتاريخ ، وتحتل كتب الأدب الدرجة الاولى من حيث الكثرة حيث تبلغ (٨٣٤٣) مجلداً ثم كتب التاريخ وتقويم البلدان (الجغرافية) وعددها (٥١٤٣) مجلداً ويرتاد المكتبة وفرعيها للمطالعة عدد كبير، إذا قيس بعدد سكان الكويت ، وبكون الطبقة المثقفة من بينهم قليلة الفراغ ، إذ بلغ عدد زائري المكتبة في عام ١٩٦٠م (٤١٧٤٣) . وتقوم المكتبة بإعارة الكتب، إعارة خارجية ، فقد أعارت في ذلك العام (١٢٧٠) – كتاباً . وفي المكتبة قسم كامل للتجليد ، وفيها (معرض) في غرفة ضيقة ، عرضت فيه انواع النقود المستعملة في الكويت منذ إنشائها حتى العصر الحاضر، وبعض نقود البلاد الأخرى ولكنها قليلة، وليست بذات أهمية، وفي المعرض كتب مخطوطة، وأقدمها لا يرقى إلى القرن الحادي عشر الهجري، بل كلها بعده. والمكتبة فقيرة من حيث المخطوطات، ومن الميسور السهل لمثل مكتبة الكويت، البلد الغني، المنفق في بعض وجوه الانفاق إلى درجة التبذير ، الحصول على نسخ مصورة لأمهات كتب الأدب والتاريخ وغيرهما من التراث العربي، الذي لا يزال الكثير من كتبه مخطوطات ومن أحسن ما شاهدت في هذه المكتبة – بعد لطف أخلاق مديرها– حسن رفوف الكتب ، فالصوانات (الدواليب) التي تحفظ فيها الكتب، مفتحة الجهات الأربع بحيث لا تجد الحشرات أمكنة تختبئ فيها ، ثم هي من الحديد ذي القوائم ، التي لا تستطيع الفئران الصعود عليها. وذكرت وأنا في داخل المكتبة أشاهد خزانات الكتب ، ما شاهدته وأنا في (مؤسسة كايتاني) التابعة للمجمع العلمي الإيطالي ، فقد قدم لي الاستاذ غبريَلّي[1] أحد المخطوطات ولما فتحته وجدته مملوءاً بحشرات صغيرة جداً . ولما لفت نظر الأستاذ غبريَلّي والاستاذة (لورا) إلى ذلك اتجه الحديث بيني وبين الأستاذ إلى البحث عن اسم (د . د . تي) في اللغة العربية. وخرجنا عن الموضوع .

---

(١) توفي عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م) وانظر ما كتبت عنه كتاب «رحالة غربيون في بلادنا» ص٣٦٨ وكذا الاستاذة (لورا) .

وفي (دائرة المطبوعات والنشر) زرت في ذلك الصباح العالم الجليل الدكتور أحمد زكي، رئيس تحرير مجلة " العربي " فقضيتها سويعة من أجمل سويعات العمر ، في الحديث مع هذا العالم الهادئ الوديع المتواضع ، حديثًا متشعبًا ، ولكنه لم يخرج عن (مجمع اللغة العربية) وبعض المؤلفات اللغوية – وما شاكل هذا مما هو بعيد كل البعد عما يحس به مَنْ حولنا[1]. وقد أكرمني حين زار (الرياض) بما أضفى عليَّ في المجلة من ثناء.

ومجلة " العربي " تصدرها دائرة المطبوعات والنشر – ولا مجال للحديث عن هذه المجلة – فالقراء يعرفون عنها ما يريدون معرفته . ولعل بعضهم لا يعرف أن هذه الدائرة تقوم بعمل جليل في المجال العربي ، ذلك أنها منذ منتصف عام ١٩٥٩م بدأت بنشر مجموعة من المخطوطات العربية أطلقت عليها اسم : (التراث العربي) – وقد تحدثت « اليمامة » عن هذا العمل في ذلك الحين – ونزيد الآن أن هذه الدائرة – كما جاء في مقدمة أول كتاب نشرته :– (رأت أن تسهم في نشر التراث وكشفه ، وها هي ذي تقدم سلسلة من نوادر ما ألفه العرب باسم (التراث العربي) تهدف إلى توضيح ملامح حضارتنا ، والكشف عما غمض من تاريخنا) في ٢٥ / ١٢ / ١٣٧٨هـ –١ / ٧ / ١٩٥٩م . وقد نشرت من ذلك العهد حتى الآن سبعة مجلدات هي :

١– كتاب « الذخائر والتحف »، منسوب إلى (القاضي الرَّشيد بن الزبير) من أهل القرن الخامس الهجري، حققه الدكتور محمد حميد الله، ووقع في (٢٢ + ٣٦٧) من الصفحات مضافًا إليها (١٦) صورة تحفة من آثار المتحف الإسلامي في القاهرة .

٢– « الاضداد في اللغة » لمحمد بن القاسم الانباري المتوفى سنة ٣٢٧هـ – وقد طبع مرتين قبل هذه – وقد حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، وصفحاته (١٠ + ٥١٧).

---

(١) انظر ترجمته في كتاب « المجمعيون في خمسين عامًا » الصادر عن (مجمع اللغة العربية) في القاهرة سنة ١٤٠٦هـ ص٤٥ – توفي – رحمه الله – ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) عن عمر يناهز ٨١ عامًا.

٣- « المصون في الأدب » ، لأبي أحمد العسكري ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ، حققه الأستاذ عبدالسلام هارون ، وهو في (١٢ + ٢٨٤) من الصفحات .

٤- « العبر ، في خبر من غبر » ، في التاريخ ، للذهبي المتوفى سنة ٨٤٧ - الجزء الأول - حققه الدكتور صلاح الدين المنجد ، وصفحاته تبلغ (٦ + ٥٨٢) .

٥- « العبر في خبر من غبر »- الجزء الثاني - وحققه الأستاذ فؤاد السيد ، وصفحاته (١ + ٥٢٤) .

٦- « رسائل الصابي، والشريف الرضي » تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم في (١٢٠) صفحة وقد تحدثت « اليمامة » عن بعض هذه الكتب وستتحدث عن بعضها، ومما يلاحظ على هذه المطبوعات بصفة عامة - .

١- أنها تطبع على أجود أنواع الورق من نوع (الكوشيه)، المخصص للتصوير، ومن الخير أن تطبع على ورق جيد، لكي يوفر قسم مما يصرف عليها لتطبع به كتب أخرى، فتراثنا ضخم، وإذا لم تقم بنشره وإحيائه الحكومات ، فان الجهد الفردي يعجز عن ذلك ، وإذا أنفقت دائرة النشر في الكويت بهذا السخاء ، وبهذا الكرم - الذي يتجاوز الحد المطلوب - فقد يأتي يوم تعجز عن مواصلة العمل .

٢- من بين هذه الكتب ما هو من قلة الفائدة بدرجة تحمل على القول بان الإنفاق على طبع غيره أفضل ، كرسائل الصابي والرضي، ومنها ما قد طبع كالأضداد - فإعادة طبعة لا يتمشى مع ما تقصده دائرة المطبوعات (كشف) التراث فهذا مكشوف ومعروف .

٣- لم ينل أكثر الكتب التي نشرتها الدائرة حقها من التحقيق والعناية بالتصحيح ، وحسب القارئ أن يطالع الكتاب الأول منها، ليظهر له أنه لا يستطيع معرفة اسم المؤلف، فضلاً عن عثوره على ترجمة مفصلة لحياته، فهو آونة يسمى (القاضي الرشيدبن الزبير) وأخرى (القاضي أحمد بن القاضي الرشيد بن الزبير) وهكذا .

وليطالع الجزء الأول من « العبر » ليجد أن المحقق الفاضل لم يستطيع قراءة بعض

الجمل، أو الكلمات فتركها على علاتها و(عللها)، بل يجد أشياء أخرى غير هذه.

ولهذا فخير لدائرة المطبوعات ألا تكتفي بجهد فردي في هذا السبيل ، بل بتأليف لجنة للإشراف على ما تريد القيام بطبعه ، ودراسته قبل الطبع، مما يجعل ما تقوم به في هذا السبيل قائمًا على أساس قوي ، ومحققًا للغاية التي تتوخاها هذه الدائرة من حيث خدمة الأمة العربية بنشر تراثها نشراً يستفاد منه . وينتفع به[1].

كلمة عن الوفد: يضم الوفد نخبة طيبة من أبرز الصحفيين والأدباء ورجال الأعلام، ويرأسه الأستاذ حسن الأشعري من موظفي (وزارة الإعلام) فهو (مدير المطبوعات) ومعه آخرون من الوزارة، ومن الصحفيين من مديري الصحف ورؤساء تحريرها، الأساتذة أحمد السباعي، ومحمد حسين زيدان، وعزيز ضياء، وغيرهم، ومعهم عدد من العاملين في الصحافة، ممن يعدون حديثي عَهد بأعمالهم، وما كان لإضافتهم إلى الوفد معنى، إلا أنه روعي تحقيق رغبة مديري صحفهم بمرافقتهم.

وممن كتب عن تلك الأستاذ عزيز، مندوب جريدة «عكاظ» – وهو والأستاذ الأشعري مثالان في الوقار، وإبراز صحافة بلادنا بخير صورة، والظهور بما ينبغي أن يظهر به الوفد في جميع أحواله – وكان مما كتب الأستاذ عزيز[1]: وهنا، أحب أن أقف لحظات، أسبق بها تسلسل هذه اليوميات لأعبر بكثير من العجز، عن إعجابي وتقديري البالغين بالصديق العلامة، الأستاذ حمد الجاسر. . الذي لا أجد وصفًا لما يتمتع به من خلق فاضل واريحية كريمة، ورجولة كاملة، إلا بأنه (الرجل الرجل) . . الرجل الذي جعل كل فرد منا يشعر بأن الرجولة ليست صوتًا يصخب، ولا صدراً يرتفع ويتيه، ولا أوداجًا تنتفخ، وإنما هي البساطة، لا التبسط والصدق لا التظاهر به، والنبل لا التنبل والفضل والمروءة يترقرقان، ترقرق الماء النمير، لينهل منه الجميع، وليرتوي منه الظامئون إلى نمط في أخلاق الرجولة الفاضلة ربما كان نادر المثال، في هذه الأيام. انتهى

---

(١) وقد استجابت لهذه الفكرة، فكونت ممن اختارت بالاسم لا بالفعل (انظر التفصل كتاب «نظرات في كتاب تاج العروس» المقدمة و«العرب» س٥ ص٤٧٩ .

(٢) جريدة «عكاظ» في ٢٥ / ١ / ١٣٨١هـ.

أحضرت السيارات للتوجه للمطار وللعودة مع بعض المرافقين من الإخوة الكويتيين، وكان من اللياقة أمامهم الإعراب عما لقيه الوفد خلال إقامته في هذه المدينة، من كرم الوفادة، والرعاية التامة، إلا أن أحد الإخوة بدرت منه كلمات غير مناسبة للمقام من حيث التطلع للهوية !! وعند سلم الطائرة أتى أحد الإخوة الكويتيين وقام بتوزيع الساعات على أفراد الوفد. فما كان من الأخ المرافق لي وقد رأى امتناعي عن تناول ما قدم لي إلا أخذها وقدمها لي فوضعتها في جيبه بعد أن اختار لي المقعد في الطائرة، وربط الحزام وأهوى ليسلم علي إلى أن وضع الساعة في حجري!!

على هامش الرحلة إلى الكويت(*) : من كتاب بعث به إليَّ الأستاذ الكريم فاضل الخلف من أدباء الكويت المعروفين: مجلة «اليمامة» حبيبة إلى نفسي، أترقب أخبارها، وأنتظر وصولها إلى الكويت بشوق ولهفة، وقد طال انتظاري هذه المرة حتى وصول العدد الأخير منها، فإذا هي في حلة أخرى وقد تطورت من مجلة شهرية إلى جريدة أسبوعية، وأرجو أن يكون هذا التغيير فاتحة خير للحياة الأدبية والصحافية في نجد، موطن الأدب العربي الأصيل الذي سارت بذكره الركبان، وسطعت أنواره في كل بقعة من بقاع العرب في الشرق والغرب.

واليوم عند ما يرى الشباب العربي المثقف هذه البوارق الأدبية، التي تشع من المملكة العربية السعودية، يطمئن إلى أن هذه البقاع أخذت تسترد مكانتها الأدبية القديمة.

ومما يثلج النفس أن تكون هذه الجريدة الأدبية بيد أديب عربي كبير له منزلة كريمة في نفوس القراء في شتى ديار العروبة هو الأستاذ حمد الجاسر.

في هذا العدد من «اليمامة» وهو العدد السادس والثلاثون، وصف لرحلة إلى الكويت وقد كانت كلمة موفقة خاصة ما جاء عن الصحافة وأثرها في إنهاض الشعب، وقد أعجبني هذا القول : (إن الكويت على تقدمها في ميادين الإصلاح

(*) «اليمامة» ع٤٠- الأحد ذي الحجة سنة ١٣٧٥هـ (٦ أغسطس مايو ١٩٥٦م) السنة الثالثة.

العامة محرومة من وسيلة من أقوى وسائل الثقافة والمعرفة وإنارة الأذهان، وبث الوعي وانماء الشعور، تلك هي الصحافة).

وقد جاء في هذا المقال معلومات قيمة تهم العرب خارج الكويت، إلا أن بعضها يحتاج إلى إعادة النظر، منها موت الشاعر صقر بن شبيب، والواقع أنه ما زال يعيش في داره منزويًا عن الناس، لا يخرج من منزله أبدًا، وقد جزم الأستاذ الكاتب بموته لعدم سماعه أية أخبار عنه .

ومجلة « كاظمة » التي أصدرها الأستاذ أحمد زين السقاف صدرت عام ١٣٦٧ لا ١٣٥٧هـ وصدر منها تسعة أعداد لا سبعة، ثم أقفلتها الحكومة كما جاء في المقال .

ومجلة « الايمان » كان يصدرها « النادي الثقافي القومي » لا الرياضي .

وأنتقل الآن إلى الكلمة التي نشرتموها[١] عن كتابي (في الأدب والحياة) وقد سررت لاهتمامكم بما يكتبه إخوانكم خارج المملكة العربية السعودية، وهذا التبادل الأدبي بين ديار العرب هو الذي سيجعل الأدب العربي يزدهر ويؤتي ثمره الشهي.

وعتابكم الأخوي ذكركم مؤلف كتاب « الأدب الحجازي » الذي صدر منذ عهد بعيد، تقبلته بصدر رحب لأن هذا العتاب جاء في محله . وأرجو أن تمكنني الظروف من العودة إلى كتاب « الأدب الحجازي » لأمتع النفس بما وصلت إليه النهضة الأدبية في نجد والحجاز.

وقبل أن أنهي هذه الرسالة أجد لزامًا عليَّ أن أشكر وأهنئ الشاعر والأديب الأستاذ حسن عبد الله القرشي على قصيدته الرقيقة (الرياض) المنشورة في هذا العدد الذي بين يدي .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.... (الكويت) **فاضل خلف**

---

(١) لا صلة لهذه الكلمة بالحديث عن الرحلة بل بالتي قبلها.

الخاتمة

تلك ذكريات أيام كانت – على ما لا بسها وأحاط بها من ظروف امتزجت فيها القسوة باللين – إلا أنه تُعَدُّ من أسعد أيام العمر، حيث كان التمتع بمنتهى القوة، وبأوسع آمال التطلع إلى ما هو أرحب وأهنأ في الحياة، ولا أحس أثناء اتجاهي تحدوني تلك الآمال – بما يقف في سبيل طموحي وسعيي مما يعترضني من قسوة ومشقة وعوائق، بل أقابل هذا بقوة عزم وشدة إقدام، وإصرار وتصميم.

تلك طبيعة بشرية النظر إلى الماضي – تكاد تكون عامة – ولعل ذلك الإحساس ناشئ عن أسى وأسف شديدين، منطبعين في النفوس، عند التفكر في المآل، في الاستمتاع بتذكر الماضي، وإبرازه بصورة خيالية، خير من الحاضر، وإن كان الأمر بعكس ذلك، ولعل هذا ما عناه الشاعر بقوله:

أماني من سعدى رواء على الظما   سقتك بها سعدى على ظمإٍ بردا

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أحسن المُنَى   وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا !

ورحم الله أبا تمام القائل :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام !!

المباحث العامة

فمديراً - تعييني قاضيًا في (ظباء) ونواحيها شمال الحجاز - بلدة (ظباء) وأهلها - مما حدث هناك من القضايا - جاء الفرج بفصلي من القضاء- حديث عن رؤية الهلال - في البعثة السعودية بـ(مصر) - الرياض فالأحساء - عودة لمكة مدرسًا - فمديراً لـ(المدرسة الوزيرية).

---

(١) فصلت جميع ما سبق في مذكراتي التي نشرت قسمًا كبيرًا منها في «المجلة العربية» بعنوان (من سوانح الذكريات) من تاريخ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ إلى المحرم ١٤١٥هـ كما أفردت الحديث عن ينبع في كتاب نشرته بعنوان «بلاد ينبع» ذكريات ومشاهدات، وتحدثت عن (ظباء) في (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد السعودية».

(٢) لي مؤلفان موسعان في هذا الموضوع هما «في سراة غامد وزهران» نشر عام ١٣٩١هـ و«في شمال غرب الجزيرة» نشر عام ١٤٠١هـ.

رحلة أخرى لهذه البلاد – في ضيافة أمير الدوادمي حمد بن جبرين – خبر وفاة فيصل – رحمه الله في ربيع الأول ١٣٩٥– في (يديع) الحويط – مع (السهلي) أمير المنطقة . (١٠٣–١٠٦)

رحلة إلى بلاد (العلا) – وادي القرى قراه وسكانه – فروع قبيلة (بلي) – قبيلة (الفقراء) من (عنزة) – وأبحاث تاريخية وجغرافية عن الوادي . (١٠٧–١٣٢)

في أرض الكنانة (١٣٣-١٥١)

أول رحلاتي إلى القاهرة – التحاقي بـ(كلية الآداب) بمساعدة (طه حسين) – الحرب العالمية الثانية وعودة البعثة – ثم رجوع من رغبة إكمال الدراسة فلم أرغب العودة – ترددي على القاهرة – زيارة (مجمع اللغة العربية) – تعييني عضواً مراسلاً – انتخابي عضواً عاملاً–[١] قوة صلتي بالمجمع – في (دار الكتب) بعض من عرفت فيها كالشيخ إبراهيم آطفيش وغيره – صلتي بآخرين من العلماء والباحثين – في (معهد المخطوطات) – عن مديريه ومنهم الدكتور صلاح الدين المنجد – خبر تنحيته عنه – استئجار مسكن (شقة) . (١٣٣–١٤٩)

في مدينة الاسكندرية – حضور المؤتمر الثقافي الثاني سنة ١٣٧٢– حول موقع عكاظ[٢]– التعارف بيني وبين الدكتور عبدالوهاب عزام ومحمد حسن الزيات وأحمد أمين ومحمد خلف الله أحمد ومحمود توفيق دياب، ومحمد شفيق غربال وعبدالله القصبي في الوفد العراقي . (١٤٩–١٥١)

---

(١) عن استقبالي في (المجمع) عضواً عاملاً انظر « العرب » س٦ ص٤٨١ .

(٢) لم أفصل الخبر هنا بل في موضع آخر .

مع الإخوة في السودان (١٥٢-١٨٩)

في القنصلية السودانية في القاهرة – في مكتب الخطوط السودانية- فندق (السواحلي) في الخرطوم – في القنصلية السعودية لتسجيل الجواز – وفي السفارة وممن لقيته فيها محمد الفهيد –رحمه الله- قابلته في مكتب عبدالله عالم – حسن استقبال السفير عرب سعيد هاشم – ووجدت عنده مفتي السودان الشيخ عوض صالح – حديث عنه وعن السفير ووالده – الانتقال إلى (فندق السودان) بمسعاه – جولة في الشارع الرئيس – إلى (أم درمان) – وصف المدينتين – الجو فيهما – في (حديقة الحيوان) – حديث مفصل عن مجلة «الشرقية» – وعن تاريخ السودان القديم – زارني الأخ محمد الفهيد ومعه عثمان الصالح الفريح – وعلي الحمد أبا الخيل عثمان يقدم رسالة عن الشاعر (التهامي) لنيل درجة (الدكتوراه) – وعلي مدير مكتب الملحق العسكري – حديث عن الدكتور عبدالله الطيب – سؤال الأستاذ عون الشريف عن صلة الرئيس النميري بقبيلة بني نمير فأجابني – لما علم بذلك من السفير قال: لا أدري ولكننا من الأشراف – زيارة (بيت الخليفة في أم درمان) – (مكتبة أفريقيا) وحديث مع صاحبها – مسجد الملك فاروق أكبر مساجد الخرطوم – حول الكتب والطباعة – في ضيافة السفير – حول العبث بالمخطوطات – صيانة الغربيين لها – وآخر في السياسة – إلى الدكتور عبدالله الطيب – مع تلميذه الأستاذ عثمان – حديث ذو شجون الأدب والأدباء – مكتبة السفير وكرمه- ذكرى أبي سليمان الشبيلي – في بيت أبي فهيد مع الإخوة- حسن الاستقبال من السفير فمن معه – وتشعبت الأحاديث – عون الشريف أدبه ولطفه- دراسته ومؤلفاته – مع الأستاذ الفريح استجابة لدعوة الدكتور الطيب – استمتعنا بكرم النفس وبكرم اليد – في (مكتبة جامعة الخرطوم) – في المطار- تفتيش الأمتعة- ثقافة الفتاة السودانية.

في بلاد الشام (١٩٠-٢٦٠)

لبنان : من أولى رحلاتي إليها ، في مطار الرياض، عبدالله بن ادريس، ومنصور الدخيل وحديث عن المكتبات والمخطوطات، ومكتبة الشيخ عبدالله العنقري، في الطائرة مع الدكتور عبدالوهاب عزام. وأحاديث عن الأدب والأدباء. ورحلته إلى الكويت وإثارة (كاظمة) لشجنه، في مطار الظهران، الاستاذان أحمد جمال، وعبدالعزيز التركي، لا أثر للعربية في أسماء أمكنة المطار، رجاء موجه للشيخ عبدالرحمن القصيبي بهذا الشأن، الدكتور عزام والأستاذ أحمد سيتوجهان لحضور الندوة الإسلامية في (جامعة لا هور) في (باكستان) توديعهما والسفر إلى لبنان، في مطار بيروت، ثم في (فندق الخيّام) وحديث عن الفنادق (مكتبة الجامعة الأمريكية) سهولة المعاملة، ترددي على المكتبة، بعض ما اطلعت عليه من كتبها. (١٩٠)

حول لبنان، إقامتي في لبنان مضطراً، إنشاء (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) إصدار مجلة « العرب »، صلتي بعدد من مشاهير الأدباء كعلي جواد الطاهر، إبراهيم السامرائي، وهلال ناجي وغيرهم، استقرار بهذه البلاد الطيبة محمودة العقبى، وقويت صلتي بكثير من العلماء والمثقفين، كـ(آل نويهض) وفؤاد افرام البستاني، وقسطنطين زريق، وجبرائيل جبور، وجبران بخغازي ونبيه أمين فارس، وإحسان عباس، ومحمد يوسف نجم، ومحمود الغول ووداد القاضي، وخير الدين الزركلي، وقدري قلعجي، ومن المستشرقين (كريستوفرتُل) من (السويد) الذي نشر كتاب « الجوهرتين » للهمداني عن المعادن والتعدين عند العرب، و(سرجنت) مستشرق (٢٠٢)

إنجليزي له دراسات عن جنوب الجزيرة (حضرموت) وآخرون . .
وعرفت نكرة مجهولة، نال في صحافة بلادنا شهرة عالية باسم
(الدكتور . . . الشريقي) – حديث طويل عنه – عبدالله الطريفي –
أول مقال له نشر في « اليمامة » حديث حول مصادرتها .

سورية : صلة النجديين بالبلاد السورية، أول زيارة لدمشق، في (٢١٨)
(المجمع العلمي العربي)، حديث عن المعري وشرحه لشعر ابن أبي
حصينة، زيارة الشيخ محمد بهجة البيطار، وكلمة عنه، الأستاذ
أحمد راتب النفاخ، وآخرون من الأدباء، زيارة حمص وحلب
وحماة والمعرة وغيرها .

أيام في الأردن : حضور (المؤتمر الثالث لتاريخ الشام)، في مطار (٢٢٢)
عمَّان، جولة حول الفندق، عند تسجيل جواز السفر، في مكتب
الملحق الثقافي، الإخوة الذين اجتمعت بهم في (المجمع)، من أخبار
صحف اليوم (وفاة الفيلسوف الوجودي (ساتر) و(زواج الأميرة
بسمة الثاني)، حديث حول هذا عن (الكفاءة في النسب) توسع
في الحديث عن هذا، الأستاذ ركس بن زائد العزيزي، حول (مجمع
اللغة)، الأستاذ عيسى الناعوري، (فندق تايكي)، ممن حضر المؤتمر
الإخوة عبدالله الصالح العثيمين وعبدالله الشبل، وعبدالفتاح أبو
علية، وكثيرون من البلاد الأخرى، المؤتمر وافتتاحه من الملك ثم
الدكتور ناصر الدين الأسد، رئيس الجامعة، جول محاضرة الدكتور
محمود الغول، ليلة سعودية في بيت عبدالرحمن الحمد الشبيلي،
وفاة الأستاذ محمد حسن عواد، وفاة عبدالكريم جرمانوس، زيارة
إخوة من السفارة، في مكتبة الجامعة، بعض ما اطلعت عليه من
الكتب، الدكتور عبدالله العثيمين منقبًا عن المخطوطات المتعلقة

بتاريخ المملكة، ممن اجتمعت به هذا اليوم الحبيب اللمسي، محمد المطوي العروسي، إحسان عباس، وداد القاضي، شاكر مصطفى -المصري- جبر عبدالفتاح، له مؤلف عن بلاد عسير، انتهاء المؤتمر، كلمة عنه، جهد الدكتور عندنان البخيت المتميز فيه، حفاوة الدكتور الأسد، في مطار عمان (عنبر جُودة) والشيخ عوض الله صالح مفتي السودان، ولطفه ودعاباته، عودة إلى القاهرة.

وماذا في بلاد الرافدين ؟!(٢٦١-٢٧٥)

الروابط الأسرية والقبلية بين سكان هذه البلاد وسكان نجد، إلى البصرة الفيحاء، في (سفوان)[١]، الحدود والقيود، بقاء (أبي سهيل) حتى اضافة اسم (العراق) في جواز سفره، الوقوع في شباك (كرم) أبي سليمان الشبيلي، في مدينة البصرة، في بغداد، الالتقاء بمحمد بهجة الأثري، وتقي الدين الهلالي، وغيرهما عباس العزاوي ومكتبته، تكرر اللقاء به، مكتبة الأب انستاس الكرملي وبعض مخطوطاتها، مكتبة المجمع العراقي، الاجتماع بالأثري وجواد علي ومصطفى جواد وعلي حسين، لم أتمكن من الاطلاع على ما تحويه مكتباتهم، في زيارة الشيخ محمد رضا الشبيبي في منزله، هو مثال في لطفه وحسن استقباله، ليس في مكتبته ما هو نادر - من غير الكتب الدينية سوى « ديوان ابن المشد »، في (المجمع العلمي العراقي) وإضافة اسمي لأسماء أعضائه المراسلين، ورئيسه إذ ذاك الدكتور منير القاضي، زيارة

---

(١) جنى على هذا الاسم التحريف فصار ينطق (صفوان) ومعروف التعاقب بين حرفي السين والصاد، ولكن ليس هذا منهما لتغير المعنى كما في اسم (صالح) لا يجوز نطقه بالسين.

بغداد أخيراً بمناسبة مرور ألف عام على إنشائها وعلى إقامة (مهرجان الكندي) في عهد عبدالكريم قاسم، وصف لما جرى في هذه الزيارة، وبعض المضايقات لعدم مقابلة إخواني، بعض الأحبة في هذه البلاد ممن عرفتهم أخيراً.

في اليمن السعيدة (٢٧٦-٢٩٨)

بين صنعاء و(مأرب) تميز بلاد اليمن بآثار الحضارة القديمة، لم تَبْدُ البلاد وفق ما كنَّا نتخيلها عليه من الخصوية فهل آلاف السنين غيرت مظاهر الحياة؟، في (فندق شرتون) كان النزول، لم يرغب الرفيق (أبو سهيل) مقابلة أحد وعلى هذا كان السير، تسجيل جوازي سفرنا في (القنصلية السعودية) اعترض هذه الرغبة، السفير في إجازة، والقائم بعمله عبدالعزيز بن عبدالله أبو عباة، كلمة عن السفير محمد بن علي القفيدي، استمر اخونا أبو عباة بتعهدنا، زيارة (وادي ظهر) متنزه المدينة، وصفه، في منطقة (ذمار) مع المهندس محمد بن أحمد الموسى مدير مكتب المشروعات في اليمن الذي أكرمنا بالدعوة للزيارة، الطريق إلى (ذمار)، زيارة (حمام علي)، وصف منطقة (ذمار)، الطريق إلى الحمام في غور تهامة، وصفه كما بدا لي، في داخل صنعاء، في الجامع الكبير حيث تقع المكتبة العامة، في المكتبة، لا ترتيب ولا عناية، «فهرس مخطوطات المكتبة الغربية في الجامع» مع ضخامته ليس متقناً، بعض ما اطلعت عليه من المخطوطات، زيارة سد مأرب، مع الصديق محمد أنعم غالب ويوسف محمد عبدالله، وصف الطريق، مشاهدة المنطقة والسد الحديث فيها، وآثارها، اللقاء بالشاعر المشهور أحمد عبدالمعطي حجازي، بعض الإخوة اليمنيين ممن سعدت برؤيتهم، نظرة عامة لتأثير الظروف العامة في حياة هذه البلاد.

إلى سلطنة عُمَان(٢٩٩-٣٢٠)

وبترتيب من أبي (ناصر) في مطار عُمان كان الاستقبال من الشهمين الكريمين سفير بلادنا والملحق التعليمي، ثم السكن حيث اختار الرفيق عبدالله الخيال[١] في (فندق شرتون عمان) ثم الانتقال إلى (فندق انتركنتننتال)، لمحة عن اسم (مسقط) و(مَطْرَح)، جولة في المدينة (دار المخطوطات والوثائق) من مخطوطاتها، اجتماعي بالشيخ سالم بن حمود السيابي، حول (الجبل الأخضر) وما حوله من القرى، إلى بلدة أدم، في (أدَم) (نزوى قاعدة الإباضية) اعتماد حياة القرى على مياه (الأفلاج)، تغلب على أهل عمان القناعة.

في الإمارات العربية المتحدة (٣٢١-٣٦١)

إلى مدينة (أبو ظبي) : في (فندق انتركنتننتال) البحث عن (المكتبة العامة) في (وزارة الإعلام)، فخامة في المظاهر، إلى مدينة (العين)، في (المتحف) لم أهتد لمعرفة موقع (تؤام)، وصف (مدينة العين)، في بلدة (البُرَيمي) هل هي (تؤَام) واحة البريمي، وصف مدينة (أبوظبي)، في السفارة السعودية، اجتماع بعدد من الإخوة، الذهاب إلى (المجمع الثقافي)، مع الأخ محمد بن مقرن، اكرمني بالزيارة الشيخ الدكتور عبدالعزيز بن محمد الحُمَيْر، زيارة الشيخ أحمد بن عبدالعزيز آل مبارك، الاستجابة لدعوة السفير صالح الفوزان، الاجتماع بعدد من الإخوة عنده، منهم عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن إدريس من (شقراء)، ووالده من معلمي في الصغر، الاعتذار للسيد محمد الهاشمي مستشار الشيخ زايد بن سلطان

---

(١) توفي رجمه الله - انظر « العرب » س ٢٤ ص١٢٣ .

عن زيارة الشيخ لاشتغالي بالإعداد للسفر، حفلة السفير لم تقتصر على الإخوة في السفارة، بل شملت بعض السفراء والوجهاء، في (مطار الظهران) !!

إلى (دبي) : مطار (أبو ظبي) والرفيق أبو فهد الخيال، (مطار دبي) وتنظيمه، في (القنصلية السعودية) القائم بالعمل فيها، جولة في المدينة، تشابك الحدود بين الإمارات مع تقاربها، مظاهر المدينة وتغاير سحنة السكان وألوانهم. (٣٤٠)

في (الشارقة) : زيارة معرض الكتاب الخامس في الشارقة، الالتقاء ببعض أبنائنا كالملحق التعليمي، حاكم الشارقة ألمع شخصية بين حكام الإمارات ثقافة وعلمًا وأدبًا، نال (الدكتوراه) في التاريخ، أسرة القواسم من أوائل المستجيبين للدعوة الإصلاحية ومناصريها، زيارة الأمير، كتاب (لوريمر) عن الخليج وضرورة تعريبه تعريبًا صحيحًا[1]، (الشارقة)، الاسم والمدينة، جامع فيصل، بين (الشارقة ودبي)، بعض القرى في الطريق، موقع (دبا). (٣٤٦)

خور فكّان الفجيرة: وصفها، العودة إلى الشارقة. (٣٥٥)

رأس الخيمة (جلفار) : وصف المدينة، معهد تابع لـ (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، اسم (رأس الخيمة) سكانها القواسم. (٣٥٨)

أم القيوين: كيف ينطق الاسم، وصف المدينة والسكان، معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مساحة الإمارة وموقعها. (٣٦٠)

عَجّمَان: موقعها سكانها، الغاية من زيارة الإمارات العربية في تقسيماتها الإدارية الذي من آثار الاستعمار الأوربي. (٣٦١)

---

(١) انظر عنه « العرب » س١٤ ص٦٢٨.

(قطر) (٣٦٢-٣٦٧)

صلاتها ببلاد نجد، مناصرة حكامها للدعوة الإصلاحية، الشيخان ابن مانع وابن محمود وآثارهما، اتجاه حكام قطر لنشر كتب العلم، سكان البلاد القدماء، شهرة البلاد قديمًا، بعض مدنها، سكانها في العهد الحاضر، نسب آل ثاني، صلة الشيخ قاسم بن ثاني بآل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تكرار زيارتي لهذه البلاد، حضور مؤتمر السيرة النبوية، حديث عن الشيخ ابن محمود، الشيخ فالح بن ناصر آل ثاني، عناية الأمراء بالأدب والأدباء، عبدالله بن درهم، محمد بن حسين المرزوقي، تعريب كتاب «دليل الخليج» جهود مشكورة في سبيل نشر المؤلفات النافعة وتوزيعها مَجَّانا.

في بلاد البحرين (٣٦٨-٣٧٢)

الاسم القديم للبلاد (أوال)، الرفيق عبدالله السليمان المزروع، في ضيافة حسن بن عبدالعزيز العجاجي، مقابلة الشيخ سلمان، عرفت في بيت العجاجي الشاعر إبراهيم العريّض، في بيت سعد الشملان، ابنه عبداللطيف طالبًا في مصر سنة ١٣٥٨هـ، وابنه عبدالعزيز مدير (نادي العروبة) في البحرين، زيارة أديب البلاد الشيخ محمد بن خليفة، ترددي ليلاً على (نادي البحرين)، فكرة أحمد صبري شويمان بعض معتنقيها في البحرين علي محمد علي التاجر، وحديث معه حولها، والده من علماء البحرين، مكتبته حافلة بالمؤلفات، والشاعر عبدالله بن علي آل زايد.

ورحلة أخرى إلى البحرين والرفيق عبدالكريم بن جهيمان، في (فندق عبدالنور)، في إدارة (مجلة صوت البحرين)، وحديث مع أحد محرريها عبدالرحمن الباكر استفزه فظن بنا الظنون، عزمي

على اصدار صحيفة في الرياض، نشرت صوت البحرين كلمة عن ذلك غمزت وطنيتي، في (بيروت) كرر الأخ التاجر عدم مصاحبة هذا الجاسوس، تكرر اجتماعي بالتاجر بعد ذلك.

إلى بلاد الكويت (٣٧٣-٣٩٨)

في الطريق إلى الكويت، ثلاثة رفقة، في مطار (البحرين)، جولة في (المنامة) و(المحرق) كان الهرب من الحرّ، في البحرين صحيفتان ولكنهما على جانب كبير من الحرية، في (مطار الكويت) وفي (فندق الخليج الكبير) كان النزول، العمران وآثاره الظاهرة، حقل (أوارة)، أول صحفي في الكويت، الصحافة والطباعة والتعليم، العلماء والمثقفون، الرقابة على الصحف، الماء في الكويت، زيارة أحد المستشفيات.

رحلة أخرى إلى الكويت: بواعثها، في المطار، لم يستقبل الوفد سوى الممثل التجاري السعودي، مفاجآت أخرى، في (معرض الطخيم التجاري)، مقابلة أحمد زين السقاف وكيل وزارة الإعلام، حديث عن أول بعثة طلاب إلى مصر، الاستعداد لمقابلة الشيخ (العود)، تملصي من المرافق وذهابي وجهة أخرى، (قطعت جهيرة قول كل خطيب)، بيان من الحكومة البريطانية وإحدى بوارجها الحربية قد رست بقرب الميناء، انتهت مهمة الوفد الصحفي، قمت بزيارة عالم الكويت الشيخ يوسف القناعي، وتوالت دعوات الاحتفاء بالوفد الصحفي، بعض الرفقاء، عودة للحديث عن الصحافة، المكتبة العامة، مجلة «العربي»، لجنة إحياء التراث، نقد بعض منشوراتها، كلمة عن الوفد، على هامش الرحلة. (٣٨٣)

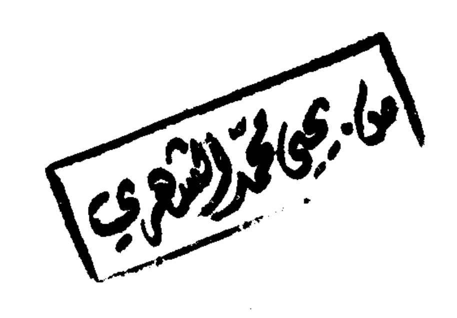
الخاتمة (٣٩٩)

استدراك
حول نسب (آل ثاني) -ص ٣٦٢-

كنت قد استوضحت من الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن زيد آل محمود، عما وقع في كتاب «دليل الخليج» من نسبة (آل ثاني) إلى (آل ابن علي) فأجاب بما نصه: (أما فيما يتعلق باستفسارك حول نسب آل ثاني، فما ذكرته من كونهم من المعاضيد من الوهبة هو الصحيح، وهو الذي يذكره كبار أسرة آل ثاني وبقية أسر المعاضيد في قطر. وما ورد في «دليل الخليج» يبدو أن فيه لبس. وقد استفسرت من الشيخ جاسم بن ثاني آل ثاني وهو من كبار الأسرة ومن المهتمين بالتاريخ والأنساب، فأفادني بأن بلدة (الفويرط) سبق أن سكنها المعاضيد بما فيهم (آل ثاني) وسكنها (آل ابن علي) أيضاً. وأكد لي أن المعاضيد ليسوا من آل (ابن علي)، وأن المؤلف يحتمل أنه وهم حيث أن هناك فخذ من (ابن علي) وهم (آل ابن مقبل) يذكرون أنهم من المعاضيد، ودخلوا في (آل ابن علي) لجوار أو حلف معهم (انتهى كلام الشيخ جاسم).

وأظن أن هناك احتمال الخطأ من المترجم علماً بأن المترجمين الذين قاموا بالترجمة في ديوان حاكم قطر الأسبق لم يكونوا على علم بالأنساب، حيث كانوا من المتخصصين في الترجمة، ومن جنسيات عربية غير خليجية، ولا يستبعد أن يكون هناك خطأ في الترجمة أدى إلى جعل المعاضيد فرع من (آل ابن علي) بدلاً من المغايرة بينهم.

وعلى كل حال فالمؤكد أن المعاضيد من الوهبة من تميم حسبما هو مستفيض ومستقر بين قبائل قطر والجزيرة العربية) انتهى.



صدر حديثاً:



صفحات عن تاريخ نجد في العهد الأموي وفيها ما هو مجهول أو غامض

أصول الخيل العربية الحديثة

ومكان استقرارها، وتنقلها في الجزيرة وخارجها، وذكر القبائل التي لاتزال تحتفظ ببعضها، وأسماء تلك الأصول وفروعها وبعض الخيل المشهورة، وذكر من نسبت إليهم تلك الأصول.

معجم
أسماء خيل العرب وفرسانها

الخيل القديمة، وأصول تلك الخيل ومكانتها في حياة العرب مع ذكر طرائف تتعلق بها، وأسماء تلك الخيل، بالإضافة إلى إضمامة في تحديد مواضع الأيام والوقائع الوارد ذكرها في أخبار الخيل.

يطلب هذان الكتابان من إدارة مجلة «العرب» ص.ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١

هاتف ولاقط (فاكس) ٤٦٢١٢٢٣

ردمك : ٢-٢-٩١٩٧-٩٩٦٠

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣